

نوح

من وحي القرآن والسنة

تأليف

أ. د. عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

المحتويات

5	المقدّمة
30	نوح من وحي القرآن
36	صفات النبي نوح
167	نوح الأب الثاني للبشرية:
175	ابن نوح:
189	زوج نوح:
194	دعوة نوح ودعائه:
205	. دعوة نوح وركائزها:
208	موقف قومه من دعوته لهم:
219	بين الدّعوة والدّعاء:
228	الدعاء على قومه:
231	- الشكوى:
234	ارتقاء نوح في شكواه:
244	الجدل بين نوح وقومه:
248	جدل قوم نوح مع نوح:
257	جدل نوح مع قومه:
268	صبر نوح:
285	الصبر:
288	حكم الصبر:
290	أنواع الصبر:
292	من فضائل الصّبر في القرآن الكريم:
296	من مجالات الصّبر:
299	الإندار والإبانة:

302	نوح نذير:
313	المبين المطلق والمبين النسبي:
324	نوح مُتَبَيِّن:
327	نوح مبین:
335	ميثاق نوح:
341	اصطفاء نوح:
351	الوحي إلى نوح:
359	سفينة نوح:
363	صناعة السفينة:
368	الإعداد:
372	الرَّكوب والحمل:
376	المجرى:
382	المرسى:
383	الاستواء:
385	الهبوط:
398	دعاء نوح:
401	أسباب الدعاء:
408	مضامين الدّعاء:
411	نتائج الدّعاء:
416	الطوفان:
418	حدوث الطّوفان:
419	التقاء الماء:
420	حركة الطوفان:
422	العاصم الوهم:

- 433 انتهاء الطوفان:
- 437 مترتبات الطوفان:
- 438 ما بعد الطوفان (تأسيس حياة الجديدة):
- 444 الحاجة إلى الرسالة:
- 448 مجتمع قوم نوح وكفرهم:
- 457 موقف قوم نوح:
- 489 نوح من السنة
- 489 نوح مثال للاقتداء:
- 492 شهادة محمد في نوح:
- 493 وصية نوح:
- 494 إبداع السفينة:

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على نوح وعلى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، ربّ اشرح لي صدري، ويسّر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي.
أمّا بعد:

كتابنا هذا في مجال بحثه "نوح عليه الصلاة والسلام"، هو جهد موسوعي ضمن طائفة من المباحث وفق رؤية ودلالات استشرفت مفاهيم جديدة، وأوضحت أبعادا كانت غامضة، وأظهرت مقاصد كانت خافية على البعض، كان الفضل فيها لمن سبقنا بما مهدوا لنا من وعورة مسالكها.

وقد يُحِيل إلى كثير من الناس، أنّ هذا الوجه من البحث سهل ميسر، وأنّ طريقه آمنة معبّدة، وأنّ الإقدام عليه لا تزلُّ به قدم، ذلك أنّ علماءنا رحمهم الله مهّدوه كلّ ممهّد، وما تركوا لنا ولأمثالنا ما نزيد، ومع ذلك لكل عصر لغة ومفهوم والكمال دائما لله وحده.

إنّ هذه النظرة المبنية على مثل هذه الآراء، كان لها الفضل أيضا في توخي الدقة فيما نقول، والغوص في أعماق المعاني وظلالها التي منحتنا دلالات أوصلتنا إلى مفاهيم تدعمها الحجّة والبراهين في المنهج التحليلي الذي اتخذناه عمادا لنا.

لقد كان التعامل مع موضوعات البحث قائما على فلسفة الفكرة بنقد دقيق متوازن، بالمعنى الذي يقوم على توضيح أبعاد القضايا بكيفية انبثاق الجزئيات من كلياتها، وعلاقة هذه الكليات بجزئياتها وما يتجزأ منهما، وما يربط بينها وصولا إلى غاية هذا الترابط الذي يبين

أنّ الإنسان جزء من الكون، والكون مسخر للإنسان عندما جعله الله تعالى خليفة فيه.

ولذا؛ فقد كان الاهتمام منصبا على الجوهر قبل العَرَض، والمعنى قبل المبنى، والعقل والحسّ قبل المحاكاة والتقليد.

فلم يكن من السهل خوض هذا الغمار على كثرة ما كتب فيه، دون أن نوضّح القضايا الشائكة، والمسائل الخلافية في الفكر والرأي، والأوليات والمرتبات عليها بعد ذلك.

إنّ الإرث الثقافي العظيم لهذه الأمة من الكم والكيف في النوعية والمادة العلمية، يترتب عليه مسؤوليات جسام، فكلمّا كان الإرث ثقيلا، وجب على الوارث أن يبذل جهدا مضاعفا ومكافحة عظيمة، لأنّه ينهل من ذلك الإرث بما يوائم الحاضر خدمة للمستقبل وفق رؤيته الآنية انطلاقا من عقيدة يؤمن بها. ولذا توخينا الدقّة في إدلاء الرأي والحرص على آراء الآخرين ما استطعنا إلى ذلك سبيلا بما لا يقدر ما قيل، ولا يمدح ما نقول.

فمن الموضوعات التي عاجلها بحثنا هذا، قضية الأبوة الثانية لبني البشر والخوض في خضمّ هذا الموضوع بالأدلة النقلية التي وصلنا من خلالها إلى النتائج التي سيقف عليها القارئ في ثنايا البحث مثل:

. هل أنّ نوح هو الأب الثاني للبشر؟

. هل أنّ التسمية دلالة على الحدث؟

. هل أنّها دلالة حقيقة؟

. أم أنّها دلالة مجازية؟

. أم لأنّ نوح أعظم الرّسل بعد آدم (قيل هو الأب الثاني للبشر)؟

إنّ مجمل هذه الاحتمالات التي أثارها هذه التساؤلات واردة، غير أنّ واحدا منها يكون له الترجيح على بقية الاحتمالات عندما تتوافر

الأدلة التي تعززه وتمنحه الأرجحية على ما سواه من احتمالات سابقة.

إنّ كلّ هذه المعطيات كانت حاضرة أمامنا في تناول القضايا التي عرضت لنا في قصّة نوح عليه الصّلاة والسّلام، منها على سبيل المثال لا الحصر:

. العقيدة.

. التكليف.

. العاطفة.

. الدّعوة.

. الأسلوب.

وقد كان لنوح عليه الصّلاة والسّلام معجزات ولكن على رأسها كانت السّفينة المعجزة، التي لم يخلق مثيلا لها، وهي لم تعدّ للمقارنة، من حيث الحجم أو السّرعة، بل من حيث تحدّي الصّعاب التي لا تطيقها الجبال الرّاسيات، وهي التي أصبحت مضرب مثلا للصّمود والمكانة الرّفيعة؛ فعن حنّش الكِنَانِيّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ يَقُولُ: "أَنَا أَبُو ذَرٍّ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ: «أَلَا إِنَّ مَثَلَ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ، مَنْ رَكِبَهَا نَجَّى، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ»¹.

ويقال أنّ سفينة نوح عليه الصّلاة والسّلام قد طافت بالكعبة أسبوعا، عن عكرمة، عن ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "كَانَ بَيْنَ دَعْوَةِ نُوحٍ وَبَيْنَ هَلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ ثَلَاثُ مِائَةِ سَنَةٍ، وَكَانَ فَارَ التَّنُورِ بِالْهِنْدِ، وَطَافَتْ سَفِينَةُ نُوحٍ بِالْبَيْتِ أُسْبُوعًا"².

¹ فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل، 2، 785.

² المستدرک علی الصحیحین للحاکم، 2، 514.

ويقال أنّ سفينة نوح قد استوت على الجودي يوم عاشوراء، عن الزراري، قال: "تاب الله تعالى على آدم عليه السلام في عشر من المحرم، وهو يوم عاشوراء، وفيه استوت سفينة نوح عليه السلام على الجودي، وفيه عبر موسى عليه السلام البحر، وفيه كلم الله موسى، وفيه تاب الله عز وجل على قوم يونس، وفيه أخرج الله يونس عليه السلام من بطن الحوت، وفيه أخرج الله تعالى يوسف من الجب، فمن صام ذلك اليوم، كان كمن صام ستين سنة"43. وقال قال قتادة: "أبقى الله سفينة نوح حتى أذركها أوائل هذه الأمة"5. أما معمر فقال: "وبلغني أنّ سفينة نوح طافت بالبيت سبعا حتى إذ أعرق الله قوم نوح رفعة، وبقي أساسه، فبؤاه لإبراهيم فبناه بعد ذلك"6، فذلك قول الله: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ}7.

حملت السفينة المعجزة على ظهرها من كل زوجين اثنين، {حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور فقلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل} وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين}8.

ويقال أنّها حملت على ظهرها ثمانون رجلا وأهلهم، وقد أقاموا على ظهر السفينة مائة وخمسون يوما، عن ابن عباس، قال: "كان مع

³ ترتيب الأمالي الحميسية للشجري، 2، 120.

⁴ المختصر النصيح في تهذيب الكتاب الجامع الصحيح، 4، ص 330.

⁵ المسند الموضوعي للكتب العشرة، 8، ص 464.

⁶ مصنف عبد الرزاق الصنعاني، 5، ص 94.

⁷ الحج 26.

⁸ هود 40 . 42.

نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ ثَمَانُونَ رَجُلًا مَعَهُمْ أَهْلُوهُمْ، وَأَتَمَّهُمْ كَانُوا أَقَامُوا فِي السَّفِينَةِ مِائَةً وَخَمْسِينَ يَوْمًا، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَجَّهَ السَّفِينَةَ إِلَى مَكَّةَ، فَدَارَتْ بِالْبَيْتِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ وَجَّهَهَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْجُودِيِّ⁹ قَالَ: فَاسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ فَبَعَثَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْعُرَابَ، لِيَأْتِيَهُ بِخَبَرِ الْأَرْضِ، فَذَهَبَ فَوْقَ عَلَى الْجَيْفِ، وَأَبْطَأَ عَنْهُ، فَبَعَثَ الْحَمَامَةَ فَآتَتْهُ بِوَرَقِ الزَّيْتُونِ، وَأَطَّحَتْ رِجْلَيْهَا بِالطِّينِ، فَعَرَفَ نُوحٌ أَنَّ الْمَاءَ قَدْ نَضَبَ، فَهَبَطَ إِلَى أَسْفَلِ الْجُودِيِّ، فَابْتَنَى قَرْيَةً، وَسَمَّاهَا ثَمَانِينَ، فَأَصْبَحُوا ذَاتَ يَوْمٍ، وَقَدْ تَبَلَّبَلَتْ أَلْسِنَتُهُمْ عَلَى ثَمَانِينَ لُغَةً، إِحْدَاهَا الْعَرَبِيَّةُ، قَالَ: فَكَانَ لَا يَفْقَهُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَكَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعَبِّرُ عَنْهُمْ⁹.

نعم أن نوح مبدع سفينة النجاة، ولهذا فالإبداع صفة من صفاته، ذلك لأنه استمد صفة الإبداع من المبدع المطلق جلّ جلاله، الذي أبداع كل شيء وهو يبدع كونه الخلاق، أنه المبدع بالأمر لا بالعمل؛ فالعمل يتم على أيدي المخلوقين، أما الخالق إذا أراد شيء يقول له كن فيكون، {بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 10.

ولأنه البديع، فالإبداع صفته، ولأن نوح نبي مرسل من عند الله ليكون خليفة ويحرض على الاستخلاف في الأرض؛ فكان خير خليفة يعمل ويبدع بيديه حتى أبداع تلك السفينة الآية (سفينة النجاة) ولهذا فهو مبدع كونه استمد هذه الصفة من خالقه المبدع المطلق جلّ جلاله.

⁹ أخبار مكة للأزرقي، 1، ص 52.

¹⁰ البقرة 117.

ولهذا ليس بغريب على المؤمنين به وموحيديه أن تكون عقيدتهم إن الله جلت قدرته بديع لعيسى عليه الصلاة والسلام من غير أب، وليس بغريب على من يريد تحقيق الخلافة في ملك الله وبيدع فيها لمصلحة خلق الله، ويكون خلاقا في الأرض ليستخرج خيرها ولا يفسد فيها ببدعة سوء سواء أكانت بدعة قولية أم فعلية، والخليفة المتخلق بالاسم البديع يصلح الأرض بإبداع الجديد المفيد وهذا تخلقا بصفة البديع المطلق فيصبح بديعا بالإضافة.

والبديع المطلق هو الذي لا مثيل له، وهو المنشئ المبدئ لكل شيء على غير مثال، وهو الواحد الأحد المستحق للعبادة، وهو الواحد الذي يستحيل في حقه الوجود لأن ذلك تبعيض وتجزئ، وهذه ليست من صفات الله تعالى.

والبديع بالإضافة هو الذي يقبل أن يكون له مثل إذا سار على المنهج الصحيح وهو المنشئ للجديد بالاستفادة من خلق الله وإبداعه في الأرض، وهو الواحد القابل للكثرة لأنه بإبداع المجموعة تتحقق الخلافة الجماعية فتكون الخلافة خلافة أمة لا خلافة فرد مع جواز أن يكون الفرد محفز للجماعة بريادته وقيادته لها، وهو الموحد لله الذي لا يرى أن الله قد اتخذ صاحبة ولا ولدا لأن هذا ينتفي في حقه تعالى.

وعشاق الفساد ومخربو العمار الروحي ومفسدو الإصلاح الجمعي وحملة راية الظلام (جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ) وهو سبحانه وتعالى: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

يخبر الله تعالى أنه مع إحسانه لعباده وتودده إليهم، بآياته البينة، وحججه الواضحة فإن المشركين به بدءا من مشركي قريش وغيرهم،

جعلوا له شركاء من الجن والملائكة يدعونهم ويعبدونهم، والجن والملائكة خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، فجعلوهم شركاء، لله الخالق الأمر الناهي، وهو المنعم المتفضل بجميع أنواع النعم، الدافع لجميع النقم، وكذلك خرق المشركون فكذبوا وافتروا على الله، بأن له بنين وبنات بغير علم منهم، ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافترى عليه النقص، والله منزه عن قولهم. ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال: (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ) فإنه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، فهو (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) خالقهما، ومنتقن صنعتهما، على غير مثال سبق، بأحسن خلق، ونظام وبهاء، لا تقترح عقول أولي الألباب مثله، وليس له في خلقهما مشارك. (أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَمَنْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ): كيف يكون لله الولد، وهو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا صاحبة ولا زوجة له، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلهم في حاجة إليه في جميع أحوالهم، والولد لا بد أن يكون من جنس والده؛ والله خالق كل شيء وليس شيء من المخلوقات مشابهاً لله بوجه من الوجوه.

والبديع عند العلماء مُوجِد العین لا علی مثل، وعند أهل الإشارة الذي ليس له شيء مثله. فهذا الاسم يشير إلى نفي المثل عن ذاته، ونفي المثل عن أفعاله، فهو الأحد الذي لا عدد يجمعه، إنه الله الدائم جلّ جلاله، وهو العدل الذي جعل الصراط المستقيم معياراً للتقويم، والحقّ الذي لا يزول، والباقي الذي لا يتغير، حكمه نافذ ولا مرد له سبحانه جلّ جلاله.

و(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي مبدعهما، والابداع اختراع الشيء لا عن مادة ولا في زمان، ويستعمل ذلك في إيجادته تعالى

للمبادئ، وهو غير الصنع إذ هو تركيب الصورة بالعنصر؛ ويستعمل في إيجاد الأجسام، وغير التكوين فإنه ما يكون بتغير وفي زمان غالباً، وإذا أريد من السماوات والأرض جميع ما سواه تعالى من المبدعات والمصنوعات والمكونات لاحتوائها على عالم الملك والملكوت فبعد اعتبار التغليب يصح إطلاق كل من الثلاثة إلا أنّ لفظ الابداع أنسب لأنه يدل على كمال قدرته تعالى، والقول بتعين حمل الابداع على التكوين من مادة أو أجزاء لأن إيجاد السماوات من شيء كما يشير إليه قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} 11 ناشئ والآية حجة أنه تعالى مبدع لكل ما سواه فاعل على الإطلاق، ولا شيء من الوالد كذلك ضرورة انفعاله بانفصال مادة الولد عنه فالله تعالى ليس بوالد¹².

قال الشاطبي: أصل مادة (بدع) الاختراع على غير مثال سابق ومنه قول الله تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} 13، أي أنه بديع الشيء وخالق الأشياء منه.

ونحن نقول: الابداع شيء والاختراع شيء آخر ولنوضح ذلك: الابداع إيجاد دون سابق، دون محاولة للخطأ والصواب، إنه الخلق السليم بالكامل.

والاختراع، لا يحدث إلا بتصور مسبق، مع احتمال الوقوع في الخطأ، وهذه لا تكون من صفة المبدع المطلق جلّ جلاله.

وعليه فالمبدع بالمطلق هو الله، وهذه الصفة لا مشاركة فيها، إما الاختراع (صفة) قد تسري على ما يجده المخلوق من مصنوع على

¹¹ فصلت، 11

¹² تفسير الألوسي، ج 1، ص 482

¹³ البقرة، 117

مثال، ولهذا الابداع يوجد من غير مثال، والمخترع لا يكون إلا على مثال.

والخليفة هو الذي يبدع في استيعاب ما أبدعه الله يقينا لا شك فيه، مع إدراكه مسلمات وحجة مطلقة بأنه الحق. والمبدع بالإضافة هو الذي يعلم أنّ ما يجده من جديد هو إضافة من مبدع بالمطلق. ولهذا فالمبدع بالإضافة هو من يدرك ما أبدعه الله ويقف دونه، تأملا واستقراء واستنباطا حتى يدرك اليقين من ورائه من خلال إدراكه للكيفية التي عليها خلق وبهذا يتمكن عقله من الإدراك الذي يمدد بروح الابداع في تقوى الله فيتمكن من أدراك المجرد الذي يكمن ورأي كل علة أو سبب حتى يضيف الجديد المفيد والنافع الذي يسهم في إصلاح الأرض وإعمارها.

إذا نقول: الابداع إيجاد عن غير مثال سابق، والبديع هو مبدع الموجودات بلا مادة فهو واجدها ومخرجها بالهيئة التي تكون عليها هي كما هي.

وخليفة البديع المطلق هو الذي يبدع الحلول لمصلحة الجماعة الإنسانية لتوفير سبل الراحة لتعمير الأرض لا لإفسادها، وهنا من حق المتشدد أن يقول لنا إنّ البدعة من الابداع والابداع ضلالة والضلالة في النار، وقبل أن نرد عليه نطلب منه قليل من الصبر حتى تتضح لنا ما معالم البدعة الضالة المضلة؟ التي تهوي بصاحبها إلى النار، ولنرى الابداع المفيد النافع الذي يرقى بصاحبه وجماعته إلى أعلى رتب السعادة في الدنيا وأعلى الجنان في الآخرة فينال خير كل الخير.

البدعة:

البدعة مأخوذة من بدع الشيء بيدعه بدعا وابتدعه أنشأه وبدأه، وهي عمل ما ليس بمألوف، وقد تكون خروج عن مألوف أو متعارف عليه، وهذه البدعة قد تواجهها المعارضة وقد يواجهها التأييد كل حسب استدلالاته عليها.

"فَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ الْقَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي رَمَضَانَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلَاتِهِ الرَّهْطُ فَقَالَ عُمَرُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَانِي لَوْ جَمَعْتُ هَؤُلَاءِ عَلَى قَارِيٍّ وَاحِدٍ لَكَانَ أَمْثَلُ فَجَمَعَهُمْ عَلَى أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلَاةِ قَارِيهِمْ فَقَالَ عُمَرُ نِعِمَّتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ وَالَّتِي تَنَامُونَ عَنْهَا أَفْضَلُ مِنْ الَّتِي تَقُومُونَ يَعْنِي آخِرَ اللَّيْلِ وَكَانَ النَّاسُ يُقُومُونَ أَوْلَاهُ"¹⁴.

والبدعة بدعتان: (بدعة هدى) وكذلك (وبدعة ضلال):

فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله عليه الصلاة والسلام فهو في حيز الذم والإنكار، وما كان واقعا تحت عموم ما ندب الله إليه وحض عليه الله أو رسوله فهو في حيز المدح وما لم يكن له مثال موجود كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف فهو من الأفعال المحمودة ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما ورد الشرع به لأن النبي عليه الصلاة والسلام قد جعل له في ذلك ثوابا فقال: "(من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها) وقال في ضده: (ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها)، والحديث كما ورد في الصحيح: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَيْرٍ فَاتَّبَعَ عَلَيْهَا فَلَهُ أَجْرُهَا وَمِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْ أُجُورِهِمْ

¹⁴ موطأ مالك، ج 1، ص 340

شَيْئًا وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً شَرًّا فَاتَّبَعَ عَلَيْهَا كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهُ وَمِثْلُ أَوْزَارٍ مَنْ
 اتَّبَعَهُ غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا".¹⁵ وذلك إذا كان في خلاف
 ما أمر الله به ورسوله عليه الصلوة والسلام، ومن هذا النوع قولُ عمر
 رضي الله عنه: نَعَمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ. لما كانت من أفعال الخير وداخلة
 في حيز المدح سماها بدعة ومدحها لأن النبي عليه الصلوة والسلام لم
 يَسَنَّهَا لَهُمْ وَإِنَّمَا صَلَّاهَا لِيَالِيٍ ثُمَّ تَرَكَهَا وَلَمْ يَحْفَظْ عَلَيْهَا وَلَا جَمَعَ النَّاسُ
 لَهَا وَلَا كَانَتْ فِي زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ وَإِنَّمَا عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَمَعَ النَّاسَ
 عَلَيْهَا وَنَدَّبَهُمْ إِلَيْهَا فَبِهَذَا سَمَّاهَا بِدْعَةٍ وَهِيَ عَلَى الْحَقِيقَةِ سُنَّةٌ لِقَوْلِهِ
 عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: عَنْ الْعُرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ: "وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ
 عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْعَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا
 الْعُيُونُ وَوَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ رَجُلٌ إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُوَدِّعٌ فَمَاذَا
 تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ
 عَبْدٌ حَبَشِيٌّ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ
 الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلِيهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ
 الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ"¹⁶.

وعلى هذا فيحمل الحديث (كل مُحدثة بدعة) إنما يريد ما خالف
 أصول الشريعة، وأكثر ما يُستعمل المُبتدع عُرفاً في الذمِّ والبدعة
 الحَدَثُ وما ابْتُدِعَ مِنَ الدِّينِ بَعْدَ الْإِكْمَالِ.
 فالمبتدع الذي يأتي أمراً على شبه لم يكن ابتدأه سابقه، وبدع في
 هذا الأمر كان الأول فيه ولم يسبقه فيه أحد.

¹⁵ سنن الترمذي، ج 9، ص 285

¹⁶ سنن الترمذي، ج 9، ص 287

وعليه فالخليفة هو مبدع أعمال الخير وأفعاله، وهو المجتهد في غير معصية، وهو المضيف لما يحقق موجبات ويترتب عليه حسنات، ويلاقي قبولاً من الآخرين، وبه يتم العمار والإصلاح في الأرض. وعليه فالبديع هو ما أحدث واخترع، وإن كان نافعا ومفيدا فهو ممدوح وإن كان غير ذلك فهو مذموم.

ومع أنّ نوح نبيا هاديا للحق، ولكن وكما بيّنا في هذا البحث الموسوعي فابن نوح وكأته لم يكن ابن نبيا، ولهذا لم تكن جميع ذرية نوح وإبراهيم أنبياء أو مهتدين، بل كان أكثرهم فاسقين وكافرين ومشركين فقوله تعالى: (فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ) جاءت تبعية لتدل على أنّ البعض الآخر غير مهتدين وأولئك هم الكثرة مصداقا لقوله تعالى: (وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ).

وبناء على ما سبق فإنّ الاستغفار يُعد ضرورة للمؤمنين المسلمين وجوههم لله ربّ العالمين من حيث:

أ . لأنّ من أسمائه الحسنى الغفور الذي يتولى غفران الخطايا لمن استيقظ من غفلته وانتهى عما سلف من ارتكاب الخطايا والسيئات وتوجّه بطلبه وتضرعه للغفور، ولذلك أصبح الاستغفار رحمة للعباد وكان الغفور رحمن بهم.

ب . لأنّ الإنسان بطبعه لم يُخلق على الكمال حيث لا كمال إلا لله تعالى، فالبشر مكثرون من ارتكاب الخطايا والسيئات، ولهذا بعث الله الأنبياء الرّسل فيهم لأجل الهداية التي هي أحسن وأقوم، ولأسباب التكرارات في ارتكاب السيئات عبر الزمن من جيل إلى جيل كان الغفور جلّ جلاله باعنا للرسل في كل فترة حتى الرسالة الخاتمة والرّسول الكافة محمّد عليه الصّلاة والسّلام، قال تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا

رُسُلَنَا تَتْرَى كُلِّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا
وَجَعَلْنَاَهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ {17}.

ولأسباب كثرة الأخطاء والسيئات البشرية كان أكثرهم لا يؤمنون،
وأكثرهم لا يعلمون، وأكثرهم يجهلون، ولا تجد أكثرهم شاكرين،
وأكثرهم فاسقون، وأكثرهم يتبعون الظن، وأكثرهم لا يعقلون،
وأكثرهم مشركون، وأكثرهم معرضون لا يسمعون، فمن يعرف أمثال
هؤلاء الكثير ليس له بدُّ إلا أن يستغفر ثلاثة مرات:
مرة بأسباب أخطائه أي كلما عرف أنه على خطأ استغفر ربُّه
تعالى وعاد إلى صوابه ورشده.

ومرة كلما رأى ما يرتكبه الكثرة من عيوب وخطايا وسيئات
استغفر ربُّه ممَّا يرتكبون فهذه تدل على استمرار الصلة بالغفور المطلق
جلّ جلاله.

ومرة تدل على الاستغفار لهم كما جاء في قوله تعالى لرسول الله
محمد عليه الصلّاة والسّلام: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي
الْأَمْرِ} 18 أمر بالاستغفار لهم فيما لله عليهم من تبيّة.

ولوجود هذه الأسباب والعلل كان نوح عليه الصلّاة والسّلام على
رأس المستغفرين قال تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا
لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 19،
استغفار نوح لم يكن بأسباب ارتكابه سيئة من السيئات، فقد استغفر
الله ولم يرتكب سيئة. بل كان بأسباب العاطفة التي تربطه مع ابنه كما
كان يظن، ولذا فهو لم يعلم بالحقيقة التي عليها ابنه الذي اتضح أنه
عمل غير صالح مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ

17 - المؤمنون 44.

18 - آل عمران 159.

19 - هود 47.

إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ {20}، ولجرد أن نوح عليه الصلوة والسلام قد عرف أنه لم يعلم بحقيقة الأمر استغفر ربه على ما كان لم يعلم. وعليه فإن طلب المغفرة من الله تعالى على ما يتهيأ للمؤمن من أفكار أو فيما كان يظن، أو لما صدر منه من قول، أو لما قام به من عمل لا يليق بمن آمن بالله تعالى، أو لما ارتكبه من ذنب ثم استدرك نفسه بالالتجاء والعودة إلى الله بدلا من الاستمرار أو البقاء على ما يُحِبُّده عن إيمانه به تعالى 21.

قال تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} 22 في هذه الآية الكريمة جاء الاستغفار سابقا على التوبة وهكذا دائما التوبة تلاحق الاستغفار وهو يرتبط بها.

وعليه نوح عليه الصلوة والسلام لم ييأس ولم يقنط فقال لهم (أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ) لقد أظهر نوح استغرابه الجدلي مع قومه الذين أظهر لهم البينة ومع ذلك عُمِّيَتْ عقولهم عنها، ولهذا لا يمكن له إلزامهم وإكراههم على الطاعة، حيث لا إكراه في الدين وهذه قاعدة مفروضة اتبعها جميع الأنبياء والمرسلين في التبشير بدعواتهم لله رب العالمين، ولهذا قال: (أَنْزَلْنَاهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ).

20 - هود 46.

21 - عقيل حسين عقيل، موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في

الأرض، المحج لد الثاني، 2009، ص 227.

22 - هود، 3.

جدل نوح بلا اشتراطات إنّه جدل من أجل الإيمان بالله تعالى فهو لم يطلب شيئا لخصوصه فلا يُريد مالا ولا مركزا اجتماعيا بل يُريد مكانة عند الله مع المستخلفين في الدارين (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ).

وبالمنطق الجدلي من يأتي إلى نوح عليه الصلّاة والسّلام بإرادة، مؤمنا مسلما لا يمكن له أن يطرده، فإن طرده خالف قواعد المنطق الذي به يحتاج وكذلك سيجد نفسه مخالفا للعرف بين الناس العادلين في الأرض، لذلك قال: (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَأُوا رَحْمَةً).

وصل نوح إلى نتيجة وهي:

إنّ الجهل كان مغالبا لقومه على اتباع الحقّ، وإلا كيف يطلبون منه أن يطرد الذين آمنوا معه بإرادة ورغبة في طاعة الله تعالى؟ وكيف له أن يقبل بأخذ رأي الكفرة الفجرة ويخالف قول الله الذي اصطفاه نبيا ورسولا يهدي للتي هي أقوم؟ لذلك كانت إجابته لقومه: (وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) أي أنكم بلا معرفة، فلو كانت لكم معرفة لجادلتم في الحقّ بالحقّ، ولأنكم لم تفعلوا ذلك فأنتم تجهلون.

ويتساءل نوح في جدله المنطقي قائلا: {وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} 23، نوح عليه الصلّاة والسّلام رسولا نبيا يعلم مالا يعلمون فهو يعلم أنهم يريدونه أن يكون وحيدا فطلبوا منه أن يطرد الذين آمنوا منهم فيكون بلا أنصار، وحين ذاك يعمه الضعف والوهن، ولجهلهم لا يعرفون قول الحقّ: {وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَإِنْ

²³ هود 30.

يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَلَّةٌ وَقَصِيرٌ مَشِيدٌ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ {24}، يُفهم من هذه الآيات الكريمة أن جميع الرسل قد نصرهم الله وأيدهم بجنود من عنده فهو على كل شيء قدير، ولذلك أظهرت هذه الآيات الكريمة العلاقات المؤسسة على الفضائل بين جميع الرسل والأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم.

وعود على بدء لتساؤل نوح عليه الصلوة والسلام كما جاء في الآية الكريمة: (وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) فمن بين مقاصده القولية أنه لن يطرد أنصاره، ولذلك قال لقومه (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) بمعنى (على لسان نوح) عبر التاريخ لا يمكن لأحد أن يُفْرِطَ في أحبائه ومؤيديه ومناصريه فما بالكم أيها القوم بمن يناصريني على الحق، فإن تريدون مني طردهم فوالله لن أطرحهم.

نوح عليه الصلوة والسلام يجادل بالحجة، أي يجادل بالحق على إحقاقه ولم يجادل بباطل مصداقا لقوله تعالى: (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ) فهو يخاف الله رب العالمين، ولذلك في جدله لم يدع شيئا لم يكن عليه فهو لم يقل لهم أنه يمتلك خزائن الملك لعلمه أن الملك لله تعالى، ولم يقل لهم أعلم الغيب، لعلمه أن الله هو علام الغيوب، ولم يدع بأنه ملك يريد أن يحكمهم في غير طاعة الله عز وجل، وكذلك لم يقل أن الله لن يؤتي

خيرا للذين آمنوا معه، (وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ) فنوح عليه الصلاة والسلام يدرك أنّ هذا الأمر لا يعلمه إلا علام الغيوب جلّ جلاله فهو يعلم ما في أنفسهم فإن كانوا في باطنهم على الحقّ وبالحقّ مؤمنين فإنّ الله لا يضيع لهم أجرا ولا حسنات، وإن كانوا كما أنتم تدعون فالله ليس بغافل، ولكن بالنسبة لي (نوح) فأنا أحكم بما أعلنوه وما أظهروه من إيمان وطاعة واتباع ولذا فالله دائما أعلم بما تكنه الصدور.

وعليه يُراد بقوله تعالى: (وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا) بمعنى لا أقول للذين تنظرون إليهم باستحقار وتقليل شأن أنهم سيكونون من المحرومين وسيظلون هكذا في حياتهم ومماتهم أراذل كما ادعيتهم أيها القوم، وكذلك لم أقل أنّهم لن يفوزوا بالجنة، فالأعمال بالنيات ولكل ما نوى.

بهذا الجدل لم يكن نوح من الظالمين في شيء، فلو قال غير ذلك لكان منهم (إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) ولأنّه لم يقل إلا الحقّ فهو صدّيق من الصادقين الذين اصطفاهم الله مبشرين ومبينين ومنذرين ومحرضين على أفعال الخيرات الحسان.

حلاوة الجدل تزداد في كل مرة بقوة حجّة نوح وبوهن حُجج قومه الجاهلين، الذين قالوا كما جاء في القرآن الكريم: {قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} 25. اعترافهم بجدل نوح هو اعترافهم بقوة الحجّة فيه، ومع ذلك فقد أنكروا الحقّ فكانوا من الضالين، وكأنّ قوم نوح يقولون، مع كل ما قلته يا نوح من منطوق إلا أننا لن نؤمن بما جئت به ولن نتبعك، ولهذا طلبوا من نوح أن يأتيهم بما أوعدهم به من عذاب إن لم يؤمنوا.

²⁵ هود 32.

فقولهم كما جاء في الكتاب الحكيم: (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) أي انزل علينا العذاب الذي تعتقد أنه لاحق بنا إن كنت من الصادقين، وهنا أقول: كلما اتضحت لديهم حجة نوح اتضح لدى نوح جهلهم بالحق وكفرهم وشركهم بالله تعالى، فلو كانوا يعلمون لعرفوا أنّ ما قاله نوح لهم ليس بيده أي لم يدعيه بالمطلق، ولذا؛ فهم في جهلهم ماكتون.

ولأنّ نوحا عليه الصلّاة والسّلام من الصادقين المصدّقين قال: (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) جدل الرّسل جدل يقين حيث لا يدعون إلا ما أمرهم الله به أو آتاهم الله إياه، ولذلك فهم مؤمنون بمشيئة الله التي متى ما أرادها كانت ومتى ما يُريدها تكون، ولكل أجل كتاب، ولذا فمشيئة الله لا يعجزها أحد ولا مفر لكم من حكمه وقضاه أنتم وما تمتلكون في ملكه وبين يديه، فإن تسلموا ولن تكفروا وسعة رحمته كل شيء وإن كفرتم وأشركتم فعذابه شديد لن يتغير وجهنم ستكون عليكم خير شهيد ويومها لن ينفع النادمون ندمهم والحمد لله ربّ العالمين الذي كتب النار على المشركين والكفرة وكتب الجنة للذين آمنوا ولم يشركوا ولم يفسدوا في الأرض ولم يسفكوا الدماء فيها بغير حق.

ولأنّ نوح عليه الصلّاة وسّلام نبيا ورسولا كريما يُظهر الإيمان في جدله في كل حين مصداقا لقوله تعالى: (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ولهذا فيإيمانه يُقر أن نصحه لقومه سيكون نافعا مفيدا إن أراد الله تعالى، ولن يكون نافعا ولا مفيدا أن لم يُرده الله تعالى، ولهذا، إن أراد الله أن يهلككم (يُغْوِيَكُمْ) فلا راد لقضاه وحكمه الحقّ.

ولأنّ نوح عليه الصلّاة والسّلام واثقا من قوله ومتيقّنا من حُجّته؛ فهو يعلم أنّه على الحقّ وإنّ وصفه قومه بالكذب والافتراء فلا ذنب يلحقه منهم، {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ} 26، ومع ذلك ولتطمئن قلوب قومه قال: (إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي) أي، أتحمّل وزره، ثم قال: (وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ) أي أنّ نوح قد أقرّ لقومه أنّ ما قاله لهم هو الحقّ يقينا، وأنّ ما قالوه له هو بهتاننا يقينا.
وعليه أقول:

ثلاث عناصر في منطق الحوار، من يلمّ بها ويعرفها، يعرف معنى الجدل، ومن لم يعرفها، لن يعرف معنى الجدل. عندما تكون هناك قضية دينية وإنسانية، أو قضية اجتماعية ووطنية، يكون هناك موضوع للحوار، وقبل أي اعتداء أو اقتتال ينبغي أن يكون اللقاء الذي تُعرض فيه الحجج المنطقية، دون إعلان عداوة من طرف لآخر، وإذا لم يتم ذلك مباشرة لا عيب في تدخل وسطاء المنطق، لا وسطاء اللغة، ووسطاء الحكمة لا وسطاء السياسة، وعلى الجميع توخي الحذر، (جادلهم بالتي هي أحسن) قال تعالى: جادلهم ولم يقل حاوهم، فالمجادلة فيها مكابدة ودرجة عالية من التحمّل، وعدم الإسراع في الخروج من الموضوع، إلى أن تتحقق القناعات بعد مكاشفات وحجج دامغة، ليس فيها تزوير أو تهرّب من إحقاق الحقّ، وعلى المحاور أن لا يُستفز من قبل المحاور الآخر، فالاستفزاز قد يُنهي زمن المجادلة التي لا ينبغي أن تُهزم بالاستفزازات غير المسؤولة من قبل الآخر وهكذا كان جدل نوح عليه الصلّاة والسّلام مع قومه.

²⁶ هود 35.

ولذا نقول: في المجادلة إصرار وتمسك بالحقيقة، وعدم إعطاء الفرصة لمن يريد أن ينهي الجدل قبل الوصول إلى نتائج مقنعة، وفيها التحذير والإنذار، وفيها التواعد إذا لم يتم الاتفاق، وفيها معرفة العواقب. ولذلك فالفرق كبير بين المجادلة والمحاورة فالمجادلة كما سبق تبيانها، أمّا المحاورة فقد لا تكون فيها مكابدة وعناء، بل فيها يتم الاعتماد على الأقوال والبراهين التي لا تستوجب الوعيد والتهديد وكذلك يكون الاعتماد فيها على التلاعب بالألفاظ والأقوال، ولذا، قد لا يكون فيها بيان يهدي للتي هي أحسن وأقوم.

ومع أنّ نوح نبيا كريما ولكنّه لا شكّ أنّه إنسان، فنوح عليه الصلّاة والسّلام إنسان امتلك عاطفة الأبوة، ولم يستطع إخفائها بالرّغم من الظروف التي هو فيها رسولا من الله تعالى للعباد، ولما بقي ابنه في عداد الكفّار ونوح عليه الصلّاة والسّلام يعلم أنّ ابنه من المغرّقين، لأنّه أدرك أنّه لن يهتدي في مرحلة الدعوة قبل الطوفان، ولذلك نادى ابنه من أجل نجاته ليحمله معه في الفلك المشحون، على أمل الركوب معه وهو على كفره، ثمّ يأتي الإيمان بعد وقوع البرهان، ولكن ابنه لم يستجب لندائه لما سبق عليه من القول، إذ لو ركب مع الراكبين لكان مخالفا للمشيئة، حيث قال تعالى: ﴿احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾²⁷ فالله تعالى أعلم نوح بما هو واقع من الأمر قبل وقوعه، ومع هذا نجد عاطفة الأبوة عند نوح عليه الصلّاة والسّلام في لحظة من اللحظات قد غلبت عليه وهو ينظر إلى الغرق كيف يلاحق ابنه، ولذا، عاتبه الله تعالى في ذلك بقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلَنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

²⁷ - هود 40

إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ {28}. حيث أنّ البحث استنبط كثيرا من موضوعاته من هذا القبيل، وكان منصبا على مثل هذه القضايا.

وقد تعرض البحث أيضا لأسلوب دعوة نوح عليه الصّلاة والسلام لقومه من خلال ترغيبهم بالخير حال استجابتهم لأمر الله تعالى، التي كانت أبرز سماتها، الأسلوب العاطفي بما يحمل من الرحمة لهم والشفقة عليهم والدعة بهم قريتهم وبعيدهم على حدّ سواء من:

. الكفار.

. المؤمنين.

. الأهل.

هذه الأمور وأمثالها من سمات النبوة وخصائصها التي عاجتها موضوعات البحث، وأجرت بعض الموازنات بين الأقارب والأبعد في مسألة الإيمان والكفر، مثل صلة القربى ونبوة الأب، لكن ذلك لم يكن ليغني عن ابن نوح من الله شيئا.

حيث أنّه في دائرة الممكن المتوقّع أنّ صلاح الأبوين يكون إرثا طيبا للأبناء يرسم لهم منهجا يكون قدوة في الاتباع.

ومن هنا، نفذنا إلى قضايا كبرى ومهمة في خلق الإنسان وحياته وحرّيته واختياره، بحيث تناولنا جزءا من هذه القضايا مبثوثة في ثنايا البحث مثل:

. الحرّية.

. الجبر.

. الاختيار.

فابن نوح حكمت عليه حرته بالغرق عندما رفض دعوة أبيه للصعود معه إلى السفينة لينجو من الطوفان. ولكيلا يفهم من كلامنا أننا نقول بحرية الإنسان المطلقة، وهذا ما لا يقول به عاقل، فقد أوضحنا بعض الأمور التي يكون الإنسان مخيرا فيها، وأمور أخرى لا يملك حيالها شيئا إلا أن ينصاع لها، وأمور ثالثة هو منصاع لها أصلا، فالإنسان لا يولد ولا يموت باختياره، كما أنه لا يختار أبويه بمشيئته، والأشياء التي لا يتحكم بها كثيرة. ولذا؛ فإن القضايا التي عالج البحث بعضها منها، تدخل في مجال الاختيار وتحمل المسؤولية التي يترتب عليها الحساب.

ومن القضايا التي انكبّ البحث عليها بالاهتمام، إنقاذ الأنواع من الهلاك على يد نوح عليه الصلّاة والسّلام بأمر من الله تعالى، وكذلك المراحل التي عاشها عليه الصلّاة والسّلام، فقد رأينا أنّها ثلاث مراحل تختلف الحياة في كل منها عن الأخرى:

المرحلة الأولى: ما قبل الطوفان: كان فيها صابرا على أذى قومه له بالسخرية منه، والتكذيب له، وحامدا لله وشاكرا له على فضله عليه بالاصطفاء والاستجابة لدعائه كلما دعاه لينجيه ويحفظه من مكر قومه وكيدهم له، إنّها مرحلة الآلام والمواجه من كفر قومه وشركهم بالله تعالى، حيث لم يؤمن معه إلا من قد آمن، وكانت النتيجة الغرق للقوم الضالين الطّاغين في عهد نوح عليه الصلّاة والسّلام، قال تعالى: { وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا }²⁹.

المرحلة الثانية: هي مرحلة الانتقاء الزوجي، وركوب الأهل في القُلك الذي صنعه نوح، فكان آية عظيمة في زمن الطوفان مصداقا لقوله تعالى: { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ

²⁹ يونس 73.

زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ اذْكُبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَزَاءَ مَا جَزَاها وَأُمرَسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ {30} وكانت النجاة هي النتيجة المتحققة على يد صانعه عليه الصلّاة والسّلام، قال تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ} {31}.

المرحلة الثالثة: بقاء الأنواع الزوجية وبقاء الأهل المؤمنين، ولا وجود في هذه الفترة من زمن نوح لكافرٍ أو مشركٍ أو ساحرٍ أو مُكذِّبٍ، إنّها مرحلة النقاء الإيماني وانعدام الألم؛ فكانت النتيجة طاعة الله تعالى ورسوله الكريم نوح عليه الصلّاة والسّلام وبقاء المستخلفين في الأرض مصداقا لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ} {32}.

ومن القضايا العقلية والمسائل الفكرية التي أهتم بها البحث، هي قضايا الجدل والحوار بين نوح وقومه وما كانوا يطرحونه من أسئلة أو استفسارات، وإجابات نوح عليه الصلّاة والسّلام من حيث:

. الأسلوب.

. الطريقة.

. الحجّة.

. البرهان.

. الدليل.

وبهذا، نعتقد أنّنا أتينا على معظم الجدل الذي دار بين نوح عليه الصلّاة والسّلام وبين قومه الذين رفضوا رسالته، وبالتالي رفضوا الإيمان بالله تعالى والتسليم لواحديته عزّ وجلّ، وقد وقفنا على هذا الجدل من خلال كل آية على حدة على التوالي، وبيننا الحجج والبراهين، وتناولنا

³⁰ هود 40 . 42.

³¹ يونس 73.

³² يونس 73.

أسلوب نوح بإظهار ما فيه من لطف ورقة ودعة، في استناده إلى الحجّة العقلية والمنطق السليم، وعلى جدل قومه وما يحمل من ضعف في دحض حجّة نوح، ممّا ألجأهم إلى فظاظة الردّ عندما عجزوا عن مجارة المنطق السليم.

وقد ضربنا بعض الأمثلة لهذا المنطق الذي يقوم على الاختيار السليم الذي يقود بالتالي إلى النجاة رحمة بهم وشفقة عليهم، مثل قوله لهم: (إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) فهذه العبارة من جدله، قد حدّر فيها، وأنذر، وأشفق، ورحم.

وقد بيّنا جميع أبعاد هذه القضية من الجدل، حيث كان التحذير واجبا من أجل أن يتركوا ما هم فيه من الغواية والضلال، والتحذير نفسه يحمل بين طياته الإنذار من وقوع العذاب إذا استمروا على ما هم فيه من كفر وشرك، بينما يتمثل الإشفاق في خوفه عليهم من العذاب المترتب على التحذير إن لم يأخذوا به.

وأما الرحمة في قلبه لهم؛ فكانت أظهر ما تكون عندما جعل العذاب يتعداهم إلى اليوم (عذاب يوم أليم)

وقد أوضحنا أنّ اليوم في حقيقته ليس أليما، وإمّا هو مؤلم لهم، ولكن عدّى العذاب عنهم وجعله لليوم رحمة بهم، وشفقة عليهم، لأنّه يرجو ألا يصيبهم، ويأمل منهم أن يتبعوا الحقّ وسبيل الرشاد، حتى يكونوا من الناجين.

لقد تناولنا في بحثنا هذا موضوعات كثيرة غير التي قدمناها على سبيل المثال، وقد انصب اهتمام كبير من الجهد المبذول في هذا البحث على مسائل عقلية وفكرية من القضايا العقدية.

وقد كاد القرآن الكريم أن يكون المصدر الوحيد الذي اعتمدهنا في
بِحثنا إلا ما ندر من كتب أغنت البحث بالمعلومة من بعض كتب
الحديث التي تعزز النتائج.

لقد كان جُلَّ اهتمامنا بما بذل في هذا البحث من جهد، أن يخرج
بنتائج، إن لم تصل إلى الحقيقة فنأمل أن ترشُد إليها، ولكل مجتهدٍ
نصيب، فمن اجتهد وأخطأ فله أجر، ومن أصاب فله أجران، والله
نسأل أن نكون من أصحاب الإصابة، والله وليّ التوفيق، وآخر دعوانا
أن الحمد لله ربّ العالمين.

أد عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017م

نوح

من وحي القرآن

نوح عليه الصلّاة والسّلام من أنبياء الله الكرام صلاة الله وسلامه عليهم، وهو أب الأنبياء من بعد أبونا آدم وقبل سيدنا إبراهيم عليهم جميعا الصلّاة والسلام، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} 33، وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} 34.

نوح عليه الصلّاة والسّلام هو صاحب الذرّيّة الباقية إلى يومنا هذا، ذرية بعضها من بعض فمنهم من كان مهتديا كما كان أبوهم عليه الصلّاة والسّلام هاديا لهم، ومنهم من ضلّ كما ضلّ قومه من قبل، قال تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا} 35.

نوح عليه الصلّاة والسّلام نبي مُوحىّ إليه ورسول يستوجب الإتياع من قبل قومه إلا أن قومه قد كفروا بما أرسل به إليهم وعصوه وكذبوه، ولذلك كانوا قوما فاسقين وظالمين بل هم أكثر الأقسام ظلما وطغيانا على الأرض مصداقا لقوله تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ

33 - آل عمران 33، 34.

34 - الحديد 26.

35 - مريم 59، 60.

أَظْلَمَ وَأَطْعَى {36، ولذلك فقد اشتكاهم إلى الله مرارا وفي كل مرة يفوز بالإجابة على نداءه الحق.

لقد كان رسولا أميناً نذيراً مبيناً طائعا لله، وعاصيا لغيره، ولذا؛ فهو الداعي لطاعته في دعواه إلى طاعة الله تعالى واحداً واحداً لا شريك له، له الحمد، وله الشكر، وهو على كل شيء قدير.

إنه من رُسل الميثاق الغليظ الذين أشاد الله بموآثيقهم في القرآن الكريم مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} 37، إنه من أصحاب المواثيق التي لا تنفصم عُراها ولا تُنقض عهودها وما يترتب عليها من تحمُّل الأعباء الثقال والمسؤوليات الجسام، موآثيق أنبياء قطعوها أمام الله جلّ جلاله تحترق السماء إليها إجلالا وتقديرا وعرفانا.

رسول مجاب لدعائه، أمله لا يُخيب، قال قومه المكذبين له كما جاء في القرآن الكريم:

{لَئِنْ لَمْ تَنْتَه يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ} 38.

وفي مقابل ذلك قال نوح عليه الصلّاة والسّلام مطالباً ربه عزّ وجلّ أن يفتح بينه وبين قومه وينجيه ومن معه من المؤمنين من كيدهم ومكرهم:

{رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} 39.

قال الله تعالى:

36 - النج م 52.

37 - الأحزاب 7.

38 - الشعراء 116.

39 - الشعراء 117، 118.

{ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدُ
الْبَاقِينَ } 40.

ولذلك في كل دُعاءٍ يدعوهُ نوحٌ تتحقّق له المناصرة من الله جلّ
جلاله قال تعالى: { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَأَزْدُجَرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ فَوَفَّقْنَا أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ
مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَا
عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُوسِرٍ بَحْرِيٍّ بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا
آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ } 41.

نوح عليه الصلّاة والسلام من الأنبياء الذين يخاطبون الله في غير
مُنهَى عنه، ولهذا يجب عليه في كل مخاطبة غير منهايا عنها مصداقا
لقوله تعالى: { وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ } 42.

السخرية من الناس مع أنّها سالبة لا تليق بمؤمن أسلم وجهه لله
تعالى إلا أنّ السخرية من الساخرين من العباد، عبادة تستوجب
الأداء في محلها ولا ينبغي أن تكون في غيره، ولهذا كان نوحا عليه
الصلّاة والسلام ساخرا من الذين يسخرون منه مصداقا لقوله تعالى:
{ وَيَصْنَعُ الْفُلُكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ
تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَجْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ } 43.

السخرية من الساخرين هي مثل الكيد للكائدين والمكر بالماكرين
مصداقا لقوله تعالى: { وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } 44،

40 - الشعراء 119، 120.

41 - القمر 9، 15.

42 - هود 37.

43 - هود 38، 39.

44 - آل عمران 54.

وقوله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} 45، ولذا، قلنا أنَّ المكر بالماكرين وكيدهم هو طاعة لله تعالى بما يفعل من مكر وكيد بمكر الماكرين وكيد الكائدين.

نوح عليه الصلاة والسلام إنسان امتلك عاطفة الأبوة فلم يستطع إخفائها برغم الظروف التي هو فيها رسولا من الله تعالى للعباد، ولذلك كان مصرا على نداء ابنه إلى الأخذ بالنجاة معه في الفلك المشحون، ولكن ابنه لم يستجب لندائه له مصداقا لقوله تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَأُوبِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ} 46، ولأنها عاطفة الأبوة فكانت مع نوح متصلة المشاعر والأحاسيس التي لا تفارق ولا تقبل فراق الأبناء بسهولة أو بدون ألم، {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} 47، مع أنها عاطفة الأبوة ومحبتهم لأبنائهم إلا أنها لا تفوق محبة الله وطاعته والامتثال لأمره، ولهذا كانت إجابة نوح في قوله متطابقة مع قول الله تعالى: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 48.

45 - الأنفال 30.

46 - هود 42، 43.

47 - هود 45.

48 - هود 46، 47.

نوح عليه الصلّاة والسّلام أبو الأنبياء مثله في ذلك مثل آدم وإبراهيم وإسرائيل عليهم أفضل الصلّاة والسّلام قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} 49

وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} 50.
وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} 51.

نوح عليه الصلّاة والسّلام منقذ الأنواع من الهلاك، عاش ثلاث مراحل تختلف الحياة في كل منها عن الأخرى من حيث:
المرحلة الأولى: ما قبل الطوفان: كان فيها صابرا على أذى قومه له بالسخرية منه والتكذيب له، وحامدا لله وشاكرا له على فضله عليه بالاصطفاء والاستجابة لدعائه كلما دعاه لينجيه ويحفظه من مكر قومه وكيدهم له، إنّها مرحلة الآلام والمواجه من كفر قومه وشركهم بالله تعالى حيث لم يؤمن معه إلا من قد آمن، وكانت النتيجة الغرق للقوم الضالين والطاغين في عهد نوح عليه الصلّاة والسّلام، قال تعالى: {وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} 52.

المرحلة الثانية: هي مرحلة الانتقاء الزوجي، وركوب الأهل في الفلك الذي صنعه نوح فكان آية عظيمة في زمن الطوفان مصداقا لقوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَؤَلْنَا أَحْمِلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ

49 - مريم 58.

50 - آل عمران 33، 34.

51 - الحديد 26.

52 - يونس 73.

رُوحَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ اذْكُبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَزَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ {53} وكانت النجاة هي النتيجة المتحققة على يد صانعه عليه الصلوة والسلام، قال تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ} {54}.

المرحلة الثالثة: بقاء الأنواع الزوجية وبقاء الأهل المؤمنين ولا وجود في هذه الفترة من زمن نوح لكافرٍ أو مشركٍ أو ساحرٍ أو مُكذِّبٍ، إنها مرحلة النقاء الإيماني وانعدام الألم فكانت النتيجة طاعة الله تعالى ورسوله الكريم نوح عليه الصلوة والسلام وبقاء المستخلفين في الأرض مصداقا لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ} {55}.

كان نوح عليه الصلوة والسلام كثير الشكر لله تعالى على مناصرته له ضد أعدائه من قومه الذين بُعث فيهم نبيا ورسولا مبشرا ومنذرا وداعيا لله واحدا أحدا لا شريك له، ولذلك كان مُنَجِّى مِمَّا يعملون وناجيا من الكرب العظيم وأنّ ذريته هم الباقون، وكذلك دُعاؤه باقٍ ونحن به من الداعين كما نزل في القرآن الكريم: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا} {56}.

53 - هود 40 . 42.

54 - يونس 73.

55 - يونس 73.

56 - نوح 28.

من

صفات النبي نوح

1. موحى إليه:

والموحى إليه هو من يعلم ما لا يعلمه غيره وهو من يطَّلَع على الغيب في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع، وهو المصطفى من الله تعالى ليكون نبيا ورسولا مصدِّقا لما بين يديه من نبأ عظيم ورسالة خالدة، ولذا فالموحى إليه لم يكن مصدرا للنبأ أو الرسالة التي يدعو إليها ويُبشِّر بها أو يحزِّض من أجلها بل هو الذي يتبع ما يوحى إليه دون زيادة ولا نقصان ويكون على المؤمنين به شهيدا، قال تعالى: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعُغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} 57، وقال تعالى: {وَأَوْحِي إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} 58، ولأن من سيؤمن أو من سيكفر لن يكون أمره إلا في الزمن المستقبل لذا فأمره علم غيب لا يعلمه إلا هو جلّ جلاله أو من يطلعه عليه من الأنبياء عليهم الصلّاة والسلام، لذا فإنّ أمر إيمان قوم نوح (لن يكون) وفقا لما جاء من علم الغيب ووفقا لما قد تحقق من بعد في ذلك الزمن، ولهذا لم يكن من قوم نوح عليه الصلّاة والسّلام على الإيمان إلا من قد آمن من قبل، وفي ذلك الزمن الذي كان فيه ما قد حصل علم غيب كان قول الله تعالى يدعو نوح عليه الصلّاة والسّلام إلى عدم الانتظار

57 - هود 48، 49.

58 - هود 36.

وعدم إضاعة الوقت مع قومه الكفرة فأمرهم لدى علام الغيوب جلّ جلاله كان معلوما، وبهذا الأمر تمّ تبليغ نوح مسبقا لكي لا يعبا لهم بشيء، وليعلم أنهم أعداء وكفرة لن يؤمنوا به ولا برسالته والحكم فيهم صادر لا يتأخر عن مواعده وفقا لما هو محدد ومحكوم به في علم الغيب لا يعلمه إلا هو عزّ وجلّ مصداقا لقوله تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ).

وعليه فالوحي من عند الله تعالى هو القول الفصل الذي به يُحَقَّقُ الحقّ ويُبطل الباطل، وهو ما يُعلم به الأنبياء الرّسل ليلبّغوه من بعد إلى أقوامهم وشعوبهم وأممهم، ولهذا فالنبوءة لا تكون إلا وحيا موحي، ولذا فإن أمر الوحي أمر إعجازي يُصطفى له اصطفاءً.

الوحي من عند الله تعالى أسرار تتعلق بالأنواع، وهي تخصّ ولا تعمّ، ولا يُعلم بحالها إلى أن يتم إعلانها أو الإنباء بها أو التبشير فيها، ولذلك زمن الوحي هو زمن الاقتصار بالنبأ على ذو العلاقة بخصوصية الأمر، أما ما بعده على المستوى الإنساني يصبح النبأ رسالة تُبلّغ.

إذا الوحي من الله تعالى إلى من يصطفى من الأنبياء الرّسل هو ما يُسرّ عن غيرهم في زمن ما قبل البلاغ المبين، وبهذا فالوحي إلهام لأداء الأفعال الحسان التي بها تُنظّم العلاقات بين المعنيين بالأمر سواء أكان على الخصوص أم على العموم، وعندما يتم إعلان الوحي يصبح مُبيّنا وبيان للناس.

الوحي لا يقتصر على النوع البشري بل يتعداه إلى جميع الأنواع ولهذا لقد أوحى ربنا إلى النحل مصداقا لقوله تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ {59}.
وعليه فما نعني به بالوحي هو ما تمّ عرضه، ولذلك لا نعني بالوحي ما
يوحي به البعض لبعضهم همسا سواء أكان صوابا أم أكان من زخرف
القول.

2. خليفة:

الخلافة تتوالى عبر الزمان والمكان مصداقا لقوله تعالى: {وَأذْكُرُوا
إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ} 60 والخلائف جمع خليفة وتدل
على توالي الأجيال جيلا بعد جيل إلى النهاية، وكذلك تدل على
الاستبدال والإحلال محل من كان سابقا، أي إحلال اللاحقين محل
السابقين.

الإحلال لا يقتصر بالضرورة على التطابق أو التماثل بل يحتوي
حتى المخالف أو المغاير وهذا ما ينطبق على قوم نوح الذين كانوا على
كفرٍ وشركٍ فأحل الله تعالى محلهم المستخلفين في الأرض من عباده
الصالحين الذين كانت بذرتهم من أهل نوح عليه الصلاة والسلام
الذين ركبوا معه الفلك ونجوا من الغرق مع الناجين من الطوفان
مصداقا لقوله تعالى: {اِحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ
سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ
اللَّهِ جِجْرَاهَا وَرُؤْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ
كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ
الْكَافِرِينَ قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ
يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَّمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ

59 - النحل 68، 69.

60 - الأعراف 69.

وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {61، أولئك القليل
المشار إليهم في هذه الآية الكريمة هم الذين أصبحوا جيلا بعد جيل
بالتوالد كثرة، وهم الذين أصبحوا مستخلفين.

الإنسان يخلف بعضه البعض كغيره من الكائنات الأخرى بأمر
التكاثر الذي أصدره الله لخلقه، وكان أول خليفة على الأرض آدم
عليه الصلوة والسلام، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ
إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ
الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا
تَعْلَمُونَ} 62. يقصد هنا آدم وجنسه حيث اعلم الله تعالى الملائكة
بالقرار (إني جاعل في الأرض خليفة) أي فُضي الأمر في هذه
القضية، وهو استخلاف آدم وجنسه الذي ترتب عليه سجود الملائكة
له مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا
إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} 63. سجد الملائكة لآدم
بأسباب الطاعة لأمر الله عز وجل لا لعبادة آدم عليه الصلوة
والسلام، بل سجدوا لعبادة الله الذي أصدر لهم أمر السجود، ولذا
فكان سجودهم طاعة لله تعالى، وكانت المعصية ممن لم يطع الأمر
وهو إبليس عليه اللعنة.

إن سجود الملائكة لآدم خليفة يُعد التقدير الأوفر لمن خُلق في
أحسن تقويم، ولذلك لما أنبأهم آدم بأسمائهم وأعلمهم بما لم يعلموا،
أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم اعترافا به، وتقديرا له، واعتذارا عما
قالوه فيه.

61 - هود 40 . 44.

62 - البقرة 30.

63 - البقرة 34.

وقد يتساءل البعض: هل آدم وجنسه الذي منه نوح هم خلفاء الله على الكون؟

بالتأكيد لا، الله واحد أحد لا يخلفه أحد.

إذن آدم وجنسه الذي منه نوح خليفة مَنْ؟

آدم وجنسه الذي منه نوح استخلفهم الله في الكون، أي تركهم يُنظّمون شؤون حياتهم فيه، ولم يتركهم ليحلوا محله، فهذا الأمر استغفر الله ليس من مهام الخلافة التي كلفهم بها الله تعالى.

ولهذا، لا يمكن لأحدٍ أن يخلف الله عزّ وجلّ في ذاته، بل يخلفه باستمداد صفاته تعالى في القول والفعل والعمل والسلوك ليصلح ولا يُفسد ولا يسفك في الأرض الدماء بغير حق، وهذه من سنة آدم ونوح في الحياة وهي سنة كل الأنبياء الرسل والصدّيقين والصالحين في الأرض.

ولأن الله حي قيوم إذن لا محل في أن يحل المستخلف محل من كلفه بالاستخلاف. فالإنسان يمكن أن يكلف أحد من بني جنسه في استخلافه ليحل محله في غيابه، ولكن الحي القيوم {الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم} 64 لن يغيب حتى يخلفه أحد، ومع ذلك فصاحب القوّة وعلام الغيوب قد استخلف آدم عليه الصلّاة والسّلام وأنبأه بما لم تعلم الملائكة حتى كانت المعجزة التي انتهت بالسجود لآدم عرفانا به وبما قدره الله تعالى له من أسرار.

ولذا، جاء في لسان العرب المحيط كلمة "خلائف في الأرض بمعنى يخلف بعضهم بعضا" 65، حيث ينتهي السابقون ويأتي من بعدهم

64 - البقرة، 255.

65 - لسان العرب المحيط، العلامة ابن منظور، بيروت، دار لسان العرب، المجلد الأول، ص

اللاحقون. "فالحَلْفُ كل من يجيء بعد من مضى"66. ومن هنا، يتضح الفرق بين الحَلْفِ وبين الاستخلاف، فالخلف يتعاقب من وراء بعضه البعض، أمّا الاستخلاف هو تمكين من يوَدّ أن يكون خليفة في مهمته التي تناط به حتى يؤدّيها، ولهذا، تم استخلاف آدم واستخلاف نوح وجميع الأنبياء الرّسل من بعدهما.

وفي حديث ابن عباس "أن أعرابيا سأل أبا بكر رضي الله عنه، فقال له: أنت خليفة رسول الله عليه الصّلاة والسّلام، فقال: لا، قال: فما أنت؟ قال: أنا الخليفة بعده"67.

ماذا تعني إجابة سيدنا أبا بكر رضي الله عنه؟

تعني: أنّه لا يمكن أن يخلف أحد رسول الله عليه الصّلاة والسّلام، فالرّسول لا يخلفه إلا رسول، وهكذا خلف نوح آدم وخلف إبراهيم نوح وخلف عيسى موسى وخلفهم سيدنا محمّد عليهم جميعا أفضل الصّلاة والسّلام. ولذلك قلنا أنّ الرّسول لا يخلفه إلا رسول، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾68. إذن من بعد نوح كان الأنبياء ولكن لا نبي ولا رسول من بعد محمّد عليه الصّلاة والسّلام، ولهذا، لا يمكن أن يحل محله أحد.

ولذا، نقول: من بعد محمّد عليه الصّلاة والسّلام لا خلافة لرسول ولا نبي، ولكن الخلافة لمن آمن أو يؤمن بالرسالة الخاتمة (رسالة الكافة) ليقوم بدوره تجاهها، وهو لا يمكن له القيام بدور رسول الله عليه الصّلاة والسّلام. فالرّسول يصطفيه الله تعالى اصطفاء، وتكون له رسالة من عند الله تعالى، وله تكليف في حدود المستهدف بالرسالة خاصة كانت أم عامة، أما استخلاف العباد يكون على وجهين:

66 - المص در السابق، ص 884.

67 - المص در السابق، ص 885.

68 - الأحزاب، 33.

الأول: استخلاف الأجيال عبر أحقاب الزمان وظروف المكان.
الثاني: استخلاف المسؤولية وتحمل ما يترتب عليها من أعباء وهذا لا يكون إلا بالمشاورة وحسن الاختيار الإرادي.

ولذلك؛ فآدم ونوح ومن بعدهما من الأنبياء اصطفاهم الله تعالى خلفاء لبعضهم بعضا وفي مقابل ذلك الخلفاء من بعد رسول الله عليه الصلّاة والسّلام، لم يصطفيهم الله تعالى، ولم تكن لهم رسالات بعد الرسالة الخاتمة، وليس لهم تكليف من السماء بعد رسالة محمّد عليه الصلّاة والسّلام، ولهذا لا يخلف الرّسول إلا رسولا من عند الله.

أمّا أمر صحابة رسول الله رضوان الله عليهم فهو أمر صحبة على كلمة سواء (لا إله إلا الله محمّد رسول الله). ولذا خلف الصحابة بعضهم بعضا ولم يخلف أحد منهم رسول الله عليه الصلّاة والسّلام.

وقد يتساءل البعض: لماذا جعل الله في الأرض خلائف؟

نقول:

ليريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم الحقّ من الباطل، ويكونوا الخلفاء الذين يُطمئن لهم بالإصلاح والأعمار وعدم الإفساد وسفك الدماء في الأرض بغير حق، والخلفاء هم الذين يعلمون الحقّ ويتبعوه ويعملون على تعميمه بين الناس قال تعالى: {سُنِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} 69 ولهذا يُريهم الله من فضله ونعمه عليهم بداية من أنفسهم وما خلّقوا عليه وما يحيطهم عن القرب والبعد حتى السماء، ولهذا من حق الخليفة أن يبحث وينهل من العلم في الأرض وفي الآفاق حتى يزداد يقينا بنعمه وفضله الواسع. وفي هذا يقول تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ

⁶⁹ - فصلت، 53.

حَلَّائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} 70. إذن جعل الله الخلائف على الأرض لينظر كيف يعملون، هل سيعملون خيرا أم سيعملون شرا، بعد أن بيّن وفصل لهم كل شيء تفصيلا. فهل سيكونون على وحدانية وطاعة، أم أنهم سيكونون على معصية وكفر؟ ولذا فالخلائف تتوالى عبر الزمن سابقون ولاحقون، وفي ذلك يقول القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن "كل من جاء من بعد من مضى فهو خليفة، أي جعلكم خلفا للأمم الماضية والقرون السالفة" 71.

وبناء على تفسير الإمام القرطبي، إذن لا خليفة إلا وسابق عليه. وفي هذا الشأن قد يكون استخلاف الإنسان على الأرض على أنقاض السابقين له، {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا} 72 هذه الآية دليل إثبات على أنّ أناسا كانوا من قبل، وقد انتهوا، وجيء بخلق من بعدهم، وأولئك كانوا على حضارة راقية في البناء والأعمار حتى وُصفوا بأنهم أكثر قوّة من الذين خلفوهم.

فالذي يترك خليفة في الأرض خلقا هو الله تعالى: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ} 73. الله الذي بدأ الخلق ممّا لا نعلم إلا بما أخبرنا به الله تعالى في قوله: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ

70 - يونس، 14.

71 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي، ج 7، ص 158.

72 - الروم، 9.

73 - الروم، 12، 13.

الماء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} 74 ويستمر به إلى نهاية ما لن نعلم، فبداية الخلق منه ونهايته إليه، ولذا لن يكون هناك دوراً مُطلقاً لمن لا يؤخر أو يُقدم في الأمر شيء، الدور والمملك لله الواحد القهار. ولأنّ الله هو الخالق، وكل ما غيره مخلوق، فهل من الأفضل للخليفة الذي خلقه الله تعالى أن يتخذ خالقه معبوداً ويُخلص له الدين، أم أن يتخذ من هو مخلوق مثله أو المختلق منه إلهاً له؟ وهل من اللائق بنا نحن بني الإنسان أن نعبد الله الخالق الذي ليس كمثله شيء؟ أم نعبد غيره من الذين هم خلقوا أو اختلقوا على أمثال؟

تكمّن الإجابة على هذه الأسئلة في قوله عزّ وجلّ: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقُضُوا مِمَّا جَعَلْتُمْ مَسْتَحْلِفِينَ فِيهِ} 75.

وعليه فإنّ المستخلفين من قوم نوح هم الذين آمنوا به رسولا وأطاعوه في عبادة الله واحداً واحداً لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، والمستخلفين من بعدهم هم الذين ساروا على خطاهم بالإيمان.

ولذا، في زمن نوح عليه الصّلاة والسّلام ومن بعده كان أمر الاستخلاف مؤسساً على ثلاث:

1. في زمنه كان قومه كفّاراً ومشركين، وهؤلاء ليسوا من المستخلفين فيها في شيء، وذلك لارتباط الاستخلاف بشروط منها:
أ. الإيمان بالله ورُسله: وهذه تستوجب طاعة الله جلّ جلاله وطاعة نوح ومن اصطفاهم الله رُسلًا عليهم الصّلاة والسّلام.
ب. استمداد الخليفة صفاته من صفات الله تعالى.

74 - الأنبياء 30.

75 - الحديد، 7.

ج . إصلاح الأرض: الأرض لا يصلحها إلا مصلح وقوم نوح مفسدين فيها.

د . إعمار الأرض: الأرض لا تعمر إلا بالمحبة والمودة وطاعة الله ورسوله.

هـ . عدم الإفساد في الأرض، وهذه صفة من صفات قوم نوح عليه الصلّاة والسّلام.

و . عدم سفك الدماء في الأرض بغير حق: وهذا الأمر لا يلتزم به إلا مُصلح ومُعَمِّر للأرض وغير مُفسد فيها.

2 . في زمن نوح عليه الصلّاة والسّلام كان أهله (الذين آمنوا به وبرسالته إليهم وأطاعوه طاعة لله تعالى) كانوا هم المستخلفين في الأرض وهم الذين ركبوا معه الفلّك ليكونوا من بعدِ مستخلفين فيها بالإصلاح والإعمار وأفعال الخيرات الحسان قال تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} 76.

3 . الاستخلاف من بعد نوح عليه الصلّاة والسّلام كان للأنبياء والذين آمنوا بهم وبرسالاتهم وما جاءوا به من أنباء الغيب توحيدا لله تعالى وعدم الشرك به والأخذ بما أمر الأخذ به والانتهاه عما نهي عنه عزّ وجلّ، وتجنب الشبهات التي لا تليق بمكارم الأخلاق والفضائل الحميدة، وهؤلاء هم الذين جعلهم الله تعالى خلائف من بعد قوم نوح عليه الصلّاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ} 77.

3 . مُبتلى:

76 - هود 40.

77 - الأعراف 69.

الابتلاء حمل العناء وما يترتب عليه من صعاب في سبيل فضائل
 وقيم يتم بها نيل رضا الله تعالى، ومن يتعرض لذلك يكون بين مرارة
 الألم وحلاوة وعد الحق اليقين، ولذلك لا يعدّ الابتلاء عقاباً بل
 امتحاناً لا يفوز بموجباته ومكافئه إلا الصابرون، مصداقاً لقوله تعالى:
 {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ
 وَأُمَّمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا
 إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ
 لِلْمُتَّقِينَ} 78.

ومن ابتلاءات نوح عليه الصلّاة والسّلام الآتي:

أ . ابتلاؤه بقومه: الذين لم يهتدوا ولم يؤمنوا به وبرسالته إليهم،
 مصداقاً لقوله تعالى: {أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ
 وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنْتَهُمْ رُسُلُهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} 79.

ولأنّ نوح عليه الصلّاة والسّلام مبتلى بقومه فلم يؤمن منهم إلا
 من قد آمن مصداقاً لقوله تعالى: {وَأَوْحِي إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ
 قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلَكَ
 بِأَعْيُنِنَا ووَحِينَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ} 80.

وعليه فإن نتيجة ابتلاء نوح عليه الصلّاة والسّلام كانت على

وجهين:

* عذاب في الدنيا والآخرة لمن هم سببا في الابتلاء (غرق

وجهنم).

78 - هود 48، 49.

79 - التوبة 70.

80 - هود 36، 37.

* ثواب في الدنيا والآخرة لنوح وأهله الذين آمنوا وعملوا الصالحات (نجاة من الطوفان والفوز بالجنة).

ب . تكذيب قومه له: مع أن نوحا مصدِّقا وصادقا ومسلما ورسولا ونبيا إلا أنّ قومه قد كذبوه، وهذا التكذيب لا ينم عن مكارم للأخلاق بل ينم عن سفاهة وجهالة تنتقص من صاحبها وترفع غيره الذي على الحقّ جاء، ولأنّ صاحبهم على جاء الحقّ، هلك قومه ونجى وأهله من الهلاك مصداقا لقوله تعالى: {وَإِثْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ حُلَّائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ} 81.

ج . ابتلائه بابنه: فهو عمل غير صالح لأسباب لا يعلمها يقينا إلا هو جلّ جلاله، ولكن اجتهادا يجوز أن يكون من المكذبين ويجوز أن يكون بأسباب الخيانة قال تعالى: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 82.

د . خيانة زوجه: الخيانة من أكبر الأعمال التي تفرّق بين المرء وزوجه، ولهذا عندما تحدث الخيانة الزوجية ليس هناك بد إلا الفراق مع انعدام التقدير وسحب الثقة، وإذا كانت القاعدة لدى كل الناس

81 - يونس 71 . 73.

82 - هود 46، 47.

(خيانة الزوجة تؤدّي إلى الطلاق) فما بالك مع نبين من أنبياء الله عزّ وجلّ (نوح ولوط) عليهما الصّلاة والسلام، قال تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰخِلِينَ} 83.

هـ - سخرية قومه منه: السخرية استهزاء بمن يستوجب احترامه، ويقصد من ورائها التقليل من شأن المستهزئ به، وهذا المستهزئ به هو من ينال رضا الله عليه وينال التقدير والاعتراف من الصادقين والمؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين، قال تعالى: {وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ} 84.

4. مجادل:

الجدل حوار مؤسّس على التيقن بالمعلومة والنبأ، وإيمان بصدقهما وبمن هو مصدر لهما، ولا يكون الجدل إلا مع الآخر الذي له رأي أو شك في المعلومة مع توفر الرغبة للتبئ والتصحیح دون إكراه من طرف لآخر.

ولهذا؛ فالجدل يلازمه الإصرار مع وافر الثقة فيما يجادل من أجله المجادل، ولهذا، كان نوح عليه الصّلاة والسّلام كثير الجدل مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ إِلَّا الَّذِي نَحْمَدُ أَزْدَانُنَا بَادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ

83 - التحريم 10.

84 - هود 38.

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّن عِنْدِهِ
فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنلَزْتُكُمْ مَّوَاهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مَالًا إِن أَعْجِرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُّلاقُوا رَبِّهِمْ
وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدْتُمْ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي
مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
جِدَالَنا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن
شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِن أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ
إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْوِبَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ
قُلْ إِن افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ {85}.

جاءت الآيات السابقة نصوصاً لجدلٍ دار بين نوح عليه الصلاة
والسلام وبين قومه، ومع أنَّ الجدل يستوجب طرفين محترمين إلا أن ما
ورد ذكره من قولٍ على لسان قوم نوح يخلوا أصحابه من قيم الاحترام
وهذا يدل على انعدام تساوي الكفتين على ميزان المنطق الذي يزن
الحجّة بالحجّة.

بدأ نوح مخاطبة قومه إلى الهداية بالتي هي أحسن مع فائق التقدير
والاحترام، بحجج ثلاثة:

أ . الإنذار المبيّن للحق والمبطل للباطل، وهو الذي أمره الله أن
يُنذر به قومه، قال تعالى: (إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ).

ب . عبادة الله واحداً لا شريك له، (أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)
وهي أعظم الحجج التي لا انحياز فيها للباطل.

ج . الخوف على قومه من العذاب الأليم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من رحم الله تعالى. (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ).
في مقابل هذه الحجج الكريمة الثلاثة يفترض أن يكون الجدل على ما يخالفها وليس عليها فما يخالف الإنذار المبين الذي يستوجب الرفض أو الاستفسار عنه إن يكون الإنذار غير مبين (فيه من الغموض واللبس ما يكفيه) مما يستوجب الاستفسار والمجادلة حتى يتم التبيين.

وما يخالف عبادة الخالق أن يدعوهم نوح إلى عبادة إله مخلوق، واستغفر الله أن يدعوهم نوح لذلك، لقد دعاهم إلى عبادة الله تعالى لا شريك له، ولهذا لا حجة لهم على نوح بل الحجة عليهم.
وأما الخوف عليهم من العذاب الأليم هو الخوف الموجب من أجلهم لا من أجل نوح عليه الصلاة والسلام، فلو كان من أجله لكان لهم الحق فيما يقولون وبما أنه من أجلهم فالحق عليهم حق لنوح.

ومع ذلك علينا بتحليل قولهم كما جاء في القرآن الكريم: (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ).

يحتوي قولهم أربع حجج واهية:

أ . إنهم لا يريدون أن يستمعوا إلى قول الله تعالى الذي جاءهم به رسول مكلف، ولهذا، (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا) أي أنهم غير مستعدين أن يقبلوه رسولا ونبيا كريما عليه أفضل الصلاة والسلام، ولأن نوحا لم يكن مجادلا لهم باسمه بل بصفته التي اصطفاها الله عليها، لذا كان عليهم أن يستمعوا حتى يعلموا ثم من

حقهم أن يتبينوا، وهذا لا يتعارض مع قواعد المنطق في المجادلة، بل الذي يتعارض معها هو أن لا يستمع المجدل للمجادل به، وهذا ما حدث مع نوح عليه الصلّاة والسّلام، ولهذا؛ فهم على غير موضوعية ولا منطق، ولذا فهم يجادلون بدون حجّة ومن يجادل بدونها ليس له إلا البهتان.

ب . احتجاج قوم نوح عليه بأسباب من اتبعه منهم، ووصفهم بالأراذل وهو وصف لا يليق بمن آمن ممّا يدل على انعدام التأدب في جدلهم، وهم بهذه المجادلة فاقدون لقواعد المنطق الذي يحتكم به المتجادلون والمختلفون في الاتجاهات والأديان والأعراف، والمفهوم الذي تحمله الآية الكريمة من قولهم: (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ) لا يقتصر على التقليل من شأن من اتبعه من قومهم، بل يتعداه إلى التقليل من شأن الرسالة والرّسول الكريم نوح عليه الصلّاة والسّلام أيضا، وعندما يؤسس الحوار والجدل على النظرة الدونية من البعض للبعض تصبح كفتا الجدال غير متساويتين، ممّا لا يؤدّي إلى نتائج موضوعية ويكون الجدل للجدل لا لأجل حل القضايا والمشاكل التي من أجلها كانت المجادلة. وفي هذا الأمر أسس نوح جدله على الاحترام والتقدير، وهم أسسوا جدلهم على التطاول وانعدام الاحترام ولهذا لا حجّة لهم وعليهم أكثر من حجّة.

ج . في اعتقاد قوم نوح أن نوحا عليه الصلّاة والسّلام لم يتميّز عليهم في شيء، بل في ظنّهم أنّهم هم المتميزون عنه بعبادة الأوثان التي اختلقوها من دون الله، وهو في ظنّهم أقلّ شأنًا منهم لعدم اتخاذه وثنا للعبادة، وبالتالي يرون أنفسهم هم الأفضل من نوح الذي لم يتخذ ما اتخذه إلهًا (وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ) كل هذا الجدل هو رد على حُجج نوح الذي جاء من أجلهم ليبين لهم ما هم فيه من

انحرافات ودونية، ويرشدهم للتي هي أحسن، طاعة الله تعالى وعبادته والتخلي عن عبادة ما دونه حتى لا تكون جهنم عاقبة لهم يوم لا ينفع مالا ولا بنون، ولذا لقد تأسس جدل نوح على الحرص والتواضع والمودة وتأسس جدلهم على الكره والتعالي.

د . الجدل العدل في قواعده لا يؤسس على الظن، ولذلك أسس نوح جدله على الحجّة الدامغة للباطل واتباع الحقّ، أمّا قومه فأسسوا أقوالهم على الظن الذي فيه إثم كبير، ولهذا فالفرق كبير خاصة وأنهم مكذّبين لنوح الصديق الذي أظهر تأدبا راقيا من حيث تحمّله التكذيب الذي وجّه له من قومه، ومن حيث أنه لم يرّد على تكذيبهم له كذّب، (بَلْ نَطْنُكُمْ كَاذِبِينَ) هذه الآية جاءت موجّهة للجمع غير مقتصرة على المفرد (نوح) ممّا يجعلها جامعة لنوح مع من آمن معه من قومه سواء أكانوا ممن وصفوهم بالأراذل أم من غيرهم من المؤمنين مع نوح عليه الصلّاة والسّلام، وهذه بطبيعة الحال ليس بحجّة ولا بلغة منطوق، ولذا دائما ليس للكافرين من حجّة.

ومع كل ما تقدم فإن نوح عليه الصلّاة والسّلام لم ييأس ولم يقنط فقال لهم (أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ) لقد أظهر نوح استغرابه الجدلي مع قومه الذين أظهر لهم البيّنة ومع ذلك عمّيت عقولهم عنها، ولهذا لا يمكن له إلزامهم وإكراههم على الطاعة، حيث لا إكراه في الدين وهذه قاعدة مفروضة اتبعها جميع الأنبياء والمرسلين في التبشير بدعواتهم لله ربّ العالمين، ولهذا قال: (أَنْزَلْنَاهُمْ مَوْحَاً وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ).

جدل نوح بلا اشتراطات إنّه جدل من أجل الإيمان بالله تعالى فهو لم يطلب شيئا لخصوصه فلا يُريد مالا ولا مركزا اجتماعيا بل يُريد

مكانة عند الله مع المستخلفين في الدارين (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ).

وبالمنطق الجدلي من يأتي إلى نوح عليه الصلاة والسلام بإرادة، مؤمنا مسلما لا يمكن له أن يطرده، فإن طرده خالف قواعد المنطق الذي به يحاجج وكذلك سيجد نفسه مخالفا للعرف بين الناس العادلين في الأرض، لذلك قال: (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ).

وصل نوح إلى نتيجة وهي:

إنَّ الجهل كان مغالبا لقومه على اتباع الحق، وإلا كيف يطلبون منه أن يطرد الذين آمنوا معه بإرادة ورغبة في طاعة الله تعالى؟ وكيف له أن يقبل بأخذ رأي الكفرة الفجرة ويخالف قول الله الذي اصطفاه نبيا ورسولا يهدي للتي هي أقوم؟ لذلك كانت إجابته لقومه: (وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ) أي أنكم بلا معرفة، فلو كانت لكم معرفة لجادلتم في الحق بالحق، ولأنكم لم تفعلوا ذلك فأنتم تجهلون.

ويتساءل نوح في جدله المنطقي قائلا: {وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} 86، نوح عليه الصلاة والسلام رسولا نبيا يعلم ما لا يعلمون فهو يعلم أنهم يريدونه أن يكون وحيدا فطلبوا منه أن يطرد الذين آمنوا منهم فيكون بلا أنصار، وحين ذاك يعمه الضعف والوهن، ولجهلهم لا يعرفون قول الحق: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ

86 هود 30.

فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُؤُا مُعْطَلَةً وَقَصْرٍ مَشِيدٍ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ {87}، يفهم من هذه الآيات الكريمة أن جميع الرسل قد نصرهم الله وأيدهم بجنود من عنده فهو على كل شيء قدير، ولذلك أظهرت هذه الآيات الكريمة العلاقات المؤسسة على الفضائل بين جميع الرسل والأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم.

وعود على بدء لتساؤل نوح عليه الصلوة والسلام كما جاء في الآية الكريمة: (وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) فمن بين مقاصده القولية أنه لن يطرد أنصاره، ولذلك قال لقومه (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) بمعنى (على لسان نوح) عبر التاريخ لا يمكن لأحد أن يُفِرَّط في أحبائه ومؤيديه ومناصريه فما بالكم أيها القوم بمن يناصريني على الحق، فإن تريدون مني طردهم فوالله لن أطرحهم.

نوح عليه الصلوة والسلام يجادل بالحجة، أي يجادل بالحق على إحقاقه ولم يجادل بباطل مصداقا لقوله تعالى: (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ) فهو يخاف الله رب العالمين، ولذلك في جدله لم يدع شيئا لم يكن عليه فهو لم يقل لهم أنه يمتلك خزائن الملك لعلمه أن الملك لله تعالى، ولم يقل لهم أعلم الغيب، لعلمه أن الله هو علام الغيوب، ولم يدع بأنه ملك يريد أن يحكمهم في غير طاعة الله عز وجل، وكذلك لم يقل أن الله لن يؤتي خيرا للذين آمنوا معه، (وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ) فنوح عليه الصلوة والسلام يدرك أن

هذا الأمر لا يعلمه إلا علام الغيوب جلّ جلاله فهو يعلم ما في أنفسهم فإن كانوا في باطنهم على الحقّ وبالحقّ مؤمنين فإنّ الله لا يضيع لهم أجرا ولا حسنات، وإن كانوا كما أنتم تدعون فالله ليس بغافل، ولكن بالنسبة لي (نوح) فأنا أحكم بما أعلنوه وما أظهروه من إيمان وطاعة واتباع ولذا فالله دائما أعلم بما تكنه الصدور.

وعليه يُراد بقوله تعالى: (وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا) بمعنى لا أقول للذين تنظرون إليهم باستحقار وتقليل شأن أنهم سيكونون من المحرومين وسيظلون هكذا في حياتهم ومآتهم أراذل كما ادعيتهم أيها القوم، وكذلك لم أقل أنّهم لن يفوزوا بالجنة، فالأعمال بالنيات ولكل ما نوى.

بهذا الجدل لم يكن نوح من الظالمين في شيء، فلو قال غير ذلك لكان منهم (إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) ولأنّه لم يقل إلا الحقّ فهو صديق من الصادقين الذين اصطفاهم الله مبشرين ومبينين ومنذرين ومحرضين على أفعال الخيرات الحسان.

حلاوة الجدل تزداد في كل مرة بقوة حجّة نوح وبوهن حُجج قومه الجاهلين، الذين قالوا كما جاء في القرآن الكريم: {قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ} 88. اعترافهم بجدل نوح هو اعترافهم بقوة الحجّة فيه، ومع ذلك فقد أنكروا الحقّ فكانوا من الضالين، وكأنّ قوم نوح يقولون، مع كل ما قلته يا نوح من منطق إلا أننا لن نؤمن بما جئت به ولن نتبعك، ولهذا طلبوا من نوح أن يأتيهم بما أوعدهم به من عذاب إن لم يؤمنوا.

فقولهم كما جاء في الكتاب الحكيم: (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ) أي انزل علينا العذاب الذي تعتقد أنه لاحق بنا إن كنت

88 هود 32.

من الصادقين، وهنا أقول: كلما اتضحت لديهم حجة نوح اتضح لدى نوح جهلهم بالحق وكفرهم وشركهم بالله تعالى، فلو كانوا يعلمون لعرفوا أنّ ما قاله نوح لهم ليس بيده أي لم يدعيه بالمطلق، ولذا؛ فهم في جهلهم ماكتون.

ولأنّ نوحا عليه الصلّاة والسّلام من الصادقين المصدّقين قال: (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) جدل الرّسل جدل يقين حيث لا يدعون إلا ما أمرهم الله به أو آتاهم الله إياه، ولذلك فهم مؤمنون بمشيئة الله التي متى ما أرادها كانت ومتى ما يُريدها تكون، ولكل أجل كتاب، ولذا فمشيئة الله لا يعجزها أحد ولا مفر لكم من حكمه وقضاه أنتم وما تمتلكون في ملكه وبين يديه، فإن تسلموا ولن تكفروا وسعة رحمته كل شيء وإن كفرتم وأشركتم فعذابه شديد لن يتغير وجهنم ستكون عليكم خير شهيد ويومها لن ينفع النادمون ندمهم والحمد لله ربّ العالمين الذي كتب النار على المشركين والكفرة وكتب الجنة للذين آمنوا ولم يشركوا ولم يفسدوا في الأرض ولم يسفكوا الدماء فيها بغير حق.

ولأنّ نوح عليه الصلّاة وسلام نبيا ورسولا كريما يُظهر الإيمان في جدله في كل حين مصداقا لقوله تعالى: (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ولهذا فيإيمانه يُقر أن نصحه لقومه سيكون نافعا مفيدا إن أراد الله تعالى، ولن يكون نافعا ولا مفيدا أن لم يُرده الله تعالى، ولهذا، إن أراد الله أن يهلككم (يُغْوِيَكُمْ) فلا راد لقضاه وحكمه الحقّ.

ولأنّ نوح عليه الصلّاة والسّلام واثقا من قوله ومتيقّنا من حُجّته؛ فهو يعلم أنّه على الحقّ وإنّ وصفه قومه بالكذب والافتراء فلا ذنب يلحقه منهم، {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ

مَّا تُجْرِمُونَ} 89، ومع ذلك ولتطمئن قلوب قومه قال: (إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ
فَعَلَيَّْ إِجْرَامِي) أي، أتحمل وزره، ثم قال: (وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ) أي
أَنْ نوح قد أقرّ لقومه أَنْ ما قاله لهم هو الحقّ يقينا، وأنّ ما قالوه له
هو بهتاننا يقينا.

وعليه أقول:

ثلاث عناصر في منطق الحوار، من يلّمّ بها ويعرفها، يعرف معنى
الجدل، ومن لم يعرفها، لن يعرف معنى الجدل. عندما تكون هناك
قضية دينية وإنسانية، أو قضية اجتماعية ووطنية، يكون هناك موضوع
للحوار، وقبل أي اعتداء أو اقتتال ينبغي أن يكون اللقاء الذي تُعرض
فيه الحجج المنطقية، دون إعلان عداة من طرف لآخر، وإذا لم يتم
ذلك مباشرة لا عيب في تدخل وسطاء المنطق، لا وسطاء اللغة،
وسطاء الحكمة لا وسطاء السياسة، وعلى الجميع توخي الحذر،
(جادلهم بالتي هي أحسن) قال تعالى: جادلهم ولم يقل حاورهم،
فالمجادلة فيها مكابدة ودرجة عالية من التحمّل، وعدم الإسراع في
الخروج من الموضوع، إلى أن تتحقق القناعات بعد مكاشفات وحجج
دامغة، ليس فيها تزوير أو تهريب من إحقاق الحقّ، وعلى المحاور أن
لا يُستفز من قبل المحاور الآخر، فالاستفزاز قد يُنهي زمن المجادلة التي
لا ينبغي أن تُهزم بالاستفزات غير المسؤولة من قبل الآخر وهكذا
كان جدل نوح عليه الصلّاة والسّلام مع قومه.

ولذا نقول: في المجادلة إصرار وتمسك بالحقيقة، وعدم إعطاء
الفرصة لمن يريد أن ينهي الجدل قبل الوصول إلى نتائج مقنعة، وفيها
التحذير والإنذار، وفيها التواعد إذا لم يتم الاتفاق، وفيها معرفة
العواقب. ولذلك فالفرق كبير بين المجادلة والمحاوره فالمجادلة كما سبق

⁸⁹ هود 35.

تبيانه، أمّا المحاوره فقد لا تكون فيها مكابده وعناء، بل فيها يتم الاعتماد على الأقوال والبراهين التي لا تستوجب الوعيد والتهديد وكذلك يكون الاعتماد فيها على التلاعب بالألفاظ والأقوال، ولذا، قد لا يكون فيها بيان يهدي للتي هي أحسن وأقوم.

ومع ذلك سيظل الحوار والجدل قائم بين الناس حتى بلوغ الفهم والتفهم الذي يؤدّي إلى التعاون والتوحد والتكيف والتوافق، وقد تكون نتائجه عدائية بعد أن تكشف الكلمة الحقيقية، فيكون الصدام والخصام وقد يؤدّي ذلك إلى الاقتتال بغير حق، ممّا يجعل للمجادلين بالحجّة دوراً فعّالاً في إطفاء نار الفتنة، أو كبح جماح الكلمات الفاسدة التي تُفسد ولا تُصلح.

فالأفكار في أساسها منكمشة في العقول والصدور، ثم تمتد من خلال الاتصال بالتبشير، والترشيد، والتحريض، والتنظير، وبالجدل تترسّخ، أو تُصحّح، وتكون في حالة شك إلى أن تثبت، أو تنفى. وقد تمتد أفكار وتنتشر بقوة حجتها، ثم تعود إلى الانكماش عندما تضعف حجتها، ولذا فكلّ من الانكماش والامتداد يتضمن قوّة، والحكمة هي مكنن القوّة المؤثرة في إدراك الحقائق والحجج؛ وهي السبيل للبرهنة عندما يكون الدين هو الأسلوب السائد في عمليات الإقناع بين المتحاورين والمتجادلين، والأسلوب الجدلي يتضمن العزيمة والإصرار على إظهار البيّنة هي كما هي حتى يتم استيعابها وإدراكها وفهمها والأخذ بها واعتمادها دليلاً وحجّة في إحقاق الحقّ وتغيير المواقف من الرفض بدون حجّة أو سبب إلى القبول بإرادة وعن بيّنة.

وهنا يقوم الخليفة بدوره في الدعوة إلى طريق الحقّ الذي شرعه السميع المطلق من أجل إسماع الخلق وصولاً إلى الهداية، ويسلك الخليفة. وهو السميع بالإضافة في إسماع النّاس ودعوتهم. الطريق الذي

يناسب كل واحد منهم من خلال ما أوتي من الحكمة، فيسمع أصحاب العقول النيرة والمدارك العالية القول الحكيم المناسب لقولهم، ويدعو من هم أقل من ذلك وعيا بما يناسبهم من حجج ومواعظ، ويضرب الأمثال التي تُوجِّههم إلى الحق، وترشدهم من أقرب طريق مناسب لهم، وكذلك يسمعهم عن طريق الجدل والحوار بالمنطق السليم والقول اللين، والمجادلة الحسنة التي لا يشوبها عنف ولا سباب حتى يتمكن من إقناعهم واستمالتهم وصولاً إلى قلوبهم وأفئدتهم، وهذا هو الطريق الذي يسلكه السميع بالإضافة لدعوة الناس إلى السميع المطلق جلّ جلاله على اختلاف ميولهم، والإسماع عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة هو السبيل الذي يقيم الحجّة، ولأنها مجادلة يترك أمرهم بعد ذلك إلى اختيار عقولهم التي تميز الخبيث من الطيب، والشر من الخير حيث لا إكراه في الدين كما فعل نوح ومحمد من بعده عليهما وعلى جميع الأنبياء الرّسل أفضل الصّلاة والسلام.

وعليه: فالجدل بالحجّة يؤدّي إلى الاتفاق والتفاهم والتفهّم والجدل، بغيرها لا يؤدّي إلا إلى المعصية القاصية عن الاستخلاف ووراثة الجنة وهو ما حدث بالتمام مع قوم نوح عليه الصّلاة والسّلام. ولذا، لا ينبغي أن يغفل التحليل العلمي عن تتبع التداخل والترابط بين الجزء والمتجزئ والكل، مع مراعاة ما يتداخل بينها من متغيرات. ولهذا، يحدث الاختلاف مع بعض من المعتزلة، الذين انقسموا على طائفتين:

الأولى: التي حاولت بالبحث الجدلي إثبات الجزء الذي لا يتجزأ، وكان على رأسها أبو الهذيل.
والثانية: تقول بأنّ الجزء يتجزأ إلى مالا نهاية، وعلى رأسها إبراهيم بن سيار النظام وأتباعه.

وبناء على ذلك أتساءل:

كيف تقبل الطائفتان أنّ لكل بداية نهاية، ولا تقبل بنهاية المتجزئ منه؟ وكيف تقبل بأن الكل ينقسم إلى أجزاء، ولا تقبل بان الجزء يتجزأ إلى أجزاء متناهية. فعلى سبيل المثال: إذا قطع متسابق مسافة كيلو متر على مضمار كرة القدم، فتكون هذه المسافة كلية، وبما أنها كلية، ألا يكون لها أجزاء تقبل القسمة إليها وهي الأمتار؟ وفي ذات الوقت ألا يكون لهذه الأجزاء جزئيات تقبل القسمة إليها وهي السنتيمترات؟ وهكذا ينقسم الكل إلى الجزء وإلى المتجزئ الذي يُمكن مشاهدته أو ملاحظته وإدراكه والتعرف عليه سواء بالعين المجردة، أو بوسائل تقنية.

وعليه: من تقتصر معرفته أو إيمانه على الجزء أو المتجزئ المشاهد فقط حتى يصدر أحكامه بأنه الحقّ في ذاته فهو قاصر عن المجادلة، ولهذا لن يوصف بالمجادل، فالذي يوصف بالمجادل هو من يستمد خبرته ممّا أعلمه الخبير المطلق به.

قال الله تعالى: { وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا } 90 والجدل لا يتم ببسر، بل يتم بنقاش يؤدّي إلى البينة التي بها الإنسان يدرك مميزا بين ما يجب ويقدم عليه وبين ما لا يجب ويتعد عنه، ولذلك فالجدل يؤدّي إلى اليقين إذا سادت روح الاحترام والتقدير والمشاورة بكل شفافية بين المتجادلين والمتحاورين حيث لا غالب ولا مغلوب إلا سيادة الحقّ وإحقاقه. ولذا فإن اعتدلت النفس بالجدل مع إحقاق الحقّ كانت الخليفة، وإن مالت عن الحقّ مالت عن مبررات سيادة الخليفة.

المحاجة جدل وبرهنة تستند على المنطق وكشف الحقائق، ولذا، لا يدحض الحجّة إلا الحجّة (لا تبطل الحجّة إلا الحجّة) ونتيجة المحاجة هو بلوغ الأحكام الموضوعية بعد كشف الزيف وتحييده عنها، وإثبات الحقّ والتمسك به والعمل دون تحيُّز.

التحليل والبرهنة بالمحاجة هو تحليل تقبُّل ودحض حجّة بحجّة، وسبب بسبب، وهذا النوع من التحليل، يؤدي إلى التغير. والتغيير، تغيير موقف بموقف، وفكرة بفكرة، أما إذا اقتصر التحليل على العناد نتيجة أفكار أو أحكام مسبقة، فإنّ نتائج التحليل الجدلي لا تؤدّي إلى الأهداف العلمية والموضوعية، وتضعف الحجّة عندما تكون مبنية على عناد ليس إلا، ولهذا فالحجّة التي تُطرح للنقاش والجدل دون تعصب لا تشكل عبئا على المدافعين عنها من خلال تقديمهم البراهين التي تؤيدها، وتقبُّل الآراء التي تعارض تأييدهم لها، وذلك من أجل المحاجة العلمية التي بها يُحقّ الحقّ ويزهق الباطل، ولنا في ذلك أنبياء الله تعالى أسوة حسنة.

إنّ التحليل بالمحاجة بين الأطراف المتجادلة أو المتحاوره والمتفاوضة، قد يؤدي إلى انسحاب ضعيف الحجّة من ميادين النقاش، وقد يؤدي إلى انسحاب قوي الحجّة أيضا، نتيجة تحامل الطرف الآخر عليها أو على صاحبها، ممّا يجعل التفاوض أو النقاش في حالة خروج عن صوابه، فيتربّ على ذلك انسحاب أحد الأطراف، وقد يكون المنسحب صاحب الحجّة الصادقة، ممّا يفسح المجال لضعيف الحجّة، بأن يستمر في عرض حُججه الواهية، على من تبقى من الذين لا حُجج لهم، أو الذين تم استغفالهم بغير حق، ولهذا ينبغي أن يكون الحوار والجدال والتي هي أحسن، وأن لا تكون فيه سيادة إلا للحجّة بالمصادق ولذلك قد أكثر نوح عليه الصلّاة

والسّلام جدال قومه بالحقّ مخافة عليهم لا خوفا منهم، ومع ذلك كانوا مصرين على الجهالة.

وعليه لا يتمكن الإيمان من القلوب إلا بالحجّة والبُرهان، والحجّة والبرهان يحتاجان للعقل المؤمن والمدبر والقلب السليم، ولهذا فالإسلام يحترم العقل ويثبته للتفكير لكي يبلغ الحقّ بالحقّ إرادة.

وفي منطق الحوار الجدلي كان نوح عليه الصّلاة والسّلام مجادلا لقومه بالتّي هي أحسن وأقوم، وليس بالإكراه، وكان مراعيًا للبدء معهم من حيث هم (كفار ومشركون) لأجل أن يرشدهم إلى ما يُحدث لهم النقلة إلى ما هو أفضل وأجود وأنفع وأفيد وأحسن وأقوم.

5. صانع الفلك:

صناعة الفُلك مهنة يتمّ التدريب عليها، وهي ليست بالأمر الهين، مهنة تؤسس على هندسة من حيث المساحة والزوايا والأضلاع ومرونة الحركة والارتفاع والسمك والسطح العائم والسطح الغاطس وغيرها كثيرا بما لا يتعارض مع قانون الطفو ويحقق النجاة من الغرق عندما تواجه الفُلك الأمواج العاتية والمتلاطمة كلما هبّت العواصف وعصفت في مياه البحار.

وبما أنّ الهندسة تُعلّم من قبل العلماء ويتمّ التدريب على أفعالها على أيدي الخبراء الممتهين لها في ميادين العمل المتنوعة، فمن يا ترى الذي علّم نوح هندسة صناعة الفُلك؟

نقول:

نوح عليه الصّلاة والسّلام لم يتعلم على أيدي أحد من البشر صناعة الفُلك وهندستها بل تعلّمها من العليم الحكيم مصداقا لقوله تعالى: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ

مُعْرُوثُونَ} 91، فقولهُ تعالى: (بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا) برعاية الله ووحيه وأمره. الذي اتبعه نوح أمراً كما أمر به لأجل أن يصنع الفلک التي بها تحققت النجاة من الطوفان، ونجوا ركباه الذين هم من كل زوجين اثنين وأهل نوح الذين آمنوا به فنجوا من الغرق، ولذلك كانت سفينة نوح عليه الصلّاة والسّلام آية من آيات الله الكبرى على يد نوح على الأرض.

ولأنّها صناعة فائقة في التصميم والتقنية كانت محرّكاتّها قوّة من قوّة الله تعالى ومفاتيحها كلمة من كلماته ولذلك كانت مُعْجِزَةً زمانها قال تعالى: {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ} 92.

من الآيات الكريمة السابقة الذكر يتضح جلياً علم نوح بعاقبة الذين كفروا من قومه بقوله: (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ) نعم أنه علم اليقين لقد تحقق كما كان يعتقد نوح عليه الصلّاة والسّلام، ولهذا الأنبياء اختصهم الله بالمعجزات التي بها يُظهرهم على علمٍ من غيبه، قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أُبْلَغُوا رَسُولَاتٍ رَحِيمٌ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} 93.

91 - هود 37.

92 - هود 38، 42.

93 - الحج ن 26، 27.

مع أنّها معجزة زمانها فهي باقية معجزة مفاتيح التحكم فيها قول
يقال من نوح فتستجيب أمرا، ولذا؛ فأمر حركتها كان قوله: (بِسْمِ اللَّهِ
مَجْرَاهَا)، وأمر توقفها قولُ يقوله نوح عليه الصلّاة والسّلام وهو:
(وَمُرْسَاهَا) أي بسم الله مُرساها فتتوقف مع استكمال قوله تعالى:
(إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ).

6 . مُخَاطَبٌ:

تؤسس المخاطبة على خطاب يقال أو يُرسل، وهي، تحتوي على

الآتي:

أ . مرسل .

ب . مستقبل .

ج . رسالة .

د . تحاور .

هـ . تجادل .

و . أقوال .

ومن اشتراطات المخاطبة:

أ . الاستماع والإنصات .

ب . الاستجابة .

ومن المترتبات عليها:

أ . التناظر .

ب . الفهم .

ج . التفهُم .

د . التقبُّل وتحمُّل الأعباء .

هـ . أعمال .

و . أفعال .

ز . ردود أفعال .

وعليه: فالمخاطبة مشافهة يُسمع فيها الكلام والقول وما يحمله الخطاب من معانٍ ومضامين وقضايا وأفكار وحُكم وحلّول أو معالجات ومبررات قد تكون موضوعية.

وبالعودة إلى مخاطبة الله تعالى لنوح عليه الصلّاة والسّلام نعرف أن بعض المخاطبات تُقبل وبعضها لا يُقبل مصداقا لقوله تعالى: {وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الدِّينِ ظَلَمْتُمْ إِنَّهُم مُّعْرِقُونَ} 94، أي إنّ مخاطبة نوح لربه تعالى تُقبل قبل صدور الله عزّ وجلّ لحكم أو قضاء في أمره، ولهذا، جاء قوله تعالى: (الدِّينَ ظَلَمْتُمْ إِنَّهُم مُّعْرِقُونَ) وبذلك لا يؤمن من قوم نوح إلا من قد آمن (وَأُوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ).

وعليه: فإنّ نوح عليه الصلّاة والسّلام كان مُحاطبا لله تعالى في كل ما من شأنه غير منهيّا عنه، أمّا فيما نهى عنه تعالى فمُنْتَه.

7 . ساخر مّن يسخر:

السخرية من التّاس لا تليق بمكارم الأخلاق ولا بالفضائل الحميدة، أمّا السخرية من الذين يسخرون من العباد الصالحين فهي موجبة، ولذا؛ فهي متماثلة مع قوله تعالى: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ} 95، وكذلك كيد الكائدين.

والسخرية مع أنّ في مفهومها سالبة، إلا أنّ في مفهوم السخرية منها والساخرين بها من العباد موجبة ومفضلة بين المكرّمين منهم، أي أن السخرية التي هي تقليل من شأن العباد سالبة، أما السخرية منها

94 - هود 37.

95 - آل عمران 54.

فموجبة لأجل احترام العباد واعتبارهم والرفعة من شأنهم كما هم عليه من رفعة ومكارم أخلاق.

ولذا، كان نوح مثالا في سخريته من الساخرين منه والذين معه مؤمنين مصداقا لقوله تعالى: {وَكُلَّمَا مَرَ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ} 96. السخرية جاءت في هذه الآية الكريمة بضميرين:

أ . ضمير المفرد الذي يعود على نوح عليه الصلّاة والسّلام بقوله تعالى: (وَكُلَّمَا مَرَ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ) فقوله تعالى: (مَرَ عَلَيْهِ مَلَأُ) الضمير (عليه) الهاء تعود على نوح في شخصه.

ب . ضمير الجمع مصداقا لقوله تعالى: (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) الضمير هنا جاء جمعي (نوح والذين معه) في مقابل جمع (قومه الذين كفروا).

والآية الكريمة السابقة جاءت شرطية، (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ) وهي تحمل المفهوم إلى معنى ما يدل على (إن لم تَسْخَرُوا مِنَّا لِنَسْخَرَنَّ مِنْكُمْ) ولهذا كما يقولون دائما أصحاب الحقّ في الظلم (البادئ أظلم).

8 . مُنذِر:

المنذر هو من ينذر النَّاسَ بالعواقب قبل وقوعها وحدوثها. والإنداز إعلام بالأمر من عليم إلى عالم إلى مُعلّم بأمره (من يتعلق الأمر به) وفي هذا المفهوم نعني بالعليم الله تعالى، والعالم الرّسول أو النبي، والمعلّم به النَّاسَ الذين يعينهم أمر الإنداز الذي أنذروا به من قبل المنذر عليه الصلّاة والسّلام، ولهذا فمصدر الإنداز هو الله تعالى، والمنذر الرّسول أو النبي، والنّاس هم المنذرين، هذا الأمر لم يقتصر على

رسول واحد بل يتعلق بالعموم أي بكل الأنبياء الرسل الذين كلفوا بالإنداز من عند الله عز وجل، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} 97.

أمّا على الخصوص فهو كما جاء في قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ لَكُومٌ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ} 98.

ونعني بالخصوص رسولا بذاته وقوم بذاتهم، كما جاء في الآيتين الكريمتين السابقتين (نوح وقومه) الذي قال: (إِنِّي لَكُمْ لَكُومٌ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) نذير بالعاقبة، ومبين لهم السبيل الذي ينجيهم منها، وذلك باتباع ما أمر الله به والانتهاة عما نهى عنه عز وجل، (أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ).

وعليه يترتب على الإنداز ما يأتي:

أ . العلم بالأمر.

ب . التفادي.

ج . التجنب.

د . الانتهاة.

هـ . أخذ الحيطة.

و . التخويف.

ز . التحذير.

ح . الإيمان.

ط . الشرك.

ي . الكفر.

97 - الرعد 7.

98 - هود 25، 26.

إذا المنذر، هو حامل الرسالة وصاحبها المكلف بها، وحملها مسؤولية جسيمة تؤدي دون أي تقصير، ولذلك يصطفي الله تعالى المنذرين اصطفاءً بعد تصديقهم الأمر الذي إليه أصبحوا رُسلًا منذرين.

ولذا فالإنذار قول يُخبر به ويُحرض عليه ويُحَفِّز به، فيه من المخاوف والمحاذير ما يكفي للهداية والتجنب والأخذ بالأمر الذي يحمله الإنذار، وفي الإنذار بيان للناس بالعواقب الموجبة والسالبة، لأجل الأخذ بالموجب والابتعاد عن السالب وتجنبه والانتهاز عنه.

الإنذار علم واستباق، علم بالأمر، والإقدام على تبيانه لمن يتعلق بهم قبل أن يفاجؤوا، ولذلك لا ذنب يُكتب على أحدٍ إلا ما قد كتب أحد على نفسه من ذنوب، قال تعالى: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} 99.

وعليه فالمنذر هو العالم بما يجب والمقدم على إبلاغه مع حمل مسؤولية بيانه ليهتدي من بعد من يهتدي وليكفر من يكفر حيث لا إكراه في الدين، ولذلك فالمنذر من الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم سيكون شهيدا يوم القيامة على من أنذرهم واستجابوا له وكذلك سيكون شهيدا على من أنذرهم وكفروا أو أشركوا.

ولذا؛ فالمنذر هو من يُنذر المنذرين في الزمن الممكن أي الزمن الذي تكون فيه الفرص متاحة للتكفير عن الذنوب والخطايا وتجنب ما يمكن تجنبه والانتهاز عما يجب الانتهاز عنه والإقدام على الأخذ بما هو أحسن وأقوم، ولذلك كان إنذار نوح لقومه بقوله كما جاء في القرآن الكريم: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ

عَذَابٌ مُّقِيمٌ}100، آية تَنْصُ عَلَى عَذَابٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ سِيحَدُثُ لَا مَحَالَةَ، وَبِالنِّسْبَةِ لِقَوْمِ نُوحٍ كَانَ مُسْتَقْبَلُهُمْ عَلَى فِئَتَيْنِ رُئِيسَتَيْنِ هُمَا فِيهِمَا شُهُودٌ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ:

الفترة الأولى: كانوا شهود على غرقهم في الحياة الدنيا يوم الطوفان يوم نجات نوح عليه الصلاة والسلام وأهله الذين آمنوا به وركبوا الفلك مع كل زوجين اثنين.

الفترة الثانية: سيكونون شاهدين يوم البعث على ما يلحق بهم من عذاب شديد. يومها يقينا سيكونون مع المجيبين على السؤال:

. لمن الملك اليوم؟

. اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}101.

9 . عَطُوف:

العطوف هو المملوء بعاطفة الانتماء إلى نوعه، والعاطفة الإنسانية غريزة تُسْتَمَدُّ مِنْ عَاطِفَةِ الْأَبْوَةِ وَالْأُمُومَةِ وَالْأَخُوَّةِ، فَهِيَ تَحْمَلُ دَفْعَ الْأَحَاسِيْسِ وَالْمَشَاعِرِ بِالْآخِرِينَ مِنْ ذَوِي عِلَاقَاتِ الْقَرْبَى، وَتَدْفَعُ إِلَى الْإِهْتِمَامِ بِهِمْ حِمَايَةً وَرِعَايَةً وَعِنَايَةً.

تزداد العاطفة الغريزية قوّة كلما قرب الانتماء بالدم وتضعف كلما بَعُدَ، لِذَلِكَ نَلَاظُ قُوَّةَ الْإِرْتِبَاطِ وَشِدَّتَهُ بَيْنَ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَتَبَادُلَهُ إِجَابِيًّا بَيْنَهُمَا إِلَّا مِنْ شِدَّةٍ عَنِ الْقَاعِدَةِ.

ويترتب على العاطفة اهتماما بالمعطوف عليه من قبل المعطوف، ولذلك فالمعطوف قادر على تقديم التنازلات من أجل المعطوف عليه، وفي سبيله يحدث التراجع عن بعض المواقف أو القرارات، وتصبح قيمة

100 - هود 39.

101 - غافر 16.

التسامح متوّجة في قلب العطوف، ويصبح الرضا متوجا في قلب المعطوف عليه.

العطوف هو من تفيض مشاعره بالمودّة مع من يرتبط معهم بعلاقات الأبوة والأمومة والأخوة وذو القربى، ومع أنّ العاطفة والعطف مشاعر وأحاسيس إلا أنّها لا تقتصر على النوع البشري، بل تتعداه إلى عوالم أخرى من الطير والحيوان، ولذلك قلنا العاطفة غريزية فطرية ممّا يجعل المخلوقات ممّا نعرف متأثرة بها، فالطيور تعطف على أبنائها لدرجة في صغرها تغذيها وتسقيها بفمها ومناقيرها، وكذلك تدافع عنها ما استطاعت من قوّة، وهكذا الحيوانات تحمي مواليدها ولا تتخلى عنها بسهولة ويسر، وفي بعض الأحيان تُضحى من أجلها.

ومع أنّ العاطفة غريزية فالعطوف لا ينتظر من أحدٍ ليقضه إياها، فهي طبيعية تتحرك في النفس والعقل من أجل الآخرين، ومع ذلك فهي لا تتحرك إلا في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع أحيانا.

وعلى المستوى الإنساني كان نوح خير مثال للأب العطوف مصداقا لقوله تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} 102، فقول نوح كما نزل في القرآن الكريم: (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) بمعنى أن ابني يهمني كثيرا، وقلبي يخاف عليه أكثر، ولذلك فإنّ نوح يُريد أن يُحدث الفعل الذي به يطمئن قلبه على ابنه؛ ولذا فهو يطلب التدخل لإنقاذه من الطوفان والغرق الذي سيتحقق لا محالة، ومع أنّ نوحا عليه الصلّاة والسّلام قد أظهر تلهف قلبه على ابنه، إلا أنّه كان مستعدا لحكم الله فيه بقوله: (وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) بمعنى النزاهة في الحكم الذي يرتضيه

الله تعالى وهو الحقّ والعدل ورأس الصواب الذي يحقق الطمأنينة لقلب نوح عليه الصّلاة والسّلام، ولهذا، كان نوح راضيا بقضاء الله في ابنه.

كانت شدة العاطفة تشد نوحا عليه الصّلاة والسّلام تجاه ابنه الذي لم يركب مع الراكبين في الفلك بظنه أن إيواؤه للجبل ينجيه من الغرق، أي أنه وثق في الجبل ولم يثق في خالق الجبل الذي بعث نوح رسولا، ومع ذلك نادى نوح ابنه ليركب معه فلم يستجب مصداقا لقوله تعالى: {وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَأُوبِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ} 103. يُفهم من الآية الكريمة (يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا) دلائل ضمنية ذات ثلاثة معانٍ رئيسة:

المعنى الأول: طلبي، وكأنّه يقول من الأفضل لي ولك يا بني أن تركب معنا، ولذلك فقوله: (يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا) وكأنها مؤسسة على الترجي.

المعنى الثاني: أمري، وكأنّه يقول: يا بني، اركب.

المعنى الثالث: إنذاري، وكأنه يقول يا بني أركب معنا وإلا.

وفي مقابل المعاني الثلاثة السابقة الذكر وهي آخر طلب، وآخر أمر، وآخر إنذار يقوله نوح لابنه جاء نهي الأب الرسول وتفضيله لابنه الذي لم يطعه في قوله تعالى: (وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ) جاءت على معنيين:

المعنى الأول: لا يُقبل أن تكون يا بني مع الكافرين، أي بمعنى: يجب أن لا تكون مع الكافرين ولذلك أنصحك وعليك أن تنتهي.

المعنى الثاني: المعنى الضمني يحمل في قول نوح لابنه مَعْنَا وكأنه يقول له: عليك أن تفكر جيدا حتى تعرف أن ركوبك مَعْنَا هو المحقق لك الأمرين الموجبين: النجاة والإيمان، وأنَّ عدم ركوبك لن يحقق لك إلا الشيعين السلبيين: الكفر والغرق، وعليك أن تختار.

وكل الحوار الذي قاده العاطفة التي اتصف نوح بها قاد إلى نتيجة وهي أن ابنه ليس من أهله مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 104.

ولأنَّ العاطفة ضاغطة على النفس الإنسانية، لذا؛ فهي ذات شِدَّة وقوَّة يمكن أن تقود إلى الصواب وتحقق السلام، ويمكن أن تقود إلى الخطأ وتحقق الهلاك فلولا إيمان نوح وإسلامه رسولا لله جلَّ جلاله ما كان قابلا وراضيا بحكم الله تعالى (وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) هذه الآية الكريمة تدل على تسليم نوح وقبوله المسبق بما يحكم الله عزَّ وجلَّ به في ابنه الذي قال: (سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ) ممَّا جعل نوحا عليه الصلّاة والسّلام يرد باليقين قائلا: (قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ)، نعم إنه القول الحقّ، مصداقا لقوله تعالى: (وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) فالحمد لله ربِّ أننا من الطائعين المصلين والمسلمين على جميع الأنبياء والمرسلين.

ولأنَّ العاطفة قوَّة ذات شِدَّة كان لها الأثر الواضح في قلب نوح عليه الصلّاة والسّلام وعلاقته بابنه وكذلك كان لها الأثر الواضح من بعده على أم موسى عليها السلام وعلاقتها بابنها موسى عليه الصلّاة والسّلام، فهي بأسباب قوَّة العاطفة وشِدَّتْهَا كادت أن تُبدي به لولا

أن ربط الله على قلبها بالإيمان مصداقا لقوله تعالى: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُحْتِ قُصِيهِ فَبَصُرْتُ بِهِ عَنِ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} 105.

وعليه: فالعاطفة قوّة تنشأ في القلوب وتحملها الأنفس وتلد مع المواليد لتغرس فيهم عاطفة الأمومة والأبوة والأخوة والعمومة وذوي القربى، ولعلم الله تعالى بقوّة العاطفة وشدّتها على أنفس الأمهات والآباء، ولعلمه بحاجتها للإشباع بالحسن من قبل الأبناء قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا} 106.

يفهم من الآية الكريمة السابقة أن العاطفة تُجرح فتحقق الألم بأسباب القول أو الفعل غير المهدبين، لذا جاء قوله تعالى: (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا) ولأن الله تعالى ودود رحيم لا يقبل التوقف عند الانتهاء فقط بل قال: (وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا) ثلاث متغيرات رئيسة وردت في الآية الكريمة السابقة هي:

أ . القول الكريم الذي يطمئن القلوب ويريح الأنفس من عناء العاطفة وشدّتها.

105 - القصص ص 10 . 13.

106 - الإسراء 23، 24.

ب . الجنوح والميل إلى الوالدين باللين والفعل الحسن مع حُسن التواضع لهما وكذلك تحسيسهم بالرفعة والاعتبار ووافر التقدير والعرفان.

ج . دُعاء الله لهما بالرحمة على ما فعلوه وما تحمّلوه من متاعب وأعباء وآلام وسهر في سبيل راحة أبنائهم وتربيتهم التي أخذت جُلَّ جهدهم وعظيم عاطفتهم وكبير عطائهم.

ومع أنّ الله تعالى جعل العاطفة تقود إلى المودة والمحبة، كذلك جعلها تقود إلى الكره والألم، فمن حيث قيادتها للمحبة والمودة عندما تصبح سببا في طمأنة القلب، ومن حيث قيادتها للألم عندما تقود للكفر والشرك والمعصية فتجعل القلق شاغلا للقلوب والأنفس، ولهذا عندما تشتد العاطفة قد يستسلم البعض ويضعف لما لا يحمد عقباه ولهذا نهي الله عن ذلك بقوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} 107.

يُفهم من الآيتين الكريمتين السابقتين أن طاعة الوالدين واجبة في غير معصية الله، ومع ذلك حتى وإن عملا على أن يُشركا أبنائهما بالله عزّ وجلّ، ينبغي مصاحبتهما في الدنيا وأداء أفعال المعروف فيهما وإليهما مع مراعاة الشرط الرئيس ألا وهو عدم طاعتهما في الشرك بالله تعالى تحت أيّ أمر من أمور الدنيا.

ومع أنّ العاطفة قوّة تشدُّ الآباء إلى أبنائهم، والأبناء إلى آباءهم إلا أنّها لا تستطيع أن تصمد أمام قوّة الإيمان، ولهذا، صمّد نوح عليه

¹⁰⁷ - لقمان 14، 15.

الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ بِقُوَّةِ إِيمَانِهِ أَمَامَ عَطْفِهِ عَلَى ابْنِهِ، مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 108.

وعليه: مع أن نوحا عليه الصَّلَاة والسَّلَام كان عطوفا إلا أنه لم ينقاد لعاطفته بل انقاد لربه بقوله: (إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ).

ولأن نوحا عليه الصَّلَاة والسَّلَام عطوف كان قادرا على تقديم التنازلات أمام عاطفته التي تشده شدا وكان قادرا على لي ذراعها عندما حاولت أن تلوي ذراعاه.

إذا تقديم التنازلات في سبيل الأبناء لا تكون إلا بأسباب العاطفة، أما تقديم تنازلات الأبناء لأبائهم فقد تكون غيرها أي بأسباب دينية طاعة لله والتزاما بأمره مصداقا لقوله تعالى: (وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبِهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

العطوف هو من لا يؤذي الناس بل هو من يرحمهم ويؤدبهم في كل فرصة، والذين تقودهم العاطفة على حساب كل أمر فهؤلاء هم الشهبانيون الذين يسعون لبلوغ المشبعات مع غض النظر عما يترتب عليها من نتائج النهي والاجتناب والتحريم.

العاطفة وتحقيق مشبعاتها في دائرة الاهتمام القيمي يُعدُّ من الموجبات الأخلاقية، أمَّا إشباعها على حساب الفضائل والقيم فلا

يُعدُّ إلا كفرا بالله وأنعمه، ولذلك على الإنسان أن يتقي ربُّه تعالى في نفسه وماله وزوجه ووالديه وأبنائه ومن له الحقُّ عليه وليعمل صالحا أينما يكون.

العاطفة لو لم تكن قوَّة ما سيطرت على عقول البشر في كثير من المواقف حتى أنَّها في بعض الأحيان تجرُّهم للانصياع لارتكاب المظالم على حساب الموضوعية الأخلاقية، خاصة عندما ينحاز الإنسان لمن يرتبط به بعلاقات قريى على حساب قيمة العدل واحترام قيمة الإنسان أين ما وجد، ولذلك عندما تكون العاطفة على حساب حمل المسؤولية تصبح المظالم قيمة سائدة بين النَّاس، وسيادة هذه المظالم بطبيعة الحال لا تؤدِّي بالبشر إلى مرضاة خالقهم.

ولذا؛ فإنَّ المسؤولية وتحمل أعبائها بين النَّاس ضرورة لإحقاق الحقِّ وإزهاق الباطل، ولذلك كان حمل الأمانة أمر لا مفر من حملها التي عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} 109.

إذا حمل الأمانة مسؤولية وليست بعاطفة، والمسؤولية التزام بالطاعة وعدم المعصية وليس مجارات للأهواء والعواطف التي تميل إلى الشهوات، ولذا حمل الأمانة مسؤولية والتزام بطاعة الله تعالى لا شريك له، ولذا فإنَّ حمل الأمانة عبء كبير، فمن كان عليها كانت له الخلافة، ومن لم يستطع فلن يكون خليفة على الأمانة.

ولثقل عبء الأمانة التي التزم الإنسان أمام ربه تعالى بحملها لم يُوفِّق في حملها بالتمام، فكان التقصير من بعضه، وكان الشرك من

بعضه، وكان الظلم وقتل النفس التي حَرَّمَ الله، وكان الفساد في الأرض، وكان أكل أموال الناس بالباطل، وكان قول الزور متمشياً مع شهادة الزور، وكان الزنا مع المحرمات، والكثير من المعاصي وعدم الطاعة.

ولذا؛ فمن يستمد صفاته من صفات خالقه تعالى يكون مسؤولاً على نفسه وعن الذين تربطه بهم علاقات زوجية وعلاقات أبوة وأمومة وأخوة وعمومة وبنوة، وكذلك عندما يكون مسؤولاً يجب أن يكون بمسؤوليته أميناً عادلاً مسيطراً يقوده العقل لإحقاق الحق ولا تقوده العاطفة للمفاسد والشهوات التي في بعضها وجوبية التجنب والانتهاز والتحريم، ولهذا، العقاب فيما يجب ضرورة وفقاً للتشريعات التي يرضيها المجتمع وتقرها أخلاقياته المستمدة من الدين والعرف.

وعليه: فالعطوف يجب أن يكون في محبة الله وطاعته مسؤولاً كما كان نوح عليه الصلّاة والسلام مسؤولاً، فمهما أشتدّت عاطفته تجاه ابنه كان أمام ربه مسؤولاً طائعاً لأمره حتى انهزمت عاطفته أمام عقله وإيمانه وحمله للأمانة التي بها كان خليفة في الأرض كما كان من قبله أبوه آدم عليهما الصلّاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ 110.

ولذا، تكمن المسؤولية في تحمّل المخاطر أو الأعباء المترتبة على أداء الفعل أو العمل ولأتمّها كذلك؛ فهي عملية عقلية تُبنى على معطيات أو مسلّمات تستوجب التحليل وإجراء الحسابات الذهنية، وتستوجب التفسير والتمييز بين الخطأ والصواب وبين الحلال والحرام وبين القوّة والإرادة، ثم أخذ القرار، وتحمّل الأعباء المترتبة على ذلك.

ولأنّ العاطفة مُنَشِّطَةٌ للغريزة فهي التي تجعل الإنسان في وضع التهيؤ الذي يكمن في المساحة الحرة بين العقل والعاطفة، وذلك عندما تستثار الغريزة بدفع من العاطفة التي تُغذيها الأفكار، ولذلك كلما تكاثرت الأفكار في قضية ما، اشتدت العاطفة ودفعت الغريزة إلى ممارسة نشاطها، لذلك نقول: المتهيئات كامنة في العواطف بتعدد الأفكار، فعندما يكون العقل في أوج نشاطه يسيطر على عواطفه ويجعلها في حالة سُبات بحيث لا نشعر بوجودها، وأما إذا اشتدت العواطف فإنها تستدعي معظم أفكار عقلها الخاصة بالحدث بمؤثرات خارجية عن طرق الإدراك الذي ينعكس شعورا داخليا يُوجج العاطفة بحيث تصبح أكثر نشاطا من العقل.

فنشاط العواطف يُضعف من نشاط العقل قدرا يناسب قوّة العواطف، وكذلك العقل يُضعف من نشاط العواطف درجة تناسب قوته ونشاطه، وعند صرف النظر عن الفكرة المنشطة للعاطفة تتلاشى في العقل وتهدأ العاطفة، فيزول التأثير عن الغريزة التي دفعت التهيؤ للظهور إلى حين ظهور المؤثر الخارجي مرة أخرى أو استدعاء الفكرة من الحافظة عن طريق الذاكرة.

إن السبب في قوّة العقل وسيطرته على عواطفه هو ذوبانها فيه، وذلك عندما يمتص قوى تلك العواطف الفكرية، كما أن سيطرة العواطف على العقل وتغلبها عليه، هو ذوبانه فيها بامتصاصها أغلب أفكاره المقيدة للإرادة، ولحظة الصراع الناتجة عن الأفكار بين العقل من جهة والغريزة بدفع من العاطفة من جهة ثانية إنما هي لحظة التهيؤ الذي يواجه حاجز الإرادة التي هي مرحلة بعد التهيؤ، فلا تهيؤ إلا بإرادة، ولا إرادة إلا بتهيؤ، ولكن يظل لكل مصطلح خصوصية في المعنى والدلالة حتى وإن اشترك مع غيره أو أتحد، فالإرادة قرار والتهيؤ

تحفُّز للقول أو الفعل الذي بشأنه يتخذ القرار، وهذا ما يفسر لنا قوَّة العقل بعد تسلطه على العاطفة وفرض سيطرته عليها، وكذلك العواطف أقوى ما تكون عندما تكبح جماح العقل وتُحجِّمه وتخضعه لسيطرتها، فيفسح المجال أمام الغريزة، وفي هذه اللحظة أعظم ما يكون التهيؤ على أشده عندما يصطدم بالإرادة التي هي باب الأفعال في الكبح أو السماح، ولولا فرض العقل سيطرته على العواطف لما كان له النشاط المعهود من الحدة والانتباه بعد تسكين العواطف واختفائها مؤقتاً.

وعندما يأخذ من نشاطها تزداد ضعفاً ويزداد هو قوَّة وانتباهاً. هذا التبادل العكسي بين العقل والعاطفة إنما جاء نتيجة المادة المشتركة التي تغذي كلاً منهما على حدِّ سواء، ويتجلى ذلك في اتحاد العقل والعاطفة أو موافقة العقل للعاطفة كالمودة والرحمة، وعندما يتم التطابق بين العقل والعاطفة يكون للعلاقات الزوجية معنى ودلالة ويكون لممارسة الحلال لذة ورحمة، ولهذا تزداد سرعة القوَّة عندما يسود التطابق الإيجابي بين العقل والعاطفة، وتنعكس الأمور في ذهن الإنسان وعقله عندما يكون الاستنتاج سلبياً، لذلك يتأخر اتخاذ القرار الإرادي بسبب التردد ولاستغراق العقل في الاستنتاج أيضاً.

ولأنَّ العاطفة قوَّة نادى نوح عليه الصلّاة والسّلام ابنه مصداقاً لقوله تعالى: (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ)، ولأنَّ العاطفة قوَّة قالت أم موسى كما جاء في القرآن الكريم: (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِعًا إِنَّ كَادَتْ لِتُبَدِّي بِهِ لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).

وعليه نقول:

الحنان والمحبة هما القوتان التوأم مولودا قوّة العاطفة، ولهذا لا مِحنة ولا مودة لو لم تكن العاطفة سابقة عليهما. فالعاطفة قوّة تقع في دائرة الممكن السالب والممكن الموجب (المتوقع وغير المتوقع)، وهي التي تمد المولود بدفء الأمومة ودفء الأبوة، وتمده بجرارة الالتصاق.

ولذا؛ فإن القاعدة هي:

1. قوّة العاطفة.

2. قوّة الحنان.

3. قوّة المحبة.

والاستثناء هو:

1. ضعف العاطفة.

2. ضعف الحنان.

3. ضعف المحبة.

وعليه: على المبشرين والمندرين بالحقّ أن لا يغفلوا عن أهمية العاطفة الإنسانية وأن يعملوا على تقويتها بما يُفيد الفرد والجماعة والمجتمع. ولهذا من باب الوجوب والضرورة يسعى الواعظ والمرشد والمصلح إلى تقوية العاطفة الواعية بأهمية الأبوة والأمومة والأخوة والعمومة وحق الجيرة في الاحترام والمساعدة ونيل الاعتراف والتقدير وتحقيق الاعتبار.

ولأنّ العاطفة قوّة فلا ينبغي إغفالها، فهي إن لم تستثمر في أوجهها تدخل في دائرة غير المتوقع السالب، ممّا يجعل الضعف يدخل إلى نفوس الأفراد بدلا من دخول القوّة الإيمانية إليهم. ففي المواقف السالبة عاطفيا لا تُمكن الأفراد من اتخاذ قرارات واعية، ولا يتمكنون من رسم سياسات موضوعية، ولا يتمكنون من تصميم استراتيجيات لصناعة المستقبل النافع والمفيد. فعلى سبيل المثال: بعض الأطباء

الجراحين المهرة لا يوقفون في القيام بعمليات جراحية لزوجاتهم أو آبائهم أو أبنائهم، بسبب سيطرة قوّة العاطفة على قوّة المهارة والخبرة. مثل هذه الحالة تُقرأ من زاويتين:

الزاوية الأولى: هؤلاء الأطباء يقدرّون على أنهم يمتلكون قوّة عاطفة تجاه آبائهم وأزواجهم أو أبنائهم.

والزاوية الثانية: أنّ الضعف قد ألمّ بهم، والضعف ليس بقاعدة، ولهذا، يتغلب الاستثناء الذي هو في حاجة لتقويته بالمعالجة. وعليه:

.كُن قويا بقوّة عاطفتك لا بضعفها.

.كُن محبا بصحوة نفسك لا بغيوبتها.

.كُن بمودتك حنوناً.

.ثق أنك قوّة.

.تحكّم في عاطفتك دون أن تطمسها.

.ميّز بين المودة الثابتة والعاطفة المهترئة واتقي الله فيما تقول وتفعل وتعمل وتسلك.

10 . مستغفر وأمر بالاستغفار:

الاستغفار صفة من صفات الأنبياء والمرسلين والصديقين والصالحين وجميع الوارثين في الدارين ولأنّ نوحاً وإبراهيم عليهما الصلّاة والسّلام هما أبوان للأنبياء الرّسل من بعدهما فهما بدون شكّ على رأس المستغفرين حيث جعل الله عزّ وجلّ في ذريتهما النبوة والكتاب مصداقا لقوله تعالى: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النّبوةَ وَالكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ } 111.

بطبيعة الحال لم تكن جميع ذرية نوح وإبراهيم أنبياء أو مهتدين بل كان أكثرهم فاسقين وكافرين ومشركين فقله تعالى: (فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ) جاءت تبعيضية لتدل على أنّ البعض الآخر غير مهتدين وأولئك هم الكثرة مصداقا لقوله تعالى: (وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ).

وبناء على ما سبق فإنّ الاستغفار يُعد ضرورة للمؤمنين المسلمين وجوههم لله ربّ العالمين من حيث:

أ . لأنّ من أسمائه الحسنى الغفور الذي يتولى غفران الخطايا لمن استيقظ من غفلته وانتهى عما سلف من ارتكاب الخطايا والسيئات وتوجّه بطلبه وتضرعه للغفور، ولذلك أصبح الاستغفار رحمة للعباد وكان الغفور رحمن بهم.

ب . لأنّ الإنسان بطبعه لم يُخلق على الكمال حيث لا كمال إلا لله تعالى، فالبشر مكثرون من ارتكاب الخطايا والسيئات، ولهذا بعث الله الأنبياء الرّسل فيهم لأجل الهداية التي هي أحسن وأقوم، ولأسباب التكرارات في ارتكاب السيئات عبر الزمن من جيل إلى جيل كان الغفور جلّ جلاله باعنا للرسل في كل فترة حتى الرسالة الخاتمة والرّسول الكافة محمّد عليه الصّلاة والسّلام، قال تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} 112.

ولأسباب كثرة الأخطاء والسيئات البشرية كان أكثرهم لا يؤمنون، وأكثرهم لا يعلمون، وأكثرهم يجهلون، ولا تجد أكثرهم شاكرين، وأكثرهم فاسقون، وأكثرهم يتبعون الظن، وأكثرهم لا يعقلون، وأكثرهم مشركون، وأكثرهم معرضون لا يسمعون، فمن يعرف أمثال هؤلاء الكثر ليس له بدّ إلا أن يستغفر ثلاثة مرات:

112 - المؤمنون 44.

مرة بأسباب أخطائه أي كلما عرف أنه على خطأ استغفر ربُّه تعالى وعاد إلى صوابه ورشده.

ومرة كلما رأى ما يرتكبه الكثرة من عيوب وخطايا وسيئات استغفر ربُّه ممَّا يرتكبون فهذه تدل على استمرار الصلة بالغفور المطلق جلّ جلاله.

ومرة تدل على الاستغفار لهم كما جاء في قوله تعالى لرسول الله محمد عليه الصلّاة والسّلام: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} 113 أمر بالاستغفار لهم فيما الله عليهم من تبيّة.

ولوجود هذه الأسباب والعلل كان نوح عليه الصلّاة والسّلام على رأس المستغفرين قال تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 114، استغفار نوح لم يكن بأسباب ارتكابه سيئة من السيئات، فقد استغفر الله ولم يرتكب سيئة. بل كان بأسباب العاطفة التي تربطه مع ابنه كما كان يظن، ولذا فهو لم يعلم بالحقيقة التي عليها ابنه الذي اتضح أنه عمل غير صالح مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} 115، ولمجرد أنّ نوح عليه الصلّاة والسّلام قد عرف أنه لم يعلم بحقيقة الأمر استغفر ربه على ما كان لم يعلم.

. الاستغفار:

طلب المغفرة من الله تعالى على ما يتهيأ للمؤمن من أفكار أو فيما كان يظن، أو لما صدر منه من قول، أو لما قام به من عمل لا يليق بمن آمن بالله تعالى، أو لما ارتكبه من ذنب ثم استدرك نفسه

113 - آل عمران 159.

114 - هود 47.

115 - هود 46.

بالالتجاء والعودة إلى الله بدلا من الاستمرار أو البقاء على ما يُحْيِيهِ
عن إيمانه به تعالى 116.

قال تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا
إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} 117 في هذه الآية الكريمة جاء الاستغفار
سابقا على التوبة وهكذا دائما التوبة تلاحق الاستغفار وهو يرتبط
بها.

الاستغفار لا يقتصر على نبيٍّ أو رسول، بل يتمدد بين أيدي
جميع من يرغبون التوبة لله عزَّ وجلَّ قال تعالى: {وَأِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ
صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ
الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ
مُجِيبٌ} 118.

ترشد هذه الآية الكريمة إلى أن صالحا عليه الصَّلَاة والسَّلَام قد
أُرسل إلى ثمود، ليحرضهم على عبادة الله واحدا أحدا، أما قوله
(أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) النشأة هي الخلق التي منها
وعليها حُلُق الإنسان وهي تأكيد على أن أصل خلق الإنسان من
تراب، والأرض هي الأصل وهي مصدر الرزق والعيش، والتي لولاها
ما كان الإنسان وما كان الرزق الذي به يعيش، ولذا: فلماذا لا
يستغفر الإنسان ربُّه وهو يتذكر كيف له أن يكون لو لم ينشئه فيها
ويهب له منها الخيرات والأرزاق الكثيرة؟ وهل كل ما بين يديه هو من
عنده أم من عند الذي أنشأه في الأرض واستعمره فيها؟ بين هذا

116 - عقيل حسين عقيل، موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في

الأرض، المجلد الثاني، 2009، ص 227.

117 - هود، 3.

118 - هود، 61.

وذاك ليس له بدٌّ إلا أن يستغفر الله معترفاً أنَّ كل ما بيديه هو من يدي الله الرَّحمن الرَّحيم الخالق الرزاق الغفور الودود وكل أسمائه الحسنی جلّ جلاله. ولهذا فالاستخلاف فيها لأجل إعمارها بالبناء والعيش من خيراتها الوافرة التي تتطلب من الخليفة ألا يغض بصره عن مكامن الخيرات فيها ويعمل ليتطوّر ويشبع حاجاته طوال عمره حتى النهاية التي سيؤول إليها.

الاستغفار هو ذكر الله دائماً بالوحدانية والقدرة المطلقة وتذكّر عن غفلة أو انقياد للشهوة على حساب التمسك بالحق.

والتوبة هي: عودة إلى الله بالتصديق دون شك فيما يُقال. ولهذا جاء الاستغفار مقدماً على التوبة، أي أن الاستغفار إذاً بإعلان التوبة.

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾¹¹⁹ كما سبق أن بيّنا في الآيات الكريمة السابقة، جاء الاستغفار أولاً ثم التوبة ثانياً، والاستغفار والتوبة يُقدّمان طاعة للرحيم الودود لتكون الإجابة المغفرة.

قال تعالى: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾¹²⁰ أي من عمل خطيئة وهو لا يعلم بعاقبة الأمور المترتبة عليها نتيجة جهله بمعرفة الحقيقة ثم عاد عن ارتكاب الخطيئة إلى التمسك بما هو صواب وحق فإن الله غفور رحيم؛ فالله العظيم ليس لديه حاجة لأن يخاصم العباد، ولذا فالمغفرة خاصة لله تعالى، ولأنها خاصة، إذن بطبيعة الحال سيكون غفوراً لمن يكفّر عن الذنوب والخطايا ويتوب إليه عزّ وجلّ.

¹¹⁹ - هود، 90.

¹²⁰ - الأنعام، 54.

الغفَّار هو القادر على التجاوز عن الأخطاء وغفران الذنوب والخطايا، مصداقا لقوله تعالى: {وَأَيُّ لَغَفَّارٍ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} 121، ولذا؛ فالغفَّار هو الذي يمتلك أمر المغفرة لمن تاب وآمن وعمل عملا صالحا يرضاه، ولذلك قوله تعالى: (وَأَيُّ لَغَفَّارٍ) تعود على ذات الله الذي بيده الأمر فيغفر لمن يشاء ويعاقب من يشاء بيده الخير وهو الرحمن الرحيم. وهذه الآية تدل على أن أمر مغفرة الذنوب والخطايا بيد الله وحده ولا أحد غيره قادر على أن يغفر ذنبا أو خطيئة مطلقة، ولذا فمن أراد أن يُغفر له فعليه التوجه إليه جلّ جلاله وأن يتوب أولا ثم يؤمن ثم يعمل عملا صالحا حتى يهتدي وينال المغفرة من الله تعالى.

وعليه لا مغفرة إلا بتوبة وإيمانٍ وعملٍ صالحٍ وهدايةٍ، وبدون هذه مجتمعة فلا مغفرة، فالمغفرة ليست أمرا هينا بل هي مطلبا يسعى المؤمن لنيله من الغفار الحقّ؛ ومن يظن أنه بإمكانه الحصول عليها متى ما يشاء فنقول له هذه قد لا تهب لك، فعليك من بعد التوبة بالإيمان والعمل الصالح والهداية وإلا لن تنال من أمر المغفرة شيئا.

وقال عزّ وجلّ: {وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} 122 الذين عملوا السيئات هم الذين تابوا من بعد أن ارتكبوها، ولذا؛ فإن التوبة هي عودة المنحرف عن انحرافه، أي العودة إلى التمسك بما أمر الله تعالى به والابتعاد عمّا نهى عنه، يتضح من هذه الآية الكريمة أنّ أمر المغفرة مترتب على ما يسبقها من أعمال إيمانية.

121 - طه، 82.

122 - الأعراف 153.

بُعِثَ الْأَنْبِيَاءَ الرُّسُلَ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِمْ لِيُنذِرُوا أَقْوَامَهُمْ
 وَشُعُوبَهُمْ وَأُمَّمَهُمْ مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: { إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ
 أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ
 مُبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاتَّقُوا اللَّهَ
 إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ قَالَ
 رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا
 دَعَوْتُهُمْ لَتَعْفِرَهُمْ لَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرَوْا
 وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ
 لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا {123}.

بُعِثَ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى قَوْمِهِ لِيُنذِرَهُمْ وَفَقَا لِمَا هُمْ عَلَيْهِ
 مِنْ ضَلَالٍ وَشُرْكَ وَكُفْرٍ، وَلِذَا؛ فَإِنذَارُ نُوحٍ لِقَوْمِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِأَجْلِ
 أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْفُرْصَةُ الَّتِي بِهَا يَتِمَكَّنُونَ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)
 فَأُنذِرُهُمْ بِقَوْلِهِ (يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ
 وَأَطِيعُوا اللَّهَ)، إِذَا أَنْذَرَ نُوحٌ قَوْمَهُ بِالْآتِي:

أ . البيان الذي بيّنه لهم (مُبينٌ).

ب . عبادة الله وترك كل ما دونه يعبدون، (أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ).

ج . اتقاء الله في القول والعمل والفعل والسلوك (وَاتَّقُوهُ).

د . طاعة الله في كل أمر ونهي وفرض وبقا لما جاءهم به نوح عليه
 الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. (وَأَطِيعُوا اللَّهَ).

وعليه: لو استجاب قوم نوح لما أتاهم به من بيان وعبادوا الله لا
 شريك له، واتباعوه وأطاعوه لغفر الله لهم من ذنوبهم مصدقا لقوله
 تعالى: (يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ

إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)، ولذا فإن الاستغفار مترتب على الأفعال الحسان وليس على ارتكاب الخطايا والسيئات.

كان نوح ليلاً ونهاراً خيراً داعٍ لقومه للاستغفار من ذنوبهم التي ارتكبوها ولكنهم لم يستجيبوا لدعائه بل ازدادوا كفراً وشركاً وطغياناً قال تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا).

قوم نوح كانوا مُصِرِّينَ على العصيان والكفر برغم الجهود المبذولة والمتكررة من نوح عليه الصلوة والسلام فهو كلما دعاهم إلى الإيمان بالله وطاعته، وضعوا أصابعهم في آذانهم لكيلا يسمعوا شيئاً مما يقوله لهم ثم يستغشوا وجوههم بئياهم مصداقاً لقوله تعالى: (وَإِنِّي كَلَّمَا دَعْوَتُهُمْ لَتُغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرَوْا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا).

وكما سبق أن بيّنا بالرغم من إصرار قوم نوح على الكفر والشرك بالله تعالى، كان نوح عليه الصلوة والسلام أكثر إصراراً على إنذارهم ودعوتهم جهاراً ثم أعلن لهم وأسر إسراراً على أن يعلنوا استغفارهم عن خطاياهم الكثيرة ويتوبوا إلى الله تعالى فإنه غفّار مهما كثرت الذنوب وتعددت قال: (ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا).

وعليه الغفّار: هو الذي بيده الأمر يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، فإن غفر تجاوز عن الذنوب والخطايا، وإن لم يغفر كان عذابه شديداً. فالغفران تبرئة من الأفعال المترتب عليها الذنب والخطيئة والعقاب. ولذا فإن الخليفة هو الذي يتوجّه إلى الغفّار جلّ جلاله ليغفر له ذنوبه وخطاياها كلما ارتكب ذنباً أو أخطأ في أقواله وأفعاله.

ولذلك؛ فالمؤمنون الذين أسلموا وجوههم لله تعالى، دائما يستغفرون الغفَّار ويطلبون المغفرة منه جلّ جلاله، ولذا فالغفَّار المطلق هو الله تعالى، والغفَّار بالإضافة هو الخليفة، الذي يغفر لمن يخطئ معه أو يُخطئ في حقه، أو مع الذين يتولى أمرهم رعاية وعناية وإحسانا في غير معصية الله تعالى.

والمغفرة على المستوى الإنساني بين العباد واجبة فهي تلين الخواطر وتجبرها بعد تصدع، فالذي يقتل نفسا خطأ غير متعمد كما هو في حوادث المرور وما يشابهها من غير قصد فهو في حاجة لمغفرتين:

المغفرة الأولى: من الله تعالى وهذه لا تتم إلا بتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة لأهله المؤمنين فإن لم يستطع فعليه صيام شهرين متتابعين مع الاستغفار لما حدث. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ 124.

أما من يقتل مؤمنا متعمدا فلا مغفرة له بل له جزاؤه جهنم خالدا فيها وكذلك غضب ولعنة من الله تعالى.

المغفرة الثانية: من الذين تربطهم علاقة بالمقتول خطأ بعد أخذهم الدية أو بعد التسامح والتراضي حتى لا تحمل أنفسهم على من ارتكب الفعل خطأ غلظة أو كراهية أو كيدا أو مكرًا بغير حق.

إنَّ تقديم الدِّية لمن يتعلّق الأمر بهم هو دليل اعتراف بالذنب والاستغفار من الخطأ والتوبة لله تعالى، وهي كذلك اعتذار لطلب العفو والتسامح والمغفرة من أهل المقتول خطأً.

وعليه فحظ الخليفة أن يؤمن التزاماً ذاتياً بما أمر الغفَّار الأعظم ليكون قدوة حسنة أمام ربِّه تعالى، وأمام نفسه حتى يكون قدوة حسنة للآخرين ليهتدوا، وهو الذي يخشى ربَّه في القتل، حيث من قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل النَّاس جميعاً، وليخشى ربَّه في كل شيء ويتوب إليه من كل ذنب ويستغفره من كل خطيئة. قال تعالى: {وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ} 125 وقوله تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا} 126.

وعليه فإن التسامح صفة بشرية تجري بين بني الإنسان، وهو يتمركز على طرفين متشابهين في الصفات والخصائص، ويتمُّ التسامح بعد إدراك الأمر ومعرفة الأخطاء وتقديم الاعتذار أو تبادله بين المختصمين أو المتصارعين أو المخطئين، أو بين المخطئ والمخطأ في حقه. وفي بعض الأحيان لا يتمُّ التسامح إلا بتدخل الوسيط وأهل الخير، وفي بعض الأحيان يتم بقاء الطرفين دون وسطاء. وفي بعض الأحيان يتمُّ بدون لقاء وسطاء ويترك الأمر لله تعالى.

ولذا؛ فالتسامح هو كثير العفو وهو الذي يتنازل إرادة لمن أخطأ في حقه، والتسامح: العفو، الذي لا رغبة له في إثارة القلاقل والمشاكل والصدمات مع الذين يخطئون. والتسامح قد يكون إرادياً مع امتلاك المقدرة على الصدام والمغالبة، وقد يكون لأجل المدارة

125 - آل عمران 135.

126 - الفتح 14.

على علاقات قري أو صداقة أو صحبة، وقد يكون التسامح لعدم المقدره على مقارعة الطرف المناظر له في الاختصام أو النزاع، وفي كل الأحوال فإن الله غفور رحيم.

والفرق بين التسامح والمغفرة هو: أن التسامح يتم بين طرفين أو خصمين، والمغفرة تتم من طرف واحد وهو الذي لم يكن خصما. ولأنّ لكل شيء بداية ونهاية فإنّ لكل شيء حدود، ولذا فالمغفرة فُرص تعطى فمن يغتنيها فاز، ومن لم يغتنيها هُزم. ولذلك؛ فإنّ الله يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} 127. بطبيعة الحال من يؤمن بالله لا يمكن أن يُشرك به، ومن يُشرك به لا يمكن أن يكون مؤمنا، ولهذا لا يمكن أن يغفر الله تعالى لمشرك به. أي إمّا أن تكون مشركا فلا تؤمن بالله تعالى، وإمّا أن تؤمن به وتترك الشرك عنك إلى أبد الابدين. فإن تركته بالمطلق تجد الله غفورا رحيفا، وإن لم تتركه بالمطلق ستجده شديد العقاب. ولذا فالمسلم في كلتا الحالتين يؤمن بأنه:

. إن آمن ابن آدم فالله يغفر.

. وإن كفر ابن آدم فالله يُعذب.

وفي كلتا الحالتين ليس للمسلم بدٌّ إلا أن يحمده الله تعالى على مغفرته للمؤمن ويحمده على عذابه للكافر.

الاستغفار يفيد من أسلم وجهه لله، ولا يفيد من لم يسلم وجهه لله، ولذا لا يحق أن تستغفر لكافر، فالاستغفار يفيد من يؤمن بالمستغفر به. وبما أن القاعدة تنص على أنّ (الاستغفار لا يفيد من لا يؤمن بالمستغفر به). إذا لا سبعين مرة تفيد ولا المليون مرة يفيد من

يستغفر لغير المؤمن مصداقا لقوله تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} {128}، إذا الذي يفيد الإنسان في أخطائه وصوابه هو الإيمان به واحدا أحدا لا شريك له بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

وإذا تساءل البعض: لماذا المغفرة؟

نقول:

. لا تساع دائرة المؤمنين بالله تعالى.

. حتى لا يتمادى العصاة في عصيائهم.

. لعلمه تعالى بقصور خلقه عن الكمال الذي يقيهم ارتكاب

الخطايا والمعاصي والذنوب.

. لعلم الله تعالى بأن خلقه يُراد لهم أن يكونوا في أحسن تقويم.

. لعلمه تعالى أن البعض من عباده يرتكب الخطايا تحت طائلة

الضرورة، وفي هذا الأمر يرى البعض أنه لا إثم في ذلك، ونحن نتفق

معهم بأسباب المغفرة السابقة على ارتكاب الفعل.

. لأنه تعالى يعلم البعض من عباده يرتكبون الخطيئة تحت طائلة

الإجبار، وهذه أيضا لها المغفرة السابقة.

وحظ الخليفة من الاسم الغفار: أن يتدارك أمره بالتكفير عن

سيئاته، وأن يستغفر ربه على كل كبيرة وصغيرة ظلم فيها نفسه أو

ظلم بها الآخرين، وأن يتوب إلى خالقه بترك ما لم يرضه تعالى من قول

وعمل، وأن يعمل صالحا يرضاه، وأن يهتدي إلى سبيل ربه ولا يشرك

بعبادته أحدا.

أن يعفو عن الذين أخطأوا في حقه والذين تأسفوا له على ما بدر منهم، وأن يتقي الله في زوجه ووالديه وأبنائه ومن صاحبه وصداقه على المحبة في الله تعالى، وليعلم أنّ الإنسان حَطَّاءٌ إلا من رَحِمَ رَبِّي فليعفُ وليصفح ليجد الله غَفَّاراً رحيمًا.

المغفرة صفة من صفات الله الحسان فمن اتخذها سلوكاً وعملاً في حياته استمد صفة من صفاته تعالى، وفاز بالمغفرة في حياته ومماته ويوم بعثه.

ولذا؛ فعليه بتوحيد الله في كل مكان وزمان، وألا يفرّق بين أحدٍ من رُسله يصلي ويسلم عليهم يقول الحقّ ويفعله، ويتقي الشر ويحْتنبه ويجاهد في سبيل إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويتقي الله ربه.

الغَفَّار: هو الذي يعلم علم الماضي والحاضر والمستقبل ويعلم علم الغيب الذي يكون متداخلاً في كل زمان ومكان، ولذا فالغَفَّار هو الذي يعلم ما تقوله الألسن وما تكتمه العقول وتكنه الصدور وما تضمه النوايا.

قال أبو نواس:

يا ربِّ إنَّ عَظُمَت ذنوبي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بَأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ

إن كان لا يرجوك إلا مُحْسِنٌ فَمَنْ الذي يَرجو ويدعو المجرمُ

مالي إليك وسيلةً إلاَّ الرجا وجميلُ عفوك ثمَّ إنِّي مُسَلِّمٌ 129.

أصل الغفر: الستر والتغطية، وغفر الله الذنوب: سترها وتجاوز عنها بما هو أفضل وأجود وأحسن. والمغفرة دائماً تلاحق أخطاء أو أفعالا أو أقوالاً حدثت ثم تجاوزت بأفعال أكثر إيجابية. وكل شيء

129 - ديوان أبي نواس، ص 618.

سترته فقد غفرته، ومغفرة الذنوب، سترها والإعفاء عما سلف ببديل مرض عنه.

وعليه: على الخليفة أن يغفر ويعذر ويتجاوز عن الأخطاء كلما مدَّ الآخر يده للإنقاذ من الخطايا. ولأن بطبيعة الحال العبد يخطئ ويصيب، والخليفة إذا ما تعرض لأسباب الوقوع في الخطأ تيقن أنه لا خروج منها إلا بالاستغفار وهو الحياد عن السالب بأفعال موجبة، أو بإصلاح الحال بعد غفلة أو خطأ.

الاستغفار: طلب الغفران قولاً وفعلاً، وهو طلب المغفرة بعد رؤية قبح المعصية، والإعراض عنها، قال تعالى: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا} 130 إنه قول نوح لقومه (إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) أي أن الغفار هو ربكم رب العالمين الذي هو مصدر للمغفرة مهما كبرت ومهما تعددت وكثرت، ولذا فالغفار هو كامل المغفرة ومكثرها في حدود كثرة الأخطاء مع عدم الكلال أو الملل من المغفرة، إنه تعالى يغفر ويغفر ثم يغفر ويغفر وهكذا حتى تقوم الساعة، وذلك لأن المغفرة من صفاته الحسان جلّ جلاله، ولهذا فهو الغفار المطلق، الذي بواسع مغفرته جعل في الأرض خليفة ليقتردي بهذه الصفة الحسنة حتى يبلغ ما يُراد له أن يكون عليه وهو ما طُبِعَ عليه خلقاً مصداقاً لقوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} 131. ولذا فالغفار هو القادر على تحقيق أفعال المغفرة من الذنوب مرة بعد أخرى حتى أنه يغفر جميع الذنوب لمن يشاء متى ما يشاء كيفما شاء وبأسباب يجعلها الغفار مخارج للبعد المذنب من الخطيئة.

130 - نوح 10.

131 - التين 4.

وعليه: فالاستغفار صفة حميدة لا يتحلى بها إلا مؤمن ولقد كانت أوّل مغفرة لأبونا آدم بعد أن أكل من تلك الشجرة، ثم بعث الله نوحا مبشرا بواحديته ومنذرا لقومه ومرشدا لهم بالاستغفار ولكنهم بقوا على ضلالهم بالرغم من الجهود التي بذلها معهم ليلا ونهارا على طوال عمر رسالته من عمره الذي قضاه معهم داعيا ومنذرا، ولعصيانهم كانت النتيجة وفقا لما جاء في قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} 132.

11 . صاحب السلام والبركات:

قال تعالى: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} 133.

نوح عليه الصلّاة والسّلام صنع الفلك بأعين الله ووحيه وركب وأهله المؤمنين ومعه من كل زوجين اثنين، وانطلقت السفينة بقوله تعالى: {بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} 134، ولذلك، كان السلام لركابها متحققا بقوله تعالى: (بسم الله) في حالتها تحريكها وإيقافها، ولأنّ السلام أصبح متحققا لركابها، قال تعالى: (اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا) ولذا دائما كلما تحقق السلام زالت المخاوف، ومن بعد السلام قال تعالى: (وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ) والمقصود من الآية الكريمة السابقة السلام والبركات من الله تعالى كافية ووافرة لنوح عليه الصلّاة والسّلام والأمم التي حملها نوح منها في فلكه من

132 - العنكبوت 14.

133 - هود 48، 49.

134 - هود 41.

كل زوجين اثنين، مصداقا لقوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَذُنَّا إِيَّاهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} {135}.

ولذلك، كانت البركات تلاحق نوح أينما هبط مصداقا لقوله تعالى: (اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ) البركات هي الخيرات الكثيرة ولذلك، لم يجع ولم يعرى، فالله الذي أنجاه ومن معه وأغرق كل شيء على الأرض لم يجعل نوحا على الحاجة بل جعل البركات مُشْبَعَةً وفيرة له وللذين معه، فأكل وشرب ولبس وحمد ربُّه وشكره على وافر نعمه التي لا تُحصى.

والأمم التي مع نوح في فلكه لم تكن شعوبا، بل هي من أمم المخلوقات الأخرى على الأرض من طير وحيوان ونحل وغل وسمك وزواحف ومن كل ما خلق على الأرض ليبقى متوارثا عليها ومحققا للتوازن الطبيعي تحقيقا للسلام الذي تنشده المخلوقات بأسرها.

وقوله تعالى: (وَأُمَمٌ سَنَمَتُّهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) الآية تشير إلى المستقبل بقوله: (سَنَمَتُّهُمْ) أي الأمم التي ستكون من بعد نوح عليه الصلوة والسلام أي الأمم التي ستكون من ذريته ثم بعد التمتع الذي سيتحقق لهم ولن يمدوا عليه مصدره الكريم تعالى أولئك سيمسهم من الله تعالى العذاب الأليم يوم لا ينفعهم مالا ولا بنون إلا من رحم الله جلّ جلاله.

وقوله تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) ما ذكر نصا قرآنيا في الآية الكريمة السابقة وما يشير إليه مما ذكر نصا من أنباء

الغيب، لم يعلمها نوح من قبل وكذلك لم يعلمها أحد من قبله فهي لأول مرة يتم الإعلان عنها وحيًا إلى نوح عليه الصلوة والسلام. ولذا؛ فالبركات هي الخيرات والنعم، والسلام الذي أحيط به نوح عناية ورعاية من الله تعالى وأحيطت به الأمم التي معه عليه الصلوة والسلام.

إذا بركات نوح حظوظه الوافرة من السلام والنعم التي أنعم بها الله تعالى عليه (بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ) ولذلك عندما يكون السلام والبركات من الله تعالى تكون الخيرات الحسان لا تحصى ولا تُعد رحمة على نوح ومن كان معه من أصحاب الحظ العظيم والذين من بعدهم هم متقون، ولذا فأصحاب الحظ العظيم هم أصحاب الجنة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} 136.

السلام والبركات مؤيدة لنوح عليه الصلوة والسلام في القول والفعل والعمل مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَجَعَلْنَا لَهُ وَالْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} 137 بناء على هذه الآيات الكريمة أتساءل:

. ألا تكون إجابة الله تعالى لنوح من أعظم البركات؟

. ألا تكون منجاة الله له وأهله من الكرب العظيم من أعظم

البركات؟

. ألا يكون جعل ذريته هم الباقين من أعظم البركات؟

بركات كثيرة تُجمع ولا تُطرح بأسباب تضاعفها ورضا الله تعالى

على نوح عليه الصلوة والسلام.

136 - فصلت 35.

137 - الصافات 75 .77.

وعليه: فقلوه (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) أي وجعلناهم على الحق، ولأنّ الحقّ باقٍ لا يزول إلى النهاية هكذا بعد الطوفان والغرق لم يبق من النّاس إلى النهاية على الأرض إلا ذرية نوح (هُمُ الْبَاقِينَ) وباقين ببقائهم على الحقّ طاعة وهداية قولاً وعملاً.

ولذا؛ فهم باقون على السلام والبركة ما داموا طائعين لله رب العالمين، ولأنّ بعد الطوفان أصبح الحقّ يقينا بينا في قلوب الذين نجوا مع نوح لذلك اطمأنت قلوبهم بالسلام والبركة بعد أن رأوا بأمهات أعينهم الطوفان والأمواج العاتية التي لولا بركة الله تعالى عليه وعليهم لكانوا مع المغرقين، ولهذا أيقنوا حيث لا ظن ولا شك فيما قاله نوح عليه الصلّاة والسّلام، وما اتّباعه إلا اتّباع ما أمر الله به؛ فإن عصى أحد من بعدهم من ذريتهم فقد تبين الرشد من الغي، فليكفر من يكفر وليؤمن من يؤمن وما ربك بظلام للعالمين.

إذا من بعد نوح عليه الصلّاة والسّلام أصبحت القاعدة: (الإنسان مخير في دائرة الممكن ومسير في المطلق) ولأن القاعدة تنص على التخيير لذا، لا إكراه في الدين مصداقا لقوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {138، بعد التبئير أعلن عن الجنة للمتقين والنار للخالدين فيها، مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم

الْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
عَلَيْهَا} 139.

وعليه: فالسلام والبركة من بعد نوح هما الباقيان رحمة بين العباد،
فمن يتقي الله يجد له بسلامه وبركاته مخرجا كما أوجده من قبل لنوح
ومن كان معه مخرجا من كل ضيق ومن كل كرب عظيم، ولأنَّ الله
تعالى جعل السلام والبركة في نوح وفي ذريته بقيت ذريته وستبقى إلى
النهاية على السلام مباركة مهتدية غير ضالة والحمد لله ربُّ العالمين
والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين.

السلام والبركة هما محققا النجاة من كل ألم وشر وإثم وذنب، وهما
فاتحات أبواب النجاة ووفرة الخيرات من حيث لا يُحْتَسَب، مصداقا
لقوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا
يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ
اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} 140.

السلام اسم من أسماء الله الحسنى، وفي اللغة يعني: "البراءة من
العيوب والنقائص، ويشمل في ثناياه معاني متعددة كالسكينة والأمان
والاستقرار والهدوء" 141.

ولأنَّ الله واحد أحد لا شريك له، لذا؛ فإن جميع صفاته صفات
سلام، ممَّا يجعلنا نقول في الرحمة السلام وفي البر الرحيم السلام، وفي
العدل السلام، وفي الحق السلام، وفي الكيد السلام، وفي العزة
السلام، وهكذا في كل صفة من صفات الله تعالى السلام. وهذا لا
يعني أنَّ الله تعالى صفة واحدة هي صفة السلام، بل له الصفات

139 - يونس 108.

140 - الطلاق 2، 3.

141 - محمد متولي الشعراوي، أسماء الله الحسنى، القاهرة، أخبار اليوم قطاع الثقافة، ص

149.

الحسان المتعددة، ومن استمد صفاته من صفات الله تعالى كان خليفة كما كان نوح خليفة في الأرض ومن قبله كان آدم أولاً ومن اصطفى من الأنبياء الرسل وكذلك من بعده كان جميع الرسل والأنبياء الذين اختتموا بمحمد ورسالته الخاتمة للناس كافة اللهم صلي وسلم عليهم جميعاً.

السلام أمر يعمّ الناس ويخصّ البعض: يعم الناس باعتباره حق عام من السّلام الحقّ. ويخصّ البعض باعتباره لن يكون إلا للذين يعملون عليه. ولهذا؛ فالسلام قوّة لا يُمكن أن يحقّقه الضعفاء. ولذلك؛ فإنّ الذين لم ينتهوا هم الضعفاء، والذين استجابوا هم الأقوياء. وعليه فالسلام قوّة تحقيق الاستقرار والأمن والعدل وفي تحقيق ذلك بركة ذات نعم لا تُحصى.

ولأنّ السلام تحقيق أمن وطمأنينة ومودة متبادلة وطاعة لواحد أحد لا شريك له إذا السلام وصف لأفعال الخير الحسان، ولهذا، وُصِفَ نوح به ووصفت الجنة به مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ 142 الله يدعو إلى دار السلام، فهو يدعو إلى دار الحقّ، ولأنّ الجنة لا ظالم ولا مظلوم فيها ولا سيد وعبد، ولا حاكم ومحكوم، ولا خائف ومخيف، ولا فقير وغني، بل أصحاب الجنة هم أصحابها الذين لهم الحقّ فيها، لذا؛ فهي دار السلام وذلك لانعدام معطيات الخصام والاختلاف والصراع والافتتال والفرقة والحسد والغيرة. إنّها دار المحبة التي فيها تُشبع الحاجات. ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ هُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ سَلَامٌ

142 - الأنعام 127.

قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ} 143 وصفٌ جميل وبديع للجنة والخيرات التي تملؤها مثلما يملأها السلام، وكذلك وصفٌ بديع لاستجمام الأزواج في ظلال تحت الأرائك متكفون والفواكه من كل جانب ومن فوقهم ومن بين أيديهم تنوع مع وافر اللذة التي لا تنقطع وكذلك المذاق الرفيع، وهم في هذا السلام الدائم تدخل الملائكة عليهم من كل باب، مصداقا لقوله تعالى: {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} 144.

السلام هو الذي منه جاءت السلامة التي رافقت نوح عليه الصلوة والسلام طوال حياته ويوم مماته وستكون له يوم بعثه، ولذا فإن السلامة تابعة للسلام السابق عليها، فهو تعالى السابق على كل سابق، وتحتوي السلامة البراءة من كل شرٍ وسوء، ومن كل مرض وألم، ومن كل جهل وفقر، ومن كل حسد وعلة. وفي مقابل ذلك فهي القوة التي تتضمن المقدرة والاستطاعة والسيطرة والعطاء.

وعليه نقول: السلام في الدار الدنيا أمل، والسلام في الدار الآخرة واقع، ولهذا، اتخذ البعض شعارا يناضلون من أجل إحقاقه، وقبلوا في سبيله أن يدفعوا الثمن كما دفعه نوح وأخوته من الأنبياء الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

ولأنّ نوح عليه الصلوة والسلام أظهره الله تعالى على علمٍ من علمٍ غيبه لم يظهره لأحد من قبله ونجّاه ومن تبعه من الغرق والطوفان العظيم، وكذلك مكّنه من أن يرفع معه في الفلك من كل زوجين اثنين لتبقى الأنواع ويبقى التوازن الطبيعي وتستمر الحياة وجعل الله في ذريته النبوة كما جعلها في ذرية إبراهيم من بعده لتتوارث الأجيال الرسالات

143 - ياسين 58.

144 - الرعد 23، 24.

من بعضها البعض، وآيات كثيرة أظهرها على يدي نوح عليه الصلّاة والسلام، قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النّبوةَ وَالكِتَابَ} 145.

وبناء على ما تقدم فإن نوح صاحب السلام والبركات بأسباب النّبوة والرسالة اللتين بهما أظهر على معجزات لم يسبق لأحد من قبله الاطلاع عليها ولا معرفتها، وكذلك بأسباب معجزته في صناعة القلک بأعين الله تعالى وبقيادته له أمرا من عند الله عزّ وجلّ مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} 146، وكذلك لأنّ الله جعل في ذريته النّبوة مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النّبوةَ وَالكِتَابَ} 147 وبأسباب إيمان نوح وإخلاصه ليلا ونهارا في الإنذار والتحريض والتبشير بالحقّ للحقّ فاز نوح عليه الصلّاة والسلام برضا الله عليه مصداقا لقوله تعالى: {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} 148، وبهذا، أحاط المحيط جلّ جلاله نوحا بسلام وبركات حفظا وعناية ورعاية وطمأنينة.

السلام صفة حميدة يأملها كلّ النّاس، ولذلك؛ فهي صفة العموم رغبة وأملا وغاية منشودة، أمّا صفة الشقاق والنزاع والافتتال فهي صفة للخصوص ولا تؤمل من العموم كما هو حال السلام المأمول، ولذا جميع الأنبياء الرّسل بعثوا لمكارم الأخلاق ونشر الفضائل بين النّاس ليعم السلام العالمين، ولأنّهم جميعا عملوا على ذلك إحقاقا

145 - الحديد 26.

146 - هود 41.

147 - الحديد 26.

148 - الصافات 79.

للق قال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنْهَمَ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ} 149.

بناء على كل ما تقدم وجب القول بحقي سلامٍ على المرسلين والحمد لله رب العالمين التي قالها رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام كما جاء في الكتاب الحكيم: {وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} 150.

هؤلاء هم أصحاب رسالات السلام الذين دعوا الناس لأن يعمروا الأرض ولا يفسدوا فيها ولا يفسدوا الدماء بغير حق، وأن يسبحوا بحمد الله ويقدموه. ولهذا نزل قوله عز وجل: {أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ قُلْ أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 151.

ولأن السلام اسم لله تعالى جاء اسم الدين الذي أنزل من عنده جل جلاله مستمداً من اسمه عز وجل ولهذا كان اسمه السلام مصدراً لأسم الدين الذي لا دين يؤمن به من قبله ولا من بعده، {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} 152، ولهذا، استمد نوح صفة السلام من اسم خالقه (السلام) ومن الدين الذي يُصطفى له الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مبشرين ومنذرين ومحرضين.

149 - الصفات 71 . 73.

150 - الصفات 181 . 182.

151 - آل عمران 83 . 85.

152 - آل عمران 19.

السلام اسم لله تعالى، ومصدر للسلامة، ومبعث للإسلام، وشعار للمسالمة، وتحية للمسلمين، ومفتاح آمان لأهل الجنة {أدخلوها بسلام آمنين} 153. أي أدخلوا الجنة وأنتم مطمئنون فلن يصاحبكم بعد اليوم حزن ولا خوف ولا ألم ولا محمصة ولا يرهقكم ذلًا. فادخلوها بسلام آمنين: تحمل في مدلولها مصاحبة السلام للداخلين إلى الجنة، أي أدخلوها بقوة السلام جلّ جلاله فهي لكم وأنتم إليها. اللهم اجعلنا من الداخلين إليها بسلام آمنين.

السلام صفة سرمدية اختص بها الله ذاته العلية، التي لم يكن من بين صفاتها ما يؤدي إلى ظلمٍ، ولهذا وصف نفسه بالسلام والعدل، وبما أنه لا وجود لأيّ صفة من صفات الظلم في ذاته، لذا؛ فالسلام هو الصفة الباقية بين الراغبين فيها وصفة دائمة لأصحاب الجنة، وكذلك كان نوح عليه الصلّاة والسّلام.

وعليه: فإن السّلام الذي استمد نوح صفته منه، وكل الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم استمدوا صفاتهم منه يرتكز على كثير من الفضائل والقيم نذكر منها:

أ. التوحيد وعدم الشرك بالله:

قال تعالى: {مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {154}.

ولأنَّ الله واحد أحد، إذن لماذا الادعاء بأنه ثالث ثلاثة؟ فكيف يُقبل أن يكون الله مجسما في بشر مخلوق خلقا في الوقت الذي يعلم الجميع أنَّ الخالق لا يُخلق؟

ألم يعلم الجميع أن الوحدانية هي التي جعلت السلام سائدا في خلقه، ولو كانت التعددية الإلهية كما يدعي البعض لما عمَّ الشقاق وقامت الدنيا وفسدت؟

وكيف يُقبل من مؤمنين بخالق أن يكون له شريك من خلقه ليشركه في ملكه؟

ب . الإيمان بأنبيائه ورسله دون تفريق بينهم:

قال تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} {155}.

ج . التسليم بأوامر الله تعالى وطاعته إيمانا تاما لا شك فيه:

قال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {156}.

د . طاعة الوالدين في غير معصية:

قال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} إِمَّا يَنْتَحِنَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ

154 - المائدة 72 . 76.

155 - البقرة 136.

156 - آل عمران 32 . 34.

رَبِّ ارْحَمَهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} 157 السلام يبدأ أول ما يبدأ بسيادة المحبة بين أفراد الأسرة، التي فيها تُقدَّر الزيجة والأبوة والأمومة والأخوة والعمومة وذو القربى، وعندما تنعدم هذه القيم أو تضعف يحل الشقاق والانفصال والطلاق محلها، وهذه الأمور هي التي تجعل السلام نسبيًا بين المستخلفين في الأرض الذين منهم من غفل عنه ومنه من يتغافل مما جعلهم من الظالمين لأنفسهم ولذي العلاقة بهم.

هـ. العمل على إحقاق الحق وقوله ومناصرة أصحابه:

قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ} 158 وقوله تعالى: {وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ} 159. إنَّ انعدام قول الحق وفعل الحق هو الذي جعل الشقاق والفراق بين من ينبغي أن تكون بينهم المحبة والمودة والوحدة.

و. تجنب المنهيات التي نهى الله عنها:

قال تعالى: {إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا} 160.

وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ} 161.

157 - الإسراء 23، 24.

158 - آل عمران 104، 105.

159 - الأنفال 72.

160 - النساء 31.

161 - النحل 36.

وقال تعالى: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ
الزُّورِ} 162.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ
الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا} 163.

وعليه: فاقتراب ما نهى الله عنه مفسدة وضلال ولا يليق بمكارم
الأخلاق ويؤدّي إلى الضرر والفساد ويحقق الألم ويوقد نار الفتنة على
حساب سيادة السلام بين الناس، ولهذا لا يمكن أن يسود السلام إلا
بتجنب ما نهى الله تعالى عنه واتباع ما أمر باتباعه.

ز . الابتعاد عن المحرمات:

قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ
وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ
تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 164. كل المحرمات التي حرمها الله
تعالى هي التي تكمن فيها العلل المفسدة لتحقيق السلام، ولذلك
فالالتزام بما أمر الله تعالى به والإقدام على نيئه وأخذه حلالا طيبا،
وبالابتعاد عمّا حرّمه هو الذي يحقق السلام بين بني آدم عليه الصلّاة
والسّلام.

ح . العدل بين المحتكمين:

العدل فضيلة يحقق الطمأنينة والسلام في مقابل ما يحققه الظلم
من خوف وشقاق ولذا فمن يحكم بين الناس عليه بالحكم العدل
مصدقا لقوله تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ
اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} 165 قال تعالى: (إذا

276 - الحج 30

163 - الحج رات 12.

164 - الأعراف 33.

165 . النساء 58.

حكمتهم بين الناس)، ولم يقل: (إذا حكمتهم الناس)، فالفرق كبير بين حُكْم النَّاسِ، وبين الحكم بينهم عدلا فيما هم فيه يختلفون، فإذا ارتضى النَّاسُ من يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون فيجب أن يحكم الإنسان الذي ارتضوه المختلفون حُكْمًا بينهم حُكْمًا عدلا، وإذا انحاز لطائفة أو فئة أو جماعة، فإنه سيكون من الذين يوقدون نار الفتنة وله عذاب أليم من ربِّ العالمين.

ط . الاعتداء بالمثل:

قال تعالى: {فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} 166.

ي . المعاملة الحسنة:

قال تعالى: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} 167.

ك . الإنفاق في سبيل الله:

قال تعالى: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ} 168.

ل . حُسن التقدير للآخر:

قال تعالى: {حُيِّيْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا} 169. المعاملة الحسنة الطيبة أو المعاملة

بما هو أفضل يؤدِّي إلى نيل الاحترام والتقدير والاعتراف من قبل الآخر الذي نال الاعتبار منك.

م . العفو والصفح والمغفرة:

166 - البقرة 194.

167 - البقرة 195.

168 - الحديد 7.

169 - النساء 86.

قال تعالى: { وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } 170.

العفو والصفح والغفران قيم رحمة بين الناس، وهي التي كلما سادت بينهم ساد السلام، وكلما انعدمت حل محلها الطغيان والفساد وسفك الدماء بغير حق، ولذلك فمن يريد العفو والصفح والمغفرة من الله تعالى فعليه بها مع من تستوجب في الدار الدنيا.

ن . أن يكون الفضل بين الناس قيمة وفضيلة:

قال تعالى: { وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } 171.

الفضل بين الناس يدلّ على الذوق الرفيع والرقي القيمي في المعاملة الحسنة ونقاء الأنفس من الضغائن والمكائد التي بها يفتتن الناس ويشقون ولا يأمنون، ولذا، كلما ساد الفضل ساد السلام والمودة بين الناس. ولو لم يكن السلام اسم من أسماء الله تعالى لكانت الشقاوة فينا إلى يوم يبعثون.

يرتبط اسم الله تعالى (السلام) بأمر مهم تجلت فيه رحمة الله تعالى ألا وهو إرسال الرّسل، وإرسال الرّسل كان بحكمة من الله تعالى لِمَا آل إليه الخلق من معاصي وذنوب في مخالفة أوامر الله تعالى، ومهمة الرّسل اقتضت تعريف الناس بمعبودهم الحقّ، ودعوتهم إلى عبادته وحده لا شريك له، إذ يقول تعالى: { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } 172، ثلاثة قضايا اشتملت عليها هذه الآية الكريمة:

170 - التغابن 14.

171 - البقرة 237.

172 - الأعراف 59.

القضية الأولى: أن نوح عليه الصّلاة والسّلام جاء مُرسلاً إرسالاً من الله تعالى.

القضية الثانية: دعوة نوح عليه الصّلاة والسّلام إلى عبادة الله واحداً أحداً حيث لا إله غيره (مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ).

القضية الثالثة: مخافة نوح عليه الصّلاة والسّلام على قومه من أن ينالهم العذاب العظيم.

هنا كانت بداية الدعوة إلى الله تعالى مع نوح عليه الصّلاة والسّلام، حيث لا مفرّ من التغيير، الذي يستوجب الوقوف على الخطأ كي يُصحح، ولكي تُردم الهوة الفاصلة بين الحقّ وإحقاقه، ولذلك كان التحذير ضرورة حتى لا يقع المحذور، ولذا شرع الله لعباده الحقّ مصداقاً لقوله تعالى: { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } 173.

وعليه: الفوز بالجنة والنجاة من النار سلام، وفي حفظ الله ورعايته السلام، وفي هيمنته وورقه السلام، وفي ملكه ورحمته السلام، وفي عدله وحكمه وحكمته السلام، وفي إحيائه وإماتته وبعثه السلام سبحانه لا إله إلا هو السلام.

12 . صبور:

الصبور هو الله تعالى وهو مصدر لكل صبر، يستمدّ الصبر منه وهو لا يُستمدّ من صبرٍ، ولذا؛ فالصبر دليل قوّة العزيمة وسلامة الرأي والقرار والفعل والعمل وذلك لأنه المستمد من الصبور المطلق، ومن اتصف به كان من المستخلفين فيها، ولهذا، كان نوح عليه الصّلاة

والسّلام خليفة ومن بعده مستخلفين فيها، مصداقا لقوله تعالى: {وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً} 174.

ولأنّ نوح عليه الصّلاة والسّلام قد استمد صبره من الصبور جلّ جلاله الذي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه بل ينزل الأمور بقدر معلوم ويجريها على سنن محدودة لا يؤخرها عن آجالها المقدّرة لها تأخير متكاسل ولا يقدمها على أوقاتها تقدما مستعجلا، بل يودع كل شيء في أوانه على الوجه الذي يجب أن يكون وكما ينبغي.

الصبور: كثير التحمّل دون استعجال ودون يأس يملؤه الأمل فلا يقنط من الرحمة والفوز على الذين يكيّدون له المكائد أو يمكرون به مكرًا، وذلك لإيمانه أن الله خير الماكرين، فلا يُخيفه مكرهم ولا كيدهم فهو يعلم أن الله هو المكيّد الحقّ وبالصبر ستكون له الغلبة التي بها يُعيد حقا أو يُحقه إحقاقا.

والصبور سبحانه وتعالى بقدرته فهو القادر وبقوته فهو القوي القهار يستطيع أن يفعل ما يشاء، في الوقت الذي يشاء، فصبره دائما على حكمة مطلقة وبالغة فهو يأمر بالكاف والنون ولكنه يُمهّل ويصبر بشكل متوازن وعادل دون أيّ خلل في ذلك، وكيف لا يكون كذلك وهو المتّصف بالكمال.

وعليه: فالصبور هو من لا يقلق على إحقاق الحقّ قبل وقته، فهو يعرف أنّ الجنين يحتاج لتسعة أشهر في بطن أمه فينتظر مع فائق التقدير، وهو يعلم أنّه إذا بذر بذرة في الأرض لن تعطيه سُنْبلة ولا ثمارا قبل موعد نضجها، وهو يعلم أنّ الجنة لا تتحقق له في الدار

الدنيا، وهو يعلم أن للكذب نهاية لا بد وأن يأتي من بعده الصدق، وهو يعرف إن ألمَّ به مرض فهو زائل لا محالة بالشفاء، ولذا فهو يؤمن أن كل شيء عنده بميزان وبمقدار وبميعاد، قدره الخالق مسبقاً مع التوافق بسرعه في تسيير الأمور، وهنا نجد أن السرعة المتوازنة صائبة لا خلل فيها ولا عيب، فمثلاً نجد أن الله سبحانه وتعالى في مواطن كثيرة من حياتنا يعطينا ما نطمح إليه ونحتاجه في وقته، وفي أحيانٍ أخرى يمسك تلك الحاجة فيمهلها أو يؤخرها علينا، وكأنه عزّ وجلّ يدلنا على أصوب الطرق للصبر الذي علينا أن نستمدّه منه جلّ جلاله.

الصبور من العباد: هو من لا ينتابه قلق، وهو الذي يعرف الحق ويعرف ما يقوله ويفعله وما يظنه الظانون، ومع ذلك يترك الأمر إلى حين، ويصبر كما صبر ألو العزم من الرّسل صلوات الله وسلامه عليهم {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرّسْلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ} 175، وقوله تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ} 176.

وعليه تكمن صفة القوّة في الصبر، حيث أنه لا قوّة بلا صبر، ولذا فالصبر صفة وفضيلة من صفات الخالق، وتسري على المخلوق الذي يُراد له أن يكون خليفة في الأرض، ولنأخذ صبر الله على من خلق وكيف لهم أن يستمدوا هذه الفضيلة والصفة من الصبور جلّ جلاله:

1 - صبره عزّ وجلّ عن قوّة وقدرة مطلقتين:

فصبر الخالق المطلق على عباده تدعمه القوّة والقدرة لا الضعف والحاجة، فما حاجة الله لنا وهو المالك لكل شيء وبأمره (كن) يفعل

175 - الأحقاف 35.

176 - الروم 60.

ما يريد، قال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 177، فمن يملك كل هذه القدرة بالتأكيد هو غنى عن كل ما خلق وصور، قال سبحانه وتعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} 178، فبما أنه عز وجل الغني عنا، فهو القوي القادر على كل شيء وبالتالي من يملك هذه القدرة المطلقة لا يمكن أن يكون صبره عجزاً أو ضعفاً أو حاجة، فهو المنزه عن النقائص والعيوب، ولا يمكن أن يكون له إلا الكمال في صفاته.

ولكن من حلمه جلّ جلاله مع قدرته المطلقة، أنه صبورٌ على أخطائهم مفسحاً لهم المجال للرجوع عن ذنوبهم والتوبة منها، فلا يظلم أحداً بسبب خطيئة غيره، ولهذا كان نوح مقتدياً في صفاته بصفات خالقه تعالى لم يظلم أحداً ولم يكل ولم يمل في دعوته التي صبر على الدعوة لها ليلاً ونهاراً مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا} 179.

ما أصبر نوح عليه الصلاة والسلام على قومه! فقد أنذرهم لأجل أن يتعظوا ويخشوا الله فيما يفعلون فلم يستجيبوا، ومع ذلك صبر على أنهم لم يستجيبوا لدعوته التي دعاهم إليها أن يعبدوا الله ولا يشركوا به

177- النحل 40.

178 - لقمان 26.

179 - نوح 1. 10.

شيئا، ولقد استمر فيهم داعيا ومبيننا لهم خطورة كفرهم وشركهم بالله، ومع ذلك لم يستجيبوا أيضا، أعاد الكرة أكثر من مرة لأجل أن يتقوا الله ويؤمنوا به فلم يستجيبوا، أنبأهم ليلا ونهارا بمغفرة الله لمن يؤمن منهم ويتوب ويتقي فزادوا ضلالا وإصرارا واستكبارا، ومع ذلك صبر ولم يستسلم لرفضهم واستكبارهم، فزادوا إصرارا وهكذا كلما ازدادوا إصرار ازداد نوح صبرا، وعليه فالأنبياء هم أكثر العباد صبورا، قال تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ} 180.

2- صبره عن علم لا عن غفلة:

قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} 181، فالله تعالى ينفي عن نفسه صفة الغفلة والنسيان والتلهي عن أي أمر، وصبره لا يعني أنه غافل عما يفعله الناس، وكذلك طول الفترة لا يعني نسيان أمرهم، بل صبره فيه تأخير لهؤلاء البشر وذلك لحكمته المطلقة جلّ جلاله وعلمه اللذان يقدران ويؤخران الأمور حسب مشيئته وإرادته تعالى، فالغفلة تتناقى مع علم الله المطلق بكل شيء، وما صبره المطلق بعباده إلا لعلمه المطلق بما هو نافع وضار بهم.

الله جلّ جلاله بعلمه المسبق والمطلق على علمٍ بكل شيء، حيث لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولعلم نوح عليه الصلاة والسلام وتقواه وتيقنّه بمعجزات الله في هذا الأمر كان مثالا للمؤمن

180 - ق 39.42.

181 - إبراهيم 42.

الصبور والرسول الكريم الذي يعلم أن العقابة لمن خاف ربه واتقى، قال تعالى: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنَتِّعُھُمْ ثُمَّ يَمَسُّھُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيھَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُھَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} 182.

3- صبره عز وجل على عباده لا يعني إسقاط العقاب والانتقام: العقاب في معظم الأحيان يكون مؤجلا للحياة الآخرة، وفي بعضه كان معجلا في الحياة الدنيا كما هو حال قوم نوح كما سبق ذكره بالطوفان والغرق وكذلك قوم عاد وثمود وفرعون ذي الأوتاد مصدقا لقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُھَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيھَا الْفُسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمُرْصَادِ} 183، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} 184.

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} 185، إذا في مثل هذه الحالات كان العقاب مؤجلا؛ أي أن العقاب لازال قائما رغم عدم وقوعه في الحياة الدنيا بصبر الله تعالى على الذين كفروا بعد إيمانهم وماتوا وهم كفار، ولكن

182 - هود 48، 49.

183 - الفجر ر 6 . 14.

184 - آل عمران.

185 - آل عمران 90، 91.

هذا الصبر لم يكن بمثابة عفوٍ أو إسقاطٍ لهذه العقوبة التي لا تزال مسيبتها قائمة لم تتغير حتى بلوغ الموت.

استعان نوح على قومه بالصبر والصلاة حتى أظهره الله على آيات ومعجزات من علم غيبه أنجته والذين آمنوا وصبروا معه من مخاطر الطوفان والغرق قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } 186.

بذلك لا بدّ أن نفرّق بين صبر الله تعالى وصبر العباد لأن صبر الصبور يكون عن قدرة مطلقة كاملة، وأيضا لا يكون صبره لقضاء حاجة له عند عبيده في الأرض، وكذلك لا يكون صبره حاملا للألم والحزن لعدم تمام ما يريد أو تأخيره، قال تعالى: { وَرَبُّكَ الْعَنِّي دُو الرِّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ } 187، أما الإنسان فقد يكون صبره عن ضعف وعدم استطاعة، أو لقضاء غاية والوصول إليها عند غيره من البشر، ويكون في صبره شعور يحرك الألم والحزن في داخله، وقد يؤدّي به إلى اليأس والإحباط، وهذا متحقق لدى معظم العباد الذين نستثني منهم نوح عليه الصلاة والسلام الذي صبر على قومه صبرا شديدا إلى أن جاء الأمر (كن) بالعقاب المعجّل في الحياة الدنيا والمؤجل في الحياة الآخرة مصداقا لقوله تعالى: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَجْنَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ } 188.

الصبور جلّ جلاله صبور على الخلق جميعا مسلمهم وكافرهم، عاصيهم ومطيعهم، تائبهم ومذنبهم، فقد اجتمع البشر مسلمهم

186 - البقرة 153.

187 - الأنعام 33.

188 - العنكبوت 14، 15.

وكافرهم، وفقيرهم وغنيهم، وصحيحهم وسقيمهم في ابتلاءات شتى، لكنهم اختلفوا عن بعضهم في الصبر الذي استحق الثواب، فصبر الصبور هنا تتمثل في تأجيل تنفيذ العقاب الفوري لأولئك الكافرين والضالين والفاسقين والكاذبين والماكرين والكائدين بغير حق.

فعلى خليفة الله أن يكون صابرا امثالاً لأمر الخالق في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } {189}، لأن الصبر فيه حكمة التصرف والتحكم في النفس ليصل الإنسان إلى أفضل النتائج وأسلمها.

فوائد الصبر على خليفة الله في الأرض عديدة منها:

أ- قهر الشهوات والتحكم فيها:

خلق الله الإنسان وخلق فيه الشهوة والرغبة، وقد تباين البشر في إتباع شهواتهم، فمنهم من كان عبدا لها تأمره فيطيع، لا يستطيع الصبر على ما يشتهي فيسرع إليه دون إعطاء الفرصة لنفسه لأن يحاورها عن مدى صحة أو خطأ هذه الطاعة لشهوته، فلا يتأني ولا يصبر على زينة ومتاع الدنيا اللذين من شأنهما أن تدمرا حياة مستقبله، قال تعالى: { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَإِ } {190}، فالشهووات متعددة ومتنوعة في الدنيا وكل نوع منها: منه مُحَلَّل، ومنه محرَّم، ولذلك فالإنسان يحتاج إلى إرادة قوية يدعمها الصبر والجلد، والصبر لا يأتي إلا بامتلاك القوة والقدرة الممكنة من تحمُّل ضغوط الحاجة التي تكون في بعض الأحيان مشبعاتها محرمة أو منهيها عنها،

189 - آل عمران 200.

190 - آل عمران 14.

ولذا فالصابرون كما صبر نوح عليه الصلّاة والسّلام على قومه
وتكذيبهم له هم الفائزون في الآخرة، والخاسرون هم المكذبون لهم
الذين لم يصدقوا الحقّ لما جاءهم الرّسل منذرين ومبشرين وداعين
أقوامهم وأممهم للإيمان بالله لا شريك له، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَيَا
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلٌّ
مُعْتَدٍ أَثِيمٍ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ
لَصَالُوا الْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ
الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْنَا كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ
إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ
النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ
الْمُتَنَافِسُونَ وَمَرْاجَعُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ إِنَّ الَّذِينَ
أَجْرُمَا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا
انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ وَمَا
أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ
يَضْحَكُونَ} 191.

ب- التوكل على الله واللجوء إليه:

المتوكل على الله هو الذي لا يخشى أحدا في سبيل إحقاق الحقّ
وإزهاق الباطل، وفي سبيل الإصلاح في الأرض وإعمارها وعدم سفك
الدماء فيها بغير حق، ولنا في نوح عليه الصلّاة والسّلام أسوة حسنة
في الصبر، حينما رفض قومه الاعتراف به وبمكانته التي اصطفاه الله
عليها وبعثه رسولا لقومه الذين كذبوه وسخروا منه وحاولوا مرارا قتله،
كل ذلك لم يُخيفه لِثِقته في ربّه الحفيظ له من كل سوء ولثقته في

الرسالة المكلف بها إليهم، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ 192.

بالصبر الذي يغرس الثقة في الأنفس يستطيع الإنسان أن يجتاز ما يتعرض له من امتحانات وابتلاءات في حياته الدنيا، فكثيرا ما يجد الإنسان نفسه في موقف يعيشه مع عدم قدرته على تحمُّل ما يترتب عليه من ألم، ولكن من له صبر يستطيع أن يتجاوز الساعات والأيام العصبية ويكمل مسيرته من أجل غايات عظيمة.

لقد خلق الله تعالى الصبر في مقابل خلقه للاستعجال والتسرع، وأعطى لكل من رغب في أمره ما أعطى، فكان المستعجل الراغب في المستعجل بغض النظر عمَّا فيه من عيوب، وكان الصبور المتأني الذي لا يقدم على أمرٍ إلا بعد معرفة ما ورائه من حسنات آجلة أم عاجلة، وبأسبابها يقدم على القول والفعل والعمل، ويسلك دون تردد وهو متوكلا على الله تعالى.

ولذا؛ فمن يبتعد عن الله يجد نفسه في أحضان المفسد منهما كما في شهواته وكأن الحياة مؤسسة على المفسدة، ومن يتقي الله يصبر فيقي نفسه من الهلاك، فالذين يلجئون إلى استخدام وسائل الغرق لا يُستغرب غرقهم، والذين يلجئون إلى استخدام وسائل النجاة فلا تُستغرب نجاتهم، فالذين يتعاطون المخدرات أو يحاولون الانتحار أو اللجوء للسحرة والدجالين للتخفيف عنهم من أشكال البدع والخرافات والفساد والضياع، فهؤلاء ومن هم مثلهم في المفسد اختاروا

192 - يونس 71، 72.

الالتجاء إلى غير الله تعالى، ولكن لن يجدوا نافعاً ومنقذاً غيره ونقول لهم لقد استعجلتم؛ وباستعجالكم خسرتم ولكن الفرصة لازالت قائمة أمامكم إذا عدتم إلى منقذكم جلّ جلاله من المصائب التي أنتم فيها. وعليه: على خليفة الله في الأرض أن يكون صابراً متوكلاً على الله الذي يمنحه الصبر حتى لا يكون من الخاسرين، ولذلك من يبتغي غير الإسلام دينا سيكون من الخاسرين الذين استعجلوا باختيارهم الكفر والشرك بالله الصبور عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ {193}.

فلا بدّ إذن على الخليفة أن يُفرد الله وحده بالرجاء والأمل والعون، فهو الدافع للضرر والماسك للخير.

ج - الصبر يأتي بالنصر:

حياة الإنسان في الدار الدنيا بين ألم وابتلاء ومودة ورحمة، ولذلك فهي دار امتحان لا يفوز فيها إلا مؤمن صبور يدرك الحقّ من الباطل، فيقدم ويمتنع بإرادة يترتب عليها جزاءٌ في معظمه يكون أخرويّاً، ولذا لا يكون الصبور إلا بالحقّ وللحقّ، فعندما يدرك الإنسان المؤمن أنه على حق يستمد قوّته على التحمّل بصبره على الأذى ويقينه بأنه على حق ولهذا فإن الله سينصره لأن الحقّ دائماً هو المنتصر ولو بعد حين، فالصبر إذا يأتي بالنصر، أي لا نصر إلا مع الصبر والأمثلة على ذلك كثيرة فمن كان يُصدّق أن رسول الله - عليه الصلّاة والسّلام - والصحابة رضي الله عنهم سيفتحون العالم وهم قلة، ثمّ تجلجل دعوتهم إلى الله لا شريك له في الآفاق. فلولا صبرهم على الشدائد والمصائب كما حدث حينما قام أهل مكة بمقاطعة الرّسول عليه الصلّاة والسّلام وإخراجه إلى شعاب مكة مع قطع التعامل معهم لسنوات

193 - آل عمران 85.

وهم صابرون لم يتراجعوا عن الحقّ المتمثل في الدعوة إلى توحيد الله عزّ وجلّ، وقد كانت نتيجة صبرهم هو ما نراه الآن من انتشار الإسلام في كل بقاع الأرض وانتصارهم على جبارتها. ولذا فعلى خليفة الله في الأرض أن يستمد حبه لانتصار الحقّ من صبره على تحمّل المكابدة في سبيل إظهار الحقّ من الباطل.

ولأنّ نوح عليه الصلّاة والسّلام قد اتصف بصبره وعزمه وتوكله على الله تعالى في كل أمرٍ يدعو إليه، فهو يعلم من العليم المطلق أن الصبر مفتاح لتوفيقه فيما أراد الله له في قومه، ولذلك لو لم يستمد صبره من الصبور ما كان من الصابرين، وقد استمد نوح صبره صفة من الصبور جلّ جلاله وهو العليم الحكيم، ولذا فصبرُ الخالق على عباده منبَعُه علمه المطلق بهم فهو خالقهم والعالم بهم، فيؤخر عنهم العذاب لعلمه المطلق بما هو أصلح وأنفع، وعلمه يتعدى الظواهر إلى البواطن والخفايا، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ {194}، لذلك؛ فقد كان صبره على عباده على أساس ثابت ومتوازن ووفق قانون إلهي عادل، فعلم الخالق بعباده الصادق منهم والكاذب والمنافق، الكافر منهم والمؤمن، العاصي منهم والمطيع علمٌ حق، ومع علمه بهم وبأدق أمورهم؛ فهو الصبور عليهم وهو يعلم مقدما من الذي من عباده سيصمد ويثبت أمام الشدائد، ومن الذي سيتقهقر وينهار، وكل وفق ما يختارون، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابْتَكُمْ مُمْصِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ {195}.

194 - الأعلى 7.

195 - آل عمران 165.

وبالرغم من علم الخالق المطلق بعباده، إلا أنه لا يُعجّل لهم العقاب أو الثواب، فشدّة جحود الكافرين وعصيانهم وظلمهم، لم تجعل العليم يُغيّر في توقيت وقوع عقوبته عليهم، وكذلك حبه القوي لعباده المؤمنين الصالحين، لم يجعل الخالق يتعجل في منحهم الثواب والخير الكبير والنعيم الدائم، فكان صبره على جميع العباد ولكنهم اختلفوا واختلفوا؛ فمنهم من كانت عاقبته عذابا شديدا، ومنهم من كانت عاقبته ثوابا عظيما، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ {196}.

فعلى خليفة الله أن يصبر على تلقي العلم المفيد الذي من شأنه أن يجعله مدركا للأمور وعواقبها، عالما بما هو نافع له في دينه ودنياه، فلا يغفل عن السعي لطلب العمل، ولا يتكاسل عن تنمية حب المعرفة والفائدة، فلا يمكن أن يصل الإنسان إلى التحلي بالصبر وهو جاهل بمزاياه ونتائجه، فالإنسان يصل بالعلم إلى حدود فهم الصبر فهما صحيحا فينأى بنفسه عن العجلة والتهور، لأنّ علمه يكون رادعا له عن التسرع المذموم، ولكن بالعلم نصبر على الأمور، وبالعلم نصل إلى معرفة هذا الخلق العظيم، ومن هنا كان لابد للخليفة أن يصبر على تلقي العلم مهما كان طريقه صعب وغير مُيسّر.

وبحكمة نوح عليه الصلّاة والسّلام حَبَّرَ الحَيَاةَ والتعامل مع النَّاسِ، فكان رسولا ونبيا داعيا للخير محبة لله تعالى الذي من صفته الصبر

الذي استمد نوح صفة منه على أفعال قومه الذين كذبوه وسخروا منه وكادوا له المكائد، ومكروا به أشد المكر، ولكنه صبر فكان الله خير الكائدين وخير الماكرين لمكائد قومه ومكرهم، فسلم نوح وغرق قومه إلا من آمن مع نوح من أهله.

الصبور المطلق عز وجلّ يترك العبد أحياناً يسيء ويخطي في حقه تعالى ومع ذلك يعطي الفرصة لمن خلق من العباد لعلهم يتوبون إلى بارئهم فيغفر لهم من ذنوبهم ويرحمهم.

لقد صبر الله تعالى على قارون وأعطاه الفرصة فأعطاه من المال والخيرات ما لم يعطه لغيره، ولكنه بدل أن يشكر الله على ذلك ويحمده تجبّر وأخذته الغرور وجحد نعمة الخالق عليه، ومع ذلك تركه الله يزيد في غروره وظلمه وطغيانه وفقاً لاختياره الإرادي، وكأن ما ملك من خيرات هي منه وليست من مالك الملك جلّ جلاله الذي يُمهّل ولا يُهمّل، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ

وَيَكَاَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَاَنَّهٗ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ {197، فالعطاء هنا كان بخبرة الخبير المطلق لكي يفصل بين من تمنوا ما أنعم الله على قارون ورأوا فيه الإنسان المحظوظ، وبين من صبروا على عدم امتلاكهم لهذه النعمة، فالصبر فرّق بين الفريقين، وخبرة الخبير المطلق أوضحت هذا الفرق عند حلول العقاب ووقوع الجزاء عليه في الدنيا، ولا يستطيع أن يقوم بذلك إلا من كانت له القدرة الكافية لتدبير الأمور بخبرة وحكمة.

ولأنّ الصبر على الحقّ صفة حميدة؛ فقد اتصف به نوح عليه الصلّاة والسّلام لأجل أن يُعطي لقومه الفرصة بعد الفرصة لعلهم يستغفرون ربهم ويتوبون إليه، مصداقا لقوله تعالى: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا {198، وذلك لعلم نوح أنّ الخالق عزّ وجلّ بخبرته المطلقة يعلم أن من عباده من هو قابل للتوبة والرجوع عن الخطأ إذا أتاحت له الفرصة لذلك، قال سبحانه وتعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ {199، لذا فصبر نوح بخبرته على أولئك المذنبين، كان من أجل إتاحة الفرصة بعد الفرصة لهم، لذلك كان صبر نوح عليه الصلّاة والسّلام على قومه المذنبين.

ولأنّ صبر الصبور المطلق ترافقه الحكمة المطلقة فكان ذلك علاجاً لأمر كثيرة، فله المثل الأعلى، وقد يكون من بيننا من يدّعي الصبر، ولكنه في حقيقة أمره لا يرى الأمور أبعد من أنفه، فلا يستطيع أن يحسب الأمور بشكل صحيح وواضح، فلا يصل لنتيجة مع نفسه أو

197 - القصص ص 76 . 82.

198 - نوح 10.

199 - الشورى 25.

مع غيره ترضيه وتجعله راضيا أو مدركا، ولكن الصبور المطلق هو الذي يرى الأمور ويحسبها ويدققها ويدركها دون أن تأخذه العجلة والتسرع، لذلك لا بد أن يجتمع في نفس خليفة الله بالإضافة الصبر الممزوج بالحكمة والوعي التام والعلم المفيد الذي يدعم الحكمة في الإنسان.

فالإنسان الحكيم تجده يعالج أموره من زوايا عدة فلا يضعها تحت زاوية واحدة فقط، بل إنه يقلبها حيث يجد الأفضل والأنسب لها، إذن فهو هنا يعالج المشكلة بحكمة ولا بد أن يصل إلى أفضل الحلول والنتائج، فقد يضطر الإنسان أحيانا في المجتمع أن يقف أمام مشكلة ما؛ بعد أن يستنفذ جميع المحاولات لعلاجها والوصول إلى حل واضح وإيجابي فيها، فلا بد للإنسان أن يصبر أكثر وأكثر لأن علاج كثير من المشاكل والقضايا يكمن في المزيد من الصبر مع القبول بإعطاء الوقت المناسب لمعالجتها وحلولها، فتأخذ المشكلة وقتها وتبدأ بالانتهاء، وبذلك تبدأ هذه المشكلة بالتلاشي والانسحاب بعد أن كانت ذات تأثير كبير على الأنفس.

إذا من المؤكد أننا لو استعنا بالصبر والحكمة لاستطعنا حل معظم المشاكل الإنسانية التي تحيط بنا، ولأمكننا القضاء على الكثير من الأمراض الاجتماعية التي طغت على حياتنا في مجتمعاتنا الإنسانية الحديثة، فالصبر على المعرفة والبحث والتقصي هو من أروع أنواع العلاج الرادع وأفضلها، الذي سيغنينا عن الشقاق والخصام والصدام. الصبور هو من يستشعر أن في صبره رحمة له ولغيره، ولذلك صبر نوح على كل ما قاله قومه له من أجل أن يستغفروا الله رب العالمين ويتوبوا إليه، ولذلك فالفرق كبير بين الصبور المطلق الذي يصبر من أجل العباد لا من أجله وبين صبر العباد الذين صبرهم لا يكون إلا

بأسباب تعود عليهم أو على غيرهم وعليهم كما هو حال نوح الذي كان صبورا لأجله ولأجل قومه.

الصبر يُؤلِّد الكثير من الفرص للعباد لمراجعة النفس ومحاسبتها لعلها ترجع إلى الحقّ أو تتوب عما كانت فيه، فتكسب بذلك آخرتها، ولذلك في تعلم الصبر وتعليمه رحمة إذ أنه ما من صابرٍ على ابتلاءٍ ومحتسب أمره لله إلا وكانت الجنة جزاء له على صبره، فتتجلى هنا رحمة الخالق بعباده الصابرين، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} {200}، فقد خلق الله الصبر ليكون عوناً للمؤمن فيرضى بنصيبه ويعلم بأنّ ما من شيء يصيبه إلا فيه خير لا يدركه هو بعقله المحدود، فالصبور سبحانه وتعالى لا يمكن أن يظلم أحداً من عباده، بل هو العادل في حكمه وبين خلقه، فلا يصيب المؤمن إلا ما فيه الخير، ورحمة الله في صبره تتجلى فيم يلي:

أ. عدم تعجيل العقوبة على العصاة والكافرين:

تبارك في علاه يتجلى لنا المعنى العظيم والعميق لهذا، الاسم في أنه لا يعاجل في عقابه وانتقامه كلّ مستحقٍ لهما، مهما كانت درجة الخطأ والجحود، فقد وصل الأمر ببعض البشر أن يشككوا في واحديته تعالى؛ فنسبوا إلى الله جلّ جلاله الأبناء وافتروا عليه الكثير من الأكاذيب على مر الزمان، قال سبحانه وتعالى: {قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْعَزِيزُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ

200 - البقرة 155 . 157.

عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} 201، وبالرغم من ذلك فقد أرسل الصبور جلّ جلاله الرّسل والأنبياء لهداية أقوامهم وشعوبهم وأمهم وإرجاعهم للحق الذي عليه يفترون.

وقد وصلت درجة كفر الكفرة إلى مرحلة يستحقون معها أن يسخطهم الله في حينها وينزل عليهم عقابه في وقتها، قال تعالى: {وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِنا مِنْ قَبْلِكُمْ فَأَمْلَيْتُمْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} 202، وكذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} 203 فالخالق عزّ وجلّ قادر على أخذ الكفار في أي وقت يشاء، ولكن حكمته المطلقة ورحمته وصبره الذي هو صفة مطلقة له، أحرّ عقابه في مُعظم الأمر، وفي بعضه القليل الذي منه حال قوم نوح وعاد وثمود وقارون الذين جعلهم دروساً للناس لعلهم يتعظون، ومن يتمادى في كفره فإنّ عذاب جهنم سيكون له بالمرصاد، ولن يغفر لهم ولن يعفو عنهم بصبره بل يمهلهم الوقت، فمن رجع للحقّ كان له الفوز والنجاة، ومن لم يرجع فإنّ الله شديد العقاب.

ب - تهيئة فرص التوبة لمن أذنب:

هناك الكثير من المسلمين الذين يقترفون الذنوب والكبائر في حياتهم، ويمضي بهم العمر وهم غافلون عن ضياع حياتهم سدىً، ومع ذلك فإنّ الرّحيم بصبره عليهم وعدم تعجيل عقابه لهم على ذنوبهم، يمنحهم الفرص المتكررة للتوبة والتكفير عما صنعوه، مصداقاً لقوله تعالى: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ

201 - يونس 68، 69.

202 - الرعد 32.

203 - الأعراف 182، 183.

ضَعِيفًا} 204، فبصبر الصبور المطلق يريد الخالق أن يُصَحِّحَ العباد من سيرهم، ويغفر لهم بحبه الذي يمنحهم الوقت لمراجعة أنفسهم والعودة إلى طريق الحق والصواب، فيأتي صبر الخالق عليهم في مواجهة إجراءات الدنيا ووسوسة الشيطان من الإنس والجن، قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 205، وكذلك قوله عز وجل في كتابه الكريم: {وَأَخْرُوجُوا غُرُوبًا يَدُورُونَ أَمْ لَمْ يَلْمِزْهُمْ عَزَّ وَجَلَّ إِنْ كَانَتْ بِكُمْ قَسَمَاتٌ مِنَ الْمَرْءِ وَالْمَرْءِ عَصِيَ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ} 206، فكم من ناجٍ من العذاب بسبب صبر الله تعالى عليه مانحاً له الفرصة لتغيير مسار حياته أحياناً بكلمة؛ أو موقف؛ أو فعل؛ أو ابتلاء، فينجو من عذاب الحريق بالعودة عما كان فيه بتوبته عن ذنوبه.

ج - ضرب الأمثال للعباد بصبر رسله:

من كرمه تعالى على عباده أن أمرهم بالصبر علاجاً لما قد يتعرض له الإنسان من ضيق وبلاء بأشكال متباينة، وقد جعل الله عز وجل الرسل صلوات الله عليهم وسلامه أمثلة للصبر على الابتلاءات والحنن، فما من رسولٍ أو نبيٍّ إلا وكان الصبر من صفاته، ومن شأن هذا أن يُدعِمَ فينا هذه الصفة، حيث أن الصبر كان وسيلة من ضمن الوسائل التي لجأ إليها المصطفين الأخيار في مشوار دعوتهم ومسيرة تبليغهم لرسالات الخالق عز وجل، قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ

204 - النساء 27، 28.

205 - المائدة 39، 40.

206 - التوبة 102.

هُم مُّحْسِنُونَ} 207، وقوله تعالى: {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} 208، وكان أمر الله بالصبر لرُسُلِهِ عِلَاجًا يَتَعَامَلُ بِهِ مَعَ الْكُفْرَةِ وَالْعَاصِينَ، وليس مجرد توقيت فيه تأخير أو مَمَاطَلَةٌ، وهو عِبَارَةٌ عَنِ مَبْدَأِ اعْتِمَادِ عَلَيْهِ الرَّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ يَرْتَكِزُونَ عَلَيْهِ فِي تَحْمُلِ مَعَانَاةِ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ لِتَوْحِيدِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا بَلَّغْتَ الدَّعْوَةَ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ هَذَا الْمَدَى بِإِذْنِهِ تَعَالَى، فَصَبْرُهُمْ كَانَ سِلَاحًا قَوِيًّا يَدْعُمُ فِيهِمْ شَعُورَ الْفَوْزِ وَالنَّصْرِ، وَلِذَا فَصَبْرُهُمْ عَلَى الشَّدَائِدِ وَالْأَذَى حَتَّى مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِمْ، كَانَ نَابِعًا مِنْ حُبِّهِمْ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحِرْصِهِمْ عَلَى رِضَا، مَعَ التَّزَامِهِمُ الْكَبِيرِ بِأَمْرِهِ وَاصْطِفَائِهِ لَهُمْ أَنْبِيَاءَ وَرَسُلًا مَكْرَمِينَ، فَكَانَ مَبْتَغَاهُمْ مَرْضَاتِهِ عِزًّا وَجَلًّا، قَالَ تَعَالَى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ} 209، مِنْ هُنَا، يَتَضَحَّ لَنَا حُبُّ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الصَّابِرِينَ، وَمِنْ هُنَا أَيْضًا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْرِكَ مَصْدَرَ الْقُوَّةِ الَّتِي يَتَحَلَّى بِهَا عِبَادَهُ الصَّابِرُونَ، وَهُوَ الْحُبُّ النَّقِيُّ الصَّادِقُ.

فَعَلَى خَلِيفَةِ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ حُبَّهُ لِلَّهِ دَافِعًا لَصَبْرِهِ، مَقْتَدِيًا بِالصَّالِحِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ الرَّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ، فَلَا يَنْكَسِرُ أَمَامَ حَزْنِهِ أَوْ يَسْتَسَلِمُ أَمَامَ فِشَلِهِ، أَوْ يَضْعَفُ أَمَامَ مَصِيبَةٍ أَوْ بَلَاءٍ قَدْ يَجْلَانُ بِهِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَحْضِرَ الصَّابِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِيَشُدَّ عِزَّتَهُ وَأَنْ يَكُونَ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّ اللَّهَ يَزِيدُ مِنْ مَحَبَّتِهِ لِعِبَادِهِ الصَّابِرِينَ، فَيَكُونُ مَضْرِبٌ مِثْلَ بَصْرِهِ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَيُّ كَانَ أَنْ يَخْتَرِقَ هَذَا الْحَصْنَ الْمَنِيعَ الَّذِي لَا يَبْنِيهِ وَلَا يَعْمَرُهُ إِلَّا الرِّضَا وَالْقَبُولُ بِقَدْرِ اللَّهِ وَلَا يَأْتِي هَذَا الرِّضَا إِلَّا بِحَبِّهِ جَلَالَهُ.

207 - النحل 127، 128.

208 - المزمل 10.

209 - آل عمران 142.

لذلك؛ فخليفة الله هو عنوان الصبر في الأرض، يتعامل مع أمور دينه ودينه بالصبر الجميل الذي من شأنه أن ينصره على نفسه وما فيها من ضعف، وكذلك ينصره على من يؤذيه أيضا، فلا يشعر باليأس لمجرد امتناع حاجة من الحاجات عنه أو نقصها، بل أنه يرى في ذلك حب الله له، فيكون رده على هذا الحب بالصبر الذي يرتضيه الله لخليفته في الأرض.

وعليه: لقد صمد نوح بصبره أمام الذين سخروا منه والذين كذبوه والذين هددوه والذين أشركوا بالله والذين كفروا به تعالى، وذلك لاستمداده صفة صبره وصموده من الصمد المطلق جلّ جلاله فهو الذي يعطي كل محتاج حاجته بتعجيلها أو بتأخيرها، فالعطاء سواء أكان عاجلا أم آجلا هو دائما لخير العبد ومصلحته، قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} 210، وبما أنه الصمد الذي لا يشاركه أحد في ملكه فهو القادر على كشف الضر والأذى عن الإنسان، بالرغم من أنّ الكثير من البشر يفتقدون الوصول إلى هذا الحد من اليقين الذي يخلق الصبر في أنفسهم قال تعالى: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَاهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِّيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 211.

210 - الإخلاص 4.1.

211 - يونس 11، 12.

وعلى خليفة الله في الأرض أن يكون معينا لغيره وملجأ لهم عند حلول الأزمات، ليستشعر غيره بما للصبر من فضائل وفوائد تُعين الإنسان نفسه وتجعله مُعينا لغيره.

ومع أنّ الرّسل والأنبياء يحبّون الخير لأنفسهم ولغيرهم ولا يحبّون شيئا على حساب شيء آخر، إلا أنّهم كلما وضعوا في مقارنة بين ما يحبون ويرغبون وبين محبة الله وطاعته نلاحظ انهزام ما يحبونه لأنفسهم أمام ما يحبه الله فينحازون له جلّ جلاله انخيازا للحق الذي يعلمه وهم لا يعلموه، ولكن ليقينهم أنّه علام الغيوب يقدمون على تنفيذ أوامره دون تردد مصداقا لقوله تعالى: { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ } 212، أحب سيدنا إبراهيم ولده إسماعيل حبا كبيرا، لكنه أحب الله أكثر، فصبر على أمره وأطاعه، وصبر سيدنا إسماعيل على مصيره لعلمه برحمة الله وحبه له، فكان الله رؤوفا رحيفا بهما مكافا لهما على صبرهما فهو الكريم الذي لا يظلم أحدا ويجازي المحسنين الذين آمنوا به وأطاعوه في كل أمر ونهي.

وعلى خليفة الله في الأرض أن يُسلّم أمره لله تعالى، ليتعلّم كيفية الصبر على البلاء، فأنفسنا البشرية أحيانا تخوننا عند حلول الأزمة أو وقوع البلاء، وعلى الإنسان أن يدرب نفسه على الصبر ويهيئها لتحمل الشدائد والصعاب، فلو أنّ كل مسلم تعرض للأذى والبلاء

على يد غيره من أعداء الإسلام قد استسلم وانهار، لما امتلأت الأرض بالمجاهدين والشهداء والمدافعين عن الإسلام، فمثلا لو أنّ أهل بيت المقدس تركوه من شدة المعاناة والضغط عليهم من اليهود لما وجدنا أثرا للإسلام هناك ولا مطالبا بعودتها للمسلمين، ولكن بصبر أهلها وجلدهم وإيمانهم بالله تعالى جعل الأمر أسهل على قلوبهم لتسليمهم الأمر لله خالقهم وطاعتهم له في كل شيء، فهنيئا لغزة وأهلها بيت العزة، وهنيئا لكل الصابرين في فلسطين والجولان وجنوب لبنان والعراق، وهنيئا لمن سيصمد دفاعا عن الدين ودفاعا عن الأرض والعرض، وعلى الجميع أن يعلموا أنّ التاريخ دروس وعبر ووقفات عز، فليتعظ العباد ويتذكروا تلك النتائج العظيمة التي ألمت بمن ضل واتبع هواه كما ضل قوم نوح واتبعوا هواهم فانصرف من كان على الحق (نوح) وغرق من كان على الظلم والحمد لله رب العالمين.

ولقد اختصّ الله تعالى الصابرين الراضين والمطيعين بمزايا منها:

أ - ينزل الله رحمته عليهم فيصيبهم بالأمن والطمأنينة:

قال تعالى: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} وَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ {213}، فرحمة الله تعالى تكون بمثابة الطمأنينة والسكينة التي تسكن قلوب الصابرين حبا في الله.

ب - استحقاق البشري:

فبصبرهم استحقوا بشراه كهديه لهم جزاء صبرهم، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} {214}، فطوبى لمن استحق بشري الخالق جلّ

213 - البقرة 156، 157.

214 - البقرة 155.

جلاله، لما فيها من مكرمة ورفعة للإنسان عند ربه، فالصبور لا يمنح بشراه إلا لأقرب عباده.

ج - مدّ الله الصابرين بالعون والمساعدة،

قال تعالى: {وَكَايَيْنٍ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } 215.

د - الجزء الكبير المجزي:

لقد خص الله تعالى عباده الصابرين بالجزاء العظيم، قال تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } 216.

هـ . التقرب إلى الله والتضرع إليه:

قال سبحانه وتعالى: {وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ } 217.

فيجب على خليفة الله أن يكون صبورا يملؤه الأمل الذي به ينتصر على الخوف واليأس والقنوط وإن لم يفعل ذلك سيجد نفسه على ما يخالف أمر الله، مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ } 218.

و . زرع الطمأنينة في قلب الصابر:

215 - آل عمران 146 . 148 .

216 - النحل 96 .

217 - الأعراف 126 .

218 - الزمر 53 .

الإنسان بطبيعته عجول لا يحب الانتظار ولا يطيق أن يطول به الوقت عند عزمه لقضاء أمرٍ ما، وبطبيعته أيضا أنه مخلوق لا يهدأ ولا يستكين بسهولة فحاجاته المتنوعة والمتطورة تتعدد مع تعدد متطلباته ورغباته وشهواته في الدنيا، وكذلك غرائزه تضغط بما لا يطيق في بعض الأحيان مما يجعله يقلق ويتسرع ولهذا فهو يهلع ويجزع مصداقا لقوله تعالى: { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا } 219. لكنَّ المؤمن الحقَّ لا تكون من صفاته الخوف والجزع واليأس، بل يهبه الله تعالى الصبر والرضا وبملاً فؤاده الطمأنينة التي يبحث عنها ملايين النَّاس الذين يتعدون عن خالقهم، مما يجعلهم في عزلة نفسية أمام أبسط الامتحانات التي يتعرضون لها في حياتهم اليومية، ولذلك يميل من لم يملَّ منهم من قبل إلى شرب المحرمات والتعاطي بما يجعله خارج دائرة الحياة الإنسانية المطمأننة، التي تنمو فيها الفضائل والقيم الأخلاقية التي تنظم علاقات البشر على التأدب والاحترام واتباع الحقِّ فيما يقولون ويعملون.

قوم نوح عليه الصلّاة والسّلام ضعفوا أمام مغريات الحياة الدنيا فانهزموا ولذلك لم يُكتب لهم في التاريخ إلا الكفر والشرك، وكُتبت لهم جهنم في الحياة الآخرة، إنهم الذين خسروا الدارين، ولذلك من لم يكن قويا بإيمانه، يجد الحياة الدنيا مليئة بالإغراءات التي من شأنها أن تؤدّي به إلى الهلاك، وخاصة أنه مخلوق ضعيف أمام الشهوات والأهواء لوجود من يزيّن له هذه الأمور ويجببها لنفسه، قال تعالى: { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ

²¹⁹ - المعرج 19 . 21.

الدَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَيْلِ الْمُسَوِّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ {220}.

إذا فمن النَّاسِ من يسيطر عليه حب المال فلا يملك الصبر لفراقه،
ولا يقبل الإنقاص منه، ولذا يفوق حبه في قلب صاحبه كل حب،
وأحيانا نجد من يضعف أمام النساء فلا يملك نفسه أمام إحداهن
فيقع في الرذيلة، وتارة نجد من يعشق اكتناز الذهب والفضة وكأن
حياته موقوفة على ذلك، فلا يبحث عن الأمان والهدوء إلا في ظل
وجودها، لذلك فقد كانت حياة المؤمن معرضة لتكرار الامتحانات
وأحياناً للابتلاءات التي لا يمكن مغالبتها إلا بالصبر.

علية لا ينبغي أن يغفل الإنسان وأن يكون صبورا، صبره على ما
يُحِبُّ ومن يجب وصبره على ما يكره ومن يكره، ولذلك فالإنسان
يكون صبره لشيئين:

أ. عما يحب ويرغب.

ب. وصبره عما يبغض ويكره.

وهناك فرق بين النوعين، فالصبر عما نحب يستوجب منا جهدا
نفسيا شديدا وجهادا صعبا لا يحتمله إلا أصحاب القلوب الشديدة
الإيمان الطائعة لله جلّ جلاله، كأن يصبر المؤمن على فقدان أعز
أحبابه سواء بالموت أو حتى في الحياة، وهناك النوع الآخر من الصبر
وهو الصبر على ما نكره إذ لا خيار لنا إلا الصبر كأن نصبر مثلا
على المرض والنقص وغيرهما، ولا يمكن للخليفة في الأرض أن يسلك
طريق الجنة بسهولة ويسر، ذلك لأن طريقها مليء بالشدائد
والصعاب والابتلاءات، فالحب للجنة منحه الله الصبر على تخطي
هذه الصعاب من ابتلاءات وامتحانات متعددة وأن لا يستسلم ولا

يئأس ولا يقنط وأن يعمل كل ما في وسعه من أجل الخلاص من كل كرب.

وخليفة الله في الأرض هو من أدرك أن الصبر من مكارم الأخلاق وامتّماته، فلا يكمل الخُلُق إلا إذا تحلّى المرء به، وجعله رأس ماله القيمي، وبذلك من المستحيل أن تفسد روحه أو تضع في الحياة الدنيا، فلا ضير من أن يسيطر الإنسان على شهوته في غير وقتها، فهو الذي يقودها ولا يقبل أبداً أن تكون له قائدة.

13 . شكور:

الشكر بين الناس قول يُفصح به الأنا للآخر الذي كان سببا في إفصاحه إليه بالشكر، وبه تُنقل مشاعر الرضا عمّا قيل من فضائل أو قيم مُرضية للنفس ومطمئنة للقلب، أو عمّا قُدّم من أعمال أو بُذل من جهود في سبيل إحقاق حق أو مناصرة على ظلم أو مغالبة لحاجة أو أداء معروف في محله.

والشكر مجموعة من المشاعر والأحاسيس التي تدل على الاعتراف بمن كان سببا في تحقيق الرضا واعتراف بالجهود التي بُذلت منه تجاه من أفصح عن شكره لمن يعتقد أنه يستحق الشكر. الشكر في دائرة الممكن متبادل ويحتوي على الاعتراف والتقدير من حيث:

أولا الاعتراف: أن يقدّم الإنسان على فعل خير دون أن ينتظر مقابل أو حتى شكرا يمكن أن يُقدّم له على ما فعل؛ فينال من أصحاب الود والحقّ اعترافا فيشكر على ما قدّم وفعل، سواء أكان شكرا مباشرا أم كان غير مباشر، المهم في الأمر أنّ الفعل الحسن استفز الآخرين بشكر لمن قام به حتى ولو لم يُعرف بأسباب البعد أو غيره من المبررات التي لم تجعله معروفا للبعض.

ثانياً التقدير: وذلك حين يُقدّم الشكر لمن كان سبباً في تحقيق مستوجبات شكره، وهنا يكون الشكر مترتباً على فعل سابق يجعل عبارات الثناء تخرج من الصدور تقديراً للآخر الذي كان مسبباً في استخراج عبارات التواد مع فائق الاحترام.

الشكر مجموعة من المعاني المرضية لاستمرار علاقات التقارب بين المخلوق والخالق وبين المخلوق والمخلوق، فعلى المستوى البشري، الشكر عندما يُلفظ يُسمع فينال التقدير من المستمعين المحبين للخير وأفعاله، وبالنسبة للخالق فالشكر يُسمع على مستوييه الرئيسين:

أ . النية.

ب . اللفظ

الشكر بالنسبة للأنبياء الرسل والصدّيقين هو قيمة وفضيلة مترتبة على فعل محبب في مرضاة الله تعالى، وهو مجازة في مقابل اعتراف بأفعال التطابق مع الحق، ولأن الله عزّ وجلّ يريد للحق أن يُحق، ويُريد للباطل أن يُزهد، ويُريد للكافر أن يؤمن بإرادة، فهو بطبيعة الحال شكور لمن أزهد الباطل ولمن آمن وأسلم وجهه إليه واحداً واحداً لا شريك له جلّ جلاله.

وعليه فالشكر على مستويين:

الأوّل لم يكن من ورائه مطامع:

وهو شكر الخالق للمخلوق، قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ {221}.

الثاني من ورائه مطامع وهو على وجهين:

1 . شكر المخلوق للخالق: لنيل المزيد من مرضاة الله والفوز بالجنة

مصدقا لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾

كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ {222، وقال تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ {223.

ب . شكر المخلوق للمخلوق: وذلك لنيل رضاه والاعتراف له بالجميل والفضل أو لاستمرار الطمع فيه وفي عطائه.
وبالنسبة لشكر المخلوق لخالقه فخير مثال لذلك، شكر نوح عليه الصلّاة والسّلام لربه حتى وصفه بأنه عبد شكور، أي كثير الشكر مصداقا لقوله تعالى: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا {224.

الذرية المحمولة مع نوح هم الذين آمنوا به رسولا وصدّقوه وأطاعوا الله في أمره، أولئك الذرية هم الناجون مع نوح من الطوفان والغرق، ولهذا كان نوح شاكرا لربه تعالى على ما تحقق له ولهم من سلامة وحفظ ونجاة من كل سوء، ولأن نوحا دائم الشكر لله تعالى على نعمه وعلى فضائله التي لا تُحصى فهو كثير الشكر، ولذا فبكثره شكره لله تعالى اتصف بصفة من صفات ربه عزّ وجلّ فكان شكورا.

شكر الله لعباده كثير؛ فهو يشكرهم على توحيده وعدم الشرك به وطاعته والإيمان بأنبيائه ورسوله، وكذلك الصلّاة والسلام عليهم دون تفرقة بين أحدٍ منهم، وعمل الصالحات وإحقاق الحقّ في الأرض ودمغ الباطل وإزهاقه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحكم بالعدل والمجادلة بالتي هي أحسن وعدم الإكراه في الدين والإحسان للوالدين وأداء العبادات في أوقاتها من صلاة وصوم وركاة وحج وجهاد في سبيله تعالى، وكذلك التصدّق الذي به يتم التراحم ومواصلة الأرحام والمودة في القربى، والتشاور في الأمر مع كل من يخصه أو

222 - إبراهيم 7.

223 - فاطر 34.

224 - الإسراء 3.

يتعلق به الأمر، وفوق شكره لعبادة مغفرة، ولذلك من يقترب حسنة يزد له فيها حسنا مصداقا لقوله تعالى: { ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ } 225.

ولذا؛ فشكر الله تعالى للمطيعين والمغفرة لمن تاب بعد معصية، فالله تعالى هو الشكور على أفعالٍ نتائجها لا تعود عليه، بل تعود على فاعليها، ومع ذلك فهو الغفور الشكور جلّ جلاله.

وعليه: فمن يؤدي عملا من أعمال الخير المتعددة والمتنوعة يضاعف الله له موازينه بالحسنات والجزاء العظيم، ولذلك فالله شكور حلیم مصداقا لقوله تعالى: { إِنَّ تَقْرُضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفْهُ لَكُمْ وَيَعْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ } 226، ولمعرفة نوح عليه الصلاة والسلام بشكر الشكور للعباد، ولمعرفته ويقينه بأن كل النعم التي لا تُحصى هي هبة من الله تعالى إلى من خلق، ولأنّ نوح كان نبيا ورسولا مُصدقا لله وشاكر له على نعمه التي أنعمها على كل ما خلق، ولهذا يتعدد شكر نوح لربه تعالى مع تعدد نعم الله عليه وعلى ما خلق من المخلوقات التي جميعها تُسبِّح بحمد خالقها وتشكره دون أن يعرف البعض تسبيح البعض، وهو جلّ جلاله يعلمها هي كما هي من مُسبِّحها وشاكره، ولعلم نوح بكل ذلك كان نوح عبدا شكورا، { وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } 227.

وهذا الشكر المطلق الذي ورد في القرآن الكريم بصيغة (شكور) ولم يصل إليه إلا أصحاب الدرجات العلية من الأنبياء والصالحين

225 - الشورى 23.

226 - التغابن 17، 18.

227 - سبأ 13.

والصديقين والذين آمنوا واطمأنت أنفسهم بذكر الله تعالى، هؤلاء هم الذين وصفهم تعالى في قوله (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ)، وهؤلاء الشكور، هم الذين يوفيهم الله عزَّ وجلَّ أجورهم ويزيدهم من فضله مصداقا لقوله تعالى: {لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} 228.

والاسم الشكور: من أسماء الجمال والرحمة والبسط واللين، لذا؛ فقد جاء مقترنا بالاسم الغفور والاسم الحليم، إلا أن الاسم الحليم جاء بعده ليتمم الشكر المفاض على العباد مع العلم بأن كل اسم إلهي اسم مكتمل في ذاته العلية، لأنه من أسماء الله الحسنى وحاشا أن يلحق أسمائه نقص.

والله هو: (الشاكِر، الشكور) "الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل ويعفو عن كثير. ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكِرِينَ، ويذكر من ذكره" 229.

14. مُنْعَم عَلَيْهِ:

المنعم الله تعالى، والمنعم عليه نوح عليه الصلوة والسلام، ومن كثرة نعم الله على نوح اتصف بالمنعم عليه، ولذا فمن أنعم الله عليه فقد فاز.

لقد أنعم الله تعالى على نوح عليه الصلوة والسلام بالنبوة والرسالة ومحبتة له، ولقد أنعم عليه بالمعجزات التي أظهره عليها بعد أن كانت علم غيب مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ

228 - فاطر 30.

229 - تفسير السعدي، ج 1، ص 948.

وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا
وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا
عَذَابٌ أَلِيمٌ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ
وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ {230}.

ولقد أنعم عليه بصناعة الفلك بأعينه ووحيه جلّ جلاله مصداقا
لقوله تعالى: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا} {231}.

وكذلك أنعم الله عزّ وجلّ على نوح عليه الصّلاة والسّلام بنعمه
على ذريته من بعد آدم عليه الصّلاة والسّلام، تلك الذرية التي بعض
منها آمن وخرّ للرحمن ساجدا وباكيا، وبعض منهم كفر وأشرك وضل
ضلالا بعيدا مصداقا لقوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ
النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ
وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا
فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ
يَلْقَوْنَ غِيًّا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا
يُظْلَمُونَ شَيْئًا} {232}.

15 . أمين:

الأمين الذي يؤتمن جانبه ويوثق في قوله وفعله وعمله وسلوكه،
وهو المخلص لمن ائتمنه، فلا يخالف ولا يخون ولا يزور الكليم عن
مواضعه والحقائق عن حُججها، وهو الذي إن عاهد وفى.

الأمين هو الصادق والمصدق الذي تودع لديه الأمانات وتسلم
على يديه بالمحافظة عليها فلا تضيع ولا تُزور ولا يزيد ولا ينقص منها
شيئا.

230 - هود 46 . 49.

231 - هود 37.

232 - مريم 58 . 60.

والأمانة قد تكون من الله تعالى كما هو حال الأنبياء الرسل الذين اصطفاهم الله عزّ وجلّ وجعل بين أيديهم أمانات منه للعباد تستوجب الإيمان والطاعة والتبشير والإنذار والتحريض والأخذ بما جاء فيها قولاً وعملاً، والانتهاز عمّا نهت عنه وتجنب ما أنكرته وتحريم ما حرّمته.

ولأن كل أمانة تستوجب أن يكون أحد أميناً عليها، والرسالات السماوية أمانات فقد اصطفى الله تعالى لها الصّديقين رُسلًا حافظين ومبشرين ومنذرين وفاعلين بها بين العباد الخيرات الحسان، قال تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ قَالُوا انُّؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ} 233.

بأسباب انتشار الكذب اتصف البعض به؛ فكانوا من الكاذبين كما كان قوم نوح عليه الصلّاة والسّلام الذين كذبوا الحقّ الذي جاءهم به مُرسلاً من الله تعالى، ولأنهم كاذبون لم يقولوا على الحقّ إلا افتراءً، فلو كان نوح مدعياً بما أتاهم به أنه من بنات أفكاره جاز لهم تكذيبه، ولكن نوحاً عليه الصلّاة والسّلام لم يقل إلا الحقّ، وهو أنه مُرسل لهم من الله تعالى ليطيعوه ولا يشركوا به شيئاً ويتقوه، ولذلك نوح لم يتاجر بالرسالة التي أوّتمن عليها بل أجره على الله ربّ العالمين، أي أن نوح لم يطلب مقابل منهم سوى الإيمان بالله ربا واحداً أحداً.

16 . داع:

الدّاعي هو المتقرّب من المدعو، وهو المتضرع عند الحاجة، والدعوة تكون من مخلصٍ إلى مخلصٍ له، وقد يترتب على الدعوة إجابة أو استجابة وذلك حسب المدعو ودرجة قرب الداعي وبعده عنه. والدعوة التي تعني التضرع وطلب المساندة والمناصرة على الحقّ تمتد من قادر إلى أقدر منه، ومن قوي إلى من هو أقوى منه، ولذا فهي لم تكن دعوة من ضعيف إلى من يساويه في الضعف، ولا من قوي إلى من يساويه في القوة، بل هي دعوة تعظيم لمن بيده الإجابة، ولذلك فهي دعوة مخلوق لخالقه، وهي من محتاج إلى مالك الملك ومن فقير إلى غني مُغني.

وعليه يدعو العبادُ خالقهم رُسُلًا كانوا أم مؤمنين بهم محبة وتضرعا ومودة وملاطفة وتادبا مع يقينهم ستكون لدعوتهم الاستجابة من السميع الذي بيده الإجابة.

الدعوة مطالبة لإتباع ما يجب اتباعه، وهي لأسباب الحرص على المدعو والمدعو له، كما هو حال نوح عليه الصلّاة والسّلام في دعواه قومه إلى الإيمان بالرسالة التي كُلف بها من ربّه جلّ جلاله، قال تعالى: {إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا} 234، يدعو نوح قومه إلى طاعة الله لكي يجنبهم كل ما يترتب على الكفر والشرك والتكذيب والسخرية التي يسخرونها منه.

فالله برسالاته ورسله يدعو الخلق للإيمان بخالقهم وطاعته، والإيمان برُسُله ورسالاتهم والأنبياء وإنبيائهم قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي

234 - الشعراء 107، 108.

عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا
بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} 235.

أما الدعوة على الصعيد البشري فتأخذ مستويات منها:

أ . من رسول أو نبي أو أي مخلوق من خلقه إلى الله تعالى
خالقهم جميعا، هؤلاء هم الذين يدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة
والموعظة الحسنة، وهم الذين يدعونه تضرعا ليرحمهم ويغفر لهم ويتوب
عليهم ويكفر عنهم من سيئاتهم ولا يُحْمِلُهُمْ مَا لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ وَيَعْفُو
عَنَّهُمْ، قال تعالى: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا
تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا
طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ} 236، ولذا إن دعا رسول أو نبي أو مؤمن مسلما مصدقا لله
تعالى، لا يدعو إلا بأسمائه الحسنى مصدقا لقوله تعالى: {وَلِلَّهِ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} 237.

ب . من رسول إلى قومه أو شعبه أو أمته: قال تعالى: {لَقَدْ
أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} 238 وقال تعالى على لسان نوح
أيضا: (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)، وقال تعالى: {قَالَ
رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كَلَّمَا
دَعَوْتُهُمْ لَتَنَغِفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا

235 - البقرة 186.

236 - البقرة 286.

237 - الأعراف 180.

238 - الأعراف 59.

وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا {239}

ج . من والد إلى ولده (من الكبير إلى الصغير)، يؤسس هذا المستوى على الأوامر في غير معصية الله وعلى النواهي وحسن التأدب واتباع التي هي أقوم وترشد إلى الإصلاح والأعمار في الأرض ولا تفسد فيها ولا تؤدّي إلى سفك دم بغير حق، قال تعالى: { يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ } 240.

د . من ولد إلى والده (من الصغير إلى الكبير) حتى وإن كان غير مؤمن ينبغي احترامه وحسن معاملته مع فائق التقدير وفائق التأدب مصداقا لقوله تعالى: { وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُعْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } 241.

ليس كل من يدعى يُجيب أو يستجيب وإن استجاب بما لا يملك تكون استجابته كاذبة وباطلة، فهي قول ليس إلا مصداقا لقوله تعالى: { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ

239 - نوح 5 . 10 .

240 - لقمان 17 . 19 .

241 - مريم 41 . 45 .

عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا {242}.

الدعوة دائما تقتصر على من يملك ليستجيب، وهي لا تمتد لغيره، ولذا فالذين من دون الله هم في حاجة للدعاء أيضا، ومن يكون في حاجة لا يُدعى لإشباع حاجة هو يحس بنقصها أو يحس بالألم المترتب على فقدانها، ولذا فمن يريد إجابة أو استجابة فعليه بدعوة من يمتلك مشبعاتها ولا يدعو محتاجا، فالذين يدعون من دون الله رجالا أو نساء أو جنا أو صنما أو ملائكة فهؤلاء على غير إيمان ولا يُعدون من الذين أسلموا وجوههم لله رب العالمين، قال تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} {243}.

لا شك أنّ الله رجال صالحون، لهم من البركات والوجاهة التي جعلتهم من المقرّبين له جلّ جلاله ومع ذلك هؤلاء لا يُدعون من دون الله تعالى، بل دعائهم مع الداعي لا شك أنّ الله له سميع عليم مجيب، اللهم انفعنا ببركات من له بركة عندك، نبيا أو رسولا أو ملائكة أو جنا أو بشرا والحمد لك لا شريك لك.

وعليه: لا كاشف للضرر إلا خالق الضر ولا شافي للمرض إلا خالق المرض ولا منقذ إلا خالق الإنقاذ، ولا مفرّج للكرب إلا خالق الكرب، قال تعالى: {قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمَيِّنُ لِي حَبًّا وَالَّذِي أطمعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي

242 - الإسراء 56، 57.

243 - غافر 60.

مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَأَغْفِرُ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ {244}.

وعليه: أدعوك اللهم بأسمائك الحسنی أن تشفینا من كل مرض ووهن وضعف وتسرع وجهل وفقر وفشل، وتحفظنا من كيد الكائدين وحسد الحاسدين وسحر المشعوذين ومكر الماكرين وأن تفتح علينا بدعاء من عندك أنت جل جلالك أنزلته في كتابك الحكيم: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِعَيْرِ حِسَابٍ} {245}، وأحطنا اللهم بعنايتك ورعايتك. {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} {246}. {رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} {247}، توكلت على الله وعليه فليتوكل المتوكلون.

244 - الشعراء 75 . 89.

245 - آل عمران 26، 27.

246 - البقرة 286.

247 - آل عمران 192 . 194.

17 . مُبِين:

المبين الواضح الذي لا لبس ولا غموض فيه ولا شك، والمبين هو البين في ذاته لا بغيره، ولذا فهو لا يتطلب المقارنة لأجل توضيحه لمستفسرٍ من المستفسرين.

المبين الذي يحمل في طياته البينة الماحية للجهل والناسخة له بالعلم، والمفصلة لكل شيئاً تفصيلاً كما جاء القرآن مفصلاً تفصيلاً مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحْوَنًا آيَةً اللَّيْلَ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا مَّن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} 248.

في القرآن الكريم أينما وردت كلمة مبين جاءت على دلالة الوضوح، (قرآن مبين، إمام مبين، خصيم مبين، سلطان مبين، دخان مبين، نذير مبين، سحر مبين، ثعبان مبين، إفك مبين، عدو مبين، لسان عربي مبين، كتاب مبين) وهكذا من التوضيح والتبيان.

والمبين هو الموضح لما بين يديه من نبأ أو رسالة أو علم لأجل بلوغه عقول العباد وأذهانهم دون زيادة ولا نقصان، ولهذا قال نوح عليه الصلاة والسلام كما جاء في القرآن الكريم: {إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ

مُبِينٌ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ {249، أي لم يدع نوح أنه مصدرا للنبا العظيم أو الرسالة الخالدة بآياتها العظيمة، بل قال (إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ)، وبرغم إصرار قوم نوح على تكذيبه والسخرية منه وعلى الرغم من إصرارهم على الكفر والشرك، إلا أنه كان صبورا على تحمّل أدائهم له وكان داعيا ومبينًا لهم ليلا ونهارا ما كلُّف به من أجلهم ولاكثره جادا في تبيان ما كُلف به كانت له صفة المبين كما قال (إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ).

18. مُنَجَّى:

المنجّى هو المحفوظ من الكيد والمكر مهما تعاضم أمرهما من الكائدين والماكرين، ولذا فالمنجّى تُفتح أمامه سبل النجاة من كل كرب عظيم، وتُخلق له الظروف الممكنة من ذلك كما خلقت لنوح عليه الصلّاة والسلام والذين معه من أهله ومن كل زوجين اثنين، مصداقا لقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} 250 وقال تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ} 251.

لقد كانت نجاة نوح عليه الصلّاة والسلام ومن ركب السفينة معه آية من الآيات العظيمة باقية في كل الرسالات الخالدة، ولولا نجاته وأهله الذين آمنوا معه ولولا الزوجين من كل اثنين (مذكر ومؤنث) لكانت النهاية للخلق والمخلوقات من ساعة الطوفان تلك، قال تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} 252.

249 - الشعراء 115، 116.

250 - هود 40.

251 - الأعراف 64.

252 - العنكبوت 15.

19 . مؤمن :

المؤمن: اسم من أسماء الله الحسنى، أمّا (مؤمن) فهو من استمد صفته من صفاته تعالى، وكذلك منه يستمد الأمن الذي تبحث عنه الأنفس لتطمئن على أحوالها، والأمانة ضد الخيانة، والإيمان ضد الكفر.

وَأَمَّنَ الْمُؤْمِنَ وَثَقَ وَصَدَّقَ، حتى اعتقده حقيقة، ولذا فالإيمان هو الوثوق والتصديق والتسليم، والمؤمن اسم لوصف من أوصاف الله الحسنى جلّ جلاله.

قال تعالى: {إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقنا منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا} 253

والأمانة التي عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها وأشفقنا منها هي المسؤولية التي حملها الإنسان، والمسؤولية التزام بالطاعة وعدم المعصية، طاعة الله واحدا أحدا لا شريك له، ولذا فإنّ الأمانة عبء كبير ومن ورائها منافع أكبر، فمن كان أميناً وحريصاً عليها كانت له الخلافة، ومن لم يستطع فلن يكون خليفة على الأمانة.

ولثقل عبء الأمانة التي التزم الإنسان بها أمام ربه تعالى بحملها، لم يُوفَّق في حملها بالتمام، فكان التقصير من بعضه، وكان الشرك من بعضه، وكان الظلم وقتل النفس التي حرّم الله، وكان الفساد في

الأرض، وكان أكل أموال الناس بالباطل، وكان قول الزور متمشياً مع شهادة الزور، وكان الزنا مع المحرمات، والكثير من المعاصي وعدم الالتزام. وهذا لا يعني أنّ الكل على هذه الشاكلة، بل هناك الأنبياء الرّسل صلوات الله وسلامه عليهم، وهناك الصالحون الكرام وهناك الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وهناك المتصدّقون والمزكّون والقائمون بأعمال الخير والإحسان، وهؤلاء هم المؤمنون الذين إذا أقسموا بالله لأبرّهم، فالحمد لله ربّ العالمين.

قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} 254

تؤكد هذه الآية الكريمة على أن الاستخلاف في الأرض هو للذين آمنوا، ولهذا، قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فالذين آمنوا منكم، لا تعني الذين لم يؤمنوا منكم. ولذا كان الاستثناء في استخلاف الأرض يخص الذين آمنوا، ولا يعمّ الذين كفروا، ولا يخصّ الذين لم يعملوا الصالحات. ولذلك فالاستخلاف خاصية ترتبط بالمؤمن وبالذين يعملون الصالحات، والعمل الصالح بطبيعته عمل المؤمنين، فهؤلاء هم الذين أراد الله تعالى استخلافهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ). وعليه فكلمة (منكم) تعني بعضكم وليس عمومكم، ولأنّ الناس لم يؤمنوا بعد جميعاً، فلن يكونوا بالعموم خلائف.

بناء على ما تقدّم: علاقة قوية بين اسم المؤمن والفعل الإيماني، وذلك من حيث أنّ اسم المؤمن هو المصدر للفعل الإيماني، أي لو لم يكن المؤمن ما كان للإيمان فعل، وبما أنّ للإيمان فعل، إذن فمن يعمل على الأخذ به وتأكيدده فهو المؤمن، وإلا هل يُعتقد أن يتم الأخذ بالفعل الإيماني من غير المؤمن؟ ولذلك من يتخذ من اسم الصفة أفعالها يتصف بها وتوصف أفعاله.

وبما أنّ الأمانة عبء، والعبء ثقل ليس هيناً، ومن ورائه مسؤوليات جسام، فمن الذي يتطوع لحمله؟ الواثق هو الذي يتقدم متطوعاً لحمله، أمّا غير الواثق فلا يتقدم، ولهذا عبء الأمانة لا يحمله إلا الواثقون، الذين هم يتصفون بالخلائف كما هو حال نوح عليه الصلّاة والسّلام مصداقاً لقوله تعالى: { فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ } 255.

المؤمن جلّ جلاله هو محل الثقة المطلقة، والمؤمن بالإضافة هو المتّبع التزاماً لكل ما جاء به المؤمن الحقّ، تسليماً بالقول، وتسليماً بالفعل، حتى يتماثل الباطن مع الظاهر (السر مع العلانية).

ولذلك؛ فإنّ اسم المؤمن جلّ جلاله اسم الوثوق، الذي لو لم يكن اسمه المؤمن ما كان لنا الدليل على صدق ما يُقال، فالمؤمن اسم عهد على الإيمان، ولذا؛ فالإيمان هو دليل وثوق المؤمن من ذاته ونفسه وقوله وفعله. فالإيمان عهد لا ينفصم، وقسم لا يحنث، إنه الرسوخ والثبوت على الحقّ بقوة الحجّة.

المؤمن الحقّ هو مصدر القوّة المطلقة، والمؤمن بالإضافة هو الذي يستمد قوته من قوّة المؤمن الحقّ، وهو الذي يُسلم به تسليماً تاماً لا

ظن فيه. ولذا فإن اسم المؤمن بالإضافة هو اسم تسليمي، يؤمن بما أنزل ولا يعصي لله أمرا.

وعليه: فاسم المؤمن بالإضافة اسم تعبدي، بعد أن يتم التسليم بالله ورُسُلُه وكتبه وبكل ما أمر به ونهى عنه يصبح الإيمان فعل إضافة لفعل التسليم، ويصبح المؤمن في هذه الحالة هو الذي يملأه اليقين مصداقا لقوله تعالى: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ 256، ولذلك كان نوح عليه الصلوة والسلام مؤمنا بما دخل قلبه من إيمان بالله تعالى وبما أمر ونهى وحلل وحرّم قال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ 257.

20. نبي ميثاق:

الوثوق: تسليم بغرس الثقة في الموثوق به والموثوق منه من رسالة أو نبأ أو حكمة أو كتاب.

الوائق: الذي لا يشغل خاطره وعقله ظنا أو شكاً أو انتقاصا في الأمر الذي أسس في نفسه وقلبه عقيدة راسخة.

رُسل الميثاق: هم رُسل العهود المتينة، وميثاق النبيين هو ما واثقوا به أنفسهم أمام الله جلّ جلاله.

ولذا؛ فالميثاق هو ما يُقرُّ به التزاما دون حياذ عنه وعن إحقاقه، ونبي الميثاق هو من يتعهد أمام ربه تعالى بما يأمره به مع فائق الطاعة والالتزام بأداء الكتاب وتبينه أو الحكمة والرسالة وتبينهما وتحمل كل ما يترتب عليهم من عناء ومشقة من القوم أو الشعب أو الأمة التي منها رسول الميثاق الكريم ودون أي تنازل أو تفريط، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

256 - الحج رات 14.

257 - الصافات 79 . 81.

مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ
إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ فَمَنْ تَوَلَّىٰ
بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {258}.

ولأننا هنا نبحت فيما آتاه الله عزّ وجلّ لنوح عليه الصّلاة
والسّلام من آيات ومعجزات أظهره الله عليها ولم يُظهرها لأحد من
قبله نقول: لقد ذكر الله تعالى ميثاق جميع الأنبياء على العموم،
وخصّ بالذكر نوحا مع أربعة من الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه
عليهم فهم خصوص العموم، بأنهم أنبياء الميثاق الغليظ الذي لا
تنفصم عراه أبدا ولا تُخلّ عهوده أبدا قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ
النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ
وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ
لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا {259}.

موثيق الأنبياء مع الله تعالى موثيق غير مكتوبة بل هي موثيق
تؤخذ تعهدا والتزاما أمام الله عزّ وجلّ بما تم تكليفهم به رُسُلا
لأقوامهم وأمهم، قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ} {260}، كان ميثاقهم مؤسّسا على التزامهم
بتبَيّانه لأقوامهم وأمهم وعدم كتمانهم بأي حال من الأحوال، مهما
اشتدت الظروف وصعبت الصعاب أمامهم، ولذلك كان نوح عليه
الصّلاة والسّلام داعيا لرسالته ليلا ونهارا إلى أن أحق الله الحقّ ودمغ
الباطل وأزهقه.

258 - آل عمران 81، 82.

259 - الأحزاب 7، 8.

260 - آل عمران 187.

21 . صادق:

الصدق، تطابق القول مع الفعل والعمل والسلوك وهو الذي به تظهر الحقيقة من مكنها، وبه يُحق الحق ويُزهق الباطل، ولذا الصدق شهادة لا تكتم، ومن يكتمها فقد أثم قلبه إثما عظيما، مصداقا لقوله تعالى: { وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ { 261.

الصدق مُطَهَّرَ النفوس ومطمئن القلوب ومخفف الذنوب ومزيل العيوب، ولا يمكن أن يكون المرء صادقا مع الآخرين إن لم يكن صادقا مع نفسه، ولذا فالصادق من صدق نفسه، ولهذا الصدق نافع لأصحابه مصداقا لقوله تعالى: { هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ } 262.

ولذلك الصدق فضيلة حث الله العباد عليها، مصداقا لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } 263.

وفي جدال نوح لقومه الذين اتهموه بالكذب، نستدعي ما قاله لهم صدقا مع نفسه وصدقا مع ربه تعالى وصدقا معهم، ولم يدع بشيء ليس له علاقة به، فلم يدع بأنه مالك للملك أو ملك أو أنه عالم غيب أو أنه يعلم ما في أنفس قومه، بل قال لهم ما قاله الله له كما جاء في الكتاب الحكيم: { وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا

261 - البقرة 283، 284.

262 - المائدة 119.

263 - التوبة 119.

عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا
 تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَلَا أَقُولُ
 لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ
 لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي
 إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا
 تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ
 بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ
 يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ
 فَعَلَيْ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ {264}.

ولأنَّ نوح عليه الصَّلَاة والسلام نبيا ورسولا صدق مع نفسه فكان
 صادقا مع ربِّه مصداقا لقوله تعالى: {لَيْسَ أَلِ الصَّادِقِينَ عَنْ
 صِدْقِهِمْ} {265}.

وكما أنَّ الصدق فضيلة حث الله عليها وتمسك بها الأنبياء الكرام
 صلوات الله وسلامه عليهم، كذلك هناك من ينظر إلى الصدق قيمة
 اجتماعية يفتخر بها في أقواله وأشعاره كما جاء في أحد قصائد كعب
 بن زهير الذي قال:

وفي الحِلْمِ إِذْهَانٌ وفي العَفْوِ دُرْبَةٌ... وفي الصِّدْقِ مَنْجَاةٌ مِنَ الشَّرِّ
 فاصْذُقْ {266}.

22. مُجَاب:

المُجَاب هو من أُسْتَمِعَ إلى طلبه أو ندائه أو سؤاله المُؤَسَّس على
 الحَقِّ وأُجِيبَ عليه، ولذا فلا إجابة إلا من مجيب سميع عليم.

264 - هود 29 .35.

265 - الأحزاب 8.

266 - لسان العرب، ج 1، ص 374.

والمجيب من أسمائه تعالى، وهو المجيب لدعوة الداعين والسائلين الذين يتضرعون إليه وهم واثقون من الإجابة، وهو الذي يُسأل دون وسطاء ويجيب دون منّة، ولا مجيب بالمطلق إلا مالك الملك المطلق. والمجيب هو السميع الذي يُدرك الأمر وما يتعلق به من حاجة فيُجيب على سؤال السائل المتضرع بمشبعاته مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} 267 من يلتجئ لله تعالى ينال أمرين:

أ. رضاء الله تعالى.

ب. نيل الإجابة على سؤاله.

وكما أنّ الدعاء مطلق، فالإجابة مطلقة تتبع إرادته سبحانه، فهي فورية أحيانا لا تأخير فيها، وذلك عندما يكون الدعاء بقصدٍ مخصوص كما في دعاء سيدنا عيسى عليه الصّلاة والسلام: {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللَّهُ إِنَّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} 268. سأل عيسى عليه الصّلاة والسلام ربه فكانت الإجابة فورية لأن الدعاء كان لغرض إلزام الحجّة التي يجب أن تكون قاطعة لا لبس فيها. وسؤال عيسى يقيني بأنه مجيب وظن الآخرين فيه فكانت الإجابة يقينا كما رآها عيسى يقينا.

وعليه: يثق المؤمن يقينا أنّه عزّ وجلّ هو المجيب، ولأنّه المجيب لا بدّ وأن يجيب فهذه من صفاته، وإنّه لمن الغرابة أن يؤمن الإنسان بأنّه

267 - البقرة 186.

268 - المائدة 114، 115.

المجيب ويظن في دعائه إليه بين شك ويقين، استغفر الله دائما من يدعوه دون شكٍ يجده أسرع المجيبين، قال تعالى: { وَتُوحَا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلِهِ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَعْرِقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ } 269.

ولأنَّ الإنسان في الحياة الدنيا هو محل اختبار في كل ما يقول ويفعل، ولأنَّ الله يُمهِّل ولا يُهمِّل، فالله يجيب دعاء السائل المحتاج إليه حين السؤال ليبيِّن له أنَّه المَجِيب المطلق، فإنَّ آمن كان خيرا له وإن ارتد أو كفر فله عذاب اليم.

المجيب يجيب لثبات صفة الإجابة المطلقة ووقتها عنده، فهو الذي يعلم ويخبر متى تكون الإجابة ومتى لا تكون من حيث الظرف الزماني والمكاني، ومن حيث التقدير العام. فالله سبحانه وتعالى يعلم مصلحة الداعي فيقتدِّر وقت الإجابة تأجيلا أم تعجيلا بما تقتضيه المشيئة الإلهية المتعلقة بالمصلحة التي من أجلها دعا الداعي فتكون الإجابة في وقتها أمرا نافدا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والإجابة أنواع منها:

. إجابة لإثبات قدرة ومُلك.

. إجابة ليقين السائل بأنه المجيب.

. إجابة لإزالة الظن والشك في القوَّة والقدرة والسمع والبصر.

. إجابة ابتلائية.

. إجابة عقابية.

. إجابة لإحقاق حق وإزهاق باطل.

دعوة الله وندائه من العباد دليل إيماني، وهو عبادة لا تؤدي إلا بالدعاء الصالح الذي تكون إجابته إحقاق حق وإزهاق باطل، أو

تخلص من مظالم أو فتح باب رزق وخير ورحمة وهداية وشفاء، ومن يترك دعاء الله والتسبيح له يُعد من المقصرين أو المتكبرين عن عبادته ليس لهم بد إلا أن يدخلوا نار جهنم داخرين مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} 270.

وعليه: تكون الإجابة من المجيب سبحانه للمحتاج وغير المحتاج فهو رب الجميع ولا إله غيره وكل من يدعو غيره فهو في ضلال عقدي وفكري، عقدي من حيث فساد الاعتقاد عنده بقدرة غير الله على الإجابة: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} 271، والضلال الفكري يتمثل في تصور وجود قوّة غير الله سبحانه قادرة على فعل شيء: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} 272.

والمجيب الكريم عادل، فهو يسمع كل دعاء ويوجب متى ما يشاء، كيف ما شاء، ولمن شاء، {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ فَوَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَا عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسِّرِ بَحْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا} 273، ضمير الدعاء يعود على نوح (المجيب) عليه الصلاة والسلام، الذي دعا الله عزّ وجلّ يشكوه حاله مع قومه الذين لم يقدره حق قدره، فهم الساخرون منه والمكذبون له، المقللين من شأنه العظيم، وعندما حسّ بمغالبتهم له اشتكاهم إلى ربه جلّ جلاله،

270 - غافر 60.

271 - الأحقاف 5.

272 - الأعراف 197.

273 - القمر 10. 14.

فكانت الإجابة الغرق بأسباب المطر الغزير المنهمر، والمنهمر هو الساقط بكل قوّة، وفجّر الأرض عيوننا، أي وكأن الأرض أصبحت عيوننا من كثرت العيون التي فجّرها المجيب لدعاء نوح عليه الصلّاة والسّلام، وهذا دليل الكثرة عن واقع، وليس دليل للمبالغة، فالتقى ماء السماء مع ماء الينابيع في الأرض فحقّ الحقّ وزهق الباطل بفعل الغرق وبفعل النجاة، غرق المكذبون والفساقون والضالون والساحرون بغير حق، ونجا نوح ومن معه من المؤمنين الذين رضي الله عنهم فأنجاهم من الغرق، ولذا فقد أنجى الله تعالى نوح عليه الصلّاة والسّلام وأهله الذين آمنوا معه من كيد الكائدين ومكر الماكرين وحسد الحاسدين وكفرهم وشركهم، وعليه بُعث نوح عليه الصلّاة والسّلام نبيا ورسولا عظيما من أنبياء الميثاق العظيم والعزم العظيم.

ولقد نادى نوح عليه الصلّاة والسّلام ربّه تعالى فأجابه وهكذا كلما نادى ربّه كانت له الاستجابة ولهذا اتصف نوح بـ(المجيب) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ 274.

(فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) تدل على ارتباط الطلب بالإجابة في علاقة صلة لا انفصال لها، ولهذا فالمجيب يجيب لأنه (المجيب) أي لأنها صفته، والإجابة له وقتية في الزمن الآن، والفرق فقط في أن بعض الإجابات الملبية للطلب والدعاء يكون الفعل فيها مرتبطا مع القول، والبعض الآخر تُؤخذ الإجابة في الحين ويؤخر موعد فعلها. وقوله (فلنعم

المجيبون) تدل على أن تلك الإجابة كانت من النعم العظيمة، وبيانه من وجوه:

أ . أنه تعالى عبّر عن ذاته بصيغة الجمع فقال: (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ) والقادر العظيم لا يليق به إلا الإحسان العظيم.

ب . أنه أعاد صيغة الجمع في قوله: (فَلَنِعْمَ الْمَجِيبُونَ) وذلك أيضا يدل على تعظيم تلك النعمة وتعزيزه عزّ وجلّ لنوح عليه الصّلاة والسّلام. لا سيما وقد وصف تلك الإجابة بأنها نعمت الإجابة.

ج . أنّ الفاء في قوله: (فَلَنِعْمَ الْمَجِيبُونَ) يدل على أن حصول هذه الإجابة مرتب على ذلك النداء، والحكم المرتب على الوصف المناسب يقتضي كونه معللا به، وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص سبب لحصول الإجابة، ثم إنّه تعالى لما بيّن أنه سبحانه نعم المجيب على سبيل الإجمال، بيّن أنّ الإنعام حصل في تلك الإجابة من وجوه:

. قوله تعالى: (وَنَجِّينَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) وهو على القول الأوّل الكرب الحاصل بسبب الخوف من الغرق، وعلى الثاني الكرب الحاصل من أذى قومه.

. قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) يفيد الحصر وذلك يدل على أنّ كل من سواه وسوى ذريته فقد فنوا.

. في قوله تعالى: (وَوَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ) سلام على نوح في العالمين) التسليم على نوح حق تم إثباته شاهدا أمام الأبصار والعقول المدركة، وفي هذا تشریف وتكریم لنوح عليه الصّلاة والسّلام، (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ).

الله تعالى سميع لدعاء العاصي والمشرك ويجب دعائهما: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ

أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ} 275. ظلمات البر والبحر ظلمات مخيفة لا يعلم أمرها إلا الله تعالى، وهو القادر على أن ينجي من يشاء منها، وجاءت ظلمات البر والبحر غير محددة فهي في حاجة للتفسير والاجتهاد، وفي معظم التفاسير والاجتهادات في دائرة الممكن هناك نسب بين اتفاق وتباين أو اختلاف، ولكن الذي يمكن أن يكون الاتفاق عليه هو أن في الظلمات مخاوف، وذلك لانعدام تجلي الرؤية وانعدام الوضوح في كل ظلمة، ولأن في الظلمة غمة، فالغموض سيكون سائدا في الظلمة سواء أكانت ظلمة بر أو ظلمة بحر، وفي الظلمة يحاط الإنسان بالمخاوف والشكوك والظنون، وهو في دائرة الحركة والسكون، ولذا يلتجئ بالسؤال والدعاء للسميع المجيب ليخرجه من الظلمة وينجيه من كل كرب؛ وغير المؤمن يدعو ربه حتى تتحقق له الإجابة ثم ينسى ربه والعياذ بالله فلا يشكره حتى وإن تواعد بشكره أثناء الدعاء أو السؤال.

وقد يتساءل البعض: لماذا تجاب دعوة العاصي وهو عاص لله؟
نقول:

المجيب يجيب دعوة العاصي لأنه ربه ولا رب غيره فإذا لم يجب فمن ذا غيره يجيب؟ لاسيما تلك الدعوات التي تتعلق بالنجاة من الهلاك وفي ذلك حكمة عظيمة، إذ عسى أن تكون هذه الإجابة سببا في عودة هؤلاء إلى طاعة الرحمن الرحيم وتوحيده واحدا أحدا، ولهذا فهو يمهل ولا يهمل ويؤجل ولا يعجل حتى تتاح للاستغفار والتوبة فرصة.

ومن دواعي الإجابة: أن تسأل الله حاجتك التي تريد ولا تشك في إجابته بل ثق كل الثقة كما وثق نوح في سؤاله لربه الذي أجابه

275 - الأنعام 63،64.

كما كان واثقا، فهو يعلم أن المجيب كريم لا يمكن أن يُردَّ سائلا أو مناديا في حاجته وهو مخلصا لله تعالى.

23. ناج من الكرب العظيم:

النَّجاة سلامة من خطرٍ تم ركوبه، والكرب عُسرٌ مع شدةٍ وقسوةٍ، والعظيم بالغ العظمة في القسوة والشدة.

والناجي من الكرب العظيم هو نوح عليه الصَّلَاة والسَّلَام الذي تعرَّض إلى أشد الكروب قسوة مصداقا لقوله تعالى: {فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} 276 وقال تعالى: {وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} 277.

لقد نجى نوح عليه الصَّلَاة والسَّلَام من الكرب العظيم المتمثل في الآتي:

- أ . الكرب الحاصل بسبب الخوف من الطوفان والماء المنهمر والأمواج العاتية التي تتلاطم مع السفينة.
- ب . الكرب الحاصل من تكذيب قومه له.
- ج . الكرب الحاصل من السخرية منه.
- د . الكرب الحاصل من تهديده بالقتل.
- هـ . الكرب الحاصل من عصيانهم له.
- و . الكرب الحاصل من استفزاز قومه له بكفرهم وشركهم بالله تعالى.

وقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) يفيد الحصر والتخصيص الذي يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته فقد فنوا.

276 - الأنبياء 76، 77.

277 - الصافات 76، 77.

أما مناصرة نوح عليه الصلّاة والسّلام فكانت على وجوه منها:
أ . نجاته من الغرق .

ب . نجاة أهله الذين آمنوا به وما يدعو إليه من إيمان بالله تعالى
وركبوا معه السفينة أرسى قاعدة الاستخلاف في الأرض جيلا بعد
جيل .

ج . نجاة كل زوجين اثنين من الطوفان أرسى قاعدة البقاء لجميع
الأنواع التي حملها نوح في السفينة وأريد لها أن تبقى وتتكاثر .
د . مناصرته على قومه الذين أشركوا وكفروا وكذبوا .

24 . مُنتصر :

الانتصار مغالبة بحق، في سبيل إحقاق حق وزهق باطل، والمنتصر
الفائز على أعدائه بالقول والفعل والعمل والسلوك .

المنتصر هو الذي بجهوده ينتصر للعلم على الجهل ويفوز الحق
على الباطل، ويفوز العدل على الظلم ويفوز الإيمان على الكفر
والشرك، ويفوز الصدق على الكذب، وفي مقابل الفوز تكون الهزيمة
التي هي ترجيح كفة كل ذي أثر سالبٍ على كل ذي أثر موجبٍ .

فعندما يحدث الصدام والشقاق والنزاع والافتتال بين الناس في
النهاية ينتصر الحق، ولذا إن انهزم الحق بتحالف الضالين عليه وعلى
مناصريه، فلن تكون النهاية، النهاية لا بد أن يكون نصرا للحق الذي
يناصره الله بمناصرة العباد إليه إيمانا وطاعة وعبادة وصدقا وعدلا وأمرًا
بالمعروف ونهيا عن المنكر، فالذين كذبوا نوح عليه الصلّاة والسّلام
أين هم أمام انتصار نوح، والذين آمنوا معه من أهله فأولئك لم يبقوا
على الأرض في زمانهم ولم يبقوا في سجلات التاريخ صنّاعا . قال
تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ
فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ

الْمُنْكَرِ وَاللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ {278}.

الرسول والأنبياء والصدّيقون والصالحون أصحاب رسالات أقوياء بإيمانهم هم دائما منتصرون، فعبر التاريخ لم يستسلم أحدا منهم في سبيل إحقاق حق وإزهاق باطل، وإن مرّ بعضهم بصعاب كادت أن تغالبهم، ففي النهاية هم المنتصرون، والمؤمنون من بعدهم كانوا رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه، صنّاع تاريخ أقوياء بإيمانهم لا يخافون في الحقّ لومة لائم، نشروا الدين الذي ارتضى أن يكون للناس كافة وهم منتصرون، وعليه فإنه لا محالة أن المستقبل كل المستقبل لرجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه مصداقا لقوله تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} {279}. أولئك الرجال ومن هم على مثلهم التي ارتضوها في مرضاة الله جلّ جلاله لا تلهمهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، مصداقا لقوله تعالى: {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} {280}.

ولأنّ نوحا عليه الصلّاة والسلام كان من الرّسل والأنبياء المصطفين من الله القوي العزيز اصطفاه، فبقوّة الله وعزته له كان

278 - الحج 40 . 46.

279 - الأحزاب 23.

280 - النور 37.

منتصرا في مواجهته للظلم وأصحابه، ولذا جعل الله تعالى في ذريته النبوة كما جعلها في ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام من بعده، ولذا فالله يعلم من ينصره مصداقا لقوله تعالى: {وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ {281}.

ولأنَّ الله رجلا صدقوا ما عادوا الله عليه، ومن أكبر العهود هو ميثاق نوح عليه الصلاة والسلام الذي قطعه لربه نبيا ورسولا فهو عندما يدعوا ربه تكون الإجابة والفوز المكمل بالانتصارات، قال تعالى: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ} {282}.

25. صالح:

الصالح هو الذي لا يقدم على عملٍ إلا وفيه صلاح للعباد، ولذلك فالصالح قوله حق وفعله حق، وهو الذي لا يظلم أحدا، وهو الذي يعمل في الأرض مصلحا ولا يفسد فيها ولا يسفك الدماء بغير حق.

الصالحون كغيرهم من الناس قد يتعرضون إلى الخيانات كما تعرض نوح ولوط عليهما الصلاة والسلام إلى الخيانة من الأقربين (الخيانة الزوجية) مصداقا لقوله تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ} {283}. وهذه الخيانات لا يعود أثرها السالب إلا على فاعليها مما يجعل الصالحين هم دائما صالحون.

281 - الحديد 25، 26.

282 - القمر 9، 10.

283 - التحريم 10.

إذا الصالح هو من يكون موفقا في حياته ومآته ويوم بعثه فيكون لمن بعده أسوة حسنة لمن يريد اتعاظا.

العمل الصالح هو الذي يكون في مرضاة الله تعالى، والعمل غير الصالح هو العمل الفاسد الذي لا يُرضي الله عزّ وجلّ، كما هو حال العمل الذي كان سببا في وصف الله تعالى لأبن نوح بأنه عمل غير صالح مصداقا لقوله تعالى: { قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } 284.

وعليه لقد كانت أعمال نوح عليه الصلّاة والسّلام صالحات، ومن كثرة صلاحها وإصلاحها في الأرض كان نوح متصفا بها (صالحا).

نوح الأب الثاني للبشرية:

إنّ الله تعالى خلق كل البشر من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، فالأصل آدم وزوجه، ثمّ إن الله تعالى بثّ منهما رجلا كثيرا ونساءً، وجعلهم منهما شعوبا وقبائل ليحصل التعارف وينسب كل شخص إلى مجموعته، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } 285.

إنّ الله تعالى خلق الخلق متساوين من أصل واحد من نفس واحدة ثم من ذكر وأنثى، وصيّهم بالتكاثر جموعا عظيمة وقبائل متعددة، ليتم التعارف والتعاون فيما بينهم، أمّا قضية الكرامة التي كرم الله بها عباده فهي منزلة التقوى في الدنيا والآخرة. غير أن الناس قبل الاختلاف في مرحلة ما بعد الخلق الدنيوي كانوا أمة واحدة، ثم بعد ذلك تشعبوا إلى أمم كثيرة، وقد فطر الله تعالى البشر على الاختلاف

284 - هود 46.

285 - الحج رات 13.

في المذاهب والآراء والعقائد، ولو شاء لجعلهم شعبا واحدا وأمة واحدة متفقة متحدة.

قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} 286.

فلا يزال الخلاف بين الناس في أديانهم واعتقاداتهم ومللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم، مختلفين:

في الهدى والضلال

في الحق والباطل

في الصواب والخطأ

مختلفين في الرزق

أما اختلاف اللغات وتعددتها، فمن الدلائل الواضحة على عظمة الله تعالى واستحقاقه لأن يفرد بالعبادة، حيث قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ} 287.

واختلاف الألسنة هو اختلاف اللغات حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} 288.

فاختلاف اللسان هو اختلاف اللغة بين العرب والعجم والهند والترك واللغات الحديثة التي نقف عليها في عصرنا الحاضر ونتعامل مع أصحاب ألسنتها، إلى غير ذلك مما نعلمه ومما لا يعلمه إلا الله تعالى من اختلاف لغات بني البشر.

286 - هود 118 - 119.

287 - الروم 22.

288 - النحل 103.

فالله تعالى جعل لكل أمة من هذه الأمم لغة يتخاطبون بها ويتفاهمون من خلالها، بحيث يعبر كل شخص عما يدور في ذهنه بلغته التي يفهمها هو ويترجمها غيره من أجل فهمها ليحصل التعايش والوثام بينهم.

أما تاريخ هذا الانقسام والتباين، فليس لدينا دليل صريح يحدد ذلك، لكن ما ذكرناه من تعلم آدم للأسماء ومعانيها في كتابنا عن آدم عليه الصلّاة والسّلام يحتمل تعلّم الأسماء والمعاني واللغات، وإن كانت اللغة واحدة لدى أبناء آدم على ما نعتقد، لأن انشطار اللغة وتطور معانيها الدلالية واختلاف اللهجة فيها نجده يظهر في البيئة الواحدة التي تضم مجتمعا إنسانيا ضمن حيّز مكاني، فإذا كان التباعد بين الناس والشعوب سواء على المستوى المكاني أم المستوى الزماني؛ فإن هذا الاختلاف في اللغة يكون أظهر والوقوف عليه أسهل كلما تباعدت الجغرافيا وتراخى الزمن.

ومّا لا شكّ فيه أنّ أول تفرق حصل وتباعد وقع بين بني البشر، ما حدث بعد الطوفان عندما حمل نوح عليه الصلّاة والسّلام بالسفينة من آمن من أهله ومن ذريته ومن غيرهم من المؤمنين وكذلك حمل فيها من كل زوجين اثنين قال تعالى: { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } 289.

وهنا يمكن البحث في خضم الموضوع والدخول فيه:

هل أنّ نوح هو الأب الثاني للبشر؟

هل أنّ التسمية دلالة على الحدث؟

وهل أنّها دلالة حقيقة؟

أم أنّها دلالة مجازية؟

أم لأنّ نوح أعظم الرّسل بعد آدم قيل هو الأب الثاني للبشر؟
إنّ مجمل هذه الاحتمالات التي أثارها هذه التساؤلات واردة، غير أنّ واحدا منها يكون له الترجيح على بقية الاحتمالات عندما تتوافر الأدلة التي تعززه وتمنحه الأرجحية على ما سواه من احتمالات سابقة، وعليه نقول:

إنّ اختلاف اللسان بين الأمم لم يظهر إلا بعد نوح عليه الصّلاة والسّلام على ما نعتقد، لأنّ الانشطار والانقسام بين الأمم عندما أصبحوا شعوبا وقبائل بدأ من عصر أبناء نوح عليه الصّلاة والسّلام، فقد جاء قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} 290.

لقد تضمنت هذه الآيات الإشارة بتوجه نوح بالنداء إلى ربه، وإجابة الله تعالى دعوته إجابة كاملة وافية مع زيادة على ما طلب:
. الإجابة المطلقة مع زيادة على ما طلب.

. نجاته هو وأهله من الكرب العظيم ومن آمن معه من الغرق والطفوان.

. كرب الطفوان الذي لم ينج منه إلا من أراد الله له الهدى.
وشاءت قدرة الله أن تجعل من ذرية نوح عمّارا لهذه الأرض وخلفاء فيها؛ بل جعل الله تعالى ذريته هم الباقيين عندما خصص ذلك في قوله تعالى (هم الباقيين) وجعلنا ذرية نوح هم الباقيين في الأرض بعد هلاك قومه، ثم ترك الله تعالى ذكرا جميلا على نوح في الآخرين من الأمم إلى يوم القيامة.

290 - الصفات 75 - 77.

ولمقام نوح عليه الصلّاة والسّلام عند ربه، جعل عليه التحية
سلاما في العالمين من الملائكة والإنس والجن إلى يوم القيامة حيث
قال تعالى: {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} 291. وما ذلك إلا جزاء
لإحسانه عليه الصلّاة والسّلام لمجاهدته في إعلاء كلمة الله وتحمل
الأذى في سبيله، حيث كان من عباد الله الذين آمنوا به ووفّوا بعهده
وأدوا رسالته، على مدى ألف سنة إلا خمسين عاما.

وإنّ ممن كان على طريقته وسنته في الدعوة إلى الله من:

التوحيد

الإيمان

الصبر

كان إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام مثل نوح عليه الصلّاة والسّلام.
فإن كان مثل عيسى عند الله كمثّل آدم؛ فإن مثل إبراهيم كمثّل نوح،
وإن كان إبراهيم أمة؛ فإنّ نوح الذي هو مثله أمة أيضا.
ولذا؛ فإنّ الله تعالى إكراما له واستجابة لدعوته، أغرق الآخرين
من كفار قومه، وإنّ الله تعالى بيّن من وضوح الآية، أنه لم يجعل لأحد
ممن كان معه من المؤمنين نسلا ولا عقبا سوى نوح عليه الصلّاة
والسّلام، لأنّ ظاهر الآية يبين أن كلّ من على وجه الأرض اليوم من
سائر أجناس بني آدم ينسبون إلى أولاد نوح على الرغم ممّا كان معه
من المؤمنين القلة الذين آمنوا معه.

فاقتصر البقاء في قوله تعالى على ذريته عليه الصلّاة والسّلام،

يرجح لنا أحكاما كثيرة تجيب عليها هذه الآيات منها:

. أنّ واحدا من أبناء نوح سبق عليه القول.

. هناك أبناء آخرون لنوح آمنوا معه.

. هناك من أهله من آمن معه أيضا.

. آمن معه قليلون من غير أهله وأبنائه.

. كان المؤمنون من ذرية نوح وأهله ومن غيرهم. قال تعالى: {قُلْنَا

اِحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ

آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} 292.

. هؤلاء الذين أنجاهم الله تعالى.

وعلى هذا يكون الناجون ثلاث فرق:

آ. من أبناء نوح وذريته.

ب. أهل نوح من غير ذريته.

ج. القليلون من غير هؤلاء وأولئك من الذين آمنوا.

ومع أنّ النجاة كتبت للفرق الثلاثة إضافة إلى الأزواج الأخرى من

المخلوقات التي أمر نوح عليه الصلّاة والسّلام بحملها في السفينة، إلا

أن الآية الكريمة تجزم ببقاء العقلاء من ذريته فقط لقوله تعالى:

(وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ).

ويترتب على هذا الحكم الذي صدر عن الآية الكريمة ما يأتي من

احتمالات:

آ. أن غير ذرية نوح ممن كان معه لم يتناسلوا ولم يتكاثروا.

ب. أنهم تناسلوا وتكاثروا إلى حين ثمّ أُهلكوا.

ج. الذين استمر بهم النسل والتكاثر هم أبناء نوح وذريته.

وعلى هذا النحو تترتب النتائج الآتية:

1. أنّ نوحا عليه الصلّاة والسّلام هو الأب الثاني للبشر لأنّ

ذريته هم الباقيين.

2. أنّ ذرية النبوّة متصلة لا انقطاع فيها ولا تعدد.

- 3 . نوح الأب الثاني للبشرية وكل من جاء بعده هو ابن له .
 4 . إبراهيم هو ابن نوح عليهما الصلّاة والسلام .
 5 . النبوة والكتاب في ذريتهما ليست على التزامن .
 6 . النبوة والكتاب في ذريتهما على التابع مع التراخي .
 وأما قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا
 النّبوةَ وَالكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} 293 .

فهذا لا يخالف ما ذهبنا إليه ولا يناقض رأينا في شيء، لأنه من
 المعروف أن نوحا عليه الصلّاة والسلام قبل إبراهيم عليه الصلّاة والسلام
 بأزمنة كثيرة وعليه يكون:

ذرية نوح هم الباقون .

غير ذرية نوح هلكوا .

فيكون العُدُّ تنازليا على النحو الآتي:

نوح قبل إبراهيم .

الذرية واحدة .

النبوة واحدة .

الكتاب واحد .

وعليه:

فإن إبراهيم من ذرية نوح عليهما الصلّاة والسلام وإن جعلت
 النبوة والكتاب في ذريتهما ليس تزامنا، وإنما في الترتيب على تقديم
 الأقدم مع تراخي الأحداث، فكانت النبوة والكتاب:

في نوح ومن بعده من صلح من ذريته .

في إبراهيم ومن بعده من صلح من ذريته .

انتقلت النبوة والكتاب إلى إبراهيم ومن صلح من ذريته .

وهكذا، كانت النبوة والكتاب في ذرية نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام وصولاً إلى النبي الخاتم محمد عليه الصلاة والسلام. فالباقيون من البشر هم من ذرية نوح عليه الصلاة والسلام، والخبر عنه وعن ذريته جاء في محكم التنزيل، إذ كانوا هم الباقيين كما أخبر الله تعالى عنهم، وكان الآخرون الذين بُعث نوح إليهم غير ولده ونسله قد بادوا هم وذرياتهم فلم يبق منهم ولا من أعقابهم أحد. فقد جاء عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال في قول الله عز وجل: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} 294 قال: سام وحام وياث "295.

فهذا ما يعزز ما ذهبنا إليه لما توافر لدينا من أدلة منها:

. القرآن الكريم.

. الحديث النبوي الشريف.

. المصادر التاريخية الكثيرة.

نوح بين العاطفة والعقيدة

الصراع بين العاطفة الإنسانية والمثل الروحية العقائدية لا تقتصر على إنسان دون آخر وإنما يدخل في هذا جميع النوع الإنساني، لما زُكِب عليه من عواطف ومشاعر تتجسد فيها الرحمة والحنين بدرجات متفاوتة إلى:

النوع الذي ينتمي إليه الإنسان.

صلوات الرحم والقربى للإنسان.

الأصدقاء والأحبة.

294 الصافات 77.

295 - سنن الترمذي، ج 12، ص 41.

ولما كان نوح عليه الصلّاة والسّلام وزوجا وأبا ونبيا مرسلا؛ فإنّه لا بدّ أن يوافق بين مسؤولياته وواجباته في هذه الاتجاهات، التي نقول فيها:

. لا هي متطابقة

. ولا هي متفاوتة

. ولا هي مختلفة

. ولا هي متناقضة

غير أنّها جميعا ينتظمها خيط الإنسانية الذي يستطيع أن يضمّها وإلى جانبها كل ما له علاقة بالإنسان في دنياه وآخريته، في الحياة التي يعيشها، وفي حياة ما بعد الموت، لأنّ الإنسان يكاد يكون المخلوق الوحيد العاقل المكلف، ولذا يستطيع أن يتعامل مع هذه الحقائق من النبوّة والبنوة والأبوة والزوجية بما لا يناقض بعضها بعضا، ولا ينافي بعضها بعضا أيضا، لأنّ كل حقيقة من هذه الحقائق هي صفات يتصف بها الإنسان مجتمعة أو منفردة، أو ما بين الاجتماع والانفراد، ولو كان بعضها منافيا أو مخالفا للبعض الآخر لما اجتمعت صفتين أو أكثر في إنسان واحد.

ابن نوح:

نوح عليه الصلّاة والسّلام، هو إنسان نبي، وبعد ذلك هو زوج وأب ينتابه من العواطف ما ينتاب أي إنسان تجاه أبنائه فيبذل لهم من الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

بعد أن يأس عليه الصلّاة والسّلام من إقناع ابنه في دعوته إلى الله تعالى عن طريق الأدلة العقلية والبراهين الكونية في التوجه إلى الله تعالى من أجل أن يؤمن هذا الابن كما آمن إخوته وكما آمن قليل من الناس، فإنه لم يقطع الأمل من إيمانه بالتدرج، وهو أن يستدرجه

عاطفيا ثم يقنعه عقديا (يا بني اركب معنا) فإنه استعمل أسلوبًا واضحًا ينمُّ عن المحبَّة والحسرة في آنٍ معا، تتجسد فيه العاطفة وتظهر فيه الأمنية والطموح من خلال التسلسل؛ أملا في الوصول إلى الهدف المدروس الذي يصبو إليه نوح عليه الصلّاة والسّلام في إيصال ابنه إليه.

لقد جمع نوح عليه الصلّاة والسّلام في خطابه لابنه بين العاطفة والقوّة دونما فاصل بينهما، وإن لم تذكر القوّة صراحة، وإنما تظهر إيحاءها من خلال النتائج التي كانت أسبابها القوّة متجسدة بالرحمة التي تنال المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾²⁹⁶. وإن كان هناك صراع يدور في صدر نوح عليه الصلّاة والسّلام لما بدا من موقف ابنه تجاه دعوة أبيه، غير أن هذا الصراع لم يكن صراعا إرادات، وإنما هو صراع بين معطيات من الفضائل والقيم منها:

الخير والشر.

الهدى والضلال.

الحقّ والباطل.

الطاعة والمعصية.

ولذا؛ فهو صراع تضاد بين العاطفة والرغبة من قبل نوح عليه الصلّاة والسّلام، وبين القناعة العقلية التي تتمثل في شخص ابنه بما يوازي في المقارنة بين النجاة والهلاك. ومن جانب آخر لا بدّ أنّ الصراع يدور عنيفا في صدره عليه الصلّاة والسّلام، صراع بين العاطفة الأبوية العارمة، وبين الواجب العقدي الذي ألقى عليه من الله تعالى،

²⁹⁶ - هود 42.

وهذا الصراع العاطفي الذي انتاب نوح عليه الصلّاة والسّلام، لم يغادر محتواه الإيماني، ولذلك؛ فإنّ شعور نوح عليه الصلّاة والسّلام كانت تسيطر على المسافة الواصلة ما بين العاطفة الإيمانية الدافئة والعقل السليم الرصين، ليصل إلى حل الإشكالية في هذه الأزمة إن صح التعبير بالتوازن بين:

الخطاب العاطفي الوجداني

والخطاب الواقعي العقلاي

ونوضّح ذلك بشيء من التفصيل بين العاطفة الأبوية تجاه الابن والعاطفية الأبوية تجاه الأب، حيث أنّ عاطفة الأب هنا يشاركها عوامل العقيدة التي تخلو منها عاطفة الابن: العاطفة من الأب تجاه الابن تحمل عوامل العقيدة.

العاطفة من الابن تجاه الأب تحمل شعور واجب البنوة.

الجانب العقدي من قبل الأب فقط.

كانت المغالبة من قبل الأب للابن للعاطفة.

عندما تبيّن لنوح أنّ ابنه عمل غير صالح، لم يعد للعاطفة مكان في نفسه، فكانت المغالبة للعقيدة على العاطفة التي يقودها العقل والإيمان.

أمّا العاطفة، فتقودها المشاعر والأحاسيس، ولذا، عندما أخبره الله تعالى بقوله: { يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } 297 نَحَى العاطفة جانبا والتزم العقل والعقيدة.

وعندما نمنع النظر في الآية الكريمة، فإننا نفتقد الدعوة العقدية لحظة الخطاب، وإن كان الخطاب الواقعي والعاطفي الصادر عن نوح

عليه الصلّاة والسّلام في اللحظة الآنية، إنّما هو أساسه وسببه خطاب عقدي.

فكانت الدعوة من نوح لابنه بالتوازن في الخطاب والعمل، على الرغم من أنّ ابن نوح أصبح فريسة الإذعان للغضب والرضوخ للمعصية اللذان شجعا على التمادي في الباطل الذي زينه له الشيطان، في أن يأوي إلى جبل يعصمه من الماء حتى أصبح ذلك فكرة راسخة في ذهنه، يتشبث بها إذا تكررت المواقف في المستقبل. غير أنّ نوح عليه الصلّاة والسّلام كانت دعوته لابنه تحرك الحسّ بين العاطفة والعقل

بالانفتاح على الآخر، بقصد النصيحة من خلال العاطفة وإيصال الفكرة، ثم الوصول إلى الهدف الذي يحقق الغاية.

وهذا يعني: أنّ نوح عليه الصلّاة والسّلام كما نرى؛ قد استخدم العاطفة وسيلة في محاولة الوصول إلى الغايات النبيلة السامية فكان التسلسل:

عاطفة

عقل

حقيقة

عقيدة

غاية

ولو أنّ الغاية المرجوة من العاطفة لم تتحقق، ولكن كان استخدامها استخداما منطقيا وليس عاطفيا، وذلك من خلال محاولة تصحيح المسار الخاطئ لابنه السادر في الغواية، فكانت العاطفة هي سبيل الدعوة إلى الخير في اتجاه يمثل بعدين:
الأول: النهج التحذيري المشوب بالعاطفة.

الثاني: البعد العقدي الذي يتجاوز العاطفة.

وكلا الاتجاهين بعيدان عمّا يقع مع الآخرين، ذلك أن رابطة الأبوة وصلة القرى تمنع التصادم، حتى وإن وصل الخلاف إلى طريق اللا عودة، كما حصل مع ابن نوح، ولو أن العلاقة بين نوح وابنه في تلك اللحظة، كانت أحادية الجانب لأنها تصدر عن طرف واحد هو نوح عليه الصّلاة والسّلام، الذي بقيت عاطفة الأبوة تدفع به إلى انتشال ابنه من براثن غيّه الذي سيؤدّي به إلى الهلاك، في محاولة جذبه إلى طريق الحقّ وسبيل الهدى الذي يعلم نوح عليه الصّلاة والسّلام، أن لا نجاة لابنه إلا من خلال هذه السبيل والتمسك بالحقّ المفضي إلى طريق الرشاد وعموم الخير.

بينما كانت عاطفة البنوة عند الابن، تدفع باتجاه النفور من أجل الوصول إلى قطع العلاقة بالآخر، وإن كان هذا الآخر هو الأب الذي لا يريد لابنه إلا النجاة.

إلا أنّ هذا القطع في العلاقات بين نوح وابنه من قبل الابن، يدل على بعد الابن عن الجانب العقدي الذي يحمله نوح عليه الصّلاة والسّلام.

إلا أنّ اختيار نوح عليه الصّلاة والسّلام في دعوة ابنه:

لم يكن عاطفياً.

لم يكن انفعالياً.

لقد كان في اختيار نوح عليه الصّلاة والسّلام بدعوة ابنه حدود

فاصلة واضحة بين:

العاطفة

الانفعال

العقل

التكليف

ولذا، نلاحظ الفصل عند نوح عليه الصّلاة والسّلام بين العاطفة والعقل، وإن كانت العاطفة تدفع إلى التسرع عموماً، إلا أنّنا نجد مع العاطفة في موقف نوح نوعاً من الحوار الهادي المشوب بالعاطفة (يا بني اركب معنا) في مواجهة ذلك الموقف الصعب من الابن على عاطفة الأب، فكان هناك حوار نصح لم يرقّ إلى الجدل، وإمّا تمثّل ذلك في نصائح نوح وإرشاداته من أجل مصلحة ابنه، وكان بالمقابل من ابن نوح ردود هادئة أيضاً، يريد أن يقنع بها نفسه ويطمئن أباه. ولكن في ذلك الموقف الذي لا يتسع فيه الوقت للجدل، نقف على إشارات نستخلص منها أن حواراً سريعاً يدور على قدر الوقت المتاح يخلو من الانفعال والعاطفة على حدّ سواء إلا ما تحمل كلمة (يا بني) من معاني العاطفة التي تخفها الشفقة من جميع جوانبها، لأن الطوفان قد بدأ يعلو وتظهر معالمه، ونتأججه معلومة لنوح عليه الصّلاة والسّلام، حتى كأنه ينظر إلى مصيري ابنه أمام عينيه:

المصير الدنيوي وهو الغرق لكلّ من لم يؤمن لنوح.

المصير الأخروي وهو الخلود في العذاب المقيم.

فالعاطفة نستقرؤها من خلال ما يعلم نوح، ممّا وعده الله تعالى بالمصير الذي سيؤول إليه الذين كفروا، وهنا نستقرئ العاطفة اتّجاه ابنه لأنه منهم، فهي وإن لم تبدّ في النص من خلال الأحرف والكلمات إلا أنّنا نستشفها من ظلال قوله: (يا بني اركب معنا).

حيث يظهر جموح العاطفة التي تمنّت للولد النجاة على الرغم من عدم إيمانه فقد بدا ذلك:

رحمة

شفقة

عطفًا

ولذا، لم يكن هناك مواجهة تفاوضية تأخذ البعد الجدلي، كما أخذ هذا الجدل مداه بين نوح وقومه لامتداد الوقت وتراخي الزمن، على العكس من النهايات الختامية في لحظة توجيه الخطاب الذي يحمل النصيحة للابن، لأنّ تسارع الأحداث بدأ يطفو على السطح ولم يعد في الوقت متسع.

وإن كان يمكن الحصول على الوقت في بعض المواقف الأخرى، من خلال إعادة ما قاله الآخر من أجل تصحيح الخطأ وصولاً إلى الغاية المترتبة على الأهداف والأغراض.

إلا أنّ نوح عليه الصلّاة والسّلام عندما خاطب ربّه في ابنه كان خطاباً عاطفياً: {إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ} 298

فكان الجواب من الله تعالى: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ

عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٍ} 299

فكان الأهل أهليين:

. أهل القرى وصلة الرحم.

. أهل العقيدة وصلة الإيمان.

لذلك امثل نوح عليه الصلّاة والسّلام لأمر ربه ونحي العاطفة

جانبا.

إنّ الواجب اتباع الحقّ من الآباء وإن علوا، ومن الأبناء وإن سفلوا، فمثال الأول من الآباء إلى الأبناء في قوله تعالى: {وَالَّذِي قَالَ لِيُؤَدِّيهِ أَفٍّ لَكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا

298 - هود 45.

299 - هود 46.

يَسْتَعِينَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ {300}.

وكذلك خطاب نوح لابنه في قوله تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ
فِي مَعْرِلٍ يَا بُنَيَّ اذْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ} {301}. ومثال الثاني
من الأبناء إلى الآباء في قوله تعالى: {وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ
سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} {302}.

فقد انتهت سيادة العاطفة على نوح إن كان ثمة سيادة، عندما
ظهرت معصية ابنه وتغلب العقل والعقيدة، فكان الموقف هو التزام
جانب الحق والتضحية بالعاطفة، لأنه كان يعلم أنّ عليه أن يضحى
بعاطفته إذا ما بقي ابنه على موقفه المناقض للحق وللواجب المكلف
به نوح عليه الصلّاة والسّلام، فلا يوجد خيار آخر غير اتباع الحق.
ولذا فإنّ الصراع كان يدور عنيفا في صدر نوح النبي الذي ينحاز إلى
العقيدة، وليس في صدر نوح الأب الذي ينحاز إلى العاطفة، وإن
كان الألم لديه يأخذ بعدين:

أحدهما: بُعد عاطفي تجاه الابن، كون ابنه من أهله.

الآخر: بُعد عقدي لأن ابنه لم يؤمن.

فكان الصراع بين العاطفة الأبوية العارمة، وبين الواجب الذي
تلقاه على كاهله مسؤولية النبوة.

وعندما وقعت المأساة، كان الموقف الفصل هو ثبات الواجب
وهزيمة العاطفة أو طمسها، ولذا فقد تغلب الواجب العقدي الديني
على العاطفة الأبوية تجاه الأهل والولد.

300 - الأحقاف 17.

301 - هود 42.

302 - لقمان 15.

إذا فالعاطفة في هذا الموقف لدى نوح عليه الصّلاة والسّلام، كانت بداية الطريق وليست نهاية المطاف، لأنّ العاطفة جاءت منطلقاً جديداً أو بديلاً بعد فشل المحاولات العقلية التي انطلقت منها الدعوة لابنه بداية، فإذا أثمرت الدعوة العاطفية في انصياع ابنه لها، يتبع ذلك عملية أكثر تعقيداً وصعوبة، وأكثر أهمية وخطورة. وهي مرحلة الإعداد من أجل الإقناع في بلورة الفكر العقدي للآخرين بعيداً عن صلة الرحم والأهل والقربى، وبعيداً عن التقليد، لأنه سوف يطرح أشياء جديدة تحتاج إلى تأمين أرضية الوصول إلى القناعة عند الآخر، وإن كان هذا الآخر ابن أو زوجة.

لقد كانت تلك المرحلة، أثناء دعوة نوح عليه الصّلاة والسّلام لقومه ولابنه، هي محاولة ترشيد النفوس بمفاهيم عقديّة ومناهج شرعيّة مؤصّلة، حتى إذا فشلت تلك المحاولة مع ابنه ومعظم قومه، وأيقن من الله تعالى أنه لن يؤمن له إلا من قد آمن، لجأ في التعامل مع ابنه إلى إحلال العاطفة محلّ العقل علّ ذلك يقود ابنه إلى صفوف المؤمنين، ومن ثمّ يبدأ تنامي فهم واعٍ موضوعي بأصول العقيدة ومنابعها الكريمة من خلال المحيط والبيئة والوسط الاجتماعي، لأنّ العقيدة مبرأة من الآراء والتصورات البشرية، وخالية من الفلسفات والنحل المادية، وبذلك يقدم له رؤية واضحة ناضجة لواقع لم يكن يتصوره، ومصير لم يكن يتوقعه، فيما لو انخرط في الوسط الإيماني دون إيمان بداية، حيث كان تصور نوح عليه الصّلاة والسّلام أن العاطفة ستكون لابنه باباً يلج من خلاله إلى العقلانية التي توصله إلى صدق اليقين المفضي إلى النجاة، ولكنه رسخ في ذهنه أنه سيأوي إلى جبل يعصمه من الماء كما زعم. قال تعالى: { قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ

لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ
مِنَ الْمُغْرَقِينَ {303}.

ثم إن عاطفة الأبوة المدركة للحقيقة الإلهية وعظم الهول الذي
سيقع، نرى هذه العاطفة ترسل نداءً أخيراً منبعه العقيدة وإن كان
نداءً عاطفياً جاء على صيغة إنذار، قال تعالى: (قال لا عاصم اليوم
من أمر الله إلا من رحم)

غير أن عاطفة الأبوة لنوح عليه الصلوة والسلام، والمصير الذي
آل إليه ابنه على مرأى من نوح ومسمعه، دفعه للمناداة التي تتفجر
من خلالها الحسرة ويكسوها الألم، قال تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ
رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} {304}.

ففي نداء نوح عليه الصلوة والسلام ثلاثة مقاطع وجب التأمل في
كلٍ منها على حدة، حيث يتجلى فيها الصراع النفسي الذي تؤججه
العاطفة وتقيده العقيدة:

أ. إن ابني من أهلي:

نلمس من الجملة الأولى لهفة والد مفجوع ليس على فقدان ولده
فحسب، وإنما إضافة إلى ذلك، هي الفجاعة الكبرى التي مات عليها
ابن نوح وهي ملة الكفر، ونبى الله نوح عليه الصلوة والسلام، يعلم ما
لا يعلمه غيره، عن مصير من كفر بعد الموت حيث قال تعالى: {إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ
عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} {305}.

303 - هود 43.

304 - هود 45.

305 - المائدة 36.

فلنا أن نتصور موقفه عليه الصلّاة والسّلام في هذه اللحظة التي علم فيها المصير الذي اختاره ابنه . فلذة كبده . ولم يستطع أن يفعل حياله شيئاً

ب . وإنّ وعدك الحقّ:

وهنا، يستدرك عليه الصلّاة والسّلام ما وعده الله تعالى بنجاة قسم من أهله، لأنّ الله تعالى إنّما وعده بنجاة من آمن من أهله وليس جميعهم لأنّ الله تعالى قضى بأن يكون ابنه ممن حق عليه القول، قال تعالى: { فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ } 306.

فكان ابن نوح هذا ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه في اتباع الحقّ. وهنا استنجز عليه الصلّاة والسّلام الوعد الحقّ في ابنه بما قضى الله تعالى وجرى حكمه فيه كما جرى على أمثال ابن نوح من قومه.

ج . وأنت أحكم الحاكمين:

إنّ قول نوح عليه الصلّاة والسّلام (وأنت أحكم الحاكمين) يحمل وجهين من حيث الفهم والتأويل:

الأوّل: أنّ الله تعالى أحكم الحاكمين من حيث القضاء العدل، فهو سبحانه وتعالى حاكم منزه عن الجور والميل والحيف والظلم، فلا بدّ وأن يخصّ المؤمن النقي بالرحمة والمغفرة التي تكون بهما النجاة وينال بذلك أرفع الدّرجات، وأن يخصّ الكافر الشقي بأنواع العقوبات من العذاب، فهذا هو الوجه الأوّل من قوله (وأنت أحكم الحاكمين) الذي يفهم منه القضاء العدل بإصدار الحكم.

الثاني: أنّ نوحا عليه الصّلاة والسّلام يعلم أنّ الله تعالى في كلّ قضاء قائم على الحُكم، حِكْمَة ربما يدركها قليلون، ويجهلها كثيرون، ذلك أنّ حكم الله تعالى نابع عن حكمة إلهية نستشف منها فيما قضت مشيئته في ابن نوح، أنّ نوحا عليه الصّلاة والسّلام بقي على سلامة القلب، حيث قال تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} 307 هذا من جهة.

ومن جهة ثانية أنّ الله تعالى أراد أن يثبت إيمان نوح عليه الصّلاة والسّلام ويجعل صلة الإيمان هي المقياس والميزان حيث قال تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ} 308.

وهنا، انقطعت صلة العصب والنسب، والرحم والقربى لعدم توفر شرطها الأساس وهو اختلاف الدين في استحباب الكفر على الإيمان، فلا ينفع الولد والدّه وإن كان الوالد نبيا عندما يكون الولد عملاً غير صالح.

ولذا؛ فقد وعظ الله نبيه نوحا عليه الصّلاة والسّلام بصريح العبارة أن يكون من الجاهلين؛ بسبب قوله: (إن ابني من أهلي).

فقد جاء الجواب على نداء نوح: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} 309.

وقد يفهم البعض أن الوعظ من الله تعالى لنبيه عليه الصّلاة والسّلام على أنه اتهام بالجهل.

307 - الشعراء 88-89.

308 - المج ادلة، 22.

309 - هود 46.

ونحن نقول: إن هذا ما ينبغي لنبي من أنبياء الله تعالى، ولا ينبغي على الله تعالى أن يصف نبيا من أنبيائه بهذا الوصف؛ فالله تعالى أراد بقوله: (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) ليس على سبيل النصح والإرشاد، وإنما هو من باب التنزيه والترفع عن الجهل لنوح خاصة ولجميع الأنبياء عامة، وإنّ الذي يذهب في فهم هذه الآية على أنه اتهام لنوح، فقد افترى على الله في الاصطفاء تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

مع العلم أنّ الآية تضمنت معنى النهي عن مثل هذا السؤال، إلا أنّ الموعدة ترفعت بنوح عن مقام الجاهلين، وبيّنت إعلاء مقامه إلى درجة المؤمنين العلماء العارفين، لأنه ما من شك أن جميع أنبياء الله من العالمين والعارفين والمؤمنين، وليس أحد منهم من الجاهلين، إذ كيف يصطفي الله تعالى نبيا جاهلا، فهو لا يستقيم لا عقلا ولا منطقا مع الألوهية، لكن نوحا عليه الصلّاة والسلام، وعظه الله تعالى أن تأخذه عاطفة الأبوة والقرابة، بأن يقدمها على رابطة العقيدة والدين، لأنّ رابطة العقيدة أقوى الروابط والصلوات، ونوح عليه الصلّاة والسلام لم يفعل ذلك، لكن نوح عليه الصلّاة والسلام ربّما وقع في خلدّه أن ابنه من أهله الذين وعده الله أن ينجيهم، فقد يكون أنه فهم من الآية أن الله سينجي أهله جميعا، وابنه على هذا الاعتبار من أهله، وإن لم يكن آمن فرمّا سيؤمن بعد أن يركب معهم، ثم تبرأ نوح من أن يسأل الله ما ليس له به علم، وهذا غاية في العلم والعبودية والطاعة.

وعندما وعظ الله تعالى نوحا عليه الصلّاة والسلام، فقد أعطاه حجّة أنّ ابنه ليس عملا صالحا، وبهذه الموعدة تبين لنوح أن ابنه ليس من أهله.

فالموعظة تستوجب الاتباع لأنها الحقّ، والحقّ يتّبع.

النصيحة تستوجب الاختيار.

ولذا، بيّن أنّ ابنه ليس من أهله.

والموعظة لا تكون إلاّ على حقّ، وتكون الأعلى إلى الأدنى، ولهذا؛ فالموعظة لها خصوصية، بينما النصيحة تكون على العموم قد يُؤخذ بها وقد لا يُؤخذ.

لم يكن قول نوح عليه الصّلاة والسّلام (إنّ ابني من أهلي) مبنيًا على جهل، وإمّا كان مبنيًا على علم ممّا فهم من قول الله تعالى: (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) فنوح عليه الصّلاة والسّلام لم يكن عالما بمن سبق عليه القول من الله تعالى، ولو كان يعلم أنّ ابنه ممن دخل في جملة من سبق عليهم القول، ما سأل الله النجاة لابنه، وهنا، يكمن بيت القصيد في توضيح المعنى بعدم علم نوح بمصير ابنه، أنّه سيكون من المؤمنين أم أنّه يبقى على كفره، وهذا من علم الغيب الذي لم يطلعه عليه الله تعالى، وهنا، يتضح الفرق الكبير بين الجهل وعدم العلم، فبعد أن غرق ابنه أصبح نوح عالما بمصيره. ولذا فإن نوحا عليه الصّلاة والسّلام سأل ربه ذلك استنجازا للوعد بنجاة الأهل بعدم علمه بالناجين من أهله وليس جهلا.

فجاء الرّد بالحقيقة التي ليس نوح غافلا عنها أو جاهلا بها، وإمّا بالحقيقة التي لا يعلمها وقد جلاها الله تعالى في وقتها، وبين من خلاها تشريعا لنوح ولمن بعده من الأنبياء وغيرهم من البشر، أن الأهل في شرع الله وفي دينه وميزانه، لا يقتصر على قرابة العصب والنسب، وليسوا قرابة الرحم الدم، إمّا هم قرابة العقيدة، وهذا الولد لم يكن مؤمنا؛ فليس من الأهل في شيء، قال تعالى: { قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ

لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
إِنِّي أَعْظُمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ {310}.

زوج نوح:

إنّ زوج نوح مثلها، مثل امرأة لوط، ولذا فقد جمعهما الله تعالى
لتشابه السيرة والموقف من زوجيهما في قوله: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ
كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ
فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ
الدَّاخِلِينَ {311}.

ولتشابه السيرة والموقف فقد اقتصر القرآن الكريم على إيراد شيء
من التفصيل لموقف واحدة منهما وهي امرأة لوط، وجاء ذكر ذلك
عندما مرّ الملائكة عليهم السلام في طريقهم على إبراهيم عليه الصّلاة
والسّلام وبشّروه بغلام حلیم الذي هو إسماعيل عليه الصّلاة والسّلام،
وأخبروه بما أمرهم الله به من شأن قوم لوط حيث قال تعالى: {قَالُوا
إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا
قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ
الْغَابِرِينَ {312}.

فهم ذاهبون للانتقام من قوم لوط الذين كانوا يعملون الخبائث،
فتخوف إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام على لوط عليه الصّلاة والسّلام
أن يكون من ضمن الهالكين، فأخذ يجادلهم ويناقشهم ويخبرهم بأن
فيهم لوطاً، ولكنهم أخبروه بأن الله سينجيهم وأهله ومن معه من
المؤمنين إلا امرأته قدر الله أن تكون من الغابرين لخيانتها زوجها لوط

310 - هود 46.

311 - التحريم 10.

312 - العنكبوت 31، 32.

عليه الصلّاة والسّلام حيث لم تكن معه على الإيمان بالله، وتلك هي خيانتها في الدين، وليس في عرضها كما يظنه بعض النّاس من وقوعها في الفاحشة، وهذا خطأ كبير في تأوّل بعض ألفاظ القرآن وتفسيرها حيث يفسرون ما يفهمونه من الظاهر من بعض الألفاظ. وهنا، نريد أن نصّح هذا المفهوم أو مصطلح (الخيانة) الذي علق معناه خطأ في أذهان كثير من النّاس الخاصة منهم والعامّة على حدّ سواء على أنّه زنا.

ومفهوم الخيانة الزوجية في اللغة العربية لأهل اللغة، لا يمكن أن يفهم منه موضوع الزنا بحال من الأحوال، غير أننا نرى أن هذا المصطلح في معنى الزنا تسرب إلينا ممّا ترجم من اللغات الأجنبية لتخفيف وطأة فعل الزنا من جانب، ولجهل كثير منهم بشروط هذا الفعل وحدوده من جانب آخر، فأطلق المصطلح على غير مسماه لهذه الأسباب.

أمّا الخيانة التي وصف الله تعالى بها امرأة نوح وامرأة لوط، فهي خيانة عهد الزواج، وهو أن تطيع المرأة زوجها ما لم يأمرها بمعصية، ونوح عليه الصلّاة والسّلام أمر زوجته بما أمر به قومه من الإيمان واتباع دين الحقّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلما خالفت الحقّ والعرف في إطاعة الزوج كانت الخيانة من هذا الباب في نقض العهد على الطاعة.

ومعروف من فهم اللغة ومعاني كلماتها أنّ الخيانة هي نقض عقد متفق عليه بين طرفين أو أكثر، سواء أكان هذا العقد:

مدوّن كتابة:

{ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } 313.

أم عقد شفهي:

{ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ } 314.

أم عقد عرفي اجتماعي:

{ وَلَا يُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا } 315.

إنّ مفهوم الخيانة في الآيات السابقة مرتبط بنوع من نقض العهد والموثق المتفق عليه بأحد الأنواع الآتية الذكر، من هذا الباب كان قوله تعالى: { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ } 316.

ولذا، جاءت الآية التالية لها، لبيان نوع الخيانة التي ارتكبتها كلٌّ من امرأة نوح وامرأة لوط في توضيح المعنى المقصود عندما جرت المقارنة بينهما وبين امرأة فرعون في قوله تعالى: { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } 317.

لأنّ طلب امرأة فرعون من الله تعالى انصبَّ على النجاة من فرعون وعمله في الكفر والشرك ورفض الحقّ وعدم الانصياع له، وهو

313 - الأنفال 71.

314 - الأنفال 58.

315 - النساء 107.

316 - التحريم 10.

317 - التحريم 11.

الذي تمسكت به امرأة نوح فكانت خائنة لزوجها لمخالفته العقيدة
واتباع الكفر والضلال.

لقد كانت زوجة نوح وزوجة لوط كافرتين، فضرب الله المثل بهما
في خيانتهم لهما في الدين حيث لم تتبعاهما فيه، وليس المراد أهما
كانتا على فاحشة، لأنّ تلوث العرض يؤدي سمعة الأنبياء الأطهار،
وما ينبغي لنبي أن تكون امرأته باغية حتى وإن كانت على الكفر،
وأما دلالة خيانة العهد والميثاق من قبل الزوج لزوجها، فإن ذلك لا
يعني عنها من الله شيئاً وإن كانت امرأة نبي، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى
الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ
وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ
تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ﴾ 318.

وأما ما ورد من آثار في بعض التفاسير بأن امرأة نوح كانت تخبر
قومها إذا جاء ضيوف بإيقادها النار وارتفاع الدخان أو تدعوهم
علانية، فهو من باب خيانتها للعهد، وليس ما ذهب إليه بعض من
فهم الآية على أنه زنا ولم يرد بذلك نص صريح غير ما أخبرنا الله
تعالى في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ
كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُعْنِنَا عَنْهُمَا مِنَ
اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ 319.

318 - التوبة 23، 24.

319 - التحريم 10.

وينطبق الفهم الخاطئ أيضا على عدد من آيات القرآن الكريم وألفاظه المفردة، منها في هذا الموضع عندما قال لوط عليه الصلاة والسلام لقومه لما أرادوا الاعتداء على ضيوفه بفعل الفاحشة، ولم يكن يعلم هو حتى تلك اللحظة أنهم ملائكة، لأنهم أتوا في صورة شباب مرد حسان فقال لقومه: {قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ} 320.

أي: تزوجوا من النساء، وأتوا نساءكم بالحلال ودعوا ما حرم الله تعالى، فإن ذلك أكرم وأفضل وأشرف وأطهر مما تريدونه، ولا يذهب عاقل إلى أن قصده أن يستبدلوا فاحشة اللواط بفاحشة الزنا، ولم يخص بناته فقط، بل أرشدهم إلى نساءهم وهو بمنزلة الأب لهم جميعا كما قال تعالى: {الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} 321.

فبهذا يزول الإشكال وتنجلي المعاني، وحتى لو عرض عليهم بناته، فقد عرضهم بزواج شرعي مع الأخريات من البنات، لأن بناته عليه الصلاة والسلام لا يغطي عدد الرجال في القرية التي كانت تعمل الخبائث، علما بأن كثيرا منهم كان لهم زوجات ونساء.

ومن خلال الآية التي ذكرت امرأة نوح، لا نقف فيها على دواعي الأسف ومشاعر الحزن كما كانت واضحة جلية في موقفه مع ابنه، غير أن الذي نقوله: أن الإنسان كونه أبا النبي أو ابن النبي أو زوجه أو أخاه أو قريبه، كل ذلك لا يغني عنه من الله شيئا، وإنما الذي يغني الإنسان عمله الصالح، قال تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} 322. أما القرابة هذه فلا تمنع من الحكم على الكافر

320 - هود 78.

321 - الأحزاب 6.

322 - الحج رات 13.

بأنه كافر وعلى المخلد في النار بأنه مخلد في النار، ولا معنى لقولهم من
فهم الخيانة خطأ على أنه زنا، إذ ليس بعد الكفر ذنب.
اللهم اجعلنا وأبناءنا وأزواجنا وذريّاتنا عمل صالح.

دعوة نوح ودعائه:

البحث في سيرة نبي الله نوح تثير رواكد الفكر الذي تشبّع به
العقل عبر ما يُظن أنّه ثوابت لا يجب أن يقترب منها لمعرفة كنهها أو
حتى المساس به لإزالة ما علق عليها من غبار سنوات ممتدة من تلقي
ما كتب عن سيدنا نوح عليه الصّلاة والسّلام والشخصيات التي
تعامل معها.

وهذا ممّا يجعل مجموعة من الأسئلة تتسابق إلى العقل باحثة عن
إجابة لاستكشاف مواضع فاصلة في سيرة سيدنا نوح لا ترسيخا
للسابق لمجرد أنّه من الموروث، بل إضافة عليه وتجديد فيه وتثبيت لما
جاء في القرآن الكريم

ومن مثل هذه الأسئلة:

هل قوم نوح هم كل البشر أم بعضهم؟

من المرسلون الذين أرسلوا إلى قوم نوح؟

هل كانوا معاصرين له؟

هل سابقون عليه؟

من الأردلون الذين اتبعوا نوح؟

وما فعلهم الذي منع وجهاء قومه من إتباعه؟

وهل المانع كان فعلا أم مهنة أم هيئة؟

هل كل الناجين استمروا على الإيمان؟

ما عمر نوح وما عمر قومه؟

ما أصنام قوم نوح؟

وغيرها من تساؤلات سيكون مدار البحث فيها مؤسس على منهج قرآني.

قوم نوح والمرسلين:

من فيض القرآن يستبين لنا احتمالا مفاده أن قوم نوح قد أرسل الله لهم عدد من المرسلين مصداقا لقوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا قَالُوا انُّؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ} 323.

وهنا يبدو التساؤل ما المقصود بالمرسلين؟

هل الجمع على سبيل الحقيقة أم المجاز؟

أم أنّ المفسرين قد ارتضوا تفسيرا واحدا وأغلقوا باب البحث عليه؟

ففي جل التفاسير أن قوم نوح لم يرسل لهم إلا نوح عليه السلام، معللين ذلك على المجاز لا على الحقيقة.

فالمعنى من ظاهر النص يقتضي وجود عدد من المرسلين الذين أرسلهم الله لقوم نوح فكذب قوم نوح بهؤلاء الجمع من المرسلين ومن بينهم نوح عليه السلام.

يقول الرازي:

"وإنما حكى عنهم أنهم كذبوا المرسلين لوجهين:

أحدهما: أنهم وإن كذبوا نوحا لكن تكذيبه في المعنى يتضمن تكذيب غيره، لأنّ طريقة معرفة الرّسل لا تختلف فمن حيث المعنى حكى عنهم أنهم كذبوا المرسلين.

وثانيهما: أنّ قوم نوح كذبوا بجميع رسل الله تعالى" 324.

ومن عبارة الرازي يبدو أن التكذيب لمجموعة من المرسلين غير أنه يأخذ جانب المعنى المجازي بحيث إن تكذيب رسول واحد هو تكذيب لجميع الرسل.

ولم يظهر لنا هل هو مرسل واحد مكذب من قومه أم مجموعة من المرسلين الذين أرسلهم الله لقوم نوح.

وهنا، لنا أن نتساءل؟

ألا يوحي ذلك القول بأنه قد سبق نوح عدد من المرسلين يكون قوم نوح مكذبين بهم جميعاً؟

ألا يمكن احتمالاً أن يكون هؤلاء المرسلون متساوون في زمن الإرسال؟

أو متعاقبون؟

أكانوا مع نوح؟

أم قبله؟

ولا يمكن أن يكونوا المرسلين بعده إن هم رسل نوح إلى الأقصى من قومهم؟

أم أنّ نوح ممثل لجميع الرسل في التكذيب به؟

وسيظهر ذلك في ثنايا البحث؟

وهل هؤلاء المرسلون هم الصالحون الذين عبدوهم بعد ذلك؟

وعلى ذلك فما معنى أنهم اتبعوا أناساً صالحين اتخذوهم آلهة ومنهم يغوث ويعوق ونسرا؟

324 - تفسير الرازي، ج 11، ص 492.

ولو كانوا يعبدون الصالحين فلماذا لم يعبدوا آدم وأحد ابنيه
الصالح؟

ولكن نصطدم بالموروث الذي لم يقم عليه دليل قرآني فمعلوم
شعبيا أنه قد سبق نوح نبي الله إدريس، مع إنّه لم يقم على ذلك دليل
من القرآن، إنّما المثبت آدم قد سبق نوحا عليه السلام.
عليه: يكون المرسلون على وجهين:

الأول: حقيقي.

الثاني: مجازي.

حقيقي: وهو ما نميل إليه بأن المرسلين قد أرسلوا لقوم نوح وكان
نوح من هؤلاء المرسلين.

أو يكون المرسلون هم رسل نوح نفسه على الأقصى من قومه
وهذا ما يؤكد عمومية الطوفان وشمولية الغرق للكفار من قومه،
وخصوصية النجاة للمؤمنين.

المجازي: وهو الذي عوّل عليه المفسرون في أن التكذيب بنبي الله
نوح ينسحب على جميع المرسلين وإن لم يكونوا معه، سابقون عليه
وليس لقومه بالتحديد.

وقد وافق ابن كثير الرأي الذي يقول أنّ التكذيب كان بنبي الله
نوح حقيقة.

ومجازا على بقية المرسلين.

وبذا يكون نوح مرسل وحده إلى قومه من وجهة نظر المفسرين.
فيقول: "هذا إخبار من الله، عزّ وجلّ عن عبده ورسوله نوح،
عليه السلام، وهو أول رسول بُعث إلى الأرض بعدما عبدت الأصنام
والأنداد، بعثه الله ناهيّا عن ذلك، ومحدّراً من وبيل عقابه، فكذبه
قومه واستمروا على ما هم عليه: من الفعال الخبيثة في عبادتهم

أصنامهم، وتكذيبهم له بمنزلة تكذيب جميع الرّسل؛ ولهذا قال:
{ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ } 325
وقول ابن كثير فيه الآتي:

. يسقط المعنى على الرّسل الذين جاءوا من بعد نوح بالمجاز.
. ولا ينسحب على الرّسل الذين سبقوه لأنه قرر أن نوح عليه
السلام هو أول رسول إلى الأرض بعد أن عبدت الأصنام.
. لا يشير إلى تكذيب قوم نوح لرسول عاصروا نوح عليه السلام
زمننا.

. ينتفي كون إدريس قبل سيدنا نوح.
. القرآن ذكر أن نوح بعد آدم عليه السلام (إنّ الله اصطفى آدم
ونوح) ثمّ ذكر الآل، وعليه فإدريس لم يكن قبل نوح وقد يكون داخل
في الآل.

. ولكننا نرى احتمالا يكاد يرقى إلى اليقين أن نوحا عليه السلام
كان أحد رسل الله إلى هؤلاء القوم الذين عرفوا بقوم نوح وذلك لأدلة
قرآنية نقلية وعقلية منها:

1. قول الله تعالى: { كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ } 326.
. فلا يجب ترك الأخذ بظاهر الآية والركون إلى التأويل دونما دليل
من القرآن.
. لا ينتقص المعنى لو أثبتنا أن نوح أحد المرسلين الذين أرسلوا إلى
قومه.

. لا ينتقص قدر نبي الله نوح لو كان أحد المرسلين إلى قومه، فقد
تزامن أكثر من نبي في مدة واحدة لأقوام أقل كفرا من قوم نوح

325 - تفسير ابن كثير، ج 6، ص 151.

326 - الشعراء 105.

مصداقا لقوله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} {327}.

فإنَّ أهل القرية المذكورة في سورة يس قد كذبت بأربع رسل ثلاثة في الآيات المستشهد بها، ورابع جاء من أقصى المدينة يسعى يحذر المكذبين من التكذيب بالرّسل قال الله تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ} {328}

وعليه: فهذا يجعلنا نميل بأن نوح عليه السلام كان واحدا من المرسلين إلى قومه، وذلك لما سنسوقه من أدلة قرآنية لا تتعارض مع العقل.

وعلى كل فقد كذب قوم نوح المرسلين بغض النظر عن إنهم رسل من الله أو رسل من نوح، ونحن نرى أنهم رسل نوح على الأرجح. فقد ثبت في القرآن أن نوحا عليه السلام قد لبث نبيا في قومه ألف سنة إلا خمسين.

وهذا يثير تساؤلات منها:

هل قوم نوح كانوا معمرين مثله؟

هل الرّسل المرسلون معه كانوا معمرين مثل نوح؟

نقول:

327 - يس 13-17.

328 - يس 20-21.

من سياق النص القرآني يستبين أن قوم نوح لم يكونوا معمرين مثله
لقول الله تعالى: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ
دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا رَبِّ اغْفِرْ
لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ
الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا} 329.

فقوله تعالى: (إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا
كَفَّارًا) يوحى فيما يوحى إليه أن نوح هو المعمر في قومه، وأنه د
تعاقبت أجيال من قومه عليه وهو مازال يدعوهم إلى عبادة الله وكلما
مرّ جيل جاء من بعده على كفر وفجر أبيه لذا قال نبي الله نوح: (وَلَا
يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)

فهذا على ما نعتقد ليس علما بالغيب ولكن استنتاجا من
معايشته معهم.

- مع احتمال أن يكون في قوم نوح من عمّر عُمر نوح
- كما يوحى على أنّ نبي الله نوح كان ضمن مجموعة رسل كذب
بها قومه، إنّ في القرآن الكريم ما يشير إلى وجود رسل أو رسولين في
وقت واحد مع نسب القوم الذين أرسلوا لهم لنبي واحد منهم أو
منهما مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ
ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَادِكُمُ الْعِجَلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ
ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ} 330، وقد ذكر الله هذا الوصف بهذه الصيغة ست مرات في
القرآن الكريم.

329 - نوح 25-28.

330 - البقرة: 54.

وقوله تعالى بصيغة أخرى: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ
وَبِهِ يَعْتَدُونَ} 331.

وقد ذكرت هذه الصيغة ثلاث مرات في القرآن الكريم.
والتساؤل: أليس هذا القوم هم قوم هارون وهو مرسل إليهم أيضا؟
وهذا يدل على أنّ نداء القوم بنبي من الأنبياء الذين أرسلوا إليهم
لا ينفي وجود أنبياء آخرين معه زمنيا، والشاهد واضح في قوم موسى
مع وجود هارون.

وعليه: يكون لا يوجد مانع من أن يكون مع نوح عليه السلام
رسل آخرون كذب بهم قوم نوح مصداقا لقوله تعالى: (كذبت قوم
نوح المرسلين)
ولذا، نتساءل:

ألا يكون نوح أبو البشر بعد آدم؟

ألا يكون قوم نوح هم كل البشر في ذلك الوقت؟

قال الله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا
يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِئُوكَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي
السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ وَمَا كَانَ النَّاسَ
إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ
فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} 332

إنّ الله خلق الإنسان وكرمه بعبادته، وكان ذلك التكريم بدءا من
آدم عليه الصلاة والسلام أبي البشر فنشأ الناس مع آدم ومن بعده

331 - الأعراف - 159.

332 - يونس 17-19.

أمة واحدة مؤمنة لم تعرف الشرك ولا الكفر بالله إلى أن ظهر الشرك به تعالى ثم الكفر الصريح.

وهنا تبدأ أمة جديدة على الشرك أو الكفر بعد أن كان الناس أمة واحدة على الإيمان.

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)

الناس أمة واحدة، هل أئهم كانوا جميعا على الدين الحق، وهو دين الإسلام؟

والأمر فيه احتمالات لقوله تعالى: { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً }

1- فهل كان الناس أمة واحدة على الإسلام؟

2- أم أئهم أمة واحدة في الشرك؟

3- أم أنّ الناس كانوا أمة واحدة على الكفر؟

وعليه: الكفر يعم الشرك

الشرك جزء من الكفر

وقد يأتي الكفر كاملا

وقد يسبق الاثنان الإيمان

وثبت ذلك في ركوب المؤمنين السفينة وغرق ما سواهم

فيكون إئهم:

- كانوا أمة واحدة على الإسلام الذي هو دين الأنبياء من آدم

إلى محمد عليه الصلاة والسلام.

- أو إئهم كانوا أمة واحدة في الشرك الذي يسبق الكفر بعد

بعض الأنبياء.

فهل يمكن التوفيق بين أنّ الناس أمة واحدة في الإيمان، ثمّ في

الشرك، ثمّ الكفر؛ فكل حالة تمثل أمة واحدة؟

نقول:

يمكن أن يكون الناس أمة واحدة في عهد آدم
- إن الناس جماعة قد يكونوا أمة واحدة من الناحية الاجتماعية
واللغوية والعرقية في مدة نشأتها الأولى، وتنقسم في داخلها من حيث
الإيمان على الآتي:

- جماعة منها على الإيمان (آدم وزوجه وبعض أولادهما).

- وجماعة على الكفر.

- ثم جماعة الشرك.

وهذه الجماعات تمثل أمة واحدة في كل فترة وفي نفس الفترة في
ذات الوقت.

وعليه: فلا يمكن أن يكون الناس أمة واحدة على الكفر أو الشرك
في وقت واحد وذلك لقول الله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
بشَّهيدٍ} 333

وطالما يوجد شهيد لكل أمة؛ فلا يمكن أن تكون الأمة كاملة
كافرة أو مشركة.

وشهيد الله لا بدّ وأن يكون مؤمنا وهو في حد ذاته أمة في نفسه.

وعليه نقول:

إنّه ما تخلو أمة من الأمم إلا وفيهم مؤمن، وذلك لأنّ حكمة الله
من الخلق العبادة؛ فيستحيل خلو الأرض من عابد لله مصداقا لقوله
تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} 334؛ فينتفي بذلك
الدليل النقلي خلو الأرض من عابد لله.

. لذلك، ينتفي القول بأنّ الناس كانوا أمة واحدة في الشرك أو

الكفر.

333 - النساء 41.

334 - الذاريات 65.

وإذا فرضنا أنّ النَّاس كانوا أمة واحدة إما في الشرك أو الكفر أو الإيمان، وانتفى أتهم كانوا أمة واحدة في الشرك أو الكفر، ثبت أتهم كانوا أمة واحدة على الإيمان في وقت من الأوقات.

ولكن يبقى التساؤل متى كانوا كذلك؟

متى كانوا أمة واحدة على الإيمان؟

نقول:

. يمكن أن يكون ذلك الاحتمال متحققا في عهد آدم وفي عهد ولده.

. إتهم بقوا على دين الإسلام إلى زمن نوح.

. ثم اختلف الناس في زمن نوح فبدؤوا بالشرك وليس بالكفر،

فبعث الله تعالى إليهم المرسلين ومنهم نوح عليه الصلّاة والسّلام.

. وبعد طوفان نوح كانوا أمة واحدة على الإيمان على دين

الإسلام.

. ثم ظهر الشرك من جديد والكفر فأرسل الله الأنبياء.

. ولكن من المؤكد أن الأمة التي تحقق فيها الإيمان الكامل لم تكن

على الأرض إلا أمة يونس.

. كانت أمة السفينة وهي الأمة التي كانت على الإيمان الصّرف.

. وقبل ذلك كان الناس منقسمين.

. وبعد ذلك أصبح الناس منقسمين.

لذا، يمكن أن نقول إنّ النبي الذي أرسل إلى الناس المجتمعين على

الشرك أو الكفر يكون هو أمة مصداقا لقوله تعالى: { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ

أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } 335

وعليه: فكانت الناس في زمن إبراهيم مشركين.

وكذلك في زمن نوح عليه الصلّاة والسّلام قبل صعود السفينة.
فالمشرك الذي يعترف بالله ربا ولكن يعبد من دون الله ليكون
شفيعا له عند الله مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ {336، ونقول: إنّ
هذا الكفر أو الشرك حادث ولم يكن متأصلا منذ الأمة الأولى على
الأرض لأنها كانت على إيمان آدم الذي هبط به من السماء (وَمَا
كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً).

. بذلك يبطل قول الكفار والمشركين ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
آبَاءَنَا﴾ {337. لأنّ آدم وزوجه على الإيمان.
ومّا سبق يكون في قوم نوح أمة شرك وكفر بعد إيمان.

. دعوة نوح وركائزها:

دعاهم نوح لترك ما هم عليه من باطل ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ
قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي
لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ
وَيُخَوِّضُكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ﴾ {338.

فكانت دعوة نوح عليه الصلّاة والسّلام منصبية في الأساس على
الجانب العقدي فهو يدعو إلى:

1. أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا اللَّهَ

. عبادة الله وحده

تقوى الله والخوف منه

336 - يونس 18.

337 - لقمان 21.

338 - نوح 1-4.

طاعة الرسول

يترتب على ذلك:

. يَعْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ

. وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى

وذلك يتأتى أولاً: بالإنذار وبالترهيب

وثانياً: بالترغيب

مصدقا لقوله تعالى في جانب الإنذار والترهيب: (قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي

لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

وفي جانب الترغيب:

. (يَعْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)

. (وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى)

ونناقش دعوة نوح وما ترتب عليها من خلال النص القرآني.

نرى أنّ سيدنا نوح عليه الصلّاة والسلام قد جعل في مقدمة

أسلوبه الدعوي:

عبادة الله مصداقا لقوله تعالى: (أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ)

فهو يدعو للتوحيد لأنّهم كما يبدو يعرفون الله ولكنهم يشركون

أصناما لهم في عبادته فركز نوح على جانبيين من التوحيد:

. توحيد في ألوهية الله:

وهذا التوحيد يقوم على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا فلا

يجعل له ندا في ألوهيته ولا شريكا في ملكه.

. توحيد في ربوبيته:

وتوحيد الربوبية هو الإقرار بأنه سبحانه خالق كل شيء، وهذا قد قاله المشركون الذين قال الله فيهم: { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } 339.

فهم مع إيمانهم بالله إلا وهم في ذات الوقت يشركون به تعالى. وقال تعالى: وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } 340.

وقال الله تعالى: { قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ } 341.

فكان سيدنا نوح عليه السلام في دعوته يريد أن يخلص بقومه من هذا النوع من الشرك حتى لا يصلوا إلى درجة الكفر. مع كون قومه من المشركين فهم مقرّون بأن الله خالق السماوات والأرض إلا أنهم جعلوا لله شريكا.

. فهم يقرّون بالرّب الحقّ الذي ليس له مثل في ذاته وصفاته وجميع أفعاله ولكنهم مع هذا مشركون به في ألوهيته بأن يعبدوا معه آلهة أخرى يتخذونها شركاء أو شفعاء - أو في ربوبيته بأن يجعلوا غيره ربّ الكائنات مع اعترافهم بأنّه رب ذلك الرّب وخالق ذلك المخلوق الذي يعبدونه.

ومن المعلوم أن الله أرسل جميع الرّسل وأنزل جميع الكتب بالتوحيد الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى: { وَمَا

339 - يوسف 106.

340 - لقمان 25.

341 - المؤمنون 84-89.

أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ {342}.

فدعوة التوحيد التي دعا بها نوح قد قالت بها الرسل جميعا مثل قول نوح من مثل هود وصالح وغيرهم: (أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون)

ثم بالترتيب الدعوي يأتي بعد عبادة الله وحده لا شريك له في الألوهية ولا في الربوبية يأتي الأصل الثاني وهو: . طاعة الرسول:

(أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون)

فعبادة الله هي الأصل

ومعرفة الله وإتباع أوامره واجتناب نواهيه لا تتأتى إلا من خلال رسول مرسل من الله سبحانه وتعالى.

والإيمان بالرسل هو الأصل الثاني من أصول الإيمان بالله والإسلام له، فمن لم يؤمن بالرسل المرسل من الله، وأنه يجب على جميع قومه أتباعه وأنّ الحلال ما أحله والحرام ما حرّمه وأنّ الدين ما شرعه بأمر الله فهو كافر.

موقف قومه من دعوته لهم:

ونتساءل:

هل آمن قوم نوح بالله إلهها واحدا أحدا لا شريك له في الألوهية والربوبية؟

هل أطاع قوم نوح سيدنا نوح في دعوته؟

للإجابة على التساؤلين ننظر في كتاب الله ونرى ماذا فعلوا.

أما في مسألة عبادة الله وحده فقد قال الله فيها حكاية عنهم:
{وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ أَهْلَتَكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَٰعُوثَ وَيَعُوقَ
وَنَسْرًا} 343

وقيل فيهم أقوال كثيرة بعضها لا يعقل بتاتا.
وطالما الأمر اجتهاد فيكون لدينا القرآن والعقل نحكم الأول
ويستهدي الثاني به، فالثاني لا يضل طالما استرشد بالأول.
والذي نريد أن نثبت أن عبادة الله معلومة ومعروفة ولكنها قد
خلطت بشرك ثم بكفر وهذا الذي حدث مع قوم نوح الذين قرروا
الاستمرار في شركهم وكفرهم.

فماذا كان موقف قوم نوح من دعوة التوحيد؟
يمثل موقف قوم نوح من الدعوة لعبادة الله إلى اتجاهين:

1- إيجابي.

2- سلبي.

- الإيجابي:

كان من الذين آمنوا برسالة نوح وهم من الذين ركبوا معه في
الفلك وهم الذين أطلق عليهم الذين كفروا (الأردلون) مصداقا لقوله
تعالى: {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدُلُونَ} 344

وعليه نتساءل من الأردلون؟

وهل الأردلون صفة وهيئة؟

هل هم الضعفاء السفهاء الحفراء؟

هل هم أصحاب المهن التي اعتبرت وضيعة كما رأى المفسرون؟

هل هم من كانوا يعملون أعمالا ضد الفضائل؟

343 - نوح 23.

344 - الشعراء - 111

هل هم كبار السن؟

نقول:

لا يوجد مانع أن يكون المعنى يمس بعض هذه الفئات السابقة،
وينبغي أن نطلق المعنى ولا نقيده، فقد ورد التفاسير وكتب اللغة ما
يشير إلى ذلك مع تغليب المفسرين لمعنى معين، الآتي: وإطلاق
اللغويين للمعنى.

يقول صاحب الكشاف:

"والرذالة: الخسة والدناءة.

وعن مقاتل: السفلة"345.

ولمناقشة هذا الرأي يجب أن نفنّده ونحلّله، والملاحظ بداية:

- أنه لا اتفاق على معنى للأرذلين، فقد اختلف المفسرون في
تحديد معنى عنهم، بيد أنّ الراسخ في الأذهان في الفكر الجمعي للأمة
أثّم السفلة من الناس أو أصحاب بعض المهن.
وقال صاحب الكشاف أثّم قد يكونوا:

- أرذلين لضعّة نسبهم

- لضعّة أعمالهم.

ونقول:

- مسألة النسب هذه فيها كلام لأنّ الفترة الذي ظهر فيها نوح
عليه السلام لم تكن الأنساب قد تفرقت بالناس فُرفِعَ أقوامٌ وانحط
آخرون، لأثّم كانوا قريبي العهد نسبياً من آدم عليه السلام.
- وضعّة الأعمال، كالحياكة وصناعة الأحذية يمكن أن يرد عليها
لأنّ هذه المهن في ذلك الوقت ينبغي أن تكون ذات قيمة للفائدة
المرجوة منها.

345 - الكشاف، ج 5، ص 24.

وهذه الصناعات بالتحديد هي من المهن المحترمة في مجتمع الجزيرة العربية إلى الآن، فهم يسهون بين الخادمة وحائكة الملابس، وقد تكون محترمة في زمن المفسر.

ونحن نرى أنّ المعنى لازال بعيدا، ويمكن للغة أن تعطينا جديدا بعيدا عن كتب التفسير فقد ورد في بعضها الآتي:

. الرَّذْل والرَّذِيل والأرذَل الدُّون من النَّاسِ .

. وقيل الدُّون في مَنْظَرِه وحالاته .

. وقيل هو الرَّذِيء من كل شيء .

. ورجل رَذَل الثياب والفعل .

. قال الزجاج نسبوهم إلى الحياكة والحجامة، قال والصناعات لا

تَضُرُّ في باب الديانات

. والرَّذيلة ضد الفضيلة. "346

واللغة وعاء المعرفة والوعاء ممتلئ فيه ما يخص الموضوع وما لا يخصه، فأما رذالة أتباع نوح لوسخ ثيابهم فهذا الرأي ينقد رأياً آخر إنهم من أصحاب مهنة الحياكة والأساكفة ولا يليق بصانع الثياب إنه لا يصنعه لنفسه وكذلك صانع الأحذية.

أمّا إذا كان المعنى أنهم ثيابهم رثة أثناء العمل هذا شيء آخر.

غير أنّ هذه الصناعات كما سبق أن قلنا إنّها لم تكن ظهرت في ذلك الوقت على شكل واسع.

والنسب للحجامة أمر مردود عليه لقول صاحب اللسان نسبوهم إلى الحياكة والحجامة، فالحجامة لا ندرى أكانت موجودة في ذلك الزمن أم لا؟

346 - لسان العرب، ج 11، ص 280.

ونرى احتمالاً أنه قد حدث إسقاط ما هو محتقر في زمن التفسير ووضع العلوم العربية على هذا المعنى بالتحديد، فقد تكون هناك مهنة وضيعة في مجتمع وغير ذلك في مجتمع آخر.

بينما هذه المهن في أيّ مجتمع متحضر تعطي قيمة لصاحبها بالإضافة إلى ما يعطيه المجتمع لصاحبها، والحرف اليدوية قد مارسها الأنبياء وحثوا على ممارستها، ومن المعلوم أنّ نبي الله محمد عليه الصلاة والسلام قد عمل برعي الأغنام وبالتجارة، ونبي الله داود قد عمل حدادا يصنع دروع الحرب ليأكل من عمل يده، ولم يكن داود عليه السلام محتقرا، وعَنْ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "أَنَّ دَاوُدَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ" 347

وقد حث النبي محمد عليه الصلاة والسلام على أن يأكل الإنسان من عمل يده، فعَنْ الْمُقَدِّمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "عَنْ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ" 348 وعليه: فإن كان أصحاب نبي الله نوح كانوا ممن يعملون بأيديهم فهذه ليست منقصة فيهم بل هي مفخرة لهم.

ولكن ما أثارنا في اللسان الآتي: "ورجل رذُل الثياب والفعل"
"والرذيلة ضد الفضيلة"

والذي يثير الانتباه كلمة (الفعل).

فهل المقصود أنّ قوم نوح كانوا فضلاء في أفعالهم غير أنّهم مشركون بالله مكذبون لرسوله؟

347 - صحيح البخاري، ج 7، ص 236.

348 - صحيح البخاري، ج 7، ص 235.

لا يبدو ذلك لأن الكفر بالله من أشنع وأبشع الأفعال التي يفعلها الإنسان، فلا يستقيم أنهم كانوا يفعلون فضائل مع كفرهم بالله.

كما أننا نستبعد أن يكون أصحاب النبي نوح عليه الصلاة والسلام كانوا رثي الثياب والفعل، لأنه بالبديهي أن كل نبي إنما يدعو إتباعه إلى نظافة الباطن والظاهر

. هل كانوا يرفضون أن ينضموا إلى نوح ويصدقوا دعوته الرّسل الذين أرسلوا لكون أن من كانوا أرذلين هم الذين اتبعوا دعوة التوحيد؟ وبهذا المعنى هم غير أرذلين لأنهم اتبعوا التوحيد والدين الحق وآمنوا بالله ورسوله.

يقول الله تعالى: { قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ } 349

وما يرجح ذلك المذهب الذي ذهبنا إليه قول الله تعالى على لسان نوح: (وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

. فلو كانوا يعملون في مهنة حقيرة لكان علمه بهم يقيني فالمهنة لا تخفى على أحد.

. كما يبدو أنّ مسألة النسب لا وجود لها أيضا من خلال النص القرآني.

. ولا يوجد ما يشير على هيئتهم من حيث الثياب والنظافة.
. ولكن الذي يظهر جليا كونهم يعملون أعمالا تتنافى مع المجتمع من حيث الأعمال المرفضة عقديا بالنسبة لقوم نوح الكافرين.
زمن الدعوة بين لبث ومكث:

إنّ نوحا قد لبث يدعو في قومه ألف سنة إلا خمسين مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} 350
فنوح قد لبث في دعوته، ولبث نبيا مرسلا في دعوته، ولا نعلم كم مكث فيهم قبل الدعوة.

وهنا لنا وقفة بين لبث ومكث:

المعنى اللغوي:

{لبث}: اللَّبِثُ وَاللَّبَّاتُ: الْمَكْثُ. قال الله تعالى: {لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا}:

وَاللَّبِثُ الْبَطِيُّ

لِبِثٌ بِالْمَكَانِ يَلْبِثُ لَبِثًا وَلَبِثًا وَلَبِثَانًا وَلَبِثَةً وَلَبِثَةٌ أَنَا وَلَبِثْتُهُ تَلْبِثًا وَتَلَبَّثْتُ. وفي التنزيل العزيز: {فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} 351

وفي الحديث: فاستلبث الوحي وهو استعمل من اللبث الإبطاء" 352.

{مكث} المكث الأناة واللَّبُّ والانتظار مَكَّثَ يَمَكُّثُ وَمَكَّثَ مَكَّنًا وَمَكَّنًا وَمُكُوثًا وَمَكَثًا وَمَكَثَةً وَمَكِّيَّةً.

والمكِيثُ الرَّزِينُ الذي لا يَعَجَلُ في أمره وهم المَكْنَاءُ والمَكِيثُونَ ورجل مَكِيثٌ أي رَزِينٌ والمَاكِيثُ الْمُنْتَظِرُ وإن لم يكن مَكِيثًا في الرِّزَانَةِ. وقول الله عزَّ وجلَّ: {فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ} 353 قال الفراء قرأها الناس بالضم

350 - العنكبوت 14.

351 - هود 69.

352 - لسان العرب، ج 2، ص 181.

353 النمل 22.

وقرأها عاصم بالفتح فمَكَثَ ومعنى غير بعيدٍ أي غير طويل من الإقامة.

وَتَمَكَّثَ إِذَا انْتَظَرَ أَمْرًا وَأَقَامَ عَلَيْهِ فَهُوَ مُتَمَكِّثٌ مُنْتَظِرٌ وَتَمَكَّثَ تَلَبَّثَ وَالْمَكْثُ الْإِقَامَةُ مَعَ الْإِنْتَظَارِ وَالتَّلَبُّثُ فِي الْمَكَانِ.

وفي الحديث: "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ وَضُوءًا مَكِيثًا" 354 أي بطيئا متأنيا غير مستعجل ورجل مَكِيثٌ مَاكِثٌ وَالْمَكِيثُ أَيْضًا الْمَقِيمُ الثَّابِتُ" 355.

- فيبدو من الوهلة الأولى أن لبث توحى بالوجود في المكان مع الرغبة في تغيير معتقدات أشخاصه دون خوف أو وجل ببطء وعدم استعجال.

- فنوح لبث في قومه يرغب في تغييرهم ويعمل على ذلك بمواجهتهم ليلا ونهارا مع التحلي بالصبر الأناة.

- أمّا مكث فتوحى بالانتظار عن بعد ما في المكان أو الزمان قد يطول ويقصر بخوف وحذر.

- كما أن لبث توحى بعدد معلوم أو يسأل عنه لو لم يعلم.

ونرد ذلك إلى القرآن الكريم:

- الوجود في المكان والرغبة في تغيير معتقدات أشخاصه مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} 356.

فمن المعلوم أن مواجهة نوح لقومه كانت إيجابية لأنه كان يعمل على تغييرهم لتركوا الشرك ويدخلوا في الإيمان بالله الواحد الأحد وكان معهم صبورا متأنيا.

³⁵⁴ مسند أحمد، ج 13، ص 372.

³⁵⁵ لسان العرب، ج 2، ص 191.

³⁵⁶ العنكبوت 14.

كما أنّ (لبث) ذكرت في القرآن الكريم في قصة سيدنا يوسف عليه السلام، وتوحي أنّ لبث يوسف في السجن للبعد عن الفاحشة، ولأنّه بالسجن سيصل إلى الملك عبر تأويل الرؤية مصداقا لقوله تعالى: {فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ} 357.

فلبث يوسف في السجن كان إيجابيا فبه تغيرت حياة يوسف ومصر والعالم في ذلك الوقت.

. وكل لبث تعد في الدنيا

. ومكث تفيد الزمن الأقل في الدنيا

. وكذلك لبث نوح في قومه كان إيجابيا.

. ونلاحظ أن كل لبث يعرف عدده، فنوح لبث ألف سنة إلا خمسين.

. يوسف لبث في السجن بضع سنين.

. ودائما يسأل عن عدد اللبث بكم الاستفهامية التي تحتاج لجواب معدود من مثل قوله تعالى: {قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ} 358

{وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ} 359.

وقوله تعالى: {قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} 360.

__ وعليه: فكل لبث مدة معلومة بعدد، فيها فعل إيجابي للتغير أو للتعليم.

357 - يوسف 42.

358 - البقرة 259.

359 - الكهف 19.

360 - يونس 16.

. أما مكث فتفيد الانتظار بتوجس وحيطة لانتظار فعل الآخر
كما ذكر الله تعالى عن الهدهد: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى
الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي
بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحُطْ بِهِ وَجِئْتُكَ
مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ} 361.

. فمكث ترقب وانتظار

. التبرير أكثر من التقرير.

. الانقياد أكثر من القيادة.

كما أن من مدلولات المكوث استجابة طوعية، واللبث استجابة
إرادية مصداقا لقوله تعالى: {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ قَالَ
إِنَّكُمْ مَا كُنتُمْ} 362.

فمن شدة العذاب القهر على المكث في النار، وعدم العلم بمدة
المكث، وذلك غير اللبث فهو معلوم بعدد في كل أي القرآن.
ومن نماذج المكث الذي فيه طاعة مقيدة بتنفيذ الأمر قول الله
تعالى عن سيدنا موسى وأهله: {وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا
فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ
عَلَى النَّارِ هُدًى} 363 فأهل موسى لا يمكن إلا أن تطيع أمره.

وإن سأل سائل هل أمر أحد الهدهد بالمكوث؟

نقول:

خوفه من عقاب سليمان.

احترامه لسليمان.

من آداب الجندية التي تحتم ذلك بوصفه أحد جنود سليمان.

361 - النمل 20-22.

362 - الزخرف 77.

363 - طه 9-10.

وكل مكث فيه:

ترقب

وخوف

وطاعة

وانتظار

احترام

تقدير

توقير

حيطة

والطاعة في المكث تكون بخير إن كانت في الجانب الإيماني، ومثل ذلك الهدهد، وأهل موسى، والمؤمنون المبشرون بالجنة مصداقا لقوله تعالى: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا } 364

فالمكث هنا طاعة لله في جانبها الإيجابي، كما مكث أهل موسى طاعة له فهي في الجانب الإيماني.

ولكن لا مبادرة في كل مكث سواء كان في جانبه الإيماني أو العصياني، فهو تنفيذ لأمر بخلاف اللبث الذي تتحقق فيه الإرادة والاختيار وإن كان ببطء.

وعليه فاللبث بإرادة واختيار.

والمكث عن ترقب وحيطة وانتظار.

364 - الكهف 1، 2.

بين الدعوة والدعاء:

الدعوة:

قال الله تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } 365

لم تكن رسالة نوح إلى قومه منذ بدايتها رسالة تحمل بشارة بل كانت تحمل إنذارا لهم بلهجة شديدة وذلك لما اقترفوه من إثم عظيم لم يسبقهم به أحد فهم كما يبدو أول من أشرك بالله وكذب بالرسل فقد اتخذوا من دون الله أصناما آلهة، وكذبوا بنوح ومن معه من الرسل، لذا، كانت رسالة نوح إلى قومه مصدرة بالإنذار.

ولما كانت رسالة نوح مصدرة بالإنذار فذلك يوحى:

- بأن كل قومه كانوا كفارا لقوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) 366
 - لم يكن من قوم نوح مؤمنون بالله.
 - لم يكن في قوم نوح من لا يعبد الأصنام.
 - التأكيد بأن كل قوم نوح يعبدون الأصنام.
 - لذا، كان إرسال نوح بالإنذار الجماعي.
- ونلاحظ الآتي:
- دعوة نوح كانت دعوة جامعة شاملة تستهدف كل القوم.
 - لم تستثن أحدا صغيرا كان أم كبيرا.

365 - نوح 1-4.

366 - نوح 1.

- دعوة لجميع فئات المجتمع وطبقاته.
- جاءت الدعوة لتعالج استشرَاء نفس الداء العقدي وهو الشرك بالله والكفر به.

- تهدف إلى فض توافق القوم على عبادة الأصنام.
فكانت الدعوة دعوة إنذار لخلخلة الجانب النفسي ومن ثم العقدي الفاسدين لدى قوم نوح.

والتساؤل:

لما كان الإنذار أولاً؟

وكم كان الإنذار؟

ولمن كان الإنذار؟

وهل كان الإنذار قبل البشارة أولى بقوم نوح بداية؟

نقول:

. كان الإنذار أولاً لجرم قوم نوح لأنهم أول من أشرك بالله.

. لأن الله أعلم بنفوسهم في كونهم ممن ينصاعون للإنذار.

. حتى يراجعوا أنفسهم فيما اقترفوه من كفر بالله.

وكان الإنذار بعذاب أليم مصداقاً لقوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا

إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

ولكن الذي يثير الفضول هو تنكير العذاب الأليم وهذا يوحي بما

يوحي إليه:

. العذاب واقع لا محالة.

. عظم العذاب وقوته.

. تعدده.

. عدم المعرفة بكنهه.

. عدم المعرفة بوقته.

. ولكنه أليم.

. أليم في نوعه.

. في أثره

. في قوّته

. في وقت حدوثه

ثم إنّ جملة (من قبل أن يأتيهم)

فالأمر قد حسم فإن هم أخذوا الإنذار مأخذ الجد فقد نجوا من

العذاب.

وإن هم لم يأخذوا الإنذار مأخذ الجد فهم في العذاب لا مناص.

يبقى وقت العذاب؟

أهو في الدنيا؟

أم في الآخرة؟

فمن قبل أن يأتيهم بداية توحى بقرب وقت الوقوع لذا نقول:

. على الأرجح أن يكون العذاب في الدنيا لأنّ الإنذار لا يكون

إلا بشيء متوقع حدوثه في زمن قريب من المنذر.

. وإنّ ما وقع بهم في الطوفان وعدم ركوبهم السفينة كان حقا عذابا

أليما.

ولكن هل نوح كان يعلم نوع العذاب ونوعه ووقته؟

. يبدو أنّ العلم بنوع العذاب ووقته وألمه كان في علم الله

. لم يعلم به نوح عليه السلام.

فنوح كان منفذا لأمر الله.

. وفي وقت صناعة الفلك كان تنفيذاً لأمر الله (اصنع الفلك)

فأخذ يصنع الفلك

فكان نوحاً منذ البداية مطيعاً لأمر الله

(أنذر قومك)

فأنذر قومه فقال: (قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) 367

وذلك امثالاً من نوح لأمر الله سبحانه وتعالى.

ولكن الجمع بين نذير ومبين فيه أمر جد لطيف:

فالأمر بالإنذار من الله

ونوح لبي الأمر وأنذر

ولكن يبقى:

توضيح ما ينذر منه؟

وكم ينذر؟

وكيف ينذر؟

وهنا تكون دلالة (مبين).

فمبين تقتضي أن يوضح لقومه ممّا ينذرهم، ولماذا ينذرهم، وما

عاقبة عدم امثالهم لإنذاره لهم؟

وكم ينذرهم فتوضيح وتبيين هذا الأمر من أعمال نوح عليه

السلام.

وهذا من المساحة المعطاة للنبي نوح في إنذاره وكأننا نلمس ذلك

في قول الله تعالى: { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي

اِخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } 368

فالكتاب فيه إنذار وبشارة، وبين ذلك وذاك هو من فعل النبي

المكلف بالرسالة.

لذلك كان نوحاً منذراً مبيناً.

367 - نوح 2.

368 - النحل 64.

وذلك يقتضي أن يكون ما جاء بعد آية الإنذار الأولى في سورة
نوح تبيان للإنذار
(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ)

وقد امتثل نوح لذلك الأمر الذي تلقاه من الله.

(قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) 369

ثم اخذ يبين ذلك الإنذار بثلاثة أمور:

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا) 370.

(يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَذِّبْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ
إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

{ أَنْ اعْبُدُوا } أمر مساو لأنذر (أَنْ أَنْذِرْ) لذا فقد أنذر بعام وأمر

قومه بخاص بثلاثة أشياء:

- عبادة الله.

- وتقواه.

- طاعة نوح في إنذاره ودعوته.

والأمر بالعبادة يتناول جميع الواجبات من العقيدة بالقلب والعمل
بالجوارح وترك ما يعبدون من أصنام.

والاعتقاد بان الله هو الإله الحقّ المعبود، وأنّ ما يعبدونه من أصنام

هي ذاتها من خلق الله وهي عابدة لله.

وهذا يقتضي:

- تصحيح عقيدة قلبية

- التصديق بأفعال بدنية من خلال سلوكيات العبادة لله

369 - نوح 2.

370 - نوح 3.

فكانت عبادة الله تقتضي ترك ما يعتقدون من باطل الأصنام،
وأخذ ما أمرهم به نوح وبينه لهم من أن الله هو الأحق بالعبادة.
وعبادة الله يلزمها الأمر بتقواه، والتقوى يلزمها البعد بخوف ووجل
عن جميع المحظورات والمكروهات.

وهذا الأمر بعبادة الله والإنذار من عاقبة عبادة الأصنام يلزمه مبيّن
والمبيّن هو نوح عليه السلام وتلك الإبانة والعمل بها يقتضي الطاعة
لذا قال لهم نوح عليه السلام: (وَأَطِيعُونِ) يتناول أمرهم بطاعته
بالأخذ بجميع ما يأمرهم به، وترك ما ينهاهم عنه، وهذه الطاعة التي
طلبها منهم لا شك داخلية في الأمر بعبادة الله وتقواه.

وهذا هو عين الإبانة التي ذكرها نوح عن نفسه فهو نذير من عند
الله مبيّن لهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.
لذا، نتساءل:

هل الأوامر التي أمر نوح بها قومه تدخل في باب الإنذار الذي
أمر به من الله؟

بمعنى آخر هل الإبانة التي ذكرها نوح عن نفسه داخلية في باب
الإنذار أم هي من باب الأمر المتروك للرسول في الأخذ بالأسباب
والوسائل المناسبة لتنفيذ ما أمر به من إنذار؟

نحن نرى:

أنّ نوحاً كان رءوفاً بقومه كيف؟

فقد دعاهم أولاً:

بعبادة الله

وتقواه

وطاعة رسوله

ثم لم يبين ما ينتظرهم من عذاب بل بين لهم إن هم فعلوا ذلك
عقيدة وعملا فسينجوا من عذاب أليم.

وكأنه قد ألبس الإنذار ثوب البشارة.

فكان نذيرا بشير

وبشيرا نذير

. لأنه لما كلفهم بالأمور الثلاثة:

عبادة الله

تقوى الله

طاعة الرسول

بشرهم بشيئين مقابل الأمور الثلاثة لأن الذي سيعطي الله المعبود
المتقي لا الرسول المطاع لأنه فقط نذير مبين لا يملك من الأمر إلا ما
أراد الله سبحانه وتعالى.

فقد وعدهم سيدنا نوح عليه السلام على الثلاثة باثنين:

. مغفرة بعض الذنوب مصداقا لقوله تعالى: (يَعْفِرْ لَكُمْ مِّنْ
ذُنُوبِكُمْ).

. يطيل من أعمارهم ويزيل عنهم متاعب الدنيا بقدر الإمكان،
وذلك بأن يؤخر أجلهم إلى أجل معين مصداقا لقوله تعالى:
{ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ } 371.

فهذا لا شك يخرج عن الإنذار إلى البشارة:

. فكيف يكون التوفيق بين الإنذار والبشارة؟

هل نوح عليه السلام لم ينفذ أمر الله؟

نقول:

ليس هناك تعارضا.... لماذا؟

لأنّ نوح عليه الصّلاة والسّلام قال في البداية (إني لكم نذير
مبين)

فهذا التصريح ينبغي أن يستوقف القوم ليتساءلوا ممّا سينذرنا نوح
وهم ولما؟

وفي هذا تنفيذ للأمر (أن أندر).

ثم إنّ في دعوته لهم بترك معتقدتهم في الأصنام واتباع الله هذا
إنذار لهم فلو إنهم لم يتركوا ما هم عليه من معتقد فاسد فسوف
يعاقبهم الله، وإن لم يصرح بهذا صراحة، وإن ألبس ذلك الإنذار ثوب
البشارة.

. ويتحقق الإنذار بكون القاعدة التي تقول (الضد يظهر بالضد)
. فإن أعطاكم الله هذا الذي أعدكم به إن أطعتم فهو لا بدّ من إنّه
سيحرمكم منه إن عصيتم، فلو لم يكن ثوابا فهو لا محالة عقاب.
ومن بشارة نوح لقومه إنّه سبحانه وتعالى سيمنحهم عمرا مديدا
لأجل مسمى!!

فماذا يا ترى ما يكون هذا الأجل؟

ألا يكون هذا الأجل إلى ما بعد الطوفان؟

بلى من الراجح أن الله قد أمد في أعمارهم إلى زمن الطوفان.
وقد جعل الأجل المؤخر لمن آمن بنوح رسولا وبالله ربا ونجا بركوب
الفلك مع (أمة السفينة).

وتأخير الأجل نرى أنه قد تحقق معجزة (لأمة السفينة).

وعدم الاستقدام والاستيخار كان من نصيب قومه من الكفار.

وبذلك لا تعارض مع قوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} 372

يا سبحان الله فقد نفى الله سبحانه وتعالى الاستئجار وقدمه على الاستقدام وذلك لأسباب منها:

. قد يكون الاستقدام أسهل بالانتحار أو غيره مع كونه لا يحدث إلا بأمر الله تعالى وفق أسبابه ومشئته.

. ولكن يبقى الأمر بخروج الروح فهو معلق بيد خالقها.

. أما الاستئجار فلا أحد يملكه إلا الله.

. وقد تحقق تأخير الأجل لأهل نوح من قومه المؤمنين به الذين ركبوا السفينة بأمر الله.

. آخر الله موت إبراهيم عليه السلام مع إلقائه في النار مصداقا

لقول الله تعالى: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} 373.

ونخرج من هذا بنتيجة مفادها:

. أن قوم نوح كانوا معمرين مقاربين في زمن التعمير وذلك للآتي:

قول الله تعالى في عموم القرآن عن الأجل:

. (ولكل أمة أجلها) فلم يذكر عمر الأفراد بل ذكر عمر الأمم.

. فعمر أمة نوح لا بد أن يناسبه التعمير بشكل عام.

. فالقاعدة في عمر أمة نوح (التعمير)

. الاستثناء (عدم التعمير)

. الممكن التعمير وتأخير الأجل بالإيمان وركوب الفلك

ولذا؛ فقد كان قول نوح لهم (يؤخركم لأجل مسمى) فيه زيادة

عمر لهم على تعميرهم وهذا من الممكن المشروط بشرط (الإيمان).

372 - الأعراف 34.

373 - الأنبياء 69.

. يتأكد لدينا أن نوح عليه السلام كان مرسلًا لجيل معمر وهذا الجيل رأى أجيالا من ذريته عمرت معه.
. وعليه فقد كان لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين ليس فيه غرابة بل كان موافقا لأعمارهم.
. كما أن (لبث) التي توحى بالتأخير ليست الآن بمستغربة لأنه من المؤخرة أعمارهم بلا شك إلى ما بعد الطوفان.

الدعاء على قومه:

وبعد الدعوة التي قام بها نوح تجاه قومه من إنذار وبشارة لم يتحقق له ما أراد في إصلاحهم بشكل تام، فقد آمن به ممن يزدريهم وجهاء القوم، فلجأ نوح لربه موضحا أنه قد قام بما أمره به فأنذر ودعا ولم يأل جهدا في دعوتهم فقال كما ورد في كتاب الله: { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا } 374.

وهذه الآيات تدل على أن جميع ما يحصل بقضاء الله وقدره، وذلك لأنّ مطلق الهداية ليس من عند النبي، فقد يستمع لدعوة الرسول في مجلس واحد وبلفظ واحد مجموعة من المنذرين المبشرين المستهدفين بالدعوة، فيكون الكلام في ذات الوقت سببا لحصول الهداية للبعض.

. ولا تتأتى الهداية للبعض الآخر الذي تلقى نفس الإنذار والبشارة، فيكون نفس الكلام سببا لمزيد من الكفر العتو والتكبر.

بيد أنّه من الواضح أنّ نوحا قد مارس معهم نوعين من الهداية،
ولم يمارس معهم نوعين آخرين لأنّهما ليسا في مقدوره
-وهذان النوعان الآخران لا يكونان إلا بقضاء الله وقدره
وهدايته.

وعلى ذلك فيمكن لنا أن نفصل الهداية إلى أنواع منها:

1. هداية دلالة.

2. هداية معونة.

3. هداية سداد:

4. هداية تأييد:

1 . هداية دلالة: بمعنى أن الله الهادي قد وضع طرقا للهداية
لجميع الخلق ليهدتوا وأعطاهم من الوسائل التي تعينهم على تقبل
الهداية من عقل يربط بين الأشياء قياسا ومنطقا واستدلالات ونتيجة
واقتناعا وسلوكا واقتداء وتأثيرا وتأثرا.

2 . هداية المعونة:

بأن يعينه الله ويثبتته على الهداية. وهذه الهداية يكون للرسول دور
بارز فيها، فهو يوضح لأمتة ما غمض عليهم بسبب ما ران على
قلوبهم وطمس على عقولهم، لكن يبقى الوصول إلى درجة الإيمان من
باب التوفيق والسداد وهذا لا يدخل في دعوة الرسول بل يكمن في
قدرة الله وقضائه وقدره.

3 . هداية تسديد:

وهذا النوع من الهداية للذين سبقتم لهم عند ربهم الحسنى، والذين
توفرت فيهم الحواس والإدراكات لقبول الحقّ ورفض الباطل واهتدوا
ليسيروا وفق دعوة النبي وشرع الله.

4 . هداية تأييد:

وهذا النوع من الهداية خاص من الله للأنبياء فيسددهم بالمعجزات والوحي وهذا النوع ليس لأحد سواهم.

ولما دعا نوح قومه امتنعوا عليه وأصرروا على موقفهم من الكفر والعناد ورفضوا هداية الدلالة والمعونة فحرموا من هداية السداد فاستحقوا العذاب الذي سيلحق بهم لذا قال نوح لله سبحانه وتعالى: { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا } 375.

والتساؤل:

هل سيدنا نوح يخبر الله بما فعل؟

أليس الله بأعلم من نوح فيما حدث بينه وبين قومه؟

لماذا يفصل نوح كل ذلك التفصيل في شرح ما قام به في دعوة قومه؟

من المؤكد أن لذلك التفصيل مغزى وهدف؟

فيا ترى ماذا سيكون ذلك الهدف الذي يرمي إليه نوح؟

نقول:

يتنافى في حق النبي أن يخبر الله بشيء على علمه به لأن النبي يعلم تمام العلم أن الله عليم بكل شيء مصداقا لقوله تعالى: { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ } 376

وعليه فهذا الكلام ليس من الإخبار.

نوح اضطر أن يدعو على قومه

³⁷⁵ نوح 5. 10.

³⁷⁶ - غافر 19.

نوح يريد أن يستجيب الله لدعائه
فكان من نوح عليه السلام التمهيد لدعائه وليس إخبار الله بما
فعل.

فكان ذلك القول داخلا في بابين:

- الشكوى:

- التمهيد لطلب النصر عليهم لأن الله عالم بمحتوى قول نوح
ويعلم ما يخفيه نوح في صدره.

ويعلم ما سيدعو به نوح من دعاء: { وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى
الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا } 377.

ومن مدلولات ما قاله نوح لله إظهار توكله عليه، وطلب
الانتصار من الله، والاعتراف لله بأنه ما قصر في دعوته وذلك من
خلال سياق الأحداث بين الدعوة والدعاء.

قال الله: { أن أنذر قومك } 378

قال نوح تنفيذا لأمر الله: { قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } 379
فلم يستجيبوا له ولم يغيروا عقيدتهم الفاسدة.

فقال نوح: { قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي } 380

وأظهر نوح أنه بذل ما بوسعه معهم بالليل والنهار، وبالإسرار
وبالإجهار.

قال نوح { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي
إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ

377 - نوح 26.

378 - نوح 1.

379 - نوح 26.

380 - نوح 21.

وَاسْتَعْسَفُوا نِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ثُمَّ
إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ
غَفَّارًا {381}

فلما أصروا على كفرهم فتح لهم نوح بابا من الرحمة ألا وهو
الاستغفار، وزاد على ذلك أن بين لهم أثر الاستغفار وكأن ذلك هو
الفرصة الأخيرة قبل أن يتحول للدعاء عليهم بعد أن كان يدعوهم
{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا
وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينُ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا {382}.

هم لم يستجيبوا لتلك الفرصة، فرصة الاستغفار ومرتباته.

فكان على نوح أن ينحى منحنى آخر في الدعوة وهو الزجر
والتوبيخ وتبيان مدى جهلهم وكفرهم فقال: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ
وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا
وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا
لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فَجَاجًا {383}.

وهذا نراه من باب (الإبانة) في دعوة نوح فهو عليه السلام أراد
أن يهديهم بهداية الدلالة والإرشاد عن طريق الأدلة البصرية المرئية
بالعيان من خلال آيات الله في الكون وفيهم.

وكان دعاء نوح ذا شقين عليهم ودعاؤه لنفسه
عليهم: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا
إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا {384}.

381 - نوح 4-10.

382 - نوح 10-12.

383 - نوح 13-20.

384 - نوح 26-27.

لنفسه: { رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ } 385.

(رب اغفر لي).

وكان من أسباب شكواه ودعائه عليهم:

. أنهم لم يظهروا استجابة الإصغاء إلى دعوته

. ولم يتوانوا في الإعراض والصدود عن دعوته طرفة عَيْن، فلذلك

جاء بكلمة (كلما) الدالة على شمول كل دعوة لهم من مثل:

. جَعَلَ الأصابع في الأذَان الذي يمنع بلوغ صوت المتكلم إلى

سمعهم.

وإطلاق الأصابع على الأنامل على وجه المجاز المرسل بعلاقة

البعضية فإنّ الذي يُجْعَل في الأذن (أطراف الأصابع) (الأئمة) لا

الأصبع كلّه فغُبر عن الأنامل بالأصابع للمبالغة في إرادة سد المسامع

بحيث لو أمكن لأدخلوا الأصابع كلها.

. استغشاء الثياب: جَعَلَهَا غِشَاءً، لِلغِطَاءِ على أعينهم، تأكيداً

لسد آذانهم بالأصابع حتى لا يسمعوا كلامه ولا ينظروا إليه ولا إلى

إشاراتِهِ.

وهذا من باب المجاز وقد يكون أيضاً من باب الحقيقة، فيجوز أن

يكون جعل الأصابع في الأذان واستغشاء الثياب هنا قد يكون حقيقة

بأن يكون ذلك من عادات قوم نوح إذا أراد أحد أن يظهر كراهية

لكلام من يتكلم معه أن يجعل أصبعيه في أذنيه ويجعل من ثوبه ساتراً

لعينيه.

ويجوز أن يكون الكلام على سبيل التشبيه لحالهم في الإعراض عن قبول كلامه ورؤية مقامه بحالة من يسد سمعه بأتملتيه ويحجب عينيه بطرف ثوبه.

ولكن نوحا الذي لبث فيهم ردحا من الدهر لبث يدعوهم بتأن وهوادة وطلب من أن يستغفرون الله.

وطلب الاستغفار هو في حد ذاته طلبا بالإيمان بالله وترك ما هم عليه من فساد العقيدة وانحراف القصد وعبادة الأصنام.

وجعلت الدعوة للاستغفار موشاة بمغفرة الله لهم لأنها دعوة إلى سبب المغفرة وهو الإيمان بالله وحده وطاعة أمره على لسان رسوله.

وهم أصروا واستكبروا وأعرضوا

وفي ذلك ما يدل على حمق عقول القوم، مما يثير العجب من خُلُقهم الرديء إذ يعرضون عن الدعوة للاستغفار لما فيها نفعهم، فكان من المعقول أن يسمعوها وأن ينفذوها.

وقول الله {واستكبروا} مبالغة في تكبروا، فجعلوا أنفسهم أكبر من أن يأتمروا لواحد منهم لقولهم: {مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ} 386. وتأکید (استكبروا) بمفعوله المطلق للدلالة على تمكن الاستكبار.

ارتقاء نوح في شكواه:

الارتقاء في الشكوى هو التحول إلى الذروة في الشكوى للوصول إلى الدعاء طموحا في استجابة الله له مصداقا لقوله تعالى: {ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا

رَبُّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينَنَّ
وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا} 387.

وبرغم ما فعلوه والحقوه من أذى نفسي لنوح إلا أنهم وعدهم
وعدين بخير:

. وعد بخير الآخرة: المغفرة من الذنب

الخروج منه

الدخول في رحمة الله

. خير الدنيا:

. وهو (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ) و(السَّمَاءَ): هنا المطر، ومن أسماء
المطر السماء.

وعن خالد الجهمي قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَلَمَّا انْصَرَفَ
أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ
قَالَ قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا
بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا
بِنُوءٍ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ" 388.

والمدرار: الكثيرة الدُّر والدُّرور، وهو السيلان، يُقال: درت
السماء بالمطر، وسماء مدرار بأن يتبع بعض الأمطار بعضها.

والإدرار كان فيه الفائدة إن آمنوا

وفيه العقاب إن كفروا وهذا ما تحقق

وعلى هذا نرجح إنهم كانوا أهل زراعة فوعدهم نوح بنزول المطر
الذي به تحيا الأرض وينبت الزرع إن هم تابوا إلى الله واستغفروه.

387 - نوح 8-12.

388 - موطأ مالك، ج 2، ص 89.

والمراد بالجنات في قوله: (ويجعل لكم جنات) النخيل والأعناب
والفواكه والثمار التي تحتاج على السقي الدائمة وغير ذلك مما هو
معهود في زمنهم محبوب إليهم

وتكرار الفعل يَجْعَل بعد واو العطف في قوله: {ويجعل لكم أنهارا}
للتوكيد اهتماما بشأن المعطوف لأن الأنهار قوام الجنات وتسقي
المزارع والأنعام.

كما يفيد دوام الجعل وهو يدخل في ويؤخركم إلى اجل مسمى في
الخير والنعمة والبركة.

. ووعدهم بالمال والبنين، والمال كل ما ينفع الإنسان من زرع
وماشية وسلاح وجواهر ومعادن.

و(أموال): جمع مال وهو يشمل كل مكسب يبذله المرء في اقتناء
ما يحتاج إليه.

. والبنون هم أقرب لدخول السرور على القلب وفيهم الحماية
والشرف والمنعة.

. وفي هذا دلالة على أنّ الله يجازي عباده الصالحين بطيب العيش
قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ
حَيَاةً طَيِّبَةً} 389.

وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الثُّرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم
بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} 390.

وبالرغم من هذا الوعد الذي فيه خير الدنيا والآخرة إلا إنهم
اعرضوا ورفضوا، فما كان من نوح إلا أن بدّل خطابه مع قومه من

389 - النحل 97.

390 - الأعراف 96.

طريقة النصح والأمر إلى طريقة التوبيخ بقوله: (ما لكم لا ترجون الله وقارا).

وهو استفهام صورته صورة السؤال عن أمر ثبت لهم في حال انتفاء رجائهم توقير الله.

. والوقار هو العظمة المقتضية للإجلال.

. فهم لم يعظموا الله بالعبادة.

. ولا وقروا الرسول بالاتباع.

. ولم يخافوا عظمة الله وقدرته على العقوبة.

والوقار على معان منها كما جاء في لغة:

"وأما قوله تعالى: (ما لكم لا تَرْجُونَ الله وقارا) فَإِنَّ الْفِرَاءَ قَالَ مَا لَكُمْ لَا تَخَافُونَ الله عظمة ووقَّرتُ الرجل إذا عظمته وفي التنزيل العزيز: (وتعزروه وتوقروه) والوقار السكينة والوداعة ورجل وفورٌ ووقارٌ ومُتَوَقِّرٌ ذو حلم ورزانة" 391.

ولو أخذنا الوقار من وقر بمعنى ثبت فتكون الجملة التي قالها نوح على سبيل الاستفهام الإنكاري (ما لكم لا تَرْجُونَ الله وقارا) أي لا ترجون الله ثباتا وبقاء، فإنكم لو رجوت ثباته وبقائه لحفتموه، ولما أقدمتم على الاستخفاف برسله وأوامره، والمراد من قوله: (تَرْجُونَ) أي تعتقدون أنّ الراجي للشيء معتقد له.

لأنهم لا يعتقدون في وجود الله أصلا لأنهم يعبدون غيره ممّا هو مشاهد بالعين، أما الله فإنّ لم يكن العين تشهدده فهي ترى أثره في خلقه من سماء وارض وإحاطة بكل متحرك وساكن على وجه البسيطة

. فلا أي وعد بخير دفعهم لتوقير الله بدلا من توقير الأصنام.

391 - لسان العرب، ج 5، ص 289.

. لذا؛ فلا عذر لهم لا عند الرسول ولا عند الله.
وانتفاء العذر عند الرسول جعله يدعو عليهم
وانتفاء العذر عند الله أوجب عقابه بفعالهم
ومما سبق يتبين:

أنّ دعوة نوح كانت على ثلاث مراحل مصداقا لقوله تعالى: (ثُمَّ
إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا)392.

1. النصيحة في السر.

2. النصيحة في العلن.

3. جمع بين الإعلان والإسرار.

ومن المرجح إنّه لم يجمع بين تلك المراحل بل جعل بعضها يسبق
الأخر والدليل على ذلك كلمة {ثُمَّ} الدالة على تراخي بعض هذه
المراحل عن بعض إما بحسب الزمان، أو بحسب التقديم والتأخير، لأنّ
الإعلان أشد من الإسرار، والجمع بين الإسرار والإعلان أشد من
الإعلان منفردا.

وقد دعاهم إلى وحدانية الله من خلا أنفسهم ومن اثر الله الخالق،
فخاطبهم نوح موبخ لهم بقوله عن الله (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا)393
وفي الآية ما يستدل به على وجود الله ووحدانيته:

. فقوله: (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) بتغير حالات الإنسان يعني حالا

بعد حال فقد كان نطفة، ثم علقة إلى آخر أطواره التي مر بها.

. والطور الحال، وقد خلق الله الإنسان ذكورا وإناثا مختلفين لا

يشبه البعض البعض الآخر.

392 - نوح 8، 9.

393 - نوح 14.

حتى داخل النوع تنتفي المشابهة وينتفي اتفاق الأحوال حتى بين الأخوة.

والقرآن يفصل بعضه بعضا ففي قول تعالى: {سُنُّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} 394.

أما نوح فقد أراهم آيات الله في أنفسهم ثم انتق إلى الآفاق، وهو من الأدلة التي ساقها نوح على توحيد الله.
والسؤال:

لماذا ثنى نوح بأدلة الآفاق؟

قد بدأ نوح عليه الصلاة والسلام بدلائل النفس، ثم بدلائل الآفاق، وذلك لأنّ نفس الإنسان أقرب الأشياء إليه، لذا فقد بدأ بالأقرب ولأنّ دلائل النفس حاضرة مشاهدة، لا حاجة بالعقل إلى مزيد من التأمل فيها، إنّما الذي يحتاج إلى التأمل فيه دلائل الآفاق التي منها.

1. (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا) 395
2. (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) 396
3. (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) 397
4. (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) 398
5. (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا) 399

394 - فص لت 53.

395 - نوح 15.

396 - نوح 16.

397 - نوح 17.

398 - نوح 18.

399 - نوح 19.

6 . (لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا) 400

ثم بعد ذلك أصروا على كفرهم فقال نوح: { قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي أَعْتَصَمْتُ وَمَنَّمَنَ مَنَّمَنَ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا حَسَارًا } 401

ولم يقل: إنهم عصوك عسى يفتح الله عليهم فيتوبوا ويرجعوا.

فقد عصوه وأضافوا إلى ذلك معصية أخرى وهي طاعة رؤسائهم الذين يدعونهم إلى الكفر، وقوله: { وَاتَّبَعُوا مَنْ لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا } ففقدوا الدنيا بالغرق بالطوفان، وفقدوا ثواب الآخرة بالكفر.

. وبكفرهم تمسكوا وأصروا عتوا وتكبرا ومكرا وفسادا وإغواءا

للآخرين باتباع ضلالهم مصداقا لقوله تعالى: { وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبْرًا وَقَالُوا لَا تَنْزِلُنَّ أَهْلَكُمْ وَلَا تَنْزِلُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَعْوَتُ وَيَعْوَقُ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَالًّا } 402.

فكانت أول دعوة من نوح:

(ولا تزد الظالمين إلا ضلالا)

. فقد ظلموا أنفسهم بكفرهم ومعصيتهم الرسول

. ظلموا غيرهم بتضليلهم عن طريق الحق.

. ظلموا أولادهم لأنهم دخلوا في دعوة نوح

ولكن كيف يضل الله الظالمين؟

يكون:

. بالإمهال مصداقا لقوله تعالى: { فَمَهَّلَ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ

رُؤْيَدًا } 403.

400 - نوح 20.

401 - نوح 21.

402 - نوح 22-24.

403 - الطارق 17.

. بالعلم الفاسد مصداقا لقوله تعالى: { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ
وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً
فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } 404

بالهوى مصداقا لقوله تعالى: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)
بالقلب: مصداقا لقوله تعالى: (هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا)
بعدم الإبصار: مصداقا لقوله تعالى: (وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا)
بعدم السمع: مصداقا لقوله تعالى: (وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا)
لذلك وصفهم الله تعالى بقوله: { أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ
أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } 405.

فكان جزاؤهم في الدنيا وفي الآخرة كما بينه الله:

. في الدنيا الغرق

. وفي الآخرة النار

مصداقا لقوله تعالى: { مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا
هُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا } 406

ولكن الفاء في قوله فأدخلوا تفيد السرعة

ألا تكون تلك النار في الدنيا؟

أهي النار في الآخرة باعتبار ما سوف يكون؟

(أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا) هل أن الفاء في قوله: (فَأُدْخِلُوا نَارًا) تدل

على أنه حصلت تلك الحالة بعد الإغراق مباشرة؟

وإن كان ذلك فلا يمكن أن يكون المقصود عذاب الآخرة.

وإن كان المقصود عذاب الآخرة انتفت أن تكون الفاء لإفادة

السرعة.

404 - الجائية 23.

405 - الأعراف 179.

406 - نوح 25.

فماذا تكون في هذه الحالة؟

هل هي على سبيل الإخبار عن الماضي؟

ولكنهم لم يدخلوا النار في الماضي.

لأنّ الماضي لم يقع بعد.

يبقى احتمال وهو:

إنّهما قد تفيد المستقبل وقد عبر عن المستقبل بلفظ الماضي لوقوعه في علم الله كقول الله تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ} 407، وقال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ} 408.

وكان الدعاء الصريح من نوح على قومه مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} 409. (دَيَّارًا) لا تستعمل إلا في النفي العام، يقال: ما بالدار ديار ولا تستعمل في جانب الإثبات.

فأراد نوح بدعوته هذه أن ينفي عموم الكفر عن الأرض. وقد استجاب الله له لأنه دعا الله، ولكن الإجابة كانت في قومه فقط، ويا ليتها كانت في كل الكافرين على مدى الدهور، لأراحوا الناس من شرورهم.

وعلل نوح دعاؤه هذا الله بقوله كما ورد فرد في القرآن: {إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} 410.

والسؤال:

كيف عرف نوح عليه الصلّاة والسّلام ذلك؟

نقول: عرفه بأمرين:

407 - الأعراف 44.

408 - الأعراف 50.

409 - نوح 26.

410 - نوح 27.

1 . إخبار الله له: مصداقا لقوله تعالى: { وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدِ آمَنَ } 411.

2 . بالتجربة:

فهو قد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فعرف طباعهم
وجربهم، وكأن الكبير كان يوصى الصغير بالكفر والفجر، فيموت
الأب وينشأ الولد على كفر وفجر أبيه.

ولكن ما دلالة إخبار نوح لله بذلك؟

أهو يخبر الله... شكوى؟ أم إخبارا؟

في قوله: (وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجْرًا كَفَّارًا)

فإن كان إخبارا فهو من باب تكرار ما أخبره الله به.

. فلا علم لنوح عليه السلام إلا من علم الله

. فينتفي كونه إخبارا بجديد.

. ولكن إخبار بشكوى بأنهم

سيكونون كذلك كما أعلمتني.

وأهم سيصيرون كذلك كما رأيت في آبائهم تجرية، وكما أعلمتني

وحيا.

وليس دعاء نوح جميعه على قومه بل دعا لنفسه وللمؤمنين

فقال: { رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا } 412

وقوله: (رَبِّ اغْفِرْ لِي)

. فيما صدر عني إن كنت قصرت في شيء.

. أو بسبب دعائه على الكفار من قومه.

411 - هود 35.

412 - نوح 28.

. أو زيادة في المغفرة المعدة له سلفا.

. ثم قال: (وَلِوَالِدَيْ) وهذا يدل على كون أبويه مؤمنين

. ثم قال: (وَلَمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا). لجواز دخول بيته من غير

المؤمنين

. ثم قال: (وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) إنما خص نفسه أولا بالدعاء ثم

المتصلين به لأنهم أولى وأحق بدعائه ثم عم المؤمنين والمؤمنات، وكل

من شمله بالدعاء لا بد أن يكون مؤمنا وهذا من سياق الآيات قبل

ذلك.

. ومن مرارة ما قاسه من كفر قومه ختم بالدعاء على الكافرين

فقال: (وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا) هلاكًا ودمارًا.

فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم جميعا.

الجدل بين نوح وقومه:

لقد اختار الله تعالى نوحا عليه الصلّاة والسّلام من بين أفراد قومه

لينذرهم ويحذرهم عذاب الله، لأنهم تبادوا في غيهم وضلالهم. وقد

اجتمع كبرائهم، وأجمع أهل الرأي منهم على تكذيبه وعدم التصديق

بدعوته واحتقار من اتبعه من المؤمنين، ثم أنفوا بعد ذلك أن يكون

واحدا منهم . لا يمتاز عليهم بالغنى أو الجاه . هو المختار من بينهم

لهدايتهم، وكذلك أنفوا أن يكونوا مثل الذين اتبعوا نوحا من الضعفاء.

وزعموا أنّ هؤلاء قد اتبعوه من غير روية ولا تفكير، (بادي الرأي)

وطلبوا منه أن يطردهم كي يفكروا في اتباع نوح إذا طرد المؤمنين، فهذا

شرطهم لينظروا في أمر دعوة نوح، غير أنّ نوحا عليه الصلّاة والسّلام،

أجابهم برفق ولين في أسلوب الجدل معهم، ويحمل هذا الأسلوب

صلابة في موقف لا يتخلف عن الحق ولا يتعداه.

كذلك أوضح لهم إنما جاءهم بالهداية، وليس هو رجل مال قد
مكنه الله من خزائنه، ولم يطلعه الله على غيبه، ولم يقل إنه ملك فيهم،
وإنما هو إنسان ينتمي إلى نوع البشر اختاره الله تعالى لدعوتهم
وتبليغهم أمره.

أما أتباعه من المؤمنين الذين تدر بهم أعيان الكبراء، فإن أمرهم إلى
الله، وهو أعلم بسرائرهم، لأن إدراك الهداية إلى الحق لا يكون بالمظهر
الفاخر، بل باطمئنان النفس وركونها إلى الهدى مع اليقين التام والرضا
به، ثم إنه لا يطلب منهم أجرا على دعوته، فأجره على الله وحده.
ولتوضيح الجدل والوقوف عليه بين نوح عليه الصلاة والسلام
وبين قومه، استوقفنا الآيات التي تمثل معظم الجدل الذي دار بين
الفريقين، وستناول كل فريق على حدة.

قال الله تعالى في محكم التنزيل: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي
لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ
فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ
اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ
بَلْ نَطُنُّكُمْ كَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي
رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْلِزُكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ وَيَا قَوْمِ
لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا
إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ
إِنْ طَرَدْتُمْهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ
الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ
اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ
جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا
يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ

أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ {413}.

هذه الآيات تمثل معظم الجدل الذي دار بين نوح عليه الصلّاة والسّلام وبين قومه الذين رفضوا رسالته، وبالتالي رفضوا الإيمان بالله تعالى والتسليم لواحديته عزّ وجلّ، وسنقف على هذا الجدل من خلال كل آية على حدة على التوالي لتبين الحجج والبراهين، ونقف على أسلوب نوح عليه الصلّاة والسّلام بما فيه من لطف ورقة ودعة، مستندا إلى الحجّة العقلية والمنطق السليم، وعلى جدل قومه وما يحمل من ضعف في دحض حجّة نوح ممّا ألجأهم إلى فظاظة المنطق عندما عجزوا عن مجازاة المنطق السليم.

ففي قوله تعالى: (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه: إيّٰي لكم نذير مبين).

نجد الآية الكريمة استهلّت الدخول في الموضوع دون أن تنسب القول إلى نوح عليه الصلّاة والسّلام لسببين:

الأول: بياني معهود في بلاغة القرآن الكريم، ولو ذكر القول لكان السياق (حتى يقول لهم كذا) وبذلك يكون تخصيصا لقوم نوح، وينقطع الحكم بعد ذلك عن يلي نوحا وقومه، وهذا محال، لأنّ ما قاله نوح عليه الصلّاة والسّلام لقومه، قالته جميع الأنبياء من بعد لأقوامهم، إضافة إلى ذلك، فإنّ نوحا عليه الصلّاة والسّلام، وضع أسس الرسالة السماوية في طريقة الدعوة والأعمدة التي تقوم عليها من التوحيد والتسليم والعبودية لله تعالى، وأرسى دعائمها لقومه وللأنبياء من بعده ولأقوامهم أيضا، وفق ما أمره به الله تعالى، ولذا، لم يرد ذكر قائل القول، وإنما ذكر القول نفسه ليكون عموما للأنبياء من بعده

ولأقوامهم على حدٍ سواء، حتى يبقى الأمر والمشهد قائمان في الزمان والمكان، ولا يكون على سبيل حكاية ماضية عفا عليها الزمن، ومن ناحية أخرى يلخّص مهمة نوح وتكليفه ويترجمها إلى حقيقة واحدة تنسحب على جميع الرّسل والأنبياء من بعده (إني لكم نذير مبين) وعليه: فكل نبي من بعد نوح هو نذير مبين لقومه.

الثاني: وهو سبب موضوعي من باب تقديم الأهم على المهم، إذ أنّ نوحا عليه الصّلاة والسّلام اصطفاه الله تعالى وأرسله لهداية قومه إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، الذي يتمثل في عبادة الله تعالى، والتسليم بواحديته والإخلاص له، وتحديد هدف هذه الرسالة ليصل بهم إلى الغاية، وعندما ذكر الموضوع وأعرض عن ذكر عارضه، كان أقوى في تحديد هدف الرسالة وإبرازها في وجدان السامعين لقوم نوح وللأقوام من بعدهم.

لقد كان جدال نوح مع قومه قائما على:

العقل

الحجّة

المنطق

فالعقل يسلّم بأن لا بدّ لهذا الكون من خالق، وقومه يعبدون المخلوقين، فالخالق أحق أن يعبد، فهو يبلور مضمون الرسالة في حقيقة واحدة (ألا تعبدوا إلا الله).

فهذا هو قوام الرسالة ومنهج هدفها وصولا إلى غايتها.

وأما الحجّة فهي قائمة عليهم لأنهم لم يستطيعوا مجارة نوح عليه الصّلاة والسّلام فيما يحاججهم به، لذلك لجأوا إلى التهرب من الإجابة وإعلان انتهاء الجدل من قبلهم بقولهم: (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

جدل قوم نوح مع نوح:

لقد اتسعت دائرة الجدل بين نوح وبين قومه إلى أن أغلقوها بقولهم: {قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} 414 فقد كانوا قبل هذه الإجابة يجادلون، ولكن كان جدلهم جدلا سفسطائيا أو بيزنطيا، بمعنى أن قوم نوح هم الذين أسسوا لهذا النوع من الجدل الذي يقوم على فكرة أيهما أسبق: البيضة أم الدجاجة. ولذلك كانت حجتهم واهية (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ).

فهم لم يستطيعوا أن يجاروا نوحا فيما يقدم من أدلة ويسوق من براهين، بينما قومه لم يعطوا دليلا ولم يقدموا بديلا، بل إن جدلهم قائم على الظن (بل نظنكم كاذبين).

ثم المنطق الذي يقوم على الاختيار السليم الذي يقود إلى النجاة رأفة ورحمة بهم، ذلك أنه قال: (إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) فهذه العبارة من جدله عليه الصلوة والسلام، فقد حذر وأندر وأشفق ورحم.

فالتحذير واجب من أجل أن يتركوا ما هم فيه من الغواية والضلال، والتحذير نفسه يحمل بين طياته الإنذار من وقوع العذاب إذا استمروا على ما هم فيه من كفر وشرك، بينما يتمثل الإشفاق في خوفه عليهم من العذاب المترتب على التحذير إن لم يأخذوا به.

وأما الرحمة في قلبه لهم فكانت أظهر ما تكون عندما جعل العذاب يتعداهم إلى اليوم (عذاب يوم أليم)

فاليوم في حقيقته ليس أليما، وإنما هو مؤلم لهم، ولكن عدى العذاب عنهم وجعله لليوم رحمة بهم، وشفقة عليهم، لأنه يرجو ألا يصيبهم، ويأمل منهم أن يتبعوا الحق وسبيل الرشاد حتى يكونوا من الناجين.

والأليم اسم مفعول أصله: مألوم! والمألوفون في الحقيقة هم الكفرة الفجرة إذا نزل ذلك اليوم بساحتهم وقد أذرهم نوح عليه الصلاة والسلام قال تعالى: {فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْدَرِينَ} 415. ولكنه عليه الصلاة والسلام اختار تعبيرا بهذه الصيغة هنا، لتصوير اليوم ذاته بأنه محمل بالألم من شدة العذاب، كأن اليوم شاعر بالعذاب لوقوعه تحت وطأته، فما بالك بالذين يأتي عليهم ذلك اليوم وهم هدف له!

ومن جهة أخرى فإن التعبير بهذه الصيغة، بنقل الألم إلى اليوم، فيه من الحكمة ما فيه من الذي يجادل هؤلاء الكفار حتى لا يضعهم تحت وطأة التهديد، وإنما ينقلهم إلى واقع آخر، ينقل لهم صورة خارجة عنهم، ويعددهم عنها، رجاء ألا يصيبهم الألم الذي يتصف به ذلك اليوم، أو يتألم منه اليوم نفسه، فيكون ذلك:

أدعى للرهبة

أقوى للحجة

ألين في الجدل

بينما نجد الطرف الآخر في جدله من الحجّة الواهية بأن قالوا: (ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين).

وهذا عادة ما يكون ردّ المجادل الضعيف الحجّة الغامض البيّنة
النابع عن التكبر من عليّة القوم الذين يتصدرون المواجهة مع الحقّ في
باطلهم في كل زمان ومكان.

ولا تكاد تقف على كبراء قوم من الذين عارضوا الأنبياء عليهم
الصّلاة والسلام، إلا وكان ردّهم مشابها لموقف قوم نوح إن لم يكن
مطابقا.

فالشبهات ذاتها، والاتهامات نفسها، والتكبر والتعالي لا يختلف
في المواقف والردود على اختلاف الأزمنة والأمكنة في النفور من دعوة
الأنبياء، لما حمل هؤلاء من جهل وما جبلوا عليه من معصية.

إنّما الشبهات التي وقرت في نفوس المتكبرين والجهّال من البشر
الذين يرون أن الجنس البشري أصغر من أن يحمل رسالة الله؛ فإن
تكن رسالة؛ فليحملها ملك أو مخلوق آخر، قال تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا
أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِّيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ
مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ} 416.

وهي شبهة جاهلة مصدرها عدم الثقة بهذا المخلوق الذي
استخلفه الله في أرضه، وهي وظيفة خطيرة لما فيها من التكليف
والمسؤولية، فلا بدّ أن يكون الخالق قد أودع في هذا الإنسان ما يكافئ
هذه الخلافة من الاستعداد والطاقة والمقدرة، على النهوض بمهام
الخلافة، وأودع في نوعه القدرة على أن يكون من بينه أفراد مهيوون
لحمل الرسالات السماوية باختيار الله لهم واصطفائهم، وهو أعلم بما
أودع في كيانهم الخاص من خصائص هذا الجنس البشري في عمومهم
بالخلق، وفي خصوصه بالاصطفاء والاختيار.

وكذلك من جهالة هؤلاء ومخالفتهم للحق تعالى في مشيئته أنهم يريدون من جهلهم أن يملوا اختيارهم على الله تعالى: {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ} 417.

وقد تبادى هؤلاء وأمثالهم في جدلهم من جهلهم، أنه إذا كان الله يختار رسولا، فلم لا يكون من بين هؤلاء الملائكة الكبراء في قومهم المتسلطين المتعالين؟

وهذا جهل بالقيم الحقيقية لهذا المخلوق الإنساني، والتي من أجلها استحق الخلافة في الأرض بعمومه إذا أخذ بموجباتها، واستحق حمل رسالة الله بخصوصيته في المختارين من صفوفه المصطفين. إن فضيلة الاختيار والاصطفاء لا علاقة لها بمال أو جاه أو سلطان أو استطالة وتعالٍ في الأرض، إنما هي تكمن في:

صميم النفس الإنسانية المجردة.

استعدادها للاتصال بالملائكة الأعلى.

ما فيها من صفاء وفتح.

قدرتها على تلقي الرسالة.

تحمل الأمانة المكلف بها.

الصبر على أدائها.

المقدرة على إبلاغها.

الاختيار والاصطفاء من الله تعالى.

إضافة إلى صفات النبوة الكريمة، وهي صفات لا علاقة لها بمال

أو جاه أو ولد أو سلطان!

ولكن المملأ من قوم نوح، كالمملأ من قوم كل نبي بعده، تعميهم مكانتهم الدنيوية عن رؤية مواطن الحق في الاختيار بمن له خصائص علوية تناسب تحمل الوحي من جهة، وأداء أمانة الرسالة من جهة أخرى.

فلا يدركون مبررا لاختصاص الرّسل بالرسالات، وهي في زعمهم ومنطقهم يجب أن لا تكون لبشر، فإن كانت لبشر؛ فهم أحق بها وأهلها على ما يزعمون ولأمثالهم من الوجهاء المتعالين في الأرض المتكبرين فيها! قال تعالى: { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } 418.

ولذا قالوا: (وما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي).

ولنا أن ننظر إلى سطحية ما يطرحونه وهم يجادلون نوحا عليه الصلّاة والسّلام وفق موازين يزنون بها ما يعود على مصالحهم بالفائدة، ومعايير تناسب أهواءهم وتطلعاتهم،

فالفقراء والضعفاء من النّاس هم أراذل كما ينظر الكبراء الطغاة دائما إلى الآخرين الذين لم يؤثّروا المال والسلطان! وأما المعايير الحقيقة من الحقّ والعدل والإنصاف والعفة والطهارة فلا تنزل في كفة ميزانهم ولم يعهدوها!

أما الذين يطلقون عليهم تسميات الأراذل وبادي الرأي، فغالبا ما يكون هؤلاء هم أتباع الرّسل والسابقون إلى التصديق بدعوتهم ونصرهم؛ لأنهم:

418 - الزخرف 31، 32.

بفطرتهم أقرب إلى الاستجابة

بواقعهم أقرب إلى الدعوة

فدعوة الأنبياء الرّسل هي التي تحرر البشر من رقّ العبودية للكبراء،
وتعتقهم إلى حرية الانطلاق وتترفع بهم من الأراذل إلى الفضائل التي
تستوجب نيل التقدير والاعتراف والاحترام، وتصل القلوب بإله واحد
يتساوى عنده الغني والفقير والكبير والصغير والأحمر والأبيض وفق
معيار التقى الذي يسري على الجميع، قال تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ
اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} 419.

إنّ فطرة هؤلاء الذين وصفوهم بـ(الأراذل وبادي الرأي) لا يشوبها
البطر، ولم يفسدها الترف، ولا تعوقها مصالحها عن الاستجابة؛ لأنهم
لا يخافون من العقيدة في الله والإيمان به أن تسلبهم شيئاً أو تضيع
عليهم مكانة لهم كانوا قد غصبوا أهلها في غفلة، فهم لم يستعبدوا
أحداً ولم يغصبوا من أحد مالا أو حقاً، وأمّا الذين يجادلون نوحاً في
باطلهم ويريدون منه أن يتخلى عن حقه، فقد استعبدهم الطاغوت
بصور شتى من الظلم والجهل والوثنية بما كانوا متعالين ومستكبرين وبما
كانوا يعبدون.

وأول صور الوثنية الدينونة والعبودية المقيتة، هي طاعة المخلوق في
معصية الخالق التي تمسكوا بها وجادلوا نوحاً فيها بالباطل، فقالوا كما
قال غيرهم: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدْرَ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ} 420.

فطاعتهم وعبادتهم إنما هي لأشياء مخلوقة أمثالهم، وما كان
تمسكهم بها هو حبهم لها، وإنما كان ذلك التمسك حفاظاً على

419 - الحج رات 13.

420 - الأعراف 70.

مصالحهم التي غضبوا من حقوق الآخرين، لذا وجدوا في اتباع نوح وما يدعوهم إليه وهو يجادلهم، انعتاق الآخرين الذين يرونهم أراذل من ربة قيودهم الطاغية على الحقوق وليس تمسكا بالآلهة، فلو كان تمسكهم بالآلهة لجادلوا عنها، ولكنها جاءت في كلامهم عرضا، وكان التمسك بالشرك والكفر دفاعا عن المصالح وليس حبا بالآلهة، ولذا كان رفض الاتجاه إلى الله تعالى ممّا جادلهم به نوح عليه الصلّاة والسّلام وما تدعو إليه رسالته.

إنّ رسالات التوحيد هي دعوات تحرير وانعتاق حقيقي للبشر في كل زمان ومكان، وفي كل طور من أطوار الحياة على هذه الأرض. ولهذا الأسباب كان يقاومها الطغاة من قوم نوح بجدل عقيم لا جدوى منه ولا فائدة، إلى كفار قريش ومشركيها، فهم يحاولون أن يصدوا عنه من اتبعه في عمليات تشويش، واتهام المؤمنين بشرّ الموبقات، حتى يبقى الفارق قائما بين الفريقين: (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي).

فقد نسبوا إليهم اتباع نوح عليه الصلّاة والسّلام أنه دون روية ولا تفكير، وهذه تهمة توجه دائما من الملائم المتعاليين لجموع المؤمنين، على أنّها لا تتروى في اختيارها ولا تفكر بما تقدم عليه، ولا تأخذ بنصيحة من يدعي الحلم والعقل، ومن ثم فهي متهمة إذن في اتباعها الخاطيء واندفاعها المتسرّع، وهذا ما لا يليق بالكبراء أن ينهجوا مثل هذا النهج، وأن لا يسلكوا هذا المسلك الذي لا يليق بهم حسب زعمهم. وهنا تظهر هشاشة جدلهم في ضعف الحجّة والابتعاد عن المنطق السليم، فحسب فهمهم إذا كان الأراذل يؤمنون، فما يليق إذن بالكبراء أن يؤمنوا إيمان الأراذل؛ فما بالهم إذن ولا يدعون الأراذل يؤمنون! ولذا كان جوابهم: (وما نرى لكم علينا من فضل).

لقد جمعوا بين نوح عليه الصلّاة والسّلام وبين من اتبعوه ممن أطلقوا عليهم صفة الأراذل! ما نرى لكم علينا من فضل يجعلكم أقرب إلى الهدى منا، أو أعرف بالصواب. فلو كان ما معكم خيرا وصوابا لاهتدينا إليه، ولم تسبقونا إليه! قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} 421

فهم يتعاملون مع الأمور بمعايير المعطيات المادية الخاطئ التي يرتكزون إليها في المحافظة على المصلحة والنفوذ والسيادة والسلطان دون وجه حقّ، ولذا كانت عندهم الأسس قائمة على:

معيار الفضل بالمال.

معيار الفهم بالجاه.

معيار المعرفة بالسلطان.

فذو المال أفضل، وذو الجاه أفهم، وذو السلطان أعرف! فهذه المفاهيم وتلك القيم التي تسود دائما حين تغيب عقيدة التوحيد عن أي مجتمع، أو عندما تضعف آثارها، فترتد البشرية إلى عهود جاهليتها، وإلى تقاليدها الوثنية في صورة من صورها الكثيرة وإن بدت في ثوب من الحضارة المادية جميل.

فهذه المعايير وفق تلك المفاهيم، تُكوّن انتكاسة للإنسان في ارتداده عن إنسانيته، ومن ثمّ انتزاعه إنسانية الآخرين، لأن ذلك يضعف من القيم التي:

صار بها الإنسان إنسانا.

استحق الخلافة في الأرض.

تلقي الرسالة بها من السماء.

وعندما تكون معايير القيم الخاطئة لها الصدارة عند هؤلاء، فإنها ترجع بهم إلى موازين هي أقرب إلى الحيوانية منها إلى الإنسان، لأنها جعلت القوّة هي السلطان المطلق، والحقّ هو استثناء ينحصر ضمن مجموعة المتكبرين المتعاليين، وبذلك يكون الكيل بمكيالين قد تجلّى في أبشع صوره عند الذين يجادلون نوحاً، وعند كل من جادل نبي وفق هذه المقاييس من بعد نوح.

ولأنّ جدلهم كان واهياً وحجتهم ضعيفة، فلم يكونوا مستقنين ممّا يقولونه في ادعاءاتهم على نوح ومن آمن معه، فكانوا مترددين في قضايا الحسم في الجدل بردودهم، حيث لم يؤمنوا ولا يريدون لغيرهم أن يؤمن فقالوا (بل نظنكم كاذبين).

رأي بني على الظن.

هذا البناء بعضه إثم (إن بعض الظن إثم).

الظن الإثمى لا يقطع القول بصدق الموقف.

وطالما أنه بني على الظن الذي لا يقطع بقين أو صحة في رأيهم، ولذا، يحمل في طياته جانب كبير من صحة جدل نوح وموقف من آمن معه على أنّه صواب، غير أن قومه رموا بآخراً ما في جعبتهم من سهام طائشة دفاعاً عن موقف متهلهل، بدأ يتهاوى أمام جدل نوح لما يحمل نوح من حجّة دامغة، ولذا فقد أطلق قوم نوح التهمة الأخيرة يقذفون بها في وجه نوح عليه الصلّاة والسّلام ومن آمن له.

ولكنهم على طريقة الطبقة المتكبرة المتعالية، يسوقون موقفهم في أسلوب التحفظ اللائق (بل نظنكم) لأنهم لا يمتلكون اليقين الجازم، وبذلك يحاولون أن يسقطوا الاندفاع والتهور على المندفعين من بادي الرأي، لأن المفكرين المتحفظين حسب زعمهم وموقفهم يترفعون عن هذا الموقف الاندفاعي الذي تبناه من آمن مع نوح!

فنموذج هؤلاء متكرر من عهد نوح عليه الصلّاة والسّلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهم الطبقة المليئة بالماديات، الفارغة من العقل وقلوبهم هواء، تتعاضم استكبارا وتدعي حكمة وهم عن الحكمة أبعد ما يكونون!

جدل نوح مع قومه:

يتلقى نوح عليه الصلّاة والسّلام الاتهام والإعراض والاستكبار، في سماحة رسول وحلم نبي، وفي ثقته بالحقّ الذي جاء به، واطمئنانه إلى ربّه الذي أرسله؛ وفي وضوح طريقه أمامه واستقامة منهجه في شعوره.

لا يشتم كما شتموا.

لا يتهم كما اتهموا.

لا يدعي كما ادعوا.

ولا يحاول أن يخلع على نفسه مظهرا غير حقيقته ولا على رسالته

شيئا غير طبيعتها.

{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّن عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ} وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنِ اجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَأُوا رِجْهَمُ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طردتُّهم أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْعَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} 422.

فقد بدأهم بقوله: (يا قوم) في سماحة ومودة بندائهم، عندما نسبهم إلى نفسه، ونسب نفسه إليهم، ليبدد الشكوك ويزيل الحواجز، وينهي الفوارق، ويضع نفسه مع قومه على قدر المساواة، وهذا لعمرى

⁴²² هود 28 . 31.

من أرقى أنواع جدل الخصوم وأعدله، لأنه من ساواك بنفسه فما ظلمك.

إنهم اعترضوا عليه بقولهم: (ما نراك إلا بشرا مثلنا). فلم يكن موقفه منهم سلبيا على ما يقولون وما يدعون، مع أن قولهم هذا حق يراد به الباطل، لأنّ نوحا عليه الصّلاة والسّلام هو بشر حقيقة، ولكن الباطل يظهر في قولهم: (مثلنا) فنوح عليه الصّلاة والسّلام بشر، غير أنه ليس مثلهم، لأنه نبي رسول مختار مصطفى، ولذا ترفع عن إجابتهم بالمستوى الجدلي الذي طرحوه في مناقشته بكل ما يحمل الكلام من دعة ورقة في السياق الجدلي، حيث يقر لهم أنه بشر، ولكنه مختلف عنهم بما آتاه الله تعالى من رسالة كي يبلغها إليهم، فهو على بينة من الله تعالى باتصاله بالخالق عزّ وجلّ عن طريق الوحي، فهو بيّن في نفسه، مستيقن في شعوره بما لا يعلمون وإن شاؤوا أن يعلموا فعليهم اتباعه.

ثمّ إنّ هناك خاصية لم يوهبها وإن كانوا بشرا، وهذه الخاصية ما آتاه الله تعالى:

من رحمة من عنده باختياره للرسالة

ما آتاه من الخصائص التي أهّلتها لحمل الرسالة

وهذه رحمة من الله عظيمة، وبهذا الهدوء وهذه السكينة يبدأ نوح عليه الصّلاة والسّلام باستجلاء موقفهم تجاه دعوته، وكأنه يستطلع آراءهم بموقف الند للند دون استعلاء أو استكبار: (ما رأيكم إن كانت هذه وتلك - البينة والرحمة - واضحة لي وخفيت عليكم خفاء عماية لأنكم غير مهيين لإدراكها وأنا أريد أن أوضحها لكم، ولكنكم لا تتركوا لي فرصة لذلك، وليس لديكم البصائر لرؤيتها) (أنلزمكموها) فهو لا يلزمهم إياها لأنّ ذلك يكون نوعا من

الإذعان، فما كان لنوح عليه الصلّاة والسّلام أن يلزمهم إياها، وما هو بمستطيع أن يلزمهم الإذعان لها والإيمان بها لاسيما (وأنتم لها كارهون).

وهكذا، كان نوح في جدله يتلطف في توجيه أنظارهم ولمس وجدانهم وإثارة مشاعرهم وإحساساتهم، لإدراك الفضائل والقيم التي عمّيت عليهم، وتوضيح الخصائص التي يغفلون عنها في أمر الرسالة والاختيار لها، حيث يبصرهم بأنّ الأمر ليس موكولا إلى الظواهر السطحية التي يقيسون بها. وفي الوقت ذاته يقرر لهم المبدأ العظيم القويم، مبدأ الاختيار في العقيدة، والاعتناع بالنظر والتدبر، لا بالقهر والسلطان والاستعلاء على غرار ما يفعلون!

فهو لا يطلب منهم شيئا، وإنما كان هناك شيء آخر غير التكليف، وهو هذا اللطف في التعامل والدعوة إلى الحقّ ممّا ينمّ عن محبة نوح لهم في رجاء الهدى دون مقابل: (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا جَاهِلُونَ} 423.

ثمّ يلفت أنظارهم إلى أمر آخر، وهو أن الذين تدعوهم أراذل قد دعوتهم فأمنوا، وليس لي عند النّاس إلا أن يؤمنوا. إنني لا أطلب مالا على الدعوة، حتى أكون حفيا بالأثرياء غير حفي بالفقراء؛ فالنّاس كلهم عند الله سواء، ومن يستغن عن متاع الدنيا وزخرفها وزينتها ويهتدي إلى الحقّ يتساوى عنده الغني والفقير والصغير والكبير وفق مقياس طاعة الله تعالى، وما طلب نوح على ذلك شيء:

(إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ)

ثمّ استطرد دون انقطاع

(وما أنا بطارد الذين آمنوا)

وقوله هذا يستشف منه أنهم خلال مجادلتهم لنوح عليه الصّلاة والسلام، ربما اشتروا طرد الأراذل (الذين آمنوا) حتى يؤمنوا لنوح، وبذلك يحافظون على التفاوت الطبقي الذي يضمن لهم مصالحهم وتسخير الأراذل لهذه المصالح، بمعنى أن ينسلخ نوح عليه الصّلاة والسلام عن المؤمنين ويكون معهم حلفا يُقي الأمر على ما هو عليه. ونفهم من هذا الرّد أيضا، أنهم طلبوا طرد من حوله من المؤمنين حتى يفكروا هم في الإيمان به، لأنهم يستنكفون أن يلتقوا عنده بالأراذل، أو أن يكونوا وإياهم على طريق واحد وعلى قدم المساواة! فكان الجواب منه غير الذي توقعوه أو أنهم كانوا يرجون حدوثه (وما أنا بطارد الذين آمنوا) ونفهم من الواو العاطفة وما النافية التي أفادت الاستدراك أنّ هناك جملة من الشروط التي اشتروطها ويدور الجدل حولها كي يدخلوا في الإيمان، وبهذا أخرج نوح عليه الصّلاة والسلام هذا الشرط من دائرة الجدل التي تدور بها المفاوضات، وبمعنى آخر، أن نوحا عليه الصّلاة والسلام في جدله لقومه أخرج المؤمنين من دائرة الوصاية التي كان قومه يريدون أن يفرضوها على الذين آمنوا بقوله: (إنهم ملاقو ربهم) فليس لأحد سلطة على اختيارهم:

لست بطاردهم

هذا لا يكون مني

أمرهم إلى الله

لقد آمنوا عن إرادة باختيارهم، وإذا كان طردهم أحد شروط إيمان قوم نوح، فإنّ القبول بهذا الشرط يقوض أركان الدعوة التي جاء بها، ولذا، كان جوابه لهم (ولكني أراكم قوما تجهلون).

فالجهل الذي وصفهم به نوح عليه الصلّاة والسّلام، لم يكن جهلا علميا أو جهلا بأمور المعرفة العامة، إنّما يتمثل جهلهم:

بمضمون ما جاء به من الرسالة.

جهل في الفضائل والقيم.

جهل بمعايير المساواة بين البشر.

جهل بأنّ مرّد الناس كلهم إلى الله.

ومن هنا نبّه نوح عليه الصلّاة والسّلام قومه على أنّ الأمر ليس بيده، ولا هو صاحب قرار بهذا الشأن، لأن ذلك يترتب عليه معصية هم يجهلونّها أيضا، وهو مكلف بالتبليغ، وقد اختصر ذلك كله بقوله: (ويا قوم من ينصروني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون).

فهؤلاء الذين يطالبون بطردهم إنّما وليّهم الله تعالى، وهو ربهم ورب العالمين من الفقراء والأغنياء، ومن الضعفاء والأقوياء، وهو الذي يقوّم البشر وقيّمهم بقيم أخرى تختلف كل الاختلاف عمّا ينظر فيه قوم نوح، ويزنهم بميزان واحد أساسه العدل القائم على الإيمان، فهؤلاء المؤمنون في حماية الله ورعايته، ولا سلطة لنوح عليهم إلا أنّ دعاهم بما أمر به الله تعالى فاستجابوا، وأصبح أمرهم إلى الله، ولما كانت استجابتهم لأمر الله تعالى، فقد أصبح وليّهم الله، وطردهم يترتب عليه أشياء هم يجهلونّها، فإذا أجابهم نوح إلى طلبهم، فإنما يعصي الله في ذلك، وحاشا لنبي اختاره الله واصطفاه أن يفعل ذلك، لأنّه إن فعل ذلك فلا عاصم له من الله تعالى إن أخلّ بموازين الحقّ والعدل الذي أُمر به.

لأنّ ذلك سوف يكون بغيا على المؤمنين من عباد الله الذين كرمهم الله بالإيمان، وكان وليّهم بما استجابوا له، فهذه هي الفضائل

والقيم السامية التي تقرّها العقيدة وتدعو إليها رسالة نوح، وليست القيم التي هم أقروها ليسوموا النَّاس بها سوء العذاب.

فقد أراد نوح عليه الصّلاة والسّلام بذلك وهو يجادلهم، أن يقول لهم: إنني أرسلت لأعدّل هذه القيم لا لأفركم عليها وأتبعها (أفلا تذكرون). وقد أنساكم ما أنتم فيه ميزان الفطرة السليمة القويمة؟ ثم يقدم لهم نفسه على أنه بشر يحمل رسالة، ورسالته مجردة عن كل زخرف من زخارف الدنيا، وعن وكل قيمة من تلك القيم العرضية الزائفة التي يعتقدونها.

إنّ من جدله اللطيف مع قومه عليه الصّلاة السلام أنه يقدم رسالته لهم في معرض التذكير ليقرر لهم:

الفضائل الحميدة.

القيم الأخلاقية.

يزدري القيم الزائفة.

يتخلى عنها.

يتجرد منها.

فمن شاء، فهذه الرسالة كما هي، بفضائلها وقيمها، دون زخرف ودون ادعاء، فليتقدم إليها ويعتنقها من شاء مجردة خالصة لله: (ولا أقول لكم عندي خزائن الله)

فهو لا يدعي الثراء والغنى، وليس له القدرة على إثراء الآخرين وإغنائهم، وإنما مرجع ذلك كله ومآله ومردّه إلى الله تعالى الغني الحميد.

ثمّ يستطرد في جدله معهم من أجل إقناعهم وانتشالهم من براثن جهلهم، فيضع نفسه على قدرة المساواة معهم بقوله: (ولا أعلم

الغيب) فهو لا يدعي قدرة ليست للبشر، أو صلة بالله غير صلة الرسالة التي اصطفاه الله لها من أجل تبليغها لهم.

ثمَّ يُوَكِّد لهم إنسانيته وبشريته: (ولا أقول إني ملك) وبقوله هذا يُوَكِّد على بشريته، وينفي ادعاء صفة أعلى من صفته الخلقية، التي ربما راودت خواطر قومه في ظنهم ليرتفع في أعينهم، أو يفضل نفسه في ذاته عليهم.

ثمَّ يُوَكِّد نوح عليه الصَّلَاة والسَّلَام على التمسك بموقفه حول ما طرحه قومه من الخطّ من مكانة الذين آمنوا معه بقوله: (ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا).

حيث أن هذه الآية تظهر لنا تنازلات من قبل قوم نوح في جدلهم، واتخاذ موقف أقل تشدداً، بالتخلي عن موقف الطرد الذي اشتراطه على نوح في مقابل إيمانهم لنوح أو التفكير بالإيمان، إلى كلمة قدح في هؤلاء المؤمنين، فهذا نوع من المساواة من أجل كسب موقف، ويبدو أنه عندما تمسك نوح بمن آمن معه ورفض عرض قومه الذي ينص على طرد من وصفوهم بالأراذل، بدأ موقفهم يتداعى أمام صلابه الحقّ، فقدموا شيئاً من التنازل، في التخلي عن طرد المؤمنين، والاكتفاء من نوح بأن يقول في حقهم لن يؤتيهم الله خيراً على الرغم من إيمانهم، وبهذا الطلب يريدون أن يشقوا صفوف المؤمنين، لأن المؤمنين إن لم يؤتّم الله خيراً فما حاجتهم للإيمان، وعند ذلك يتساوى المؤمن وغيره في كفة الميزان، وهو رأي خبيث، يريدون به أن يزعزعوا إيمان المؤمنين ويضعوا حاجزا بين المؤمنين وبين نوح عليه الصَّلَاة والسَّلَام، ومن ثمَّ يكسبوا نوحاً إلى جانبهم، وبهذا يتمّ إفراغ الدعوة من مضمونها وإخراجها عن حقيقتها العادلة، ظنا منهم أن نوحاً ربما

يستجيب إرضاء لكبريائهم، أو مسايرة لتقديرهم وفق ما يحملون من قيم يتعاملون بها مع الآخرين، ولذا كان ردّ نوح عليه الصّلاة والسّلام:

واضحاً

صريحاً

صلباً

لا لبس فيه ولا غموض (الله أعلم بما في أنفسهم).

فليس لنوح أن يحكم إلا على ظاهر ما يرى، والله أعلم بما تخفي الأنفس وما تكنّ الصدور، ونوح عليه الصّلاة والسّلام يرى ظاهر من آمن معه يدعو إلى التّكريم، وإلى رجاء أن يؤتيهم الله خيراً لما أبدوه من موقف مع الله تعالى في إجابتهم لدعوة نوح وإطاعة أمر الله، فإن ظنّ فيهم غير هذا الذي يراه منهم، فقد أجاب عن نفسه: (إني إذن لمن الظالمين).

إنّ أيّ ادعاء دون دليل مقنع، يخالف الواقع الذي عليه من آمن لنوح يدخل مدّعيه في دائرة الظلم، إني إذن لمن الظالمين، فأنا لست كذلك، ولست من الظالمين في شيء.

ومن يفعل هذا أو يقلّ به؛ فإنّه دخل دائرة الظلم من أوسع أبوابها:

ظلم للحق الذي جاء يبلغ به.

ظلم للنفس فيعرضها لغضب الله.

ظلم للبشر بإنزالهم غير ما أنزلهم الله.

وهكذا ينفي نوح عليه السلام عن نفسه وعن رسالته كل قيمة باطلة، وكل هالة مصطنعة يطلبها الملاء من قومه في محاولة ليّ عنق الحقائق أو تغيير مسارها.

فهو يتقدم إليهم بها مجردة إلا من حقيقتها العظيمة التي لا تحتاج إلى مزيد من تلك الأعراض التي يحاولون إقحامها من أجل أن يفقد المؤمنون الثقة بما آمنوا به.

إلا أنّ نوحا عليه الصلّاة والسّلام، يردهم في نصاعة الحقّ وقوته، مع سماحة القول وودده، في جدل لطيف ملؤه الأدلة والبراهين والحجج إلى الحقيقة المجردة ليواجهوها، ويتخذوا لأنفسهم خطة على نهجها وهداها.

كل ذلك لا يحمل تنازلا عن موقف الحقّ بلا ملق ولا زيف ولا محاولة استرضاء على حساب الرسالة وحقيقتها البسيطة اللينة، ولذا نقول: إن نوحا عليه الصلّاة والسّلام كان يضع أسس النبوة ويرسي دعائمها للأنبياء من بعده وللبشرية في طريقة التعامل مع الخصوم، فيعطي أصحاب الحقّ والمدافعين عنه، والظالمين والدافعين له، مثلا لا يزال نوره يسطع في كل زمان ومكان، في كيفية المجادلة الحقّة، ومواجهة المتعاليين من المتكبرين والمتجبرين بالحقّ المجرد، دون استرضاء لتصوراتهم، ودون ممالأة لهم، مع المودة التي لا تنحني معها الرؤوس ولا يُفترط بها في الحقّ!

وعند هذا الحدّ كان الملام من قوم نوح قد يؤسوا من مناهضة الحجّة بالحجّة؛ فإذا هم على عادة طبقتهم المتعالية، قد أخذتهم العزة بالإثم، واستكبروا أن تغلبهم الحجّة، أو أن يدعنوا للبرهان العقلي، ولما أعياهم ذلك آثروا أن يتركوا الجدل إلى التحدي: (قالوا يا نوح قد جادلنا فأكثرنا جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين)

وهنا نتبين عجزهم المطبق الذي ألبسوه ثوب القدرة، عندما ضاقوا ذرعا بعقل نوح وحكمته في تعامله معهم: ما استطاعوا أن يستنزوه.

ما استطاعوا أن يغيروا موقفه.

ما استطاعوا أن يدحضوا حجته.

ما استطاعوا أن يدفعوه للتخلي عن المؤمنين.

لقد أعياهم أمره بجهلهم الذي وصفهم به، لذلك انتقلوا من الجدل إلى التحدي، فأظهروا الضعف الذي يرتدي عباءة القوّة خوفاً من غلبة الحقّ إذ قالوا: (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين). فهم يستعجلون العذاب الأليم الذي أنذرهم منه، ومع ذلك فإنّهم لم يرعوا ولم يبالوا.

أمّا نوح عليه الصلّاة والسّلام، فلا يخرجهم تكذيبهم إياه وتحديهم له، عن سمت النبي الكريم، ولا عن حلم الرّسول العظيم، ولا يقعه ذلك عن بيان الحقّ لهم، وإرشادهم إلى الحقيقة التي غفلوا عنها وجعلوها في طلبهم منه أن يأتيهم بما أوعدهم.

وهنا، يتجلى نوحا عليه الصلّاة والسّلام في أبهى الصور الإنسانية وأجلاها ضمن حدود قدرتها ومعرفتها بردهم إلى حقيقة أنه ليس سوى رسول، وما عليه إلا البلاغ، أما العذاب فمن أمر الله تعالى، وهو الذي يدبر الأمر كله، ويقدر المصلحة في تعجيل العذاب أو تأجيله، وإرادته هي التي تنفذ وفق مشيئته تعالى، فما يملك نوح عليه الصلّاة والسّلام ولا غيره أن يردّها أو يحولها أو يقدمها أو يؤخرها.

إنّ رسول كريم، عليه أن يناصر الحقّ ويدعو إليه حتى اللحظة الأخيرة، فلا يقعه عن إبلاغه وبيانه أن القوم يكذبونه أو يتحدونه: {قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} 424. فإذا كانت سنة الله ومشيئته تقتضي أن يهلكوا

⁴²⁴ هود 33، 34.

بغوايتهم، فإن هذه المشيئة ستمضي فيهم لا مردّ لها من الله، مهما بذل لهم من النصح، لا لأنّ الله سيصدهم عن الانتفاع بهذا النصح، ولكن لأن تصرفهم الخاطيء بأنفسهم يجعل سنة الله تقتضي أن يضلوا بما فعلوا، فيحق القول عليهم بعملهم، وما هم بمعجزي الله من أن ينالهم بعذاب أليم، فنوح عليه الصّلاة، يعود بهم إلى إنسانيته البشرية مرة أخرى، عندما يعلمهم بأنّ الذي يأتي بالعذاب أو يؤجله أو يمنعه، هو الله تعالى، لأنهم أخطأوا عندما قالوا لنوح: (اثننا بما تعدنا).

ونوح عليه الصّلاة والسّلام صحح لهم هذا الخطأ، ووضعهم على جادة الصواب عندما أخبرهم بأنّ الذي يأتي به هو الله وحده، ولن يستطيعوا أن يفلتوا منه إذا كان مقدّرا عليهم، فهم دائما في قبضته، وهو المدبّر والمقدّر لأمر الخلق، ولا مفر لهم من لقائه فيجازي الذين أحسنوا بالحسنى، وللذين أساؤوا بالسوء بما كانوا يعملون.

فليس لنوح عليه الصّلاة والسّلام أن يأتيهم بالعذاب أو يمنعه عنهم، وإمّا جُلّ ما يستطيعه أن يخبرهم به إنذارا بما أوحى إليه، والأمر بعد ذلك إلى الله (هو ربكم وإليه ترجعون).

ويقرر الله سبحانه وتعالى إنهاء الجدل بين نوح وبين قومه، لعلمه تعالى بعدم إيمانهم مهما طال الجدل، ومهما جاءهم نوح بالبينات والأدلة والبراهين والحجج، فإن ذلك لن يجدي معهم نفعاً، لأن الكفر قد ران على قلوبهم فلا يفتح لنسائم الإيمان بما كانوا يكسبون من المعاصي، وأن الله تعالى عالم بأنّ هؤلاء سيمضي فيهم حكمه بما كسبوا، تلقى نوح عليه الصّلاة والسّلام الوحي والأمر معا بقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا

تَبَيَّنَسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي
الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ {425}.

صبر نوح:

إنّ نوحا عليه الصلّاة والسّلام هو الأب الثاني للبشرية بعد آدم عليه الصلّاة والسّلام، وهو أول رسول إلى أهل الأرض، فقد عاش نوح عليه الصلّاة والسّلام عمرا مديدا ودهرا طويلا، منها ألف سنة إلّا خمسين عاما لبثها عليه الصلّاة والسّلام في دعوة قومه إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، تقوم على ثلاث ركائز هي:

العبادة

التقوى

الطاعة

لا يكل ولا يمل، ليلا ونهارا، سرا وإعلانا وجهارا نهارا قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا} {426}.

حيث يترتب على الإجابة أمور منها:

المغفرة.

الرحمة.

تأخير الأجل.

التذكير.

425 - هود 36-37.

426 - نوح 1-3.

{يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} 427.

ومن شدة حرصه على قومه والتزامه أوامر الله تعالى في تبليغ دعوته فقد دعاهم:

ليلا ونهارا.

سرا وإعلانا.

قال تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعَسُوا نِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَمْ تَرَوْنَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُوا لَا تَنْزِلُنَّ إِلَيْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصَرِّفَهُمْ عَلَىٰ الْغُيُوبِ وَأَنْزَلْنَاهُمْ حُمُلًا ضَالًّا وَمَا عُرِجَتْ عَلَيْهِمْ أَغْرُقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا فِيهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا} 428.

هذه دعوة نوح عليه الصلاة والسلام، وقد قص الله علينا خلاصة

دعوته الكريمة التي استغرقت ألف سنة إلا خمسين عاما.

427 - نوح 4.

428 - نوح 5-25.

إنها دعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده، في جهد دائم ما ترك
وسيلة تمكنه إلا استخدمها لإقناعهم بدعوته:

سرا وجهارا.

ترغيبا وترهيبا.

وعدا ووعيدا.

احتجاجا واستدلالا.

بالأدلة العقلية والحسية.

من واقع أنفسهم وحياتهم.

ومما تقع عليه عقولهم وأعينهم من آيات السماء والأرض.

وما فيهما من آيات وعبر.

ومع ذلك فلم يجد فيهم نفعا ولا دفعهم إلى استجابة، بل أصروا

على كفرهم وضلالهم، واستكبروا استكبارا.

أصروا على التشبث بأصنامهم ومعبوداتهم الباطلة، فكانت النتيجة

لهذا الإصرار والاستكبار، الهلاك والدمار، وفي الآخرة الخلود في

عذاب النار.

وهنا نتساءل: لماذا يستمر هذا النبي العظيم كل هذه الآماد

الطويلة، ويبدل هذه الجهود الكبيرة، دون كلل أو ملل يدعو إلى مبدأ

التوحيد؟

ولماذا يمدحه الله ويثني عليه الثناء العاطر، ويخلد ذكره ويجعله

مسلمًا عليه في العالمين؟

هل دعوة التوحيد تستحق كل هذه العناية والإكبار؟

هل هذا المنهج وتحديد هذا المنطلق لهذا النبي الكريم بجانب

للمنطق والحكمة والعقل؟

أم أنه عين الحكمة ومقتضى المنطق الصحيح، والعقل الواعي
الرجيح؟

لماذا يقرّه الله على سلوك هذا المنهج في الدعوة طوال ألف سنة إلا
خمسين عاما؟

ويشيد به ويخلد اسمه وقصصه، ويكلف أعظم الرّسل وأعقل البشر
أن يجعل منه أسوة في دعوته وصبره؟

الجواب المنصف القائم على العقل والحكمة، ومعرفة مكانة النبوة
والثقة العظيمة فيها وتقديرها حق قدرها، أن دعوة التوحيد ومحاوله
القضاء على الشرك وتطهير أرض الله منه، تستحق كل هذا وأنه عين
الحكمة ومقتضى الفطرة والعقل.

حيث من الواجب على كل متتبع أو من يدعو إلى الله تعالى أن
يفهم هذا المنهج، وهذه الدعوة الإلهية العظيمة، والمطلب الكبير،
فيكسر كل جهده وطاقته لتحقيق ما يكلف به من أجل نشره في
أرض الله لإنفاذ أمره تعالى بما كان شاء وقدّر.

إنّ دعوة نوح عليه الصّلاة والسّلام والرسالة التي كلفه الله تعالى
بتبليغها إلى قومه كانت تؤسس منهجا عاما للأنبياء والرسالات من
بعد نوح عليه الصّلاة والسّلام وذلك أنّها:

أول دعوة تحمل شريعة

طول المدة التي استغرقتها

الإيمان هو الأصل

الشرك والكفر هما طارئان

إظهار أسلوب الدعوة

توضيح طريقة الدعوة

الدعوة من حيث الزمن (ألف سنة إلا خمسين عاما)

الدعوة من حيث الوقت (ليلاً ونهاراً)
الصبر الذي صبره عليه الصلّاة والسّلام
إنّ نبوة نوح عليه الصلّاة والسّلام ودعوته في قومه هذه المدة
الطويلة، أسست للأنبياء:

النهج

الفكر

الأسلوب

المطاولة

الجدل

الحوار

الصراع

الابتلاء

الصبر

وما من نبي جاء من بعد نوح عليه الصلّاة والسّلام إلا وكان له في
نوح أسوة حسنة، لأنّه عليه الصلّاة والسّلام اجتمع فيه ما تفرق
للأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام جميعاً، ولذا كان طول الفترة التي لبث
فيها بقومه من أجل تجسيد تجارب الأنبياء اللاحقين، بحيث كلما
ألمت نازلة أو خطب في نبي من أنبياء الله تعالى، نظر إلى ما مضى
فوجد في نوح أسوة له، وأنّ من كان قبله أصيب بأعظم ما أصيب هو
به، لذلك كان نوح عليه الصلّاة والسّلام مصدر قوّة في الصبر
والتحمل والمطاولة لمن جاء بعده من الأنبياء، ولذا، نجد أنه ما أصيب
نبي بمصيبة أو ابتلي بابتلاء إلا وقد كان سبقه به نوح بمثله أو أعظم
منه.

وربّ قائل يقول: إن نوح عليه الصلّاة والسّلام لم يذكر معه الصبر في سيرته بالقرآن الكريم، أو لم يكن الصبر قرينا لنوح عليه الصلّاة والسّلام.

غير أنّنا نقول أن الأمور بالتلميح أعظم من التصريح، ودلالة القرائن أدعى من ذكر الحقائق، ولو أنّ الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام جميعا هم من الصابرين، إن لم يكن بدلالة اللفظ الصريح فبدلالة من وجود ما لا يكون الصبر إلا بوجوده مثل:

. التوكل: الذي عليه جميع الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام، قال تعالى: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} 429.

. الفوز: الأنبياء من الفائزين، قال تعالى: {إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ} 430.

. الهدى: فالأنبياء مهتدون، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} 431.

. الجنة: الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام جميعا من أهل الجنة، قال تعالى: {وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} 432.

. المتربات: قيام صفة على أخرى، قال تعالى: {الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} 433.

فليس بالضرورة أن تذكر الصفة عينها بلفظها للدلالة على المعنى اللفظي، فالأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام جمعوا صفات المدح جميعها جليلها ودقيقها، فهذا نوح عليه الصلّاة والسّلام أخبر الله عن صبره

429 - النحل 42.

430 - المؤمنون 111.

431 - السجدة 24.

432 - الإنسان 12.

433 - آل عمران 17.

الصبر العظيم بقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ
أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} 434.

فهل هناك أعظم من صبر نوح عليه الصلّاة والسّلام الذي بقي
يدعو قومه قرابة عشرة قرون من الزمن ثمّ بعد ذلك لم يؤمن معه إلا
قليل.

ولذا، أخبر تعالى أنّ نوحا بقي في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة
إلا خمسين عاما، تسعة قرون ونصف قرن، ومع هذا المدة الطويلة قال
تعالى: {وَمَنْ أَمَنَ وَمَا أَمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} 435.

فهذا دلالة على عظيم صبر نوح عليه الصلّاة السلام، ذلك
الزمن الطويل وهذه الفترة المديدة، في دعوة قومه إلى الله.

وكيف لا يكون نوح عليه الصلّاة والسّلام من الصابرين وهو أوّل
رسل الشرائع، وأبو الأنبياء حيث جعلت النبوة والكتاب في ذريته
وذرية إبراهيم عليهما الصلّاة والسلام حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ
مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} 436.

والصبر بعد ذلك هو واجب بالإجماع، والصبر نصف الإيمان، لأنّ
الإيمان نصفان: نصفه صبر

ونصفه شكر

وكيف لا يكون نوح عليه الصلّاة والسّلام أوّل الأنبياء من
الصابرين وقد قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} 437.

434 - العنكبوت 14.

435 - هود 40.

436 - الحديد 26.

437 - البقرة 153.

فكان الله معه في كل لحظة من حياته وفي خلال دعوته فقد قال
تعالى: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ
مُغْرَقُونَ} {438}.

وعندما صنع الفلك برعاية الله تعالى وعنايته ووحيه، كان نوح
عليه الصلّاة والسّلام صابرا على كل ما يلاقيه من أذى قومه لأن الله
معه فإن الله تعالى:

كان مع نوح

الله مع الصابرين

نوح من الصابرين

وصبر الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام صبر جميل، لأن الصبر

الجميل هو الذي:

لا شكوى فيه

ولا شكوى معه

وربّ قائل يقول إن نوحا عليه الصلّاة والسّلام اشتكى عندما
قال: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن
تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} {439}.

فهذه ليست شكوى، لأن الشكوى وعدم القدرة على الصبر
تكون للعبد دون المعبود، ونوح عليه الصلّاة والسّلام لم يشكو أحدا
من الخلق لأحد من الخلق، وإنما صرح بالنتيجة التي وصل إليها من
خلال تجربة ألف سنة.

فالشكوى إلى الله عزّ وجلّ لا تنافي الصبر في أي وجه من الوجوه،

لأنّ يعقوب عليه الصلّاة والسّلام وعد بالصبر الجميل مرتين:

438 - هود 37.

439 - نوح 26-27.

الأول: عندما جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب فقال: {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} 440.

الثاني: عندما نقض أبناءه الموثق فقال: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} 441.

والنبي إذا وعد لا يخلف لذلك كانت شكواه إلى ربه تعالى لا تخرجه عن الصبر كما أنّ دعوة نوح على قومه لم تخرجه عن الصبر لأنه بثّ إلى الله، قال تعالى على لسان يعقوب: {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 442.

وكذلك أيوب عليه الصلّاة والسّلام أخبر الله تعالى عنه: أنّه وجده صابرا حيث قال تعالى: {وَوَحَّدْ يَدَكَ ضِعْفًا فَاصْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} 443

ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد أخبر عن أيوب عليه الصلّاة والسّلام بقوله: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَلَيْسَ لِي بِرَبٍّ رَحِيمٌ} 444.

وهذا دليل على أن شكوى الأنبياء لله تعالى أو دعاءهم على أقوامهم لا تخرجهم عن الصبر، وذلك بسبب:

أنّ الدعوة لله تعالى

الشكوى لله تعالى

440 - يوسف 18.

441 - يوسف 83.

442 - يوسف 86.

443 - ص 44.

444 - الأنبياء 83.

وإنما الذي ينافي الصبر شكوى الله تعالى، لا الشكوى إلى الله تعالى، "كما رأى بعضهم رجلا يشكو إلى آخر فاقه وضرورة فقال: يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ثم أنشد:

وإذا عرتك بلية فاصبر لها... صبر الكريم فإنه بك أعلم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم" 445

إن من مدى صبر نوح عليه الصلاة والسلام أنه وطن نفسه على أن تكون الدعوة إلى الله جلّ وعلا هي هدفه وصولا بقومه إلى الهدى، ولذا، دأب على ذلك الليل والنهار، فهو يحس به ليلا ونهارا، ولا يدع مجالا أو فرصة للدعوة إلا وقد بذل في ذلك جهده:

بالكلمة

بالنصيحة

بالإرشاد

بالنهي

بالتوجيه

لأنّ هذا واجب النبي وجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا مناص لنوح عليه الصلاة والسلام ولا لغيره من الأنبياء أن يجيد عن هذا النهج لأن الله جلّ وعلا أمر به وسنه لهم ليهدي بهم الناس ويخرج من الظلمات إلى النور ومن الضلالة إلى الهدى، لذلك كان الصبر على قدر الأمر والهمة على قدر المسؤولية.

ولذا، نقف على صورة موقف نوح وصبره في سورة نوح، وهي أكثر السور في القرآن الكريم التي أظهرت دعوة نبي ومعاناته مع قومه في دعوتهم إلى الحقّ بأمر كثيرة منها:

445 - مدارج السالكين، ج 2، ص 161.

- . لفظ الدعوة
- . طريقة الدعوة
- . البذل فيها
- . التحدي
- . كيفية صبر،
- . كيفية الحض
- . كيفية الترغيب

إلى آخر ما اشتملت عليه تلك السورة العظيمة في إظهار دعوة نوح لقومه إلى الله تعالى ليخرجهم من الضلالة إلى الهدى ومن الظلمات إلى النور، وتصوير صبره عليهم وصبره لهم حيث قال تعالى في ذلك مصورا حال نوح عليه الصلّاة والسلام: { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا } 446.

فروح عليه الصلّاة والسلام أول الرّسل، وصفه الله تعالى:

بأنّه دعا إليه

وأنه بذل الليل والنهار

في السر والجهار

وما وصف أحد من الأنبياء بما وصف به نوح عليه وعليهم

الصلّاة والسلام في صبره وتحمله من:

الزمن

الطريقة

الكيفية

الوسيلة

ولم يكن موقف أحد من أقوام الأنبياء مشابهاً أو مقاربا لموقف
قومه من دعوته في:

الإصرار على الكفر

العناد عليه

الجدل فيه

ومع ذلك فلم يدّخر جهداً ولم يدع وسيلة وما ترك ظرفاً إلا كانت
له في ذلك محاولة معهم، وهذا يعني أنه كان يدعو الناس في ملأ
بكلمة عامة ويحض بشكل عام على اختلاف أنواع الناس، وأنه كان
يدعوهم سرا بأن تكون الدعوة بينه وبين شخص واحد إذا لقيه، فإنه
يدعوه ليس على ملأ، ولكن بينه وبينه، فنوع ذلك:

. من جهة الزمان في الليل والنهار.

. ومن جهة الطريقة في الجهر والإسرار.

. ومن جهة المخاطبين كباراً وصغاراً كونهم قوم.

فالصبر مأمور به الأنبياء عليهم الصلّاة والسلام وهو من وواجبات
النبوة، وذلك أنّ الصبر من الواجبات التي يحتاجها النبي أكثر من
غيره، لأنّ الدعوة إلى الله تعالى تحتاج إلى إقناع الآخرين بالإقلاع عما
يعتقدون ويعتقدون، ولأنّ متطلبات النبوة قائمة على أمور أهمها ثلاثة:

1 . العلم:

وهو العلم الخاص والعلم العام، والعلم الخاص الذي يحتاجه النبي
بما يدعو به إلى الله تعالى من أجل إقناع الآخرين، والعلم العام بأحوال
من يدعوهم وطرق التعامل معهم ويعلم طباعهم ونفسياتهم وكيف
ينفذ إليهم.

2 . العمل:

العمل بما يعلم من أجل الوصول إلى الغايات من خلال الأهداف بالوسائل التي يتبعها في الوصول على غاية النبوة التي بعث من أجلها.

3 . الدعوة:

وتكون لله تعالى بما أمر به النبي عليه الصلاة والسلام من خلال العلم الذي امتلكه خاصة وعامه والعمل بذلك العلم وصولاً إلى الغاية.

وعلى هذا:

. فإنّ العلم يحتاج إلى صبر.

. والعمل يحتاج إلى صبر.

. والدعوة تحتاج إلى صبر.

والصبر نفسه الذي يجتمع بالصبر على ما تقدم من الأمور الثلاثة في هذه الأشياء، يحتاج إلى صبر، فدعوة النبوة تحتاج إلى هذا الصبر الجميل، ولذا، وجدنا نوح عليه الصلاة والسلام مكث في قومه ألفاً سنة إلا خمسين عاماً وهو يدعوهم وبعد هذه المدة الطويلة قالوا: {لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَـعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} 447.

ولذا تعد دعوة نوح عليه الصلاة والسلام، دعوة متفردة بين الدعوات السماوية من حيث عمره عليه الصلاة والسلام، من حيث الزمن الذي استغرقته، إذ استغرقت ألف سنة إلا خمسين عاماً، قبل أن تؤتي ثمارها، وقد استمر نوح عليه الصلاة والسلام طوال هذه السنين يدعو قومه إلى الإيمان، ويعمل على تغيير حالهم واستنقاذهم من الضلال سالكا إلى ذلك شتى الطرق منها:

447 - نوح 23.

. { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا } 448.

. { ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا } 449.

. { ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا } 450.

ولكن دون جدوى، فقد تمسك القوم بكفرهم، وبالغوا في عنادهم، حتى جاء البيان من السماء حيث قال تعالى: { وَأَوْحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } 451.

وهذا إعلام بالنتيجة من الله تعالى لنوح عليه الصلوة والسلام. حينئذ أيقن نوح عليه الصلوة والسلام أن القوم الذين أرسل إليهم قد فقدوا قابلية الهداية إلى الابد، وأيقن أنهم تحجرت عقولهم على هذه الحال، فكانت دعوته استجابة لما أعلمه الله به أنه لن يؤمن بعد ذلك أحد وعليه:

تحددت أعداد المؤمنين وأعداد الكافرين

فالذين آمنوا يلدون المؤمنين

والذين كفروا يلدون الفاجرين الكافرين

فدعوة نوح عليه الصلوة والسلام لم تكن نفاذ صبر، وإنما هي إذان بانتهاء المهمة لهؤلاء، وساعتئذ نادى نوح ربه قائلاً: { رَبِّ لَا تَذَرُ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنِّي تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا } 452.

448 - نوح 5.

449 - نوح 8.

450 - نوح 9.

451 - هود 36.

452 - نوح 26، 27.

ولذا نرى نوحا عليه الصلّاة والسّلام في مواقفه كنزا من كنوز الصبر إن لم يكن أعظمها.

لقد أمر الله سبحانه وتعالى أنبياءه ورسله بالصبر، فقال مخاطبا محمّدا عليه الصلّاة والسّلام: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} 453. فأخبر أن صبره بالله تعالى. إن أنبياء الله عليهم الصلّاة والسّلام أصبر خلق الله، وهم يعلمون العباد الصبر، لأنهم خير الصابرين، وقد أثنى الله تعالى على الصابرين أحسن الثناء وضمن لهم أعظم الجزاء وجعل أجر غيرهم محسوبا، وجعل أجر الصابرين بغير حساب حيث قال تعالى: {إِنَّمَا يُؤْتَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} 454.

وقد قرن الله تعالى الصبر بأعلى المقامات منها:

الإسلام

الإيمان

الإحسان

وجعله قرين اليقين والتوكل والإيمان والأعمال والتقوى وأخبر أن آياته إنما ينتفع بها أولو الصبر، وأخبر أن الصبر خير لأهله وأن الملائكة تسلم عليهم في الجنة بصبرهم حيث قال تعالى: {أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا} 455.

إن من عظمة صبر نوح عليه الصلّاة والسّلام أن الله سبحانه وتعالى خاطب محمّدا عليه الصلّاة والسّلام بقوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} 456. دون سائر الأنبياء

453 - النحل 127.

454 - الزمر 10.

455 - الفرقان 75.

456 - النساء 168.

عليهم الصلّاة والسلام أجمعين، وذلك دلالة على ثقل الحمل وعبء المسؤولية والنهوض بالدعوة إلى الله تعالى والمدة التي استغرقتها فكان نوح المثل الأعلى والأسوة الحسنة في التتبع والافتداء.
وعندما ذكر الميثاق لأخذ العهد أجمل النبيين جميعا، وأفرد كلا من:

محمد عليه الصلّاة والسلام

نوح عليه الصلّاة والسلام

في موضعين من الوحي والميثاق

بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ 457.

والثاني في الوحي، فقال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ 458.

إنّ الحكمة في تقديم نوح على سائر الأنبياء عليهم الصلّاة والسلام جميعا تكمن في أمور كثيرة اختص بها نوح عليه الصلّاة والسلام منها:

. أنّه كان أبو البشر الثاني بعد آدم قال الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ 459.

. أنّه أوّل نبي من أنبياء الشريعة وأوّل داع ونذير عن الشرك.

. أنّه أوّل نبي عذبت أمّته لردهم دعوته

. أنّ دعاءه أهلك كل أهل الأرض من الكافرين جميعا

. أنّه كان أطول الأنبياء عمرا.

457 - الأحزاب 7.

458 - النساء 168.

459 - الصافات 77.

. لم يبلغ أحد من الأنبياء في الدين ما بلغ نوح عليه الصلّاة
والسّلام

. لم يصبر نبي على أذى قوم ما صبر نوح عليه الصلّاة والسّلام
على قومه

. كان يدعو قومه ليلا ونهارا إعلانا وإسرارا

لذلك فإن الله تعالى قال في قوم نوح: {وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ
كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى} 460.

أي، أظلم الأقيام وأطغاهها، ولما كانوا كذلك، كان نبيهم أصبر
الأنبياء وأحلمهم على ذلك الظلم والطغيان.

ولم نجد نبيا قد دعا على قومه من بعد نوح عليه الصلّاة والسّلام،
وهذا يعني أن الأنبياء هم رحمة من الله تعالى لعباده، غير أن نوحا عليه
الصلّاة والسّلام لما أعلمه الله أن قومه

قد استوفوا أجلهم باستيفاء دعوته لهم، لم يعد حاجة لاستمرار
الدعوة فيهم، ومن جهة أخرى أن الدعوة عليهم بإهلاكهم كانت خيرا
لهم من دعوتهم مع إصرارهم على الكفر، فكانت دعوته جامعة مانعة
جامعة بأنها شملت جميع أهل الكفر
مانعة للمؤمنين من الهلاك

ولم نجد بعد نوح عليه الصلّاة والسّلام نبيا يدعو على قومه، لأنّ
الله سبحانه وتعالى أرسل الأنبياء رحمة للناس، ولذلك وجدنا موسى
عليه الصلّاة والسّلام عندما خرج خائفا يترقب: {قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} 461.

460 - النج م 52.

461 - القصص ص 21.

وكذلك على الرغم من الفرية العظيمة التي افتراها قوم عيسى على الله وعلى رسوله عيسى عليه الصلّاة والسّلام باتخاذ الصّاحبة والولد لم يدعو عليهم وإنما قال: {إِنَّ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 462.

الصبر:

إنّ صفة الصبر من أبرز الأخلاق التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، حتى يكاد الصبر يكون أساس الدين لكثرة ما ورد من الصبر ومدحه في الآيات البيّنات، وما ذلك إلا لدوران كل الأخلاق عليه، وصدورها عنه، فكلما نظرنا في خلق كريم أو فضيلة وجدنا أساسها وركيزتها إنما هو الصبر.

فالعفة: صبر عن شهوة الفرج والعين المحرمة.

شرف النفس: صبر عن شهوة البطن.

كتمان السر: صبر عن إظهار مالا يحسن إظهاره من الكلام.

الزهد: صبر عن فضول العيش.

القناعة: صبر على القدر الكافي من الدنيا.

الحلم: صبر عن إجابة داعي الغضب.

الوقار: صبر عن إجابة داعي العجلة والطيش.

الشجاعة: صبر عن داعي الفرار والهرب.

العفو: صبر عن إجابة داعي الانتقام.

الجود: صبر عن إجابة داعي البخل.

والهمة: صبر عن إجابة داعي العجز والكسل.

وهذا يدل على ارتباط مقامات النبوة كلها بالصبر، ومهما اختلفت الأسماء واتحدت المعاني، فإن ذلك يجلي الحقائق، لذلك كان

نوح عليه الصلّاة والسّلام جامعا لخلال الصبر دقيقتها وجليلها التي تليق بحضرة النبوة والاصطفاء، ومن هنا ندرك لماذا علق القرآن الكريم الفلاح كله على الصبر وحده في مواضع كثيرة من آيات الذكر الحكيم منها قوله تعالى: { وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا } 463.

وقوله تعالى: { أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا } 464.

وقوله تعالى: { سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } 465.

وترجع عناية القرآن البالغة بالصبر إلى ماله من قيمة كبيرة في الحياتين الدنيا والآخرة، فليس هو من الفضائل الثانوية، بل من الضرورات اللازمة التي لا انفكاك للإنسان عنها، فلا نجاح في الدنيا ولا نصر ولا تمكين إلا بالصبر، ولا فلاح في الآخرة ولا فوز ولا نجاة إلا بالصبر.

ولئن كان الأمر كذلك في الدنيا، فهو في الآخرة أشد:

فالصبر سبب دخول الجنة

والصبر سبب النجاة من النار

لأنّ حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات، فيحتاج المؤمن

إلى صبر على المكاره ليدخل الجنة، ويحتاج إلى صبر عن الشهوات

لينجو من النار.

ولا تكون كثرة معاصي العباد إلا في:

قلة الصبر عما يحبون.

قلة الصبر على ما يكرهون.

463 - الإنسان 12.

464 - الفرقان 75.

465 - الرعد 42.

ورُسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، هم أشد أهل الإيمان حاجة إلى الصبر لأنهم الذين يقومون أساسا بالدعوة ويجاهون الأمم بالتغيير وهم حين يقومون بذلك يكون الواحد منهم فردا في مواجهة أمة: تعانده. تكذبه. تعاديه.

قال رسول الله عليه الصلّاة والسّلام: "إنّ أشدّ النَّاس بلاء الأنبياء ثمّ الذين يلونهم ثمّ الذين يلونهم ثمّ الذين يلونهم" 466. وكلما كان القوم أشدّ عنادا وأكثر إغراقا في الضلال كانت حاجة نبيهم إلى الصبر أكثر، وهكذا كان حال نوح عليه الصلّاة والسّلام مع قومه لما كانوا أشدّ النَّاس عنادا، كان هو أشدّ الأنبياء صبورا. لقد كانت أوامر الله تعالى لأبيائه بالصبر كثيرة في القرآن، وما ذاك إلا لأنّها دعوة شاملة تواجه أمم الأرض كلها فخصومها كثيرون وحاجة النبي إلى سجية الصبر أعظم من حاجته إلى سجية أخرى. لقد واجه نوح عليه الصلّاة والسّلام من قومه صنوف الأذى البدني والنفسي والمالي والاجتماعي والدعائي وغيره ذلك، وقاوم ذلك كله بالصبر الذي أمره به الله تعالى.

ومن الجدير بالذكر أنّ يونس عليه الصلّاة والسّلام لما ذهب مغاضبا والتقمه الحوت أخذ بالتسبيح ليعينه على الصبر، ولعل السرّ ذلك أنّ التسبيح يعطى الإنسان شحنة روحية تحلّو بها مرارة الصبر، ويحمل التسبيح بحمد الله معنيين جليلين لا بدّ أن يرعاهما من ابتلي حتى يكون من الصابرين:

466 - سنن النسائي، ج 4، ص 380.

الأول: تنزيه الله تعالى من أن يكون الابتلاء عبثاً، بل، كل فعله موافق للحكمة التامة، فبلاؤه للحكمة.

الثاني: أن الله تعالى في كل محنة منحة وفي كل بلية نعماء ينبغي أن تذكر فتشكر وتحمد، وهذا هو سر اقتران التسبيح بالحمد الذي يعين على الصبر.

حكم الصبر:

الصبر من حيث الجملة واجب وبدل على ذلك:

أ. أمر الله تعالى به في آيات كثير منها قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } 467.
وقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } 468.

ب. نهيه تعالى عما يصاد الصبر ضده كما في قوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ } 469.
وقوله تعالى: { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } 470.

ج. أن الله تعالى رتب عليه خيري الدنيا والآخرة وما كان كذلك كان تحصيله واجبا، أما من حيث التفصيل فحكمه بحسب المصبور عنه أو عليه:

فهو واجب على الواجبات.

واجب عن المحرمات.

467 - البقرة 153.

468 - آل عمران 200.

469 - الأنفال 15.

470 - آل عمران 139.

مستحب عن المكروهات.

مكروه عن المستحبات.

مستحب على المستحبات.

مكروه على المكروهات.

ومّا يدل على أن الصبر قد لا يكون لازماً قوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} 471. فالصبر عن مقابلة السيئة بمثلها ليس واجبا بل مندوبا إليه، لذلك، صح العقاب والعفو من مفهوم هذه الآية، بمعنى الصبر وعدمه هنا متساويان.

وقد أمر الله المؤمنين بالصبر والمصابرة والمرابطة فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} 472.

وصيغة المصابرة تفيد المفاعلة والمشاركة من الجانبين، والمعنى هنا: المصابرة: مغالبة الأعداء في الصبر، فإذا كان المؤمنون يصبرون على حقهم، فإنّ الكافرون يصبرون على باطلهم، فلا بدّ من مغالبتهم بالمصابرة، ثم أمر الله تعالى بالمرابطة على تلك المصابرة والثبات عليها لتحقيق موعود الله والظفر بالفلاح، فانتقلت الآية بالأمر من الأدنى إلى الأعلى فالصبر مع النفس، والمصابرة بين النفس وبين عدوها.

والمرابطة: الثبات وإعداد العدة، وكما أن الرّباط لزوم الثغور لئلا يهجم منها العدو فهو صبر في المرابطة، فكذلك الرّباط النفسي أيضا لزوم ثغر القلب لئلا يهجم منه الشيطان فيملكه أو يناله بأذى وعليه:

فقد يصبر العبد ولا يصابر

وقد يصابر ولا يرباط

471 - النحل 126.

472 - آل عمران 200.

وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى، فأخبر الله سبحانه وتعالى أنّ ملاك ذلك كله التقوى، وعليه:
فالأنبياء عليهم الصلّاة والسلام أتقى خلق الله
فهم أصبر خلق الله من خلق الله
نوح عليه الصلّاة والسلام من أصبر خلق الله لنبوته

أنواع الصبر:

الصبر نوعان، بدني ونفسي وكل منهما قسمان:

اختياري

اضطراري

وعليه يكون الصبر أربعة أنواع:

أ . بدني اختياري: مثل من يعمل في الأعمال الشاقة المضنية طواعية.

ب . بدني اضطراري: كالصبر على ألم الضرب أو التعذيب.

ج . نفسي اختياري: كصبر النفس عن عدم فعل مالا يحسن فعله شرعا ولا عقلا.

د . نفسي اضطراري: كصبر النفس عن فقدان الأهل والأحبة الذي حيل بينها وبينهم.

وحتى أن البهائم تشارك الإنسان في النوعين الاضطراريين، لكن الإنسان يتميز عليها بالنوعين الاختياريين.

والصبر الاختياري أتمّ من الصبر الاضطراري، لأن الصبر الاضطراري يشترك فيه الناس ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختياري، لأنه يتأتى منه مكرها غير مختار، ولذلك كان صبر نوح وصبر إبراهيم وصبر الأنبياء عليهم الصلّاة والسلام صبورا اختياريا، وهو الأشد على النفس، ولنأخذ مثلا صبر يوسف عليه الصلّاة والسلام

في عدم مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله من السجن، أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لما ألقوه في الحب وفرقوا بينه وبين أبيه، لأن صبره عن امرأة العزيز كان اختياريا، بينما صبره على أذى إخوته كان اضطراريا.

فكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلّاة والسلام أجمعين، فإن صبرهم كان على الدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله صبر اختيار، ولهذا ذهب البعض بتخصيصهم بأولي العزم من الرّسل، وأمر الله رسوله أن يصبر كصبرهم في قوله تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرّسْلِ} 473.

ولذا، نهى الله تعالى محمدا عليه الصلّاة والسّلام عن أن يتشبه بصاحب الحوت حيث لم يصبر فخرج مغاضبا قبل أن يؤذن له فقال تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ} 474.

والصبر المتعلق بالتكليف هو:

إمّا صبر على الطاعة

وإمّا صبر عن المعصية

والصبر على الطاعة أفضل من الصبر عن المعصية، لأن الصبر الثاني يأتي به البر والفاجر والمؤمن والكافر على قدر الاستطاعة، فلا بدّ لكل أحد من الصبر على القدر اختيارا أو اضطرارا، أما الصبر على الأوامر وعن النواهي فهو صبر الرّسل وصبر أتباعهم، والصبر على الأوامر أفضل من الصبر عن النواهي، لأن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المحذور، والصبر على أحب الأمرين أفضل وأعلى درجة وأشرف.

473 - الأحقاف 35.

474 - القلم 48.

من فضائل الصبر في القرآن الكريم:

- لقد أورد القرآن الكريم فضائل كثيرة عن الصبر وما يتعلق به من جزاء الصابرين وصفاتهم وتميزهم عن غيرهم نذكر منها:
- . أن الله تعالى علق الله الفلاح بالصبر حيث قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } 475.
- . أخبر عن مضاعفة أجر الصابرين على غيرهم بقوله تعالى: { أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا } 476.
- وقال تعالى: { إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } 477.
- . جعل من الصابرين أئمة في الدين حيث قال تعالى: { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } 478.
- . أن الصابرين ظفروا بجمية الله لهم قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } 479.
- . أن الله تعالى جمع للصابرين أمورا لم يجمعها لغيرهم: { وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ } 480.
- . أن الله تعالى جعل الصبر عوناً وعدة، وأمر بالاستعانة به حيث قال تعالى: { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ } 481.

475 - آل عمران 200.

476 - القصص ص 54.

477 - الزمر 10.

478 - السجدة 24.

479 - البقرة 153.

480 - البقرة 155 - 157.

481 - البقرة 45.

. أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِقَ النَّصْرَ بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: {بَلَى
إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ
مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} 482.

. أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الصَّبْرَ وَالتَّقْوَى جُنَّةً عَظِيمَةً وَحَصَنًا مَنِيعًا مِنْ
كَيْدِ الْعَدُوِّ وَمَكْرِهِ فَمَنْ تَتَرَسَ بِالصَّبْرِ فَقَدْ أَوَى إِلَى حَصْنٍ مَنِيعٍ قَالَ
تَعَالَى: {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} 483.

. أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَسْلَمُ فِي الْجَنَّةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِصَبْرِهِمْ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى:
{وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ
عُقُوبَى الدَّارِ} 484.

. أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَتَبَ الْمَغْفِرَةَ وَالْأَجْرَ الْكَبِيرَ عَلَى الصَّبْرِ وَالْعَمَلِ
الصَّالِحِ فَقَالَ: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} 485.

. أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الصَّبْرَ عَلَى الْمَصَائِبِ مِنْ عِزْمِ الْأُمُورِ، فَالصَّبْرُ
مِنْ أَجْلِهَا وَأَشْرَفُهَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ
الْأُمُورِ} 486.

. أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ مَحَبَّتَهُ لِلصَّابِرِينَ قَالَ تَعَالَى: {وَاللَّهُ يُحِبُّ
الصَّابِرِينَ} 487.

. أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَمَعَ فِي الصَّبْرِ خِصَالَ الْخَيْرِ كُلِّهِ قَالَ تَعَالَى: {وَمَا
يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} 488.

482 - آل عمران 125.

483 - آل عمران 120.

484 - الرعد 23-24.

485 - هود 11.

486 - الشورى 43.

487 - آل عمران 146.

488 - فص لت 35.

. أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ بِأَنَّ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِآيَاتِهِ وَيَتَعَطَّ بِهَا هُوَ الصَّبَّارُ
الشُّكُورُ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ} 489.

. أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْنَى عَلَى عَبْدِهِ أَيُوبَ أَجْلَ الثَّنَاءِ وَأَجْمَلَهُ لَصَبْرِهِ فَقَالَ
تَعَالَى: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} 490.
فَمَنْ لَمْ يَصْبِرْ فَبُئِسَ الْعَبْدُ هُوَ.

. أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَمَ بِالْخُسْرَانِ التَّامِ عَلَى كُلِّ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ
الْحَقِّ وَالصَّبْرِ قَالَ تَعَالَى: {وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} 491.

. أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّ أَهْلَ الْمَيْمَنَةِ بِأَهْلِ الصَّبْرِ وَالْمَرْحَمَةِ الَّذِينَ
قَامَتْ بِهِمْ هَاتَانِ الْخِصْلَتَانِ وَوَصَّوهُمَا بِمَا غَيْرَهُمْ فَقَالَ تَعَالَى: {ثُمَّ كَانَ
مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ
الْمَيْمَنَةِ} 492.

. أَنَّهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَرَنَ الصَّبْرَ بِمَقَامَاتِ الْإِيمَانِ وَأَرْكَانِ الْإِسْلَامِ
وَقِيمِ الْإِسْلَامِ وَمِثْلِهِ الْعَلِيَا:

فَقَرَنَهُ بِالصَّلَاةِ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ
وَالصَّلَاةِ} 493.

وَقَرَنَهُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ عَمُومًا قَالَ تَعَالَى: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} 494.

489 - إبراهيم 5.

490 - ص 44.

491 - العصر 1-3.

492 - البلد 17، 18.

493 - البقرة 45.

494 - هود 11.

وجعله قرين التقوى فقال تعالى: {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} 495.

وقرين الشكر حيث قال تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} 496.

وقرين الحق قال تعالى: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} 497.
وقرين الرحمة قال تعالى: {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ} 498.

وقرين اليقين قال تعالى: {لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} 499.
وقرين التوكل قال تعالى: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} 500.
وقرين التسبيح والاستغفار قال تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} 501.
وقرنه بالجهاد حيث قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ} 502.

إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم قال تعالى: {وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 503.

فهذا غيض من فيض في باب فضائل الصبر الذي هو سمة من سمات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وصفة من صفات المؤمنين.

495 - يوسف 90.

496 - سبأ 19.

497 - العصر 3.

498 - البلد 17.

499 - السجدة 24.

500 - النحل 42.

501 - غافر 55.

502 - محمد 31.

503 - النحل 96.

من مجالات الصبر:

أ. الصبر على بلاء الدنيا:

لقد أخبرنا الله تعالى بطبيعة الحياة الدنيا، وأنها خلقت ممزوجة بالبلاء والفتن فقال: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ} 504. أي مشقة وعناء، وأقسم على ذلك بقوله: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} 505.

ب. الصبر على مشتبهات النفس:

وهو ما يسمى بالسراء، فإن الصبر عليها أشد من الصبر على الضراء، لأنّ البلاء يصبر عليه المؤمن، والعافية لا يصبر عليها إلا صديق، وربما يُبتلى المؤمن بالضراء فيصبر، وإذا ابتلي بالسراء فلا يستطيع لها صبرا، والمؤمن مطالب بأن لا يطلق لنفسه العنان في الجري وراء شهواتها لئلا يخرجها ذلك إلى البطر والطغيان وإهمال حق الله تعالى فيما آتاه وبسط له من الرزق والعافية قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} 506.

ويمكن أن نجمل حاجة الإنسان إلى الصبر بأمر أهمها:

1. أن لا يركن إلى الدنيا، ولا يعتر بها، ولا تحمله على البطر والأشر والفرح المذموم الذي لا يجب الله أهله.
2. أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها، فإنها تنقلب إلى أضدادها، فمن بالغ في الإسراف وقع في المحذور الذي لا تحمد عقباه

504 - البلد 4.

505 - البقرة 155.

506 - المنافقون 9.

3 . أن يصبر الإنسان على أداء حقوق الله تعالى من العبادة والطاعة في الأوامر والنواهي فيها.

4 . أن يصبر الإنسان عن شهوات النفس، فلا يمكن نفسه من كل ما تريده منه، فإنها توقعه في الحرام.

ومَّا يدخل في هذا النوع من الصبر، الصبر عن التطلع إلى ما بيد الآخرين من الدنيا، والصبر عن الاغترار بما ينعمون به من مال وبنين قال تعالى: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا مُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} 507.

وقد نهى الله تعالى عن ذلك بالصبر عليه في قوله تعالى: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ} 508.

فالصابر من يعتز بنعمة الهداية ويعلم أنّها هم فيه من الدنيا ظل زائل وعارية مستردة ولا يبالي بمظاهر الفخامة التي يتبجح بها الآخرون، لقد قال الذين يريدون الحياة الدنيا لما رأوا قارون في زينته: {يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} 509.

فلم يصبروا على ما رأوا من زينة الحياة الدنيا، أما أهل العلم والصبر والإيمان فقالوا: {وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} 510.

ج . الصبر على طاعة الله:

إنّ الصبر على طاعة الله أعظم مجالات الصبر وهو لذلك أشدها على النفوس وقد جاءت صيغة الأمر بالصبر على الطاعة مغايرة

507 - المؤمنون 55، 56.

508 - طه 131.

509 - القصص ص 79.

510 - القصص ص 80.

لغيرها فقال تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ
وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} 511.

وقال تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا
نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} 512.

فاستخدم صيغة الافتعال وهو يدل على المبالغة في الفعل، إذ أنّ
زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وما ذاك إلا لمشقة مجاهدة النفوس
على القيام بحق العبودية في كل الأحوال.
والصبر على الطاعة له ثلاثة أحوال:

1. قبل الطاعة: بتصحيح النية والصبر على شوائب الرياء، وعقد
العزم على الوفاء ولعل هذا يظهر سر تقديم الصبر على العمل الصالح
في قوله: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
كَبِيرٌ} 513.

2. حال الطاعة: بأن لا يغفل عن الله فيها، ولا يتكاسل عن
تحقيق آدابها وسننها، ولعله المراد بقوله تعالى: {نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ
الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} 514.

3. بعد الفراغ من الطاعة: فيصبر على عدم إفشائها والمراعاة
والإعجاب بها، وترك ما ييطلها قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى} 515.

د. الصبر على مشاق الدعوة إلى الله:

511 - مريم 65.

512 - طه 132.

513 - هود 11.

514 - العنكبوت 58-59.

515 - البقرة 264.

غير خاف على من وقف على قصة نوح عليه الصلّاة والسّلام مدى صبره على قومه في دعوته إياهم إلى الله تعالى، وهو من أشد أنواع الصبر، لأن النبي يلاقي من النّاس ما لا يلاقيه غيره ضرورة، لأنّه يأتي النّاس بما لا يشتهونه ولا يألّفونه، وبما يخالف ما وجدوا عليه آباءهم، فلذلك يقاومون الدعوة بكل ما أوتوا من قوّة، ويوصلون الأذى بالنبي ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

وإعراضهم عن الدعوة يحتاج إلى صبر كصبر نوح الذي بقي في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما حتى حكى عنه الله تعالى قوله: { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا } 516.

الإندار والإبانة:

قبل الدخول في الكلام عن إنذار نوح عليه الصلّاة والسّلام لقومه، لابدّ من الوقوف على الإنذار الذي له صلة مباشرة بالندير والمندّرين منها:

. هل الإنذار خاص بالكافرين في القرآن؟

. هل الإنذار يشمل المؤمنين؟

. أم أنّ الإنذار من النذير لعموم المؤمن والكافر؟

إنّ الإنذار في القرآن الكريم لم يكن خاصا بالكفّار أو المنافقين، وإنما يأتي الإنذار للمؤمنين والكافرين والمنافقين ولكنه يختلف في الأسلوب الخطابي لكل من المؤمن والكافر.

نجد في الإنذار للمؤمن، أنّه ليس فيه توعّد، فهو للمؤمنين تحذير من باب الحرص والعظة بغرض التصحيح، وفي هذا التحذير يكون

516 - نوح 5-7.

الإرادة مطلقة من القيد في الاختيار حيث لا إكراه في الدين، حتى يقوم المؤمن بما ينبغي أن يقوم به كما في قوله تعالى: {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَحَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} 517. وهذا ليس فيه تخصيص.

وقد يأتي الإنذار للمؤمنين: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يُحْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَّىٰ فَاِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} 518

وقد يكون للناس جميعا كما في قوله تعالى: {وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِزْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّحِبُّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسْلَ أَوْمًا تَكُونُوا أَفْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ} 519.

وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} 520.

ثم يأتي كثيرا تخصيص كل نذير بقومه:

. قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} 521

. قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ} 522.

517 - يس 11.

518 - فاطر 18.

519 - إبراهيم 44.

520 - سبأ 34.

521 - فاطر 24.

522 - هود 25.

. قال تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ 523.

ومهمة الرسول النذير هي التبليغ والتذكير والتنبيه والتحذير والإنذار من عواقب الشرك والفساد ومن عدم الإيمان بوحداية الله عز وجلّ وبيوم الحساب، كما كلفه به الله عز وجلّ، وهذه مهمة الرسل كافة الذين أرسلهم الله تعالى لكافة البشر مبشرين ومنذرين، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ 524.

يبشرون بضرورة الخلاص من الشرك والإلحاد، ويبشرون بالرسالة السماوية المتسمة بالعدل والحق، وبالיום الآخر الذي ينصف فيه الأبرار المؤمنون وذوي السلوك الحسن، وينال فيه كل ذي حق حقه، وتردّ فيه المظالم إلى أصحابها، ويعاقب الظالم والمتجبر والملحد وغيرهم، ممن زرعوا الأرض فسادا بعد إصلاحها.

وكذلك فإنّ من حكمة الله تعالى وإقامة الحجّة على العباد، ومن عدله تعالى وعلمه بعباده أنهم سيقولون: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ 525. فلو عذبهم ببحودهم وشركهم دون إنذار لكان لهم في ذلك سبب احتجاج، وهو سبحانه إنّما يهلكهم لمخالفة رسله المنذرين وتكذيبهم لهم، فلو أهلكهم بتقليد آبائهم في شركهم من غير إقامة الحجّة عليهم بالمنذرين، لأهلكهم بما فعل المبطلون، أو أهلكهم مع غفلتهم عن معرفة بطلان ما كانوا عليه، وقد أخبر سبحانه أنّه لم يكن ليهلك

523 - الشعراء 114 - 116.

524 - الأنعام 48.

525 - الأعراف 173.

القرى بظلم وأهلها غافلون، قال تعالى: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} 526

وإنما يهلكهم بعد الإعدار والإنذار والتنبيه بإرسال النذير المبين، فإن آمنوا فقد آمنوا، وإن عصوا فقد حق عليهم القول بما كانوا يعملون.

نوح نذير:

إن الله عز وجل أرسل الرسل عليهم الصلوة والسلام إلى الناس كافة، حتى يكون حجة عليهم، ويدحض أي ادعاء بأنهم لم يبلغوا، وأنهم لا يعلمون، قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرِّسَالِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} 527.

ولذا فقد جعل الله تعالى كل نبي بشيرا ونذيرا
قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ} 528.

إن نوحا عليه الصلوة والسلام كان نذيرا لقومه.

النذير مهمته إنذار المرسل إليهم.

فما هو الإنذار من قبل النذير؟

إن المراد بالإنذار من قبل النذير هو الوعظ والتخويف من عقاب الآخرة لما يرتكب المنذرين من المعاصي في الدنيا إن لم يأخذوا الجانب الموجب من إنذار النذير، لذلك فإن نوحا عليه الصلوة والسلام في إنذاره لقومه أخذ صفة الوعظ كما أمر الله تعالى، والوعظ يكون بالقول البليغ، وهو أن يكون كلاما بليغا مؤثرا، فيه من الطول والحسن

526 - الأنعام 131.

527 - النساء 165.

528 - هود 25.

ما يؤثر في المتلقي من حسن الألفاظ وحسن المعاني مشتملا على الترغيب والترهيب والتحذير والإنذار والثواب والعقاب، فإن كان الكلام من الحسن والجمال في كثير من المعاني عظم وقعه في القلب، وإذا كان مختصرا ركيك اللفظ قليل المعنى لم يؤثر في قلوب المتلقين وعقولهم. قال تعالى: ﴿وَأَثَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ {529}.

وهذا لا يعني أنّ عدم إيمان معظم قوم نوح أن إنذاره لهم كان من الغلظة والفظاظة ما جعلهم ينفرون منه، ولكن لما قست قلوبهم، وغلظت أفئدتهم، وشغلتهم سفاسف الأمور عن جوهر الحقيقة، كان تمسكهم بباطلهم أحب إليهم من الانقياد للحق، ولذا كان هلاكهم نتيجة لسوء عملهم من عدم الأخذ بالإنذار، قال تعالى: ﴿وَقَوْمِ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرِّسْلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ {530}.

إنّ دعوات الرّسل عليهم الصّلاة والسلام، دون استثناء قد أخذت طابع التبشير والإنذار، ذلك أن التبشير والإنذار على النحو الذي جاء به الرّسل المنذرون هو مفتاح النفس الإنسانية، فالنفس الإنسانية مجبولة على طلب الخير الذي تراه وتعتقد، ودفع الشرّ الذي تخافه وتخشاه، ولكن الخير الحقّ والشرّ المحض يخضع لقوانين الحقّ والعدل الذي ارتضاه الله لعباده، لأنّ من البشر من يرى أنّ الخير الذي يحصل

529 - يونس 71، 72.

530 - الفرقان 37.

عليه هو خير وإن كان من حقوق الآخرين، وبذلك لا يقيم لميزان الظلم الذي يوقعه على الآخر وزنا طالما أنه أفاد من ذلك ما يظن أن خيرا أصابه، ومن هنا كان أحد مهام الرّسل المُنذرين تبيان ذلك لمثل هؤلاء، فإذا أُنذر الرّسول المُنذرين وبصّر النفوس بالخير العظيم ونوعيته وكيفية الحصول عليه بالطريقة التي شرّعها الله تعالى، وفق ما ارتضاه لهم من الإيمان والأعمال الصالحة، فإن النفوس تشتاق إلى تحصيل ذلك الخير، وعندما يُبيّن النذير الأضرار العظيمة التي تصيب الإنسان من وراء الكفر والضلال، فإنّ النفوس تهرب من هذه الأعمال. ونعيم الله المهبّش به، نعيم يستعذبه القلب، وتتلذذه النفس، ويقبله العقل، ويهيم به الخيال، وعلى العكس من ذلك ما يُنذِر به الرّسل، فإنه يخشاه القلب، وتتأذى منه النفس، ولا يتمناه العقل أن يتحقق من هول ما يتصوره. ولذا كانت صورة التبشير أقرب ما تكون إلى القلب والعقل والنفس ويسرح بها الخيال في قوله تعالى:

{أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَى وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ يَتُوفَّ عَلَيْهِمْ وُلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جِزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَعْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ وَفُرْشٍ مَرْفُوعَةٍ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرْبًا أَتْرَابًا لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ} 531

وأما صورة الإنذار التي يتمنى الإنسان أن لا تطاله ولا هو يصل إليها في قوله تعالى: {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحُمُومٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَأَكِيلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ فَمَا لِيُونِ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنْ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ هَذَا نُزُّهُمُ يَوْمَ الدِّينِ} 532.

ولذا؛ فالإنذار يحمل الخير والصلاح والنجاة، وليس كما يفهم البعض من أنه شؤم للمندرين، ونوح عليه الصلوة والسلام أنذر قومه بكل دعة وعطف ورحمة، وتعدي إنذار نوح عليه الصلوة والسلام إلى أقوام من بعده بما يحمل إنذاره من الصفات التي ذكرناها، ذلك أن التعبير القرآني في قوله تعالى: (إلى قومه إني لكم نذير مبين) بعدم ذكر النذير المبين مقصود لذاته لأنه يعطي دلائل كثيرة منها:

- . إظهار هول الإنذار من خلال حذف المنذر.
- . الاهتمام بالإنذار وعدم الانشغال بالمنذر.
- . إنذار الخصوص من قوم نوح بنذيرهم المبعوث فيهم.
- . تعدي الإنذار إلى عموم ما بعد قوم نوح بعدم ذكر المنذر.
- . عدم ذكر المنذر يعطي استمرارية الإنذار لمن بعد قوم نوح.
- . الأقوام من بعد قوم نوح سيحتاجون الإنذار والتبيين.

ثم إن هذه المعطيات المترتبة على عدم ذكر المنذر، تحيي المشهد وتمنحه الاستمرارية والتبليغ فتكون الحجّة قائمة على الأقوام الأخرى من بعد قوم نوح عليه الصلوة والسلام، فكأنما الإنذار واقع حال

حاضر دائما، لا حكاية ماضية كان القصد منها الإخبار، لأن الأسلوب يجسد صورة إنذار نوح لهم وتبينه في تلك اللحظة، وفي اللحظة الآنية ونحن نشهد ما يشهدون ونسمع ما يسمعون.

وربّ قائل يقول: كيف يكون ذلك؟

فقول: إنّ هذا التبليغ والإنذار والإبانة جاء بالكتاب الخاتم عن طريق النبي الخاتم للناس كافة، فالخبر ليس محكيا، وإنما هو استمراري الوجوب بالإنذار على الأنبياء الرّسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وواجب الإجابة والطاعة من قبل أقوام الأنبياء المرسل إليهم. ولذا تستغرب الملائكة من أن يدخل النار أحد من الناس، في صيغة سؤال استفهامي منكر يحمل من الاستغراب والتعجب بقدر ما يحمل من صدق الواقع في قوله تعالى على لسان خزنة النار: {تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْعَيْظِ كُلَّمَا أُتِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ} 533. ولذا، وجب حذف المنذر من أجل الاهتمام بالإنذار والتركيز على التبيين.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنّه يلخص مهمته عليه الصّلاة والسّلام في الرسالة التي جاء بها، ويوضح حقيقتها مبينا لهم ذلك في قوله: (إني لكم نذير مبين) وهذا أدعى للانتباه من قبل المتلقي وهم المنذرون، وإبراء الذمة من قبل حامل الرسالة وهو المنذر، ثمّ أنه بلور الغرض في وضوح وإبانة مضمونها يقول: {أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ} 534. التي تكمن خلفها الغاية التي يرجوها نوح لهم، فهذا هو قوام الرسالة، وقوام الإنذار يتجلى في قوله: {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

533 - الملك 8، 9.

534 - هود 26.

أَلِيمٍ {535}. فتمّ بذلك الإبلاغ والإنذار، ووضوح الهدف من خلال الإبانة في كثير من المعاني بقليل من الكلمات.

فنوح عليه الصلّاة والسّلام، بإنذاره لهم، كان يذكرهم بأن لهم خالقا وجبت عليهم عبادته، ويخصي عليهم أعمالهم وأفعالهم، ويحدّثهم سوء المآل الذي ينتظرهم إذا ما بقوا على العصيان والطغيان. فالغفلة عن الواجب أو التغافل عنه يعني التماذي في الباطل الذي يترتب عليه العقاب، ولذا كان التبليغ والتحذير والإنذار من نوح لقومه ومن جميع الأنبياء عليهم الصلّاة والسلام لأقوامهم في صور واضحة من محيطهم وفي أنفسهم من الحقّ والعدل والمساواة التي لا تتحقق إلا من قبل المؤمنين الذي أسلموا لله تعالى عبادة وطاعة، فلا يكون للناس على الله حجّة بعد الرّسل المنذرين، قال تعالى: {لَقَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَّةٌ بَعْدَ الرِّسَالِ} 536

فالتكليف بالجعل الذي أراد الله تعالى أن يكون الإنسان به خليفة في الأرض، لا يتحقق ما لم تتحقق أسبابه الموجبة التي أمر الله بها أنبياءه في تبيانها وإيضاحها لخلقه عن طريق الإنذار، حيث تراخى بهم الجهل عن الحقيقة التي وجدوا من أجلها، فأدّى ذلك بهم إلى الظلم والطغيان القائم على هوى النفس، بحيث يستمدون تسلطهم على الآخرين ممّا أنعم الله عليهم به من:

. نعمة العافية.

. نعمة العقل.

. مكانة مادية.

. مكانة اجتماعية.

535 - هود 26.

536 - النساء 165.

ولأنّ الله سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى، والحليم من أسمائه، فهو يمدّ للظالمين مدّا، فإذا أخذهم لم يفلتتهم.

ولما كان الله تعالى حليما، فمن حلمه جلّ وعلا أنه بعث الأنبياء الرّسل محذّرين ومنذرين للناس كي لا تبطّروهم النعمة، ولا يُترفوا فيها، ولا يستعبدوا بها خلق الله.

ومن عدل الله سبحانه وتعالى، وإن جعل الإنسان مسيرا في هذا الكون، إلا أنّه جعله مختارا في جزئياته، وجعل فيه فطرة الخير هي الطاغية على الشرّ، وهو إلى الصّلاح بطبعه أقرب منه إلى الفساد، ونوازع الخير في نفسه أعلى مكانة من الشرّ، وحقن الدماء أحب إليه من سفكها، إلا من اتّبع هواه وكان أمره فرطا. فكان معظم قوم نوح عليه الصّلاة والسّلام ممن اتبع هواه.

فكون الإنسان مجبولا على الخير والشرّ، فهو في أصل الحلقة مجبول أيضا على أن يصلح أفعاله وأخلاقه وتمييزه، وعلى أن يفسدها بيده، وميسّر له أن يسلك طريق الخير وطريق الشرّ، وإن كان منهم من هو بالجملة إلى أحدهما أميل. وعلى تمكّنه من السبيلين أقدر، فقد بيّن الله تعالى ذلك بقوله: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} 537

وقوله تعالى: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} 538 أي عرّفناه الطريقين وبيّناهما له، وكما أنّه مفطور على اكتساب الأمرين في ابتدائه، فهو مفطور على أنّه إذا تعاطى أحدهما:

إن خيرا وإن شرا ألفه.

فإذا ألفه تعوّد.

537 - الإنسان 3.

538 - البلد 10.

وإذا تعودت تطبّع به.

وإذا تطبّع به صار له طبعا وملكة، فيصير فيه بحيث لو أراد أن يتركه لم يمكنه ذلك بنفسه، ولما كان قوم نوح عليه الصلّاة والسّلام قد ألفوا غير الفطرة السليمة، وسلكوا في ذلك مسالك بعيدة غورها، فإن على قلوبهم الكفر والعصيان، أرسل الله تعالى نوحا نذيرا مبينا.

ومن خلال إنذار نوح لقومه نقف على قضايا كبيرة ومهمة في الخلق والفطرة والهدى والضلال وقضايا الجبر والاختيار وما إلى ذلك، حيث أنّ الفهم الخاطيء لبعض آيات القرآن الكريم، من قبل البعض، يدخلهم في متاهات توقعهم في أمور تُخلُّ في عقيدتهم.

فعندما يعتقد البعض في فهم قوله تعالى: {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} 539 أنّ المؤمن فطره الله على الإيمان، والكافر فطره الله على الكفر، فلا سبيل إلى ارتداد أولئك عن إيمانهم، ولا رجاء في إيمان هؤلاء، يكون قد أوقع الظلم على الله تعالى، والله سبحانه نفى ذلك عن نفسه حيث قال تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ} 540.

والذي يعتقد ذلك فإنّه ينفي حاجة الخلق للنذير المبين، ولو كان الأمر كذلك لما بُعث نوح ومن بعده من الأنبياء عليهم الصلّاة والسلام منذرين ومبشرين ومبينين، فقلوه تعالى بحق المنذرين العصاة: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} 541.

539 - الروم 30.

540 - الأنفال 51.

541 - التوبة 80.

فعدم المغفرة لهم، ليس لأنّ الله تعالى كتب عليهم الشقاء، ولكن لعلمه تعالى بما سيكون قبل كونه وبالأمر قبل وقوعه أنهم لن يؤمنوا، لأنهم لن يصغوا إلى النذير ولن يأخذوا بأسباب النجاة والصلاح فأصروا على المعصية، وعندما أصروا على عدم التوبة والرجوع إلى الحق والعدول عن الباطل، فمن الطبيعي ألا يغفر الله لهم، ومن الظلم إن بقوا على باطلهم، أن يغفر الله لهم. فقد توهم البعض ألا أثر للإنذار والتحذير لأنّ الناس مجبولون على طبائع لا سبيل إلى تغييرها، فمنهم خيار بالطبع، ومنهم أشرار بالطبع، أمّا نحن فلا نقول بهذا ولا نذهب إليه، بدليل أنّ الذين أنذروا من الناس، منهم من آمن ومنهم من لم يؤمن، ومن الذين آمنوا منهم من كفر ثم آمن ثم كفر، ثمّ ازداد كفره، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا} 542. إذن هو صراع بين النجدين باختيار العقل وكبح جماح العاطفة، أو بانعتاق العاطفة من قيد العقل وانطلاقها، فالعقل يقود إلى الحق، والعاطفة تنقاد لهوى النفس وشهواتها، والفيصل بينهما الإرادة التي تتخذ القرار، لأن من الذين أنذروا منهم من آمن، ثمّ بقوا ثابتين على إيمانهم، ونحن لا ننكر أن الناس يتفاوتون في أصل الخلقة والطبع وما ركّبوا عليه، ولكن ما من أحد إلا وله قوّة على اكتساب قدر ما من الفضيلة، ولولا ذلك لانتفت العبرة من الإنذار، ولما كان داعٍ أو سبب يوجب وجود النذير ولا إنذار المنذرين.

فلما كانت للناس القدرة على فعل الشر والأخذ بأسبابه، كذلك كانت لهم القدرة على فعل الخير والأخذ بأسبابه والتمسك بها، ولكن البعض لم يفعل ذلك إصرارا على اختيار الباطل، فوجب وجود النذير.

إنّ نوحا عليه الصلّاة والسّلام كان نذيرا مبينا لقومه، لم يدخل معهم في خصومة، وإن دخل معهم في جدل أظهر لهم من خلاله منتهى الإنذار، لأنّ النذير ليس خصما أو عدوا، إنّما النذير حريص على من ينذره مودة له ومحبة فيه، ففي قوله لهم: {وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكَيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} 543.

فهذا الإنذار في منتهى الدعة والطف من نوح عليه الصلّاة والسّلام في إنذاره الطويل لهم، والتذكير المستمر بما يحمل من لين جانبه وتواضعه لهم محبة فيهم وخوفا عليهم، بحيث يعطي الإنذار أقصى مداه في بيان سوء مسالكهم وتصرفاتهم بصدودهم عنه، وتمسكهم بما ينهاهم عنه وينذرهم منه. بينما نقف على حال المندّر من قوم نوح قد قابلوه بالكذب والإعراض والسخرية، ولم يزد نوح عليه الصلّاة والسّلام على قوله لهم وهو يصنع الفلك أن طلب منهم الانتظار حتى ينجلي لهم صدق ما يقول دون تهديد أو اتهام إلا أنّه سخر منهم كما يسخرون منه وممن اتبعه قال تعالى: {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ} 544.

وهو جواب في غاية الأدب والإنصاف والصدق كما قال تعالى: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} 545. فليس في ذلك

543 - يونس 71-72.

544 - هود 38-39.

545 - سبأ 24.

اتهام لأحد، وإنما الوقت هو الكفيل بتوضيح الحقيقة وإظهار من هو على ضلال ومن هو على هدى دون إثارة الحفيظة في الاتهام.

وعندما بلغ الضيق منه فيهم مبلغا عظيما:

لم يعرض عنهم كما عرضوا عنه.

لم يكذبهم كما كذبوه.

ومع صدقه لهم عليه الصلاة والسلام، وتكذيبهم إياه: { فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } 546. ما زاد أن قال لهم: { إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } 547.

فقد فوّض الأمر إلى الله تعالى، وهو ماضٍ في إنذارهم محبة لهم وخوفا عليهم ورحمة بهم. قال تعالى: { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ } 548.

وهنا يؤسس نوح عليه الصلاة والسلام أسسا تستند إليها المنذرين من بعده، ويرفع لهم قواعد بينون عليها، وهي أنّ النذير من الله إذا جُوبه بالإعراض من المنذرين والصدود عنه، وعدم الاستجابة له، فإنه يتوكل على الله، والله يكفيه شرّ هؤلاء المنذرين. ويوسع صدره الذي ضيقوه بإعراضهم عنه.

إنّ نوحا عليه الصلاة والسلام رسول إلى قومه: { إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } 549 أرسله الله تعالى لينذرهم ويخوفهم عذاب الله، ومع ذلك فهو يحمل البشرية

546 - هود 32.

547 - هود 33.

548 - هود 28.

549 - نوح 1.

لمن استجاب للإنذار، قال تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ {550}.

لأنّ الإنذار هو الإعلام بالشيء الذي يحمل التحذير، فالإنذار
إخبار فيه تخويف، والتبشير إخبار يحمل السرور. ولذا كان نوح عليه
الصلاة والسلام بشيرا ونذيرا.

بشير لمن آمن معه من أهله وقليل من قومه، ونذير لقومه جميعا،
لأنّ الذين آمنوا كانوا ضمن المنذرين قبل الإيمان، فلما آمنوا كان نوح
عليه الصلاة والسلام لهم بشيرا.

المبين المطلق والمبين النسبي:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ﴾ {551}.

إن الله سبحانه وتعالى أرسل نوحا مبينا لقومه ما خفي عليهم وما
تجاوزوا فيه على الحق، وما استغلق عليهم فهمه ومعرفته. ونوح عليه
الصلاة والسلام استمد بيانه من الله المبين المطلق، ولذا آثرنا أن
نتطرق إلى هذا الجانب بشيء من التفصيل.

الله تعالى المبين المطلق:

إنّ الله تعالى يبيّن للناس عن طريق الرّسل والأنبياء الذين بيّن لهم،
ثمّ إنّ الأنبياء الرّسل يبيّنون للناس ما أمرهم به الله تعالى، والله سبحانه
وتعالى هو المبين المطلق، والإنسان الذي استخلفه الله في الأرض هو
المبين النسبي، وقبل أن نستطرد في نوح مبین، (مبين نسبي) نقف على
جزء من إبانة المبين المطلق في مطلع آيات سورة الحج حيث قال
تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ

550 - الأنعام 48.

551 - هود 25.

تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا
 وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۖ وَمِنَ
 النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ
 أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ
 كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِمَّنْ نُطْفِقُ ثُمَّ مِمَّنْ
 عَلَقَةٌ ثُمَّ مِمَّنْ مُضْغَةٌ مُّخَلَّقَةٌ وَعَيْرٍ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا
 نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبُلَّغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ
 يَتَّقَىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا
 وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فِإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ
 كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ { 552.

فإن الله تعالى بيّن في هذه الآيات صدق البعث والنشور بأدلة داخلية
 في ذات النفس الإنسانية (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة
 شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل
 ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب
 الله شديد).

مطلع في منتهى الإبانة والوضوح لإظهار العنيف الرهيب في شدة
 ذلك اليوم عندما أطلق عليه اسم شيء، ثم وصفه بأنه عظيم، فأتى
 بنكرتين الثانية منهما وصف للأولى، حتى أن الإنسان إذا تخيل ذلك
 اليوم أي شيء فإن العظمة لا تنفك عنه لمشهد ترتجف لهوله القلوب
 وتبلغ به الحناجر، في وضوح الصورة المتخيلة من قبل الإنسان، وبيانها
 لأي شيء يمكن أن يراود ذهنه، فهذا والله منتهى البيان (إن زلزلة
 الساعة شيء عظيم).

ثُمَّ إِنَّ الإِبَانَةَ الْكَامِلَةَ وَاضِحَةً لِلْعَيَانِ شَامِلَةً، لَمْ يَجْرِ فِيهَا اسْتِثْنَاءٌ
لِأَحَدٍ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنْ زَلَزَلَتْ السَّاعَةَ شَيْءٌ عَظِيمٌ). فَالنداء
عَامٌّ شَامِلٌ مَجْمَلٌ.

فهو تهويل مجمل مجهول (شيء عظيم) دون تحديد ولا تعريف بهذا
الشيء، ثُمَّ يَأْتِي بَيَانٌ تَفْصِيلٌ مَا يَجْرِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، لِيَبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا
هُوَ أَشَدُّ رَهْبَةً مِنَ التَّهْوِيلِ الْعَامِّ، عِنْدَمَا يَبَيِّنُ جَزْئِيَّاتٍ مَا يَحْمِلُهُ
الموضوع الكلي.

وحتى يكون البيان من المبين أعظم أثرا في وقعه، كانت إسقاطاته
داخلية وليست خارجية، إسقاطات موضوعها الإنسان نفسه، كي
تكون الصورة أشدَّ بيانا وأكثر وضوحا وأبدا للعيان، فالموقف حافل
بالمرضعات عمّا أرضعن، على الرغم من أنّهنَّ يَرَيْنَ أبناءهن الذين
أرضعنهم، ولكن قد شغلهنَّ هول الموقف بأنفسهنَّ عن الآخرين،
بصرف النظر عن ذلك الآخر، سواء أكان ابنا أو أبا أو أمّا مهما
كانت درجة القرابة لصيقة فإنه ذاهل عنها.

ومن وضوح الهول وبيان المشهد أن كل حامل تسقط حملها لما
ينتاجها من الفزع المروع، ثُمَّ أَنَّ الصُّورَةَ تَتَعَاظَمُ فِي بَيَانِهَا لِتَشْمَلَ جَمِيعَ
الخلق، ويكون ذلك بيّنا لهم على أن الأمر لا يتوقف على النساء دون
الرجال لما ذكر من المرضعات والحوامل، بل إن حال النَّاسِ سَكَارَى
ولم يَأْتِ بِأَدَاةِ التَّشْبِيهِ فَلَمْ يَقُلْ (كَالسَكَارَى). وَهَذَا أَشَدُّ بَيَانًا وَأَكْثَرَ
وضوحا في حذف أداة التشبيه، لأنَّ هذه حقيقتهم في ذلك الموقف،
فهم ليسوا سَكَارَى مِنَ الْمِدَامِ أَوْ الْخَمْرِ، وَإِنَّمَا تَبَدَّى السُّكْرُ فِي نَظَرَاتِهِمْ
الذاهلة، وفي خطواتهم المضطربة وفي رؤوسهم المترنحة، فهذا المشهد
المزدحم بذلك الحشد المتماوج، تكاد العين تبصره لحظة وقوعها على
نص الآية، وإن كانت الصورة يتمثلها العقل بما يملؤها من الخيال. وأمّا

الهول الشاخص المذهل، فلا يكاد يبلغ أقصاه حتى تتمثله النفس. وهو هول قائم لا يقاس بالحجم والضخامة والعِظَم، وإنما يقاس بوقعه في نفوس النَّاس من:

. المرضعات الذاهلات عما أرضعن.

. ذهول المرضعة عن طفلها وفي فمه ثديها.

. عدم التفات الحوامل لإسقاطهن مع ما يسبب الإسقاط من ألم.

. النَّاس السكارى لا من الخمر أو المِدام.

. ولكن عذاب الله شديد.

ثُمَّ بَيَّنَّ المبين المطلق للمجادلين بغير علم أنهم يسلكون مسالك الشيطان، ووضَّح لهم ذلك حتى يتجنبوه بقوله تعالى: (ومن النَّاس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير).

والجدال في الله من قبل البعض إنما هو اتِّباع لسبيل الشيطان، فقد بيَّنَّ الله سبحانه وتعالى سوء هذا الجدل وعاقبته سواء أكان:

في وجود الله تعالى.

أم في وحدانيته.

أم في قدرته.

أم في علمه.

أم في صفة من صفاته.

أم في اسم من أسمائه.

فالمبين تعالى قدم ذكر (يوم عظيم) وما يجري فيه على الخلق من أهوال، ثُمَّ أَرَدَفَ ذلك بذكر المجادلين في الله بغير علم، حتى يبيِّن لهم غواية ما هم فيه، فقد بيَّنَّ الله تعالى أن الذي يجادل في شيء من هذا، فلينتظر ظل ذلك الهول من الشيء العظيم، والذي لا نجاة منه

إلا بتقوى الله ورضاه، ذلك الجدال يبدو عجيباً، أن يصدر من ذي عقل وقلب لا يتقي شرّ ذلك الهول المنزل المجتاح الذي بيّنه الله تعالى للناس جميعاً.

وقد ساق بيّنة أخرى لهؤلاء، لأنهم لا يجادلون عن علم ومعرفة ويقين. ولكنه جدال (بغير علم) فهنا تبيان جدال التطاول المجرد من الدليل ولا يستند إلى برهان كي يقوم الدليل حجّة على ما يجادلون. فبيّن أن هذا الجدال، جدال ضلال ناشئ عن اتباع الشيطان. فهذا الصنف من الناس يجادل في الله بالهوى: (ويتبع كل شيطان مرید). فهو عاتٍ عن أمر الله مخالف للحق متبجح بالباطل، وقد أخذ الشيطان على نفسه العهد أنه سيحاول إغواء الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وهنا تسطع البيّنة من الله تعالى بأن أداها لهم بقوله: {كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ} 553.

فهذا حتم مقدور أن يضل الشيطان تابعه عن الهدى والصواب، وأن يقوده إلى عذاب السّعير، ثمّ أن الأسلوب القرآني يسوق البيّنة وهو يتهمكم بهؤلاء وأمثالهم في تعبير المعنى إليهم، فيسمي قيادة الشيطان أتباعه إلى عذاب السّعير هداية! (ويهديه إلى عذاب السّعير).

فالهداية لا تكون إلى الضلال، ولا تكون إلى سوء المآل، فكيف تكون هداية هي الضلال المهلك المبيد! ولكن المبين قصد الالتفات من ناحية بلاغية تستوقف المتلقي وتنبيهه؛ أرايتم هدى يهدي إلى الضلال؟ حيث معلوم للعقل والفطرة أنّ الهدى لا يكون إلا إلى صراط مستقيم تُحمد عقابه، فإن كان هذا هداية الذي تزعمون، فإنه

أوصلكم إلى عذاب السعير، والأمر الذي تكون عاقبته عذاب السعير، فإنه ليس من الهدى في شيء، وهو عن الهدى أبعد ما يكون.

ثُمَّ تَأْتِي الْبَيِّنَات تَتْرَى أَقْرَبَ مَا تَكُونُ إِلَى الْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ جُزْءٌ مِنْهَا، يَعِيشُهَا وَيَحْسُهَا وَيَشَاهِدُهَا، دُونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهَا سَهْوًا أَوْ غَفْلَةً أَوْ قَصْدًا، وَحَتَّى لَا يَكُونَ النَّاسُ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ؛ وَفِي شَكٍّ مِنْ زَلْزَلَةِ السَّاعَةِ، فَإِنَّهُ يَبَيِّنُ لَهُمْ مِنْ خِلَالِ أَقْرَبِ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِمْ، وَالتَّصَاقُهَا بِهِمْ، وَاتِّصَافُهُمْ بِهَا، إِنْ كَانُوا يَشْكُونَ فِي إِعَادَةِ الْحَيَاةِ، فَلْيَتَدَبَّرُوا كَيْفَ يَنْشِئُ اللَّهُ الْحَيَاةَ، وَلْيَنْظُرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ، وَفِي الْأَرْضِ مِنْ حَوْلِهِمْ، حَيْثُ تَنْطِقُ لَهُمُ الدَّلَائِلُ وَتَتَجَلَّى الْبَرَاهِينُ فِيهِمْ وَمِنْ حَوْلِهِمْ؛ وَلَكِنَّ النَّاسَ يَمْرُونَ عَلَى الدَّلَائِلِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي الْكُونَ غَافِلِينَ عَنْهَا قَالَ تَعَالَى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } 554.

فبَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى لِحَلْقِهِ أَنَّ الْبَعْثَ وَإِعَادَةَ الْحَيَاةِ، كَانَتْ أَهْوَنَ مِنَ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ فِي الْمَقْيَاسِ الْبَشَرِيِّ مِنْ إِنْشَاءِ الْحَيَاةِ الْأُولَى؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِالْمَقْيَاسِ إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ شَيْءٌ أَيْسَرُ مِنْ شَيْءٍ، أَوْ شَيْءٌ أَصْعَبُ مِنْ شَيْءٍ. فَالْبَدْءُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى كَالْإِعَادَةِ: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ). وَلَكِنَّ الْعِبْرَةَ مِنْ ذَلِكَ هُوَ التَّبْيِينُ، فَيُبَيِّنُ لِلْبَشَرِ إِعَادَةَ الْخَلْقِ بِمَقْيَاسِهِمْ، وَمَنْطِقَهُمْ وَإِدْرَاكَهُمْ، وَفَقَّ مَا يَسْتَوْعِبُونَ،

فيوجه قلوبهم وعقولهم إلى تدبّر المشهود والمعهود والمألوف لديهم، وهو يقع لهم في كل لحظة، ويمرّ بهم في كلّ برهة؛ وهذه من الخوارق التي لو تدبّروها بالعين البصيرة، والقلب المفتوح، والحس المدرك، لما راود أحد شكّا في البعث والنشور، ولكنهم يمرّون بها أو تمرّ بهم دون وعي ولا انتباه.

ثمّ يتسلسل القرآن الكريم في بيان المجمل، فيبيّن للناس جزئيات القضية حتى يسطع البرهان وتقوم الحجّة

فما هؤلاء النّاس؟

من أين جاءوا؟

كيف كانوا؟

في أي الأقطار مرّوا؟

قال تعالى مبيناً ذلك: (فإنّا خلقناكم من تراب).

لقد بيّن الله تعالى أن الإنسان ابن هذه الأرض، من ترابها نشأ، ومن ترابها تكوّن، ومن ترابها عاش. وما في جسمه من عنصر إلا له نظيره في عناصر أمه الأرض، اللهم إلا ذلك السر اللطيف الذي أودعه الله إياه ونفخه فيه من روحه؛ وبه افتراق عن عناصر ذلك التراب، ولكنه أصلا من التراب عنصرا وهيكلًا وغذاء، وكل عناصره المحسوسة من ذلك التراب.

ولكن أين التراب من الإنسان؟ أين تلك الذرات الأولية البسيطة من ذلك الخلق السوي المركب المعقد، حيث هو:

. فاعل مستجيب.

. يؤثّر ويتأثّر.

. يقبل ويرفض.

. يعصي ويطيع.

هو الإنسان الذي يضع قدميه على الأرض، ويرف بقلبه إلى السماء؛ ويخفق بفكره فيما وراء المادة كلها وما وراء التراب الذي خلق منه.

إنَّها نقلة عظيمة بعيدة الأغوار والآماد، تشهد بالقدرة التي لا يعجزها البعث، وهي أنْشِئَتْ من ذلك الخلق! من تراب! ثم يأتي بيان تسلسل الأطوار بقوله تعالى: (ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً).

فبيّن الله تعالى للناس المسافة بين عناصر التراب الأولية الجامدة، وبين النطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية، هذه المسافة الهائلة بالنسبة للتصور البشري، تُضْمِر بين طياتها السرّ الأعظم، سر الحياة.

السرّ الذي لم يعرف البشر عنه شيئاً يذكر، كيف تحولت ذرّات التراب الجامدة الصلبة، إلى خلايا حية ينبثق منها في كل لحظة من لحظات ملايين الخلايا، والذي لا سبيل إلى أكثر من ملاحظته وتسجيله، دون التطلع إلى خلقه وإنشائه، ومهما طمح الإنسان، وتعلق بأهداب المحال فيبقى بحاجة إلى تبيين المبين!

ثم يبقى بعد ذلك سرّ تحول تلك النطفة إلى علقة، وتحول العلقة إلى مضغة، وتحول المضغة إلى إنسان!

فما تلك النطفة؟

إنها ماء الرجل؛ والنقطة الواحدة من هذا الماء تحمل ملايين الحيوانات المنوية، وحيوان واحد منها هو الذي يلحق البويضة من ماء المرأة في الرحم، ويتحد بها، فتعلق في جدار الرحم.

وفي هذه البويضة الملقحة بالحيوان المنوي، في هذه النقطة الصغيرة العالقة بجدار الرحم بقدرة القادر، وبالقوّة المودعة بها من لدنه، في

هذه النقطة تكمن جميع خصائص الإنسان المقبل: صفاته الجسدية وسماته، من طول وقصر، وضخامة وضآلة، وقبح ووسامة، وآفة وصحة.

كما تكمن صفاته العصبية والعقلية والنفسية: من ميول ونزعات، وطباع واتجاهات وانحرافات، وتهيؤ واستعداد وإرادة وفعل.

فمن يتصور أو يصدق أن ذلك كله كامن في تلك النقطة العالقة؟ وأن هذه النقطة الصغيرة الضئيلة، هي هذا الإنسان المعقد المركب، الذي يختلف كل فرد من جنسه عن الآخر، فلا يتمثل اثنان في هذه الأرض في جميع الأزمان!

ثم يبيّن المبين الطور التالي من العلاقة إلى المضغة، وهي قطعة من دم غليظ لا تحمل سمة ولا شكلا، ثم تُخَلَّق فتتخذ شكلها بتحولها إلى هيكل عظمي يُكسى باللحم؛ أو يلفظها الرحم قبل ذلك إن لم يكن مقدّرا لها التمام.

ثم يأتي التأكيد على البيان: (لنبين لكم) فهنا انتقال جديدة بين المضغة والطفل، يقف السياق القرآني عندها بجملة اعتراضية: (لنبين لكم). نبين لكم دلائل القدرة في تبين الملامح في المضغة:

وكيف تحولت بعدما كانت؟

كيف أصبحت؟

وذلك في أسلوب متناسق فني في التصور، وبيان عجائب الخلق في القرآن الكريم.

ثم يمضي تبيان أطوار الجنين: (ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى) فما شاء الله أن يتم تمامه، أقره في الأرحام حتى يحين أجل الوضع فيخرجه طفلا، وهكذا يبيّن المسافة الهائلة بين الطور الأول وبين الطور الأخير.

نعم إنها في الزمن تعادل تسعة أشهر عادة، أو سبعة أشهر استثناءً، أو ما يشاء الله أن يمكث الجنين؛ ولكنها أعمق من ذلك بكثير في اختلاف طبيعة النطفة وطبيعة الطفل، النطفة التي لا ترى بالعين المجردة، وهذا المخلوق البشري المعقد المركب، ذو الأعضاء والجوارح، والسماوات والملاحح، والصفات والخصائص والنزعات والتهيهؤ والاستعداد والإرادة والفعل.

فهذه المسافة لا يكاد يعبرها الفكر الواعي، إلا وقد وقف خاشعا لما بيّنه الميّن من آثار القدرة القادرة مرّات كثيرة. ثم يمضي السياق مع أطوار ذلك الطفل بعد أن يرى التور، ويفارق المكمّن الذي تمت فيه تلك الخوارق في خفية عن الأنظار بما بيّنه للناس!

وأما المراحل التالية من الطفولة إلى أرذل العمر فظاهرها بيّن لكل ذي عقل رشيد.

ثم تستطرد الآية إلى عرض مشاهد الخلق والإحياء في الأرض والنبات بصورة مقابلة لخلق الإنسان وإحيائه، وتبيان ذلك في عملية الرّبط بين تكامل الخلق في وجود أحدهما ضرورة للآخر، قال تعالى: (وترى الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج).

فقد بيّن الله تعالى أنّ الأرض حية، بدليل أنّ الهمود درجة بين الحياة والموت، لأنّ الهامد ليس ميتا، وإمّا تسري فيه الحياة، ولكنه يحتاج إلى عناصر أخرى كي تدبّ فيه الحركة، وليس كما هو سائد أنّ الهامد لا حياة فيه، فقد بين الله تعالى أنّ الأرض حية، وهكذا تكون قبل إنزال الماء، وهو العنصر الأساس في ديبب الحركة في الأحياء، بدليل لو أنّ ميتا أعطيناها ماءً لا تدبّ فيه الحركة لأنه ليس هامدا.

فإذا نزل عليها الماء (اهتزت وربت) فهي تتحرك على الحياة وساكنة على الحركة، فنزول الماء لم يدب فيها الحياة، وإتّما منحها القوّة على الحركة والاهتزاز، وهي حركة عجيبة سجل صورتها القرآن الكريم وبيّنها لنا، قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات السنين، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تشرب الماء وتنتفخ، فتربو ثم تنفتح بحركة النبات (من كل زوج بهيج). فهي أبهج ما تكون وهي تنفتح بعد الكمون وليس بعد الموت، وتنتفض بعد الهمود، وليس بعد مفارقة الحياة؟

فالمبين بيّن لنا بما يقصّ علينا القرآن الكريم مدى الاتصال والقرابة بين أبناء الحياة جميعاً، فيسلّكهم في آية واحدة من آياته، هي التفاتة عجيبة في تبيان هذه القرابة الوثيقة بين الأحياء، وهذا دليل على وحدة عنصر الحياة للخلق جميعاً، وعلى وحدة الإرادة الخالقة للحياة في الإنسان والحيوان الأرض والنبات: (ذلك بأنّ الله هو الحقّ وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأنّ السّاعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور).

لقد بيّن الله تعالى أن إنشاء الإنسان من التراب وتطوّر الجنين في مراحل تكوينه، وتطوّر الطفل في مراحل حياته، وانبعثت الحركة من الأرض بعد الهمود؛ ذلك متعلق بأنّ الله هو الخالق. فهو بيان للسنن المطردة التي تنشأ من أن خالقها هو الحقّ الذي لا تحتل سننه ولا تختلف، وقد بيّن أن الاتجاه في هذه الأطوار، هو دليل على الإرادة التي تدفعها وتنسق خطاها وترتّب مراحلها هي إرادة واحدة. فهناك ارتباط وثيق بتبيان الدليل بين أن الله هو الحقّ، وبين هذا الاطراد والثبات والاتجاه الذي لا يجيد (وأنه يُحيي الموتى).

فإحياء الموتى هو إعادة للحياة. وبين كذلك أنّ الذي أنشأ الحياة الأولى هو الذي يعيدها للمرة الآخرة (وأن الله يبعث من في القبور) ليلاقوا ما يستحقونه من جزاء. فهذا البعث تقتضيه حكمه الخلق والتدبير.

فبيان دلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة، فهي تدل على البعث من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة، وبيان دلالة أنّ البعث صادر عن إرادة واحدة لجميع الخلق من الناس وغيرهم، فبين نواميس الخلق والإعادة، ودلائل الحياة والبعث، وبراهين الحساب والجزاء، وكلّ ذلك يشهد بوجود الخالق المدبر القادر الذي ليس في وجوده جدال. ومع هذه الدلائل المتضافرة فهناك من يجادل في الله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَائِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيغُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} 555.

نوح مُتَّبِعِينَ:

المبين المطلق هو الله سبحانه وتعالى، ثمّ أنبياءه ورسله ليبينوا للناس قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 556.

إنّ من زيادة التبيين، رحمة من الله تعالى بعباده، أنّه ما أرسل رسولا إلا بلسان قومه (ليبين لهم) ما أمر به الله تعالى، وما يحتاجون إليه، وما يتمكّنون به من تعلم ما جاء به الرسول، بخلاف ما لو كانوا على غير لسانه، فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلّموا تلك اللغة التي يتكلم

555 - الحج 8 - 10.

556 - إبراهيم 4.

بها، ثم يفهمون عنه، وهو أشقّ عليهم وأصعب، ولذا كان التبيين من الرسول بلسان قومه، فإذا بيّن لهم ما أنذروا به، ونهوا عمّا نهى الله عنه، قامت عليهم حجة الله (فيضلاً من يشاء) ممن لم يتخذ الهدى سبيلاً، (ويهدي من يشاء) ممن تبين الحقّ من الرسول فاخصه الله برحمته.

وقد بيّن الله تعالى لنوح عليه الصّلاة والسّلام أشياء كثيرة، مع أنّ نوحاً مبيناً لقومه، ودليلنا في ذلك أن الله سبحانه وتعالى بيّن لنوح ما كان خافياً عليه، عندما نادى نوح عليه الصّلاة والسّلام: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ 557.

فهنا لم يكن نوح عليه الصّلاة والسّلام على بينة من أمر اتّضح له بعد أن بيّنه الله تعالى، بأنّ اختلاف العقيدة بيت ما وصلته القربى ويقطعها، بصرف النظر عن هذه القربى من عصب أو رحم أو نسب، فبيّن الله تعالى لنوح عليه الصّلاة والسّلام ذلك بقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ 558.

لقد بيّنه الله سبحانه وتعالى لنوح عليه الصّلاة والسّلام، أن أهليّة الأنبياء ليست أهليّة الدم واللحم والرحم، ولكنها أهليّة المنهج والاتباع، فإذا أخذ نوح عليه الصّلاة والسّلام، بالمقياس الذي بيّنه له الله تعالى سيجد أن ابنه ليس من أهله.

فهذه بينة من الله تعالى لنبيّه نوح عليه الصّلاة والسّلام، أخذ بها وأمر قومه بذلك وجعلها سنة وشرعاً للأنبياء من بعده بأمر من الله

557 - هود 45.

558 - هود 46.

تعالى، ولذا، نقف على البيّنة التي بيّنها الله تعالى لنوح عليه الصّلاة والسّلام وهو أول الأنبياء المرسلين، قد عمل بها النبي الخاتم عليه الصّلاة والسّلام عندما قال: "سلمان منّا أهل البيت" 559. وفق ما بيّنه الله تعالى لنوح عليه الصّلاة والسّلام، فتأسست هذه البيّنة على يد نوح عليه الصّلاة والسّلام، فكانت منهجا للأنبياء من بعده، ولأنّ سلمان رضي الله عنه، كان عملا صالحا، فقد أصبح من أهل بيت محمّد عليه الصّلاة والسّلام.

وعليه: فالبنوة بالنسبة للأنبياء هي بنوة اتّباع، لا بنوة نسب، حيث كانت البيّنة في هذا الأمر دقيقة واضحة: (إنه ليس من أهلك).

ثم أتى سبحانه وتعالى بالعلة السببية والحيثية المانعة للأهليّة بقوله: (إنه عمل غير صالح).

فجعل البنوة عملا، وليست ذاتا، فأنكر الذات وأثبت العمل، والذي أقره في الأهليّة هو العمل، فعمل ابن نوح كان غير صالح، ولذا، لم يؤهّله عمله أن يكون ابنا لنوح، بينما أهل سلمان عمله لأن يكون من أهل محمّد عليه الصّلاة والسّلام.

وقد أوضحت هذه البيّنة أنّ المحكوم عليه في البنوة للأنبياء ليس بالدم، وليس بالرحم، وليس بالنسب، وإنما هو الاتّباع، بدليل أن الحق سبحانه وصف ابن نوح بقوله تعالى: (إنّه عملٌ غير صالح) ولو كان عملا صالحا لكان ابنه.

ولذا، جاء الرسالة الخاتمة بقوله تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ

559 - دلائل النبوة، ج 3، ص 498.

اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ
ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا {560.

فبنوة العمل الصالح القائم على الإيمان مسطورة في الكتاب قبل
الخلق والخلقة.

ولذا، نبه الله تعالى نوحاً عليه الصلوة والسلام وبين له ذلك
تأكيداً بقوله تعالى: { قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ
صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ
الْجَاهِلِينَ } 561.

فالمبين هو الذي يوضح البيان ويعرف به الآخرين، لأنّ البيان أمر
يتعلق بالتعريف والتوضيح والإعلام والإخبار بدليل. لأنّ الدليل
مدعاة لحصول العلم بالخبر من المبين الذي يمتلك الإبانة أو التبيين
الذي يُخرج الشيء:

. من حيز الإشكال إلى حيز التجلي.

. ومن الغموض إلى الوضوح.

. ومن عدم العلم بالشيء إلى العلم به.

وعن طريق المبين تحصل المعرفة فيما يُحتاج إلى معرفته، لأنّ البيان
الذي يتصف به المبين، إنما هو الدليل الذي يحمل البرهان الموصل
بصحيح النظر فيه إلى العلم بما هو دليل عليه.

نوح مبين:

النذير المبين(نوح) عليه الصلوة والسلام، يحمل بيانا ويتصف
ببيان، فالبيان الذي يحمله هو الرسالة التي كُلف بتبليغها، والبيان
الذي يتصف به كونه مبيناً، هو القدرة على تبيين البيان الذي يحمله

560 - الأحزاب 6.

561 - هود 46.

بالبیان الذي يتصف به، وبعبارة أوضح أن بیان صفة المتصف به، هو قدرة المبین على فلسفة بیان التكليف وفق تصورات الآخرين على اختلاف عقولهم وثقافتهم وتفاوت أفهامهم، بإیصال حقيقة البیان عن طریق الإبانة بحيث لا تختلف الحقيقة في أفهام هؤلاء جميعا على حدّ سواء مهما تفاوتت درجات الاستيعاب لديهم.

وهنا يكمن الفرق بين كلٍّ من: الإبانة، والتبيين، والبيان، والمبين:

. الطريقة إبانة.

. الأسلوب تبيين.

. الأداء بیان.

. البیان يحمل بیانا.

. البیان الحامل صفة المبین.

. البیان المحمول رسالة المبین.

. المبین من يؤدّي ذلك بهذه المعطيات.

فقوله تعالى: { هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } 562. أنّ

القرآن الكريم هو بیان لجميع الناس دون استثناء ليدلّ على العموم والشمول والختم.

وهذا لا يعني أنّ البیان مقتصر على القرآن الكريم، أو أنّ القرآن

الكريم هو وحده البیان وإنما:

. كلّ رسالة جاء بها رسول من الله هي بيان وتبيان للناس.

. كل رسول يحمل رسالة هو مبين.

فمن دلّ غيره على الشيء بوجه عام يبيّن له ذلك الشيء، إلا أنّ

تبيان الأنبياء لأقوامهم وتبيان نوح لقومه:

. لا يكون إلاّ في الخير.

562 - آل عمران 183.

. لا يحمل إلا الخير .

. لا يدعو إلا إلى خير .

وهو بيان من نوح عليه الصلّاة والسّلام بحقّ في وجه حقّ يدعو

إلى الحقّ، وقد كان تبيان نوح عليه الصلّاة والسّلام لقومه في:

. أوقات مختلفة: { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا } 563.

. طرق مختلفة: { ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا } 564.

{ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا } 565.

. بينات مختلفة: { يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا } 566.

{ وَنُفِثْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَبَيْنَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ

أَنْهَارًا } 567.

{ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا } 568.

{ وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ أَطْوَارًا } 569.

{ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا } 570.

{ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا } 571.

{ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا } 572.

{ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِحْرَاجًا } 573.

563 - نوح 5.

564 - نوح 8.

565 - نوح 9.

566 - نوح 11.

567 - نوح 12.

568 - نوح 13.

569 - نوح 14.

570 - نوح 15.

571 - نوح 16.

572 - نوح 17.

{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا} 574.

{لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا} 575.

فهذا التبيان بهذه الوجوه من نوح عليه الصلّاة والسّلام يحمل أدوات مختلفة أيضا، حسب ما يستدعي الموقف والحالة بما يكون عليه المبيّن لهم وهم قومه، من المبيّن، فقد يكون بيان ذلك:

. بالقول.

. بالفعل.

. بالإشارة.

. بالرمز.

إذ أنّ كل ذلك دليل مبيّن، فنحن لا نحصر الإبانة في القول على أنّه هو المخصوص في الدلالة والتبيين كما ذهب كثير من أصحاب الكلام، من أنّ الإبانة مخصوصة بالدلالة القولية عندما يكون لها حسن بيان في كلام رشيّق يوصل إلى المقاصد، فهذا ليس شرطا، ولا يتسنى لكلّ أحدٍ أن يجمع حسن بيانه في قوله وإن حصل ذلك للبعض، ولكن هناك من يستطيع أن يبيّن بغير الوسيلة القولية، غير أن هناك من اجتمعت له جميع أدوات البيان التي ذكرناها ممن خصهم الله بما واصطفاهم لها، ونوح عيه الصلّاة والسّلام ممن جُمع له أدوات البيان بدليل قوله: {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} 576.

فنوح عليه الصلّاة والسّلام مبيّن لقومه، غير أنهم لم يتبينوا، وكون أنّ معظمهم لم يهتد، فهذا لا يقوم دليلا على عدم إبانة نوح، فهذا دأب الضالين من بعدهم، فلمّا كان استدلالهم على الدليل

573 - نوح 18.

574 - نوح 19.

575 - نوح 20.

576 - نوح 2.

باطلا لم يكن تبيان نوح لينفعهم، فلو أنهم أخذوا الدليل، وتركوا الاستدلال العقلي، لوصلوا إلى الإبانة، ذلك أن:

. الدال: هو الله تعالى.

. الدليل: هي الرسالة.

. المدلول: آيات الخلق.

. المبين: الرسول الذي يقدم الدليل.

فالمبين هنا: هو الأسوة الحسنة الواجب اتّباعه بما بيّنه من أدلة، وليس كما ذهب قوم نوح باستدلالهم على ما أبان لهم من الأدلة، بدليل لم يقع ولكنه ممكن الوقوع: {قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} 577.

ويظهر هنا بيان نوح لهم أنّ هذا الأمر ليس من شأنه، فكان التبيين بالقول معتمدا على فصاحة المتكلم وبلاغته في تجسيد المعنى وإيصال المقصد، لما رأى من تعنت قومه، فاجتمع البيان من فصاحة المتكلم وتعنت المتلقي وحرص المبين على توضيح المعنى.

ونوضّح ذلك بشيء من التفصيل من بيان نوح المبين في قوله تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَٰفِرِينَ} 578.

يا بني اركب معنا ولا تكن معهم، فقد جاء كلامه مجملا، ولكن عندما أجابه ابنه بقوله: {قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ} 579. أدرك نوح عليه الصلّاة والسلام أن الكلام أشكل عليه،

577 - هود 32، 33.

578 . هود 42.

579 . هود 43.

فبيّن له تفصيل ذلك المجمل ووضحه بقوله: { قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ } 580.

. لا عاصم من أمر الله إلا من رحم.

. من آمن فهو مرحوم.

. المرحوم من يركب في السفينة

. من يركب في السفينة معصوم من أمر الله بأمر الله.

فيأتي البيان مجملاً استدراجاً للمتلقي، كأنه يسر غور فهمه، فإن كان هذا البيان المجمل أعلى من إدراك المتلقي، تسلسل المبين في تفصيل البيان المجمل بيان مفصّل، وليس بالضرورة أنّ بيان المجمل يحتاج إلى بيان مبين مفصّل، فهذا يتوقف على المتلقي كما في قوله تعالى: { فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ } 581.

إنّ بيان نوح عليه الصّلاة والسّلام لقومه كان حرصاً منه عليهم لسببين:

الأول: أن يبلغ ما أمره الله تعالى به من الرسالة فيؤدّي الأمانة.

الثاني: لما تربطه بهم من علاقة كونه منهم (أخوهم نوح).

{ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رِيبَ الْعَالَمِينَ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا } 582.

ثم يظهر بيان ما عرفوه عنه من خلال تذكيرهم بصفات لم ينكروها منه (إني لكم رسول أمين). فهو عليه الصّلاة والسّلام، لا

580 - هود 43.

581 - آل عمران 52.

582 - الشعراء 107-110.

يخون ولا يخدع ولا يغش ولا يماري، ولا يزيد شيئاً أو ينقص شيئاً مما
كُلف به من التبليغ.

فلو لم يعلموا أنه أمين لأنكروا ذلك عليه، وما تورّعوا بأن ينفوا
صدق ما أخبر به عن نفسه، وهنا ربط الرسالة بالأمانة في وجوه
منها:

. كما يعلمون أنه أمين فيهم، فأداء الرسالة من أداء الأمانة.
. الأمين لا يفترى الكذب على الناس، فكيف يفترى على رب
الناس؟

. إن كنتم تتقون بأمانتي، فثقوا برسالتي.

. الأمانة صفة من صفات المرسلين.

. لا تأخذوا بواحدة (الأمانة) وتذروا الأخرى (الرسالة).

وقد فعلوا ذلك.

ثمّ يستطرد عليه الصّلاة والسّلام في تبيانه لهم بعد أن أثبت صفتي
الرسالة والأمانة، بأسلوب سهل بسيط وبعبارة وجيزة (فاتقوا الله
وأطيعون).

فالفاء الواقعة في جواب الطلب في قوله: (فاتقوا) تدل على قبول
ما قبلها بالإيجاب، ولو لم يكن قبول الإيجاب لكانت العبارة (ألا تتقوا
الله وتطيعون). حيث نلاحظ ذلك عندما أخبر الله تعالى عن
تكذيبهم المرسلين فقال تعالى: { كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ
أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ } 583 فأفادت (ألا) جواب النفي (أي اتقوا
كذبكم) بينما في الآية التي تليها (فاتقوا) أفادت جواب الإيجاب وهذا
دليل على:

. عدم نكران أمانته.

. ترددهم في تصديق الرسالة.

ولما رأى منهم الإعراض عن تصديقه في الرسالة، أو رفض التصديق به مع علمهم بأمانته، أراد أن يطمئنهم أكثر بأن ساق دليلاً آخر هو قوله (وما أسألكم عليه من أجر إنّ أجرينى إلا على الله) وبذلك أبان لهم وزاد على البيان.

أبان لهم أنه لا يطمع في شيء، إن كانوا يخشون أن يأخذ منهم أجر هدايتهم، فيترتب على ذلك نقصاً في أموالهم أو ممتلكاتهم، فإنّ هذا ليس من شأنه، ولا من أخلاقه، ولا من أمانته، ولم يأمر به. وأما زيادته في البيان هو قوله: (إنّ أجرينى إلا على الله) فكانت هذه العبارة إجابة على ما يتردد في صدورهم قبل أن ينطقوا به، وهذا استقراء منه عليه الصلّاة والسّلام لأرائهم وأفكارهم ممّا يدلّ على صفة الفراسة التي يتصف بها.

لقد دعا نوح قومه وبينّ لهم، فكذبوه وهو أخوهم، وكان الأليق بالأخوة بعد هذا البيان، أن تقود إلى السلام والاطمئنان والإيمان والتصديق. ولكن قومه لم يأبها لهذه الصلّة، ولم تع بيانه أذنّ واعية، ولم تلن قلوبهم القاسية، لدعوة أخيهم نوح إذ قال لهم (ألا تتقون) وتخافون عاقبة ما أنتم فيه؛ وتستشعر قلوبكم خوف الله وخشيته! (فاتقوا الله وأطيعون) وهكذا يعود ببياته إلى تذكيرهم بتقوى الله، ويكرر اللفظ مرة ثانية ولكن بمعنى آخر كي يستجيش بها قلوبهم إلى الإيمان والطاعة.

وتكرر الأمر بالتقوى لفظاً، لم يكن تكراراً للمعنى، أراد في:
المرة الأولى: ألا تتقون الله في مخالفتي وأنا رسول الله إليكم.
والمرة الثانية: ألا تتقون مخالفتي ولست آخذ منكم أجراً.

ثم يطمئنهم من ناحية الدنيا وأعراضها، فما له فيها من مأرب بدعوتهم إلى الله، وما يطلب منهم من أجر جزاء هدايتهم إلى سبيل الرشاد، وقد بين لهم أنّ أجره من ربّ النَّاس الذي كلفه بدعوة النَّاس. وهذا التنبيه على عدم طلب الأجر، ذهب به نوح عليه الصَّلَاة والسَّلَام، إلى ما عهدهم عليه من دفع الأموال والهدايا وتقديم القرابين للكهنة الذين كانوا يقومون على سداثة المعابد وخدمتها على ما يبدو من فهمنا لعدم طلب الأجر. ولذا، نجد جميع الرّسل من بعد نوح عليه وعليهم صلوات الله وسلامه، أنّ هذا الأمر كان واضحاً جلياً لدى جميع المرسلين بعدم سؤال الأجر والتأكيد عليه ليضعوا حدّاً فاصلاً بين إنذار المرسلين وبيانهم للناس ما أمروا به، وبين ما كان يفعله الكهنة والمنجمون من سدنة المعابد في استغلال هذا الجانب لسلب أموال النَّاس، وأوّل من بيّن هذا الأمر للناس هو نوح عليه الصَّلَاة والسَّلَام، فأرساه أساساً من الأسس التي قامت عليها دعوة المرسلين من بعده، وبيّن أيضاً أن الدعوة الحقّة، لله الحقّ من نوح عليه الصَّلَاة والسَّلَام، ومن المنذرين المبينين من بعده، هي دعوة مجردة عن أعراض الدنيا ومتاعها، لا يطلبون أجراً على الهدى، إنما أجرهم على الله رب العالمين.

ميثاق نوح:

قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} 584.

جاء في لسان العرب: "وثق: الثقة مصدر قولك وثق به يثق بالكسر فيهما وثاقة وثقة ائتمنه وأنا واثق به وهو موثوق به وهي موثوق بها وهم موثوق بهم ورجل ثقة وكذلك الاثنان والجمع وقد

يجمع على ثقات ويقال فلان ثقة وهي ثقة وهم ثقة ويجمع على ثقات في جماعة الرجال والنساء⁵⁸⁵.

فالله سبحانه وتعالى أخذ الميثاق على الأنبياء جميعاً، ثم أخبر محمداً عليه الصلوة والسلام بقوله (ومنك) كونه الرسول الخاتم وهو المخاطب بالكلام، ثم أردف ذلك بنوح عليه الصلوة والسلام، كونه أول المرسلين، ثم اتبع ذلك بإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلوة والسلام أجمعين.

فقد كان الإخبار بأن الميثاق جرى على جميع الأنبياء وأخذ منهم دون استثناء، وأما تقديم محمد عليه الصلوة والسلام، فهو واجب التقديم لسببين:

الأول: أنه المخاطب بالإخبار ليخبر به.

الثاني: كونه الرسول الخاتم.

وأما تخصيص نوح عليه الصلوة والسلام، وعطفه بالواو على الضمير (منك ومن نوح) فمن أجل فاتحة المرسلين وخاتمهم، ولأن نوحاً في ذريته النبوة والكتاب، ويأتي ضمناً من أرسل بينهما من رسل تترى على فترات.

ثم ذكر بعد ذلك إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلوة والسلام، لأن ذكر هؤلاء، يغني عن ذكر بقية الأنبياء والرسالات لأسباب كثيرة منها:

1. أن إبراهيم عليه الصلوة والسلام هو أبو الأنبياء.
2. أن ملة إبراهيم كان عليها هود وصالح وإسماعيل.
3. أن موسى عليه الصلوة والسلام كان على شريعته أبناء يعقوب وداوود وسليمان عليهم الصلوة والسلام أجمعين.

⁵⁸⁵ لسان العرب ص 214.

4 . ذكر عيسى عليه الصلّاة والسّلام، لأنّ رسالته تصحيح للانحراف عن شريعة موسى.

5 . أنّ رسالات إبراهيم وموسى وعيسى كانت معروفة، وهناك من يدين بها.

وبالجمله فقد خص الله تعالى بالذكر أربعة من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ويمكن أن نضيف إلى تلك الأسباب أنّ موسى وعيسى عليهما الصلّاة والسلام، كان لهما في زمن المخاطب قوم وأمة فذكرهما احتجاجا على قومهما، وإبراهيم كان العرب يقولون بفضلته وكانوا يتبعونه في بعض الشعائر والذين كانوا يعرفون بالموحدين كورقة بن نوفل وأمّية بن أبي الصلت وزيد بن عمرو بن نُفيل، ثمّ أن نوحا كان أصلا ثانيا للناس، فهو أبو البشر بعد آدم عليه الصلّاة والسلام (وجعلنا ذريته هم الباقين) حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان، وعلى هذا لو قال قائل فآدم كان أولى بالذكر من نوح، فنقول خلق آدم كان للخلافة والعمارة، ولم يكن نبيا مرسلا، فنبوّته كانت إرشادا للأولاد، ولهذا، لم يكن في زمانه إهلاك قوم ولا تعذيب قوم، وأمّا نوح فكان مخلوقا للنبوة وأرسل للإنذار مبينا، ولهذا أهلك الله تعالى قومه بالطوفان فأغرقهم.

وأما الميثاق، فلا يختص بنوح دون غيره من المرسلين، كون الميثاق أخذ عليهم أجمعين، والمراد من الميثاق المأخوذ من النبيين، هو إرسالهم إلى البشر بما هم مأمورون به من التبليغ، ونوح عليه الصلّاة والسلام، لما اصطفاه الله تعالى واختصه بالنبوة وكلفه بالرسالة وأمره بالتبليغ، فكان ذلك ميثاق من نوح لله تعالى بأداء ما كُلف به من تبليغ الرسالة أمانة منه لما أُخذ عليه من ميثاق.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَدَّدَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِذَلِكَ الْمِيثَاقِ عَلَى أَنْبِيَائِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا}.

والميثاق الغليظ هو سؤالهم عما فعلوا فيما كُلفوا به وقبلوا ذلك التكليف من حمل الرسالة وأداء أمانتها كما قال تعالى: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} 586.

وهذا السؤال هو التخليط، وهو بمثابة الاستجواب لمن أُرسِلَ إليهم، وشهادة المرسلين المتضمنة لتبليغ أوامر الله في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم. لقد أمر الله سبحانه وتعالى الرسل بالتبليغ بما أخذ عليهم من ميثاق، وأمر الأمم بالقبول والاتباع، ثم ذكرهم بعذاب الأمم التي عاندت وعصت الرسل السابقين، ذكر بأن الحساب يوم القيامة دقيق وعادل، حيث يسأل كل إنسان عن عمله، كل إنسان دون استثناء ثم يُحاسب عليه:

(فلنساءلن الذين أرسل إليهم) يسأل الناس؟

. هل تبلغتم الرسالة؟

. بماذا أجبتهم المرسلين؟

(ولنساءلن المرسلين)

. هل بلغت ما أنزل إليكم من ربكم؟

. بماذا أجابكم أقوامكم؟

إن الله سبحانه وتعالى أخذ الموثيق على عباده إلا بما فيه الإقرار والحق والخير.

ميثاق الإقرار قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ

وَلَنْصُرُّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ {587}.

ما ذكره الله تعالى في هذه الآية وهو أنه تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم آمنوا به ونصروه، وأخبر أنهم قبلوا ذلك وحكم تعالى بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين، فهذا هو المقصود من الآية فحصل الكلام أنه تعالى أوجب على جميع الأنبياء الإيمان بكل رسول جاء مصدقا لما معهم.

أما من الجانب اللغوي لمفهوم هذه الآية فنقول:

قوله تعالى: (ميثاق النبيين) فأتى بالمصدر وأضاف إليه النبيين. ومن المعلوم أن المصدر أقوى في الدلالة من الاسم والفعل، ثم إن المصدر يجوز أن يكون مضافه فاعلا أو مفعولا، فإن حُمِلَ المضاف على أنه فاعلا، فإن الله تعالى أخذ الميثاق من النبيين، وإن حُمِلَ على أنه مفعولا، فالمعنى أن الله تعالى أخذ الميثاق للنبيين من الناس، ولما قام هذا الدليلان فإننا نعتقد أن المعنى بأن الله تعالى:

. أخذ من النبيين ميثاقهم.

. أخذ للنبيين ميثاق الناس.

وعلى هذا يكون المعنى الأول: أن الله تعالى أخذ الميثاق من النبيين في أن يصدق بعضهم بعضا، ويؤمن بعضهم ببعض، ولذا، لا يخرج بقية الناس في التصديق بالأنبياء وما أتوا من كتاب، وهذا ما ذهبنا إليه في شمول المعنيين.

وإن كان قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ) يُشعر بأن أخذ الميثاق هو الله تعالى، والمأخوذ منهم هم النبيون، وليس في الآية ذكر

لقوم أو أمة، فلا يحسن صرف الميثاق إلى الناس فنقول: من يذهب هذا المذهب فهو من باب إضافة الميثاق إلى الموثق عليه، وهو من باب إضافة الفعل إلى فاعله، ولا يدخل فيه بقية الناس، فهذا مخالف شرعا وعقلا، لما وردت فيه النصوص النقلية من الكتاب والسنة وهي أكثر من أن تحصى، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ {588}.

فإن كان إضافة الفعل إلى الفاعل أقوى من إضافته إلى المفعول، فإن إضافته إلى المفعول لا تكون أقل من مساوته به. ثم إن المنطق العقلي أسلم له إذا ذهب في إضافته للمفعول من إضافته إلى الفاعل وذلك أن:

. إضافته إلى الفاعل تقتصر على الأنبياء ولا يدخل فيهم أحد.

. إضافته إلى المفعول يدخل الناس جميعا في الميثاق.

. الأنبياء من الناس.

وعليه: تكون إضافته إلى المفعول أقوى من إضافته إلى الفاعل في هذا الموضوع. ولذا فإن الميثاق قد أخذ من الأنبياء في التبليغ ومن الناس في التلقي.

فأما ميثاق الحق فقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَىٰ حَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ {589}.

وأما ميثاق الخير فقولته تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ

588 - آل عمران 187.

589 - الأعراف 169.

وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ {590.

اصطفاء نوح:

ذكر الله سبحانه وتعالى الاصطفاء بشكل مخصوص ضمن نسق متحقق بفترات زمنية تبعد وتقترب إلا أنها ضمن تشكيل متراتب، إذ يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} {591، "يبدأ هذا القصص ببيان من اصطفاهم الله من عباده واختارهم لحمل الرسالة الواحدة بالدين الواحد منذ بدء الخليقة، ليكونوا طلائع الموكب الإيماني في شتى مراحل المتصلة على مدار الأجيال والقرون. فيقرر أنهم ذرية بعضها من بعض. وليس من الضروري أن تكون ذرية النسب - وإن كان نسب الجميع يلتقي في آدم ونوح - فهي أولاً رابطة الاصطفاء والاختيار الإلهي؛ ونسب هذه العقيدة الموصول في ذلك الموكب الإيماني الكريم:

{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} {592.

ولقد ذكر السياق آدم ونوحا فردين؛ وذكر آل إبراهيم وآل عمران أسرتين. إشارة إلى أن آدم بشخصه ونوحا بشخصه هما اللذان وقع عليهما الاصطفاء. فأما إبراهيم وعمران فقد كان الاصطفاء لهما ولذريتهما كذلك - على القاعدة التي تقررت في سورة البقرة عن آل إبراهيم: قاعدة أن وراثه النبوة والبركة في بيته ليست وراثه الدم، إنما

590 - البقرة 83.

591 آل عمران 33-34.

592 آل عمران 33، 34.

هي وراثه العقيدة: (واذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال: إني جاعلك للناس إماما. قال: ومن ذريتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين) فذكر آل عمران وهذا تخصيص لهذا الفرع لمناسبة خاصة، هي عرض قصة مريم وقصة عيسى عليه السلام.. كذلك نلاحظ أنّ السياق لم يذكر من آل إبراهيم لا موسى ولا يعقوب (وهو إسرائيل) كما ذكر آل عمران، ذلك أن السياق هنا يستطرد إلى الجدل حول عيسى بن مريم وحول إبراهيم593.

والتساؤل الذي يطرح هنا في هذا المقام متى كان الاصطفاء؟ والإجابة التي نعتقد بها أن الاصطفاء الذي يتحدث عنه الله تعالى، هو اصطفاء وهم لا يزالون في عالم الغيب لم يخلقوا بعد. ممّا يُظهر أن عصمة سيدنا رسول الله، وسائر الأنبياء والمرسلين صلّى الله عليهم وسلّم مبنية على إرادة إلهية يمتنع معها وقوع المعصية منهم، فالأسماء التي ذكرت والبيوتات هي القاعدة التي انطلقت منها دعوة الله تعالى إلى جميع الأرض في أماكن وأزمان مختلفة، فكان كل واحد منهم يمثل:

الداعي.

المرئي.

المبشر.

المنذر.

المسؤول.

الناصح.

الراشد.

1- في ظلال القرآن، ج 1، ص 362.

هذه السمات العظيمة التي لا يمكن أن تصلح إلا للمرسل، لهذا يكون من المصطفين الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم بقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} 594.

يمكن في أمر الاصطفاء أمرنا نعتقد فيه أنه تحقق على كل المرسل إليهم إلا على أمة محمد عليه الصلوة والسلام، هذا الأمر هو العذاب، فكل الأمم السابقة تحقق عليها العذاب أو كادت تقترب من العذاب مثل قوم يونس عليه الصلوة والسلام، فمجمال القول أن عذاب الاستتصال مرتفع عن امة محمد عليه الصلوة والسلام، وهذا كما نعتقد اصطفاء داخل اصطفاء، إذ يقول تعالى: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يُشْرِكُونَ} 595.

إن كلمة (اصطفى) تدل على اختيار مُرضٍ. ولنا أن نتساءل:

. هل اصطفى الحق هؤلاء الرسل فكانوا طائعين؟

. هل علم الحق ألا أنهم يكونون طائعين فاصطفاهم؟

إن الطرح الفكري في هذه القضية المهمة يفتح الاصطفاء على قضية مهمة تداعب التساؤلات التي تحاول الطرق على وتر مهم ألا وهو:

تحقق الاصطفاء ضمن المنظور الفكري الذي نراه للأنبياء من بعد آدم عليه الصلوة والسلام.

فكيف يتحقق الاصطفاء لآدم عليه الصلوة والسلام بوصفه أول من خلق الله تعالى وأول الأنبياء؟ فضلا عن ذلك:

. لم يكن هناك أحد قبله.

594 - آل عمران 33 - 34.

595 - النمل 59.

. لم يكن هناك أحد معه.

فالإحالة العقلية للأمور تشير إلى:

أنّ اصطفاء الله لنوح عليه السلام؛ كان اصطفاء من بشر موجودين، كما أنّ اصطفاء بقية الأنبياء عليهم الصّلاة والسلام كان من بين بشر موجودين قبلهم ومعهم. أما قضية اصطفاء آدم عليه الصّلاة والسلام فيمكن أن نحيلها إلى أمرين:

. الأمر الأوّل: أنّ الله تعالى قد اختاره.

. الأمر الثاني: أنّ المصطفى عليه يأتي منه ومن ذريته.

وبالنظر إلى الأمرين نجد أن الأمرين هما متحققان في قضية الاصطفاء.

أما التسلسل الاصطفائي المتحقق ما بعد آدم عليه الصّلاة والسلام فهو مستمر ضمن نسق اختاره الله تعالى وفق مشيئته وإرادته، فنوح عليه الصّلاة والسلام كان الاصطفاء الثاني، إذ لقب بابي البشرية الثانية، ذلك أنّ ما بعد الطوفان شكل بداية جديدة للأرض، ضمن اختيار أرادته الله تعالى، يقول تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} 596. وهكذا يستمر الاصطفاء ليكون محورا مهما من محاور دعوة الله تعالى في نشر دعوته ضمن أسس ومعايير يريدتها سبحانه.

إنّ الاصطفاء يطرح شكل القيادة التي تكون عليها الأمة، فالاصطفاء الرباني طرح أسماء وبيوت، والتي سيكون من خلالها التأسيس لدعوة الله تعالى في الأرض، ذلك أنّ آدم عليه الصّلاة والسلام تتمثل فيه بداية البشرية، هذه البداية التي يكون من خلالها

بداية النسق الدعوي الذي يؤصل البداية ويطرح الاستمرار العقدي إلى المصطفين الآخرين ضمن حلقات متسلسلة متعاقبة، هذا التعاقب يطرح سمات الاستمرار وان اختلفت الكتب المنزلة أو الصحف أو الألواح، إلا أنّ الدعوة هي واحدة، ألا وهي دعوة التوحيد (لا اله إلا الله). إذ نجد هذه الدعوة ونسقتها المستمر في قوله تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 597.

يرتبط الاصطفاء بالدعوة، ذلك أنّ الأسماء والبيوت التي ذكرت في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} 598، مثلت الامتداد الدعوي، فكلها كانت نقطة الارتكاز التي تنطلق منها دعوة الله تعالى، سواء كان الأمر يتعلق باسم واحد أو بآل يكون من خلاله الامتداد الدعوي المستمر.

إنّ الاصطفاء فيه تجليات مختلفة، يطرح من خلاله عدة تساؤلات منها:

. لماذا ذكر الله تعالى الاصطفاء؟

597 - البقرة 130 - 134.

598 - آل عمران 33، 34.

. هل في الاصطفاء دروس وعبر؟

. هل فيه تحقيق لتساؤلات تظهر؟

. هل فيه المتشابه والمحكم في الخلق والأمر؟

. لم يجعل طرفي الاصطفاء آدم وعيسى عليهما السلام؟

إنّ الله تعالى بجلاله وعظمته وكماله في إحاطته وقدرته
اصطفى الأصفياء، أي، أخذ ما صُنِّيَ من الشيء كونهم صفوة خلقه
مصادقا لقوله تعالى: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ
بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} 599.

وقوله تعال: في إسحاق ويعقوب، إذ يقول تعالى: {وَأذْكُرْ عِبَادَنَا
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ
بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ} 600.

إنّ الاصطفاء شكل نقطة خلاف للمستغربين، فعند طرح أمر
الاصطفاء وذكر اسم عيسى عليه الصلّاة والسّلام بوصفه احد
المصطفين من كونه من غير أب، لكن هذا الاستغراب يجب أن
يتوقف عند طرح اسم آدم عليه الصلّاة والسّلام فهو أغرب حالا منه
بأنه ليس من ذكر ولا أنثى من جنس الأحياء كما سيأتي ذلك صريحا
بعد هذا التلويح لذي الفهم الصحيح وأجري اسمه من أظهر ظاهره
الأرضي وأدنى أدناه... فسماه آدم من أديم الأرض على صيغة أفعل
... التي هي نهاية كمال الآدمية وقد اصطفى الله - سبحانه - آدم
بخمسة أشياء:

1 . خلقه بيده في أحسن صورة بقدرته.

2 . علمه الأسماء كلها.

599 - الأعراف 144.

600 - ص 45 - 47.

3 - أمر الملائكة أن يسجدوا له.

4 . أسكنه الجنة.

5 . جعله أبا البشر.

وتعبير (اصطفى) ينص على أن الله - سبحانه - أخذه صفوة من غيره . فكيف كان اصطفاً آدم عليه السلام ولم يكن هناك أحد قبله؟

هنا تعني أن الله اختاره من بين المخلوقات وأن المصطفين يأتون منه ومن ذريته.

ونوحا عليه الصلّاة والسّلام الأب الثاني الذي أخرجه من أبوين شابيين على عادة البشر المستمر.

واصطفاء نوح عليه السلام بما جعله أول رسول بتوحيده من حيث دحض الشرك وأقام كلمة الإيمان (لا اله إلا الله).

واصطفى الله - سبحانه - نوحا عليه الصلّاة والسّلام بخمسة أشياء:

1 . جعله أبا البشر لأنّ الناس غرقوا وصارت ذريته هي الباقية ومن معه في السفينة.

2 . كانت البداية الثانية للأرض على يديه عليه الصلّاة والسّلام مع من معه من المؤمنين

3 . أول من بلغ الشرائع وبين الحلال والحرام.

فكان هذا اصطفاً مخصوصاً لنوح وكما اصطفي آدم من الكون كله اصطفي نوحا عليه الصلّاة السلام، ومن معه من مطرح الخلق الآدمي الكافرين الذين لا يلدون إلا فاجرا كفارا وأعطى نوحا عليه الصلّاة والسّلام ميثاقه، قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا

غَلِيظًا لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا {601
السياق المشار له في هذين الآيتين "كأنه قال اتق الله ولا تخف أحدا
واذكر أنّ الله أخذ ميثاق النبيين في أنّهم يبلغون رسالات الله ولا
يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المراد من الميثاق المأخوذ من النبيين إرسالهم وأمرهم
بالتبليغ.

المسألة الثانية: خص بالذكر أربعة من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم
وموسى وعيسى لأن موسى وعيسى كان لهما في زمان نبينا قوم وأمة
فذكرهما احتجاجا على قومهما، وإبراهيم كان العرب يقولون بفضل
وكانوا يتبعونه في الشعائر بعضها، ونوحا لأنه كان أصلا ثانيا للناس
حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان، وعلى هذا لو قال قائل فآدم كان
أولى بالذكر من نوح فنقول خلق آدم كان للعمارة ونبوته كانت مثل
الإرشاد للأولاد ولهذا لم يكن في زمانه إهلاك قوم ولا تعذيب، وأما
نوح فكان مخلوقا للنبوة وأرسل للإنذار ولهذا أهلك قومه وأغرقوا.

المسألة الثالثة: في كثير من المواضع يقول الله: {عِيسَى ابْن
مَرْيَمَ} 602 و {المسيح ابن مَرْيَمَ} 603 إشارة إلى أنه لا أب له إذ لو
كان لوقع التعريف به، وقوله: {وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا} غلظ
الميثاق هو سؤالهم عما فعلوا في الإرسال كما قال تعالى: {وَلَنَسْأَلَنَّ
الْمُرْسَلِينَ} 604 وهذا لأنّ الملك إذا أرسل رسولا وأمره بشيء وقبله
فهو ميثاق، فإذا أعلمه بأنه يسأل عن حاله في أفعاله وأقواله يكون
ذلك تغليظا للميثاق عليه حتى لا يزيد ولا ينقص في الرسالة، وعلى

601 - الأحزاب 7، 8.

602 - البقرة 87.

603 - المائدة 17.

604 - الأعراف 6.

هذا يمكن أن يقال بأن المراد من قوله تعالى: {وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} 605 هو الإخبار بأنهم مسؤولون عنها كما قال النبي عليه الصلّاة والسّلام: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته" وكما أنّ الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء جعل الأنبياء قائمين بأمر أمتهم وإرشادهم إلى سبيل الرشاد" 606.

عليه يكون الميثاق هو التوحيد ومحاربة الكفر والإشراك بالله تعالى، فكان نوح عليه الصلّاة والسّلام صفوة زمانه كما كان آدم صفوة حينه..

ذكر القرآن الكريم آدم ونوحا منفردين وآل إبراهيم وآل عمران أسرتين لان الآخرين كان الاصطفاء لهما ولذريتتهما وكذلك القاعدة التي قررت في سورة البقرة أن وريثة النبوة والبركة هي ليست وريثة الدم إنما هي وريثة العقيدة ولما كان أكثر الأنبياء من نسل إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام زاد في تعظيمه بقوله تعالى: (وآل إبراهيم) وكلمة (آل) تعني قومه وأتباعه وأهل دينه في عصره وسائر الأعصر.

وصية نوح:

وردت وصية نوح عليه الصلّاة والسّلام ضمن تشكيل تمثل فيه ذكر أصحاب الشرائع، إذ يقول تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} 607، هذه الآية الكريمة ذكرت الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام الخمسة وهم:

605 - النساء 21.

606 - تفسير الرازي، ج 12 ص 331.

607 - الشورى 13.

. نوح .

. محمد .

. إبراهيم .

. موسى .

. عيسى .

جاء التخصيص للأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة، هذه الوصية إذ جردناها من شكلها الخاص هنا وصية الله للأولين والآخرين، ووصية كل رسول لقومه أن يقول: "اعبدوا الله واتقوه".

إنّ سمة الخطاب في الوصية كان واحدا دون تفريق بين نبي وآخر من حيث:

. طبيعة الوصية .

. محتوى الوصية .

. طبيعة الموصى لهم .

فالوصية واحدة وهي الإيمان:

. بالله .

. بالملائكة .

. بكتب الله .

. برسلك الله .

. باليوم الآخر .

أما الأحكام والشرائع فهي متغيرة، فشرية نوح عليه الصلّاة والسلام تختلف عن شريعة إبراهيم عليه الصلّاة والسلام، وكذلك بقية الأنبياء عليهم الصلّاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم

بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ {608}.

إنّ تقديم توصية نوح عليه الصلّاة والسلام للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً، وقد يكون عليه الصلّاة والسلام أول الرّسل، وتوجيه الخطاب إليه بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنّه تعالى شرعه لهم على لسانه عليه الصلّاة والسلام (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ) أي دين الإسلام الذي هو توحيد الله تعالى وطاعته والإيمان بكتبه ورسله ويوم الجزاء وسائر ما يكون العبد به مؤمناً، والمراد بإقامته تعديل أركانه وحفظه من أن يقع فيه زيغ والمواظبة عليه 609.

عليه: تكون وصية نوح عليه الصلّاة والسلام تتقابل مع وصايا الأنبياء الخمسة، وهي عبادة الله تعالى وتقواه وإقامة أركان دينه وحفظها.

الوحي إلى نوح:

الوحي هو الصلة بين الله تعالى وبين رسله وأنبيائه كي يوصل إليهم ما يريد إيصاله من علم وحكمة وأمر ونهي وإرشاد وغير ذلك. قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالتَّيِّبِينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا} 610.

608 - المائة 48.

609 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود، ج 8، ص 26.

610 - النساء 163.

وقال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا
أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } 611.

وقال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } 612.

والتساؤل الذي يطرح من خلال الآيات الكريمة السابقة:

. كيف يكون الوحي؟

. هل هناك أنواع للوحي؟

. هل لكل نبي نوع يختص به من الوحي؟

. هل للوحي علاقة بطبيعة الرسول والرسالة؟

إنّ طرح هذه التساؤلات يقودنا إلى الوقوف على أنواع الوحي،
هذه الأنواع وردت في قوله تعالى: { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا
وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ } 613

تبين هذه الآية أنواع الوحي الرباني إلى عباده المصطفين ليكونوا
رسلا وأنبياء. إنّ الله لا يكلم أنبياءه مواجهة، لأن هذه المواجهة لا
يقوى عليها البشر في الحياة الدنيا؛ إنما يكلمهم بإحدى طرق ثلاثة:

1 . وحيًا يلقى في النفس مباشرة فتعرف أنه من الله. ويسمى

ذلك أيضا بالإلهام ومنه رؤى الأنبياء كرؤيا سيدنا إبراهيم أنه يذبح
ولده إسماعيل، يقول تعالى: { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي
أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ
سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } 614.

611 - الأنبياء 7.

612 - الأنبياء 25.

613 - الشورى 51.

614 - الصافات 102.

2 . أو من وراء حجاب، كما كلم الله موسى عليه الصلّاة والسلام، يقول تعالى: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} 615 دون أن يرى الله، لأنّ ذلك مستحيل بالنسبة إليه، فلما طلب الرؤية حين جاء إلى ميقات ربّه لم يجب إلى طلبه، إذ يقول تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَبَجَّلَى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} 616.

3 . أو يرسل الله الملك المكلف بالوحي فيوحي إلى الرسول ما يشاء بطريقة من الطرق التي بينها رسول الله عليه الصلّاة والسلام: الأولى: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه دون أن يراه، كما قال عليه الصلّاة والسلام عَنْ حُدَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَامَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَدَعَا النَّاسَ، فَقَالَ: "هَلُمُّوا إِلَيَّ، فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ فَجَلَسُوا، فَقَالَ: هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ جِبْرِيلُ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَا تَمُوتُ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَأْخُذُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ" 617.

الثانية: أن يتمثل الملك لرسول الله (في صورة رجل فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول)، ومما ورد من حديثه عليه الصلّاة والسلام "فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مَا الْإِيمَانُ أَوْ عَنِ الْإِيمَانِ قَالَ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ قَالَ سُفْيَانُ أَرَاهُ قَالَ خَيْرُهُ

615 - القصص ص 30.

616 - الأعراف 143.

617 - مسند البزار، ج 4، ص 370.

وَشَرِيهِ قَالَ فَمَا الْإِسْلَامُ قَالَ إِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيْتَاءُ الزَّكَاةِ وَحُجُّ الْبَيْتِ
 وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ وَعُسْلٌ مِنَ الْجَنَابَةِ كُلُّ ذَلِكَ قَالَ صَدَقْتَ صَدَقْتَ
 قَالَ الْقَوْمُ مَا رَأَيْنَا رَجُلًا أَشَدَّ تَوْقِيرًا لِرَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
 مِنْ هَذَا كَأَنَّهُ يُعَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثُمَّ قَالَ يَا رَسُولَ
 اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ أَوْ تَعْبُدَهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَا
 تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ كُلُّ ذَلِكَ نَقُولُ مَا رَأَيْنَا رَجُلًا أَشَدَّ تَوْقِيرًا لِرَسُولِ اللَّهِ مِنْ
 هَذَا فَيَقُولُ صَدَقْتَ صَدَقْتَ.

قَالَ أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ بِهَا مِنْ
 السَّائِلِ قَالَ فَقَالَ صَدَقْتَ قَالَ ذَلِكَ مِرَارًا مَا رَأَيْنَا رَجُلًا أَشَدَّ تَوْقِيرًا
 لِرَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ هَذَا ثُمَّ وُلَّى قَالَ سُفْيَانُ فَبَلَعَنِي أَنَّ
 رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ التَّمَسُّوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ قَالَ هَذَا
 جِبْرِيلُ جَاءَكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ مَا أَتَانِي فِي صُورَةٍ إِلَّا عَرَفْتُهُ غَيْرَ هَذِهِ
 الصُّورَةَ" 618

عليه: يكون الوحي هو الصلة التبليغية بين الله تعالى وخلقه، وأن
 هؤلاء الرسل جميعا قد أوحى الله إليهم أن يبشروا الناس وينذروهم.
 يبشروهم بالجنة لمن أطاع الله ورسله، وينذروهم بالنار لمن عصى الله
 ورسله، إذ يقول تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ
 مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا
 اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
 الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ
 بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 619، وقوله تعالى:

618 - مسند الإمام احمد، ج 1، ص 440.

619 - البقرة 213.

{رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِقَلَّ يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} 620.

فالتبشير والإنذار لا يكون إلا وفق وحي يوحى للرسول عليه الصلّاة والسّلام يستطيعون من خلاله طرح دعوة الله بكل أبعادها التي يريدها سبحانه، فيها تسقط كلّ الحجج التي ستطرح يوم القيامة من قبل الصادقين عن دعوة الله تعالى، فضلا عن ذلك يكون الرّسل منبهون عن الغفلة، وبعثون على النظر مع تبليغ ما حملوه من تفضيل أمور الدين وبيان أحوال التكليف وتعليم الشرائع، فكان إرسالهم إزاحة للعلة وتتميما لإلزام الحجّة، لئلا يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولا فيوقظنا من سنة الغفلة وينبهنا لما وجب الانتباه له 621.

إنّ تسلسل ذكر الرّسل والأنبياء عليهم الصلّاة والسلام في قوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} 622

أولهم يعني: أوّل الرّسل عليهم السلام نوح، ذلك أنّ نوحا عليه الصلّاة والسّلام أوّل الرّسل والنبين بعد الاختلاف قال الله تعالى لنبيه محمّد عليه الصلّاة والسّلام: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ). لأنّ أمته أوّل من اختلف وغير وبدل وكذب، إذ يقول تعالى: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ

620 - النساء 165.

621 - الكشاف، ج 1، ص 491.

622 - النساء 163.

فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ {623} وإلا فادم قبله كان نبيا وكان الناس أمة واحدة على دين واحد فكانوا بعد ذلك على:

. اختلاف.

. تغيير.

. تبديل.

. كذب.

هذه السمات لم يكن لها أن تبقى كما هي، فلا بد من الإصلاح الذي يكون من خلاله:

. إعادة لما كانت عليه الأمة.

. محو أثر المرتدين عن دعوة الله تعالى.

. بيان صيغة التغيير وفق منهج رباني.

. إعطاء الأنبياء الدور التبليغي المتمثل بهم.

على هذا يمكن القول إن الله تعالى بعث النبيين مبشرين ومنذرين، لكن الملاحظ في الآية الكريمة أن خطابها بدأ بالنهاية، فنهاية الوحي والتبليغ يكون على يد خاتم الأنبياء والمرسلين محمد عليه الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} 624.

إن ذكر النبي نوح عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ). في بداية الخطاب دون ذكر أي من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام بدلا من نوح حتى في مواضع أخرى من القرآن الكريم له دلالات عدة، إذ نعتقد أن هناك كثيرا من الأمور ذكرت في القرآن الكريم تحيل إلى أن نوح عليه

623 - غافر 5.

624 - الأحزاب 40.

الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالْبَدَايَةِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الرَّسْلِ، وَمِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ:

1 . إِنَّ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى بَدَأَتْ بِنُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إِذْ يَقُولُ تَعَالَى: { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } 625.

2 . إِنَّ الْمِيثَاقَ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ النَّبِيِّينَ بَدَأَ بِنُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إِذْ يَقُولُ تَعَالَى: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا } 626.

3 . إِنَّ تَكْذِيبَ الرَّسْلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ كَانَتْ بَدَايَتَهُ بِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذْ يَقُولُ تَعَالَى: { وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } 627.

4 . إِنَّ تَذْكَيرَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ لِأَقْوَامِهِمْ بِعَاقِبَةِ التَّكْذِيبِ بَدَأَ بِقَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ، إِذْ يَقُولُ تَعَالَى: { وَبِأَيِّ قَوْمٍ لَا يُجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ } 628.

إِنَّ هَذِهِ النِّقَاطَ الْمَطْرُوحَةَ نَعْتَقِدُ مِنْ خِلَالِهَا أَنَّ بَدَايَةَ الْوَحْيِ كَانَتْ مَعَ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ، فَالِاخْتِلَافُ الَّذِي حَصَلَ وَالتَّغْيِيرُ

625 - الشورى 13.

626 - الأحزاب 7.

627 - الحج 42 - 44.

628 - هود 89.

والتبديل، لا بدّ له من إعادة إلى ما كان عليه، وهذه الإعادة تتطلب تشريعاً يحمل في طياته ثنائية (الثواب والعقاب)، التي من خلالها يكون:

. التصحيح في الدنيا.

. الحساب في الآخرة.

إنّ تقديم نوح عليه الصّلاة والسّلام في هذا النسق القرآني؛ لأنّه أوّل أنبياء الشريعة فأنّه أوّل من أوحى إليه الحلال والحرام وأوّل من أوحى إليه تحريم الأمهات والأخوات والبنات وسائر ذوات المحارم فبقيت تلك الحرمة إلى هذا الآن (والذي أوحينا إليك) أي وشرع لكم الذي أوحينا إلى محمّد عليه السلام وتغيير التوصية إلى الإيحاء في جانب النبي عليه الصّلاة والسّلام للتصريح برسالته، وتقديم توصية نوح للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قيماً والتعبير بالأصل في الموصولات وهو الذي للتعظيم وتوجيه الخطاب إليه عليه السلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه (وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى) وجه تخصيص هؤلاء الخمسة بالذكر أنّهم أكابر الأنبياء ومشاهيرهم من أولى العزم وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة (أن أقيموا الدين) فقبل هو إقامة الدين أي دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته والإيمان بكتبه ورسله وباليوم الآخر وسائر ما يكون الرجل به مؤمناً والمراد بإقامته تعديل أركانه وحفظه من أن يقع فيه زيغ أو المواظبة عليه والتشمر له (ولا تفرقوا فيه) في الدين الذي هو عبارة عن الأصول، والخطاب متوجه إلى أمته عليه السلام فهذه وصية لجميع العباد629.

629 - روح البيان، ج 13، ص 60.

سفينة نوح:

وصلت دعوة نوح عليه الصلّاة والسّلام إلى نهايتها، فلم يحدث التغيير أو الإصلاح الشامل لهذا الجمع من الناس بل تمثل التغيير في قلة صغيرة وصفهم الله تعالى في قوله: { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ }⁶³⁰، هذه القلة كانت ثمرة دعوة نوح عليه الصلّاة والسّلام، لكن هذه القلة سوف تشكل القاعدة لنشر دعوته من بعده عليه الصلّاة والسّلام.

إنّ هذه الدعوة اختلفت عن باقي الدعوات بطول الزمن الذي استغرقته، إذ يقول تعالى: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ }⁶³¹، "أجمل سبحانه قصة نوح تصديقا لقوله في أوّل السورة: { وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ }⁶³² فيه تثبيت للنبي محمّد عليه الصلّاة والسّلام، كأنه قيل له: إنّ نوحا لبث ألف سنة إلاّ خمسين عاما يدعو قومه، ولم يؤمن منهم إلاّ قليل، فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك. قيل: ووقع في النظم إلاّ خمسين عاما ولم يقل: تسعمائة سنة وخمسين؛ لأنّ في الاستثناء تحقيق العدد بخلاف الثاني، فقد يطلق على ما يقرب منه"⁶³³. هذه الفترة الزمنية لم تظهر فيها آثار دعوة نوح عليه الصلّاة والسّلام بالشكل الذي يعكسها أو حتى يظهر خيطا من خيوطها إلاّ في تلك القلة. فهذا المد المتصاعد من الدعوة تحقّق فيه أسلوب سوف

⁶³⁰ - هود 40.

⁶³¹ - العنكبوت 14.

⁶³² - العنكبوت 3.

⁶³³ - فتح القدير، للشوكاني، ج 5، ص 433.

يكون منهجا يتردد ضمن انساق متعددة تحاول الولوج داخل النفس البشرية لتغيير ما فيها أو تلتقط نبرات الخير المكتنزة فيها، ذلك أن دعوات الرّسل عليهم الصّلاة والسلام تدخل ضمن دوائر البحث المختلفة التي تتفق في كيفية:

. تصحيح مسار النفس الإنسانية.

. محاولة تغيير الخاتمة المهلكة.

. رسم دعائم الإيمان الواضحة.

. السبق الدائم للتغيير.

. إظهار للحق.

. إبطال للباطل.

. رقد النفس الإنسانية معنويا، وذلك باستدعاء دعوات الرّسل المختلفة عليهم الصّلاة والسلام، وتبيان ما فيها من دروس وعبر تلملم المتشظي وتعيد بناء المهذوم.

إنّ قراءتنا لدعوة نوح عليه الصّلاة والسّلام تنطوي على حدس معرفي تتبارى فيه الأحداث المختلفة التي مرت في حياة هذا النبي عليه الصّلاة والسّلام، الذي شغلت دعوته صفحات الكتب المختلفة، فنهاية دعوة نوح عليه الصّلاة والسّلام – ولا نقصد بالنهاية نهاية ما دعا إليه عليه الصّلاة والسّلام – إلا أنّ دعوة الله تعالى مستمرة لكننا نقصد بالفترة الزمانية التي انتهت بها دعوة نوح عليه الصّلاة والسّلام، هذا الانتهاء يتملكه استدعاء غير عادي لدعوة فيها ارتسام لم يتكرر بعدها من ذلك:

. طول فترة الدعوة.

. طبيعة عمر نوح عليه الصّلاة والسّلام.

. شكل النهاية الذي كان عليه قوم نوح..

. السفينة التي كانت الحظن الآمن لصاحب الدعوة ومن معه.

. تغير شكل الأرض بعد الطوفان من حيث الإيمان والكفر.

إنّ الذي نراه في هذه الدعوة رغم كل ما ذكر عنها من تحليل أو وصف أو محاولة الوقوف على الظاهر والباطن منها هو أنها دعوة استثنائية في كل وصف تحقق فيها، فهي أمر لم يتكرر مرة أخرى كما نعتقد بهذه الخصائص إلا إذا أراد الله تعالى ذلك، وهذا يدفعنا إلى أن نقول: أن دعوة نوح عليه الصلّاة والسّلام تمثلت فيها قدرة الله تعالى العظيمة في جوانب عدة أراد سبحانه أن يبينها للناس كافة، وأهم جانب فيه كما نعتقد هو الغرق الذي شغل مساحة صورية عند الوقوف على نهاية قوم نوح عليه الصلّاة والسّلام، فالسفينة كانت واقع حال للنهية التي سيكون عليها المؤمنون، وليس واقع حاجة أو استعمال متحقق، فقوله تعالى: { وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ } 634، فالذي ذكر في هذا المقام أقوال كثيرة كلها تدور في فلك الاستغراب فكان قومه يقولون "يا نوح كنت تدعي رسالة الله تعالى فصرت بعد ذلك نجارا.

وثانيها: أنهم كانوا يقولون له: لو كنت صادقا في دعواك لكان إلهك يغنيك عن هذا العمل الشاق.

وثالثها: أنهم ما رأوا السفينة قبل ذلك وما عرفوا كيفية الانتفاع بها وكانوا يتعجبون منه ويسخرون.

ورابعها: أنّ تلك السفينة كانت كبيرة وهو كان يصنعها في موضع بعيد عن الماء جدا وكانوا يقولون: ليس ههنا ماء ولا يمكنك

634 - هود 38، 39.

نقلها إلى الأنهار العظيمة وإلى البحار، فكانوا يعدون ذلك من باب السفه والجنون. وخامسها: أنه لما طالت مدته مع القوم وكان يندبرهم بالغرق وما شاهدوا من ذلك المعنى خبرا ولا أثرا غلب على ظنونهم كونه كاذبا في ذلك المقال فلما اشتغل بعمل السفينة لا جرم سخروا منه وكل هذه الوجوه محتملة⁶³⁵.

إن كل الوجوه السابقة تدخل في إطار التغير لما هو متوقع ضمن الصورة المرئية المتحققة، وتشكل في الوقت نفسه الإطار الغير المتوقع لما سيتحقق في المستقبل أو لنهاية دعوة نوح عليه الصلاة والسلام، فلا وجود للاستدراك العقلي الذي يشطر الصور المرئية إلى نصفين ويجعلها تحت ما هو متوقع وما هو غير المتوقع، وذلك ضمن آليات التفكير البشري المحتمل بسياقات فكرية تعيد إنتاج ما تراه أو ما تدركه. وهذا الموقف الشاخص يفتح آفاق الإدراك العقلي لكل الناس ففيه دروس عدة منها:

- . عدم الاستهزاء بالآخرين.
- . عدم الاستهزاء بأفعال الآخرين وان صغرت.
- . القراءة الجيدة للواقع وعدم إهمال أي شيء فيه.
- . البحث عن الحقيقة وان تراءت لنا واضحة.
- . إشراك المجتمع عامة في القضايا جميعها.
- . حث العقل على فتح شفرات ما يحدث دون النظر إلى ظاهر الأمور.
- . التروي في إصدار الأحكام.
- . الاستدعاء المستمر للماضي ففيه الحل أو التفسير لكل ما يحدث في الحاضر.

⁶³⁵ - مفاتيح الغيب للرازي، ج 8، ص 405.

أراد الله تعالى أن تكون نهاية قوم نوح عليه الصلّاة والسّلام بالغرق، هذه النهاية مرت بحركة تعاقبية أفرزت مواقف وأحداث مختلفة، ثم كان بعد ذلك الغرق، إنّ أهم موقف وحدث هو بناء السفينة التي سوف تقل نوح عليه الصلّاة والسّلام ومن معه.

صناعة السفينة:

إنّ بناء السفينة يعد منعطفًا مهمًا في تاريخ البشرية فقد تمثل فيه شكل النجاة من الغرق، وتكمن المفارقة في هذا الأمر أنّ بناء السفينة كما نعتقد لم يكن في مكان فيه ماء أو حتى لم يتحقق فيه بعد الماء الذي سيحمل السفينة المرتقبة، وهنا تظهر التساؤلات المختلفة التي تطرح في هذا المقام من قبل قومه وهم ينظرون إلى ما يقوم به عليه الصلّاة والسّلام أمامهم ومن هذه التساؤلات:

. كيف يبني سفينة في مكان لا يحتاج فيه إلى سفينة؟

. ما دلالة السفينة؟

. ما هي تبعات السفينة؟

هذه التساؤلات لم توصلهم إلى التفكير في دعوة نوح عليه الصلّاة والسّلام، بل أوصلتهم إلى أخذ الأمر بالسخرية المعروفة عنهم ضمن دائرة الرفض الكلية التي لا تقبل:

. النقاش.

. الإدراك.

. الإفهام.

. الاستبصار.

. التفكير.

. الاتعاض.

هذه الدوائر المختلفة لم يحاول أحدا منهم الدخول فيها، بل لجأوا إلى دائرة مغايرة هي الأقرب من تفكيرهم ومن كل ادراكاتهم أو حتى مستوى عقولهم بالكلية، إذ يقول تعالى: {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ} 636.

إن استدركات العقل البشري تتفاعل مع الأحداث المختلفة وتصهرها في السياق المتعارف عليه ضمن أساليب واضحة المعالم غير مفككة، فبناء السفينة هو من بين المعادلات الموضوعية لدعوة نوح عليه الصلّاة والسّلام، فالنجاة كانت متحققة والوسيلة متغيرة، فقد كانت نجاة موسى عليه السلام بعضا وإبراهيم عليه السلام بالنار، فالسفينة يكمن فيها النجاة من الغرق الذي ينتظر الكفار والجاحدين، فلا يمكن لهؤلاء الكفار الجلوس فيها أو حتى التمسك بلوح واحد من ألواحها، فقد خرجوا من كل ما يلحقهم بها، وهذا نابع من عدم إيمانهم بالدعوة التي جاء بها نوح عليه الصلّاة والسّلام، أما الطرف الثاني فهو دعوة نوح عليه الصلّاة والسّلام ففيها يكمن النجاة، فهي طوق النجاة لمن يريده، ولذلك علينا أن نجعل من سفينة نوح عليه الصلّاة والسّلام رمزا مطلقا للسلامة في حياتنا فتكون فيها:

. العبرة.

. العظة.

. البحث في آيات الله.

. البحث عن الأخطاء المتراكمة فينا.

. البحث عن سبيل السلام.

⁶³⁶ - هود 38، 39.

. استنهاض الهمم لإدراك ما يحيط بنا.
. فتح قنوات الاتصال مع الآخرين لنشر دعوة الله تعالى.
. بيان فرص النجاة وذلك بالتعبير عن العبرة فيما وراء بناء سفينة
نوح عليه الصلّاة والسّلام.
. تلقي كل الأمور ضمن دائرة المتوقع حتى نعيش دائماً في وعي
وإدراك صحيحين.
. إدخال كثير من الأمور في دائرة الممكن كي لا نتفاجأ بما يحدث،
وليكن لدينا مواجهة لكل ما يحيط بنا.

إنّ السفينة التي صنعها نوح عليه الصلّاة والسّلام أصبحت فيما
بعد الحوض الآمن والوحيد لكل من آمن بنوح عليه الصلّاة والسّلام،
ففيها تكمن الصورة التي يراها الكفار بعد أن يرتفع فوقهم الماء شيئاً
فشيئاً، فنظرهم لهذه السفينة يفتح لهم كل الصور السابقة التي كانوا
يظنون من خلالها أنهم كانوا على حق فيما يعتقدون، فالغرق عقوبة
فيها:

. وقت للتفكير.

. وقت للمراجعة.

. وقت للاستدراك.

. وقت للاتعاظ.

وهذا ما نعتقده في الخطاب الذي حصل بين نوح عليه الصلّاة
والسّلام وابنه، يقول تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى
نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ
سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا
مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ 637 إن نظرتنا إلى

637 - هود 42، 43.

الخطاب هنا لا تكمن من نظرة أبوية ؛ إنما هي تكمن من نظرة دعوية بين داعي الله تعالى وبين ضال، فنوح عليه الصلّاة والسّلام دعا ابنه في اللحظات الحاسمة التي سينتهي بعدها كل شيء على الأرض، وستصبح الأرض على حياة جديدة لم تكن كما كانت بالأمس.

انتهى مشوار الدعوة الطويل وركب ربح المغادرة النهائي وذلك بصناعة السفينة التي أمره الله تعالى بها، إذ يقول تعالى: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ} 638 بدأ نوح عليه الصلّاة والسّلام بصنع السفينة، وهنا تظهر لنا بعض التساؤلات منها:

. كيف صنع نوح عليه الصلّاة والسّلام السفينة؟

. هل رأى قبل الصناعة سفينة ما؟

. هل علمه أحد؟

. هل ساعده أحد في صنع السفينة؟

. كيف سيكون تصميم السفينة؟

. هل لاختلاف الركاب تأثير على تصميم السفينة؟

. من أي مادة سيبنى السفينة؟

. كيف سيكون شكلها؟

. هل لمجرى السفينة ومرساها علاقة بتصميمها؟

. هل هناك نموذج يصنع من خلاله السفينة؟

إنّ المركز المهم الذي يتجلى فيه أمر صنع السفينة هو قوله تعالى: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ} 639 وقوله تعالى: {فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا

638 - هود 37.

639 - هود 37.

وَوَحِينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْأَلْكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ
وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا
إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ} 640، هذه الآيتان الكرمتان تطرح قضية صناعة السفينة
التي أرادها الله تبارك وتعالى، فالأمر فيها لنوح عليه الصلّاة والسّلام
بأن "اصنعها محفوظا، وحقيقته: ملتبسا بأعيننا، كأنّ الله معه أعينا
تكلّؤه أن يزيغ في صنعته عن الصواب، وأن لا يحول بينه وبين عمله
أحد من أعدائه. ووحينا: وأنا نوحى إليك ولنهمك كيف تصنع. عن
ابن عباس رضي الله عنه: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه
أن يصنعها مثل جَوْجُو الطائر (وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا) ولا
تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك (إِنَّهُمْ
مُعْرِضُونَ) إِنَّهُمْ محكوم عليهم بالإغراق، وقد وجب ذلك وقضي به
القضاء وجف القلم، فلا سبيل إلى كفه" 641 كقوله تعالى: {يا إبراهيم
أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ
مَرْدُودٍ} 642.

تتضح صناعة السفينة من خلال ما تقدم بأن صناعتها كان بأمر
الله تعالى وإرادته وبكيفية وهيئة أرادها، وكان نوح عليه الصلّاة
والسّلام ينفذ أمر الله تعالى، فسياق الخطاب القرآني بمجمله أفضى
إلى أن السفينة كانت تصنع بالهام من الله تعالى، والتساؤل الذي
يطرح من أي مادة صنع نوح عليه الصلّاة والسّلام؟ والقرآن الكريم
يجيب على هذا التساؤل بقوله تعالى: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْحِ
وَدُسْرِ} 643.

640 - المؤمنون 27.

641 - الكشاف للزمخشري، ج 3، ص 85.

642 - هود 76.

643 - القمر 13.

الإعداد:

إنّ تصميم السفينة اتبع عدد الراكبين ونوعيتهم، فالتخيل الحاصل لنا في تصميم السفينة أمّا كانت على شكل طوابق متعددة كل طابق يختلف عن الآخر من حيث المساحة والترتيب، فالطول والعرض والارتفاع كما نعتقد مختلف، كما إن الطوابق متعددة، وان ذهب البعض بأنّها كانت تتألف من ثلاثة طوابق، فالذي نراه في قوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَؤَلْنَا أَحْمِلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} 644 ففي قوله تعالى: {أَحْمِلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}، إن هذه الأزواج قياسا على الخليقة واستمرارها لا تكون ضمن نسق واحد من الحجم، ففيها اختلاف كبير من حجم إلى حجم آخر وهذا مدعاة لوجود مكان يتناسب مع ما هو متحقق.

يتطلب صناعة السفينة عدة عناصر يكون من خلالها تحقق الشكل النهائي المراد، وتقسم هذه العناصر على قسمين:

القسم الأول: إيجائية.

القسم الثاني: مادية.

القسم الأوّل يطرح عدة تساؤلات تحاول البحث عن كيفية صنع السفينة. . كيف صنع السفينة؟

. من أرشده إلى هذا العمل الكبير؟

. كيف كان شكل السفينة؟

. كيف كان حجم السفينة؟

إنّ هذه التساؤلات وغيرها هي نقطة الارتكاز التي ينطلق منها الفكر ليتعقب هذا الحدث الهائل الذي شغل الناس وعلى مختلف

المستويات، وفي كل العصور، ونحن نلجأ في هذا المقام إلى قوله تعالى: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ} 645، هذه الآية الكريمة جاءت بعد قوله تعالى: {وَأَوْحِي إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} 646.

فلما كان نهي الله تعالى عن الابتئاس بفعل قوم نوح عليه الصلوة والسلام مع شدة جرمهم مؤذنا بأن الله ينتصر له، أعقبه بالأمر بصنع الفلك لتهيئة نجاته ونجاة من قد آمن به من العذاب الذي قدره الله لقومه، كما حكى الله عنه {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتْحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} 647 فجملة (واصنع الفلك) عطف على جملة (فلا تبتئس) وهي بذلك داخلة في الموحى به فتدل على أن الله أوحى إليه كيفية صنع الفلك كما دل عليه قوله: (ووحينا)، ولذلك فنوح عليه السلام أول من صنع الفلك ولم يكن ذلك معروفا للبشر، وكان ذلك منذ قرون لا يحصيها إلا الله تعالى، ولا يعتد بما يوجد في الإسرائيليات من إحصاء قرونها 648.

إنّ الإعداد للسفينة جاء وفق وحي الله لنبيه نوح عليه الصلوة والسلام، وهذا يدخل أيضا في باب معجزات الأنبياء عليهم الصلوة والسلام، فالأمر لم يمر أمام قومه مرور الكرام، بل مر مرور مغايرا لما يعتقدون أو ما يفكرون، ولذلك كانت السخرية هي السلاح المستمر والمتكرر طوال الإعداد والصناعة للسفينة، إذ يقول تعالى: {وَيَصْنَعُ

645 - هود 37.

646 - هود 36.

647 - القمر 10 - 12.

648 - التحرير والتنوير، ج 7، ص 137.

الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ {649. إن (كلما) تفيد الاستمرارية، فواقع الحال فيه استمرارية للبناء واستمرارية في السخرية، والأمر هنا يطرح عدة تساؤلات منها:

. لماذا كل هذه السخرية؟

. لماذا لم يرجع الكفرة من قوم نوح عن غيهم؟

. إنَّ الاستمرارية فيها دلالة على وجود وقت طويل فلماذا لم

يتحقق فيه التغير المفضي إلى تجنب الهلاك؟

هذه الاستمرارية أو هذا الوقت الطويل كان فيه الوقت للإعداد ولصناعة السفينة، فالسفينة لم تكن سفينة عادية، بل كانت سفينة عملاقة أعدت إعدادا يتناسب مع من يركب فيها، فقوله تعالى: {فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ} 650 وقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَّاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ {651 هاتان الآيتان فيهما نهاية عهد وبداية عهد جديد، هذه النهاية والبداية مرتبطتان فكل واحدة هي امتداد للأخرى على سبيل التواصل البشري والحيواني بمختلف أنواعه، هذا التواصل كما نعتقد يتطلب البقاء على ما كانت عليه الدنيا قبل الطوفان وبعده مصداقا لقوله

649 - هود 38 - 39.

650 - المؤمنون 27.

651 - هود 40، 41.

تعالى: { اِحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } 652. هذا الأمر يتطلب الإبقاء على الأنواع المختلفة، والإبقاء يتطلب مكانا جامعا مانعا يوفي بالأمر ولهذا نجد أن السفينة كانت عملاقة جمع فيها ما خلق الله تعالى كل الأنواع المختلفة التي تكوّن فيما بعد الحياة الجديدة، وهذا الأمر مرتبط بطابع الحال بتصميم السفينة.

إنّ تصميم السفينة اخذ شكلا يتناسب مع ما ركب فيها، إلا أننا نرى أنّ نوح عليه الصّلاة والسّلام كان مكانه في مكان يسمح له بمراقبة المحمولين في السفينة وعلى سطحها وما يدل على ذلك حوار مع ابنه، إذ يقول تعالى: { وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاؤُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظّٰلِمِينَ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ } 653 هذه المحاوره لا تقضي بان يكون ابن نوح عليه الصّلاة والسّلام في الطبقات السفلى أو في إحدى الطبقات السفلى، فالطبقات السفلى يتحقق فيها الانزواء عن حركة السفينة يمينا وشمالا وهي تجري في

652 هود 40.

653 - هود 42 - 74.

أمواج شبهها الله تعالى بالجبال، وفي هذا التشبيه يتحقق وصف السفينة بأنها عملاقة ذلك أن الأمواج التي شبهها الله تعالى بالجبال لا بد أن تكون السفينة متناسبة مع هذه الأمواج العظيمة.

إن صناعة السفينة جاء وفق معايير أرادها الله تعالى لتكون نقطة ارتكاز وتحول في فكر البشرية، ذلك أن الله تعالى جعل من السفينة نقطة بداية ونهاية، هذه البداية والنهاية ارتسم فيها تعقب فكري منسجم مع عقوبة الله تعالى للكافرين ومع نجاة المؤمنين، ذلك أن أي استدعاء للسفينة وتصميمها بالذات فيه أجوبة متعددة يتضح من خلالها قدرة وعظمة الباري جلّ جلاله، فالمنطلق الفكري الواضح لا يقبل بأي تفسيرات أو تأويلات مناقضة لما جبل عليه ضمن التشكل الدعوي لدعوات الرّسل عليهم الصّلاة والسلام.

أما الحديث الذي يدور بين الرّبط بين سفينة نوح عليه الصّلاة والسلام وسفينة التايتانك، فهذا ربط غير مقبول، فالثانية هي من صنع بشر، فكانت ضمن تفكيرهم وتوقعاتهم واستيعابهم، فكانت نهايتها أليمة، أمّا ما يذهب البعض إلى المقارنة بينهما، فالمقارنة غير متحققة إن كانت هناك مقارنة.

الرّكوب والحمل:

جعل الله تعالى لنوح عليه الصّلاة والسلام علامة على حلول العذاب بقومه، وهي أن ينهمر المطر بصورة متواصلة لا يقلع ولا يفتر، ويتفجر وجه الأرض عيوناً تنبع وتغور حتى يفور الماء من التنور التي هي أماكن النيران، إذ يقول تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} 654، فحينما يرى نوح عليه الصّلاة

654 - هود 40.

والسّلام ذلك فعليه أن يحمل معه في السفينة من كل صنف من المخلوقات، ذوات الأرواح والنباتات، زوجين اثنين ذكرا وأنثى، وأمره الله تعالى بأن يحمل معه فيها أهله (أهل بيته وأقرباءه)، واغرق من أصر على كفره فلم يركب السفينة، وكان منهم امرأته وابنه. وأمره بأن يحمل فيها من آمن له من قومه، ولم يكونوا كثيرين، كما أخبر الله تعالى 655.

ركب نوح عليه الصّلاة والسّلام ومن كان معه، فكان كل واحد منهم يدخل المكان المخصص له تنفيذاً لأمر الله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} 656.

إنّ الركوب الذي حصل يتبين من خلاله:

. الطاعة .

. الخضوع .

. الامتثال .

. الإتياع .

فضلا عن ذلك نعتقد أن الركوب في السفينة في الحالات العادية ضمن طبيعة الراكبين المختلفة تكون صعبة، بل وصعب جدا وخاصة بالنسبة للحيوانات الكبيرة الحجم التي تجد صعوبة في الوصول إلى المكان المخصص لها، وهذه إحدى النقاط المهمة التي تدخل حيز التفكير نظرا لبداية وجود سفينة وبهذا الحجم.

655 - أيسر التفاسير، أسعد حومد، ج 1، ص 1514.

656 - هود 40، 41.

إنّ الركوب يتمثل فيه خرق للثنائية المتحققة في الأرض ألا وهي (اليابسة - الماء) ولهذا نعتقد أن ابن نوح عليه الصلّاة والسّلام ينفي خرق هذه الثنائية لأنها تمثل حسب ما يعتقد وجودا حتميا غير قابل للزوال ولذلك ورد في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَقِينَ﴾ {657، وفي هذا المقام اختلطت الأمور فلم يعد للثابت ثابت، وهذه هي إرادة الله تعالى وحكمته. فالخرق في الطبيعة متحقق كيفما يشاء الخالق تبارك وتعالى، فبيده يجعل الأرض يابسة كلها ويجعلها ماء إن شاء مصداقا لقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ {658.

إنّ نوح عليه الصلّاة والسّلام مثل الجانب الأبوي المتأصل في النفس الإنسانية الغير منفك عنها، فرغم منزلة نوح عليه الصلّاة والسّلام إلا أنه بقى ملبيا لعاطفة الأبوة رغم التنافر الحاصل بينه عليه الصلّاة والسّلام وبين ابنه، وهذا يؤكّد أمرا مهما أن الرسالة السماوية إنّما مجيئها يأتي ليثبت الفطرة التي جبل عليها الإنسان، فالأبوة متحققة فيه وهي سمة يرنو إليها كل إنسان مهما كانت منزلته أو انتماءاته أو معتقداته، إذ يقول تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾ {659، فالبنون من محسنات الحياة الدنيا، وتدخل باب الافتخار الذي يسلك مسلك التفاضل ما بين النّاس، لكن المفارقة أن محسنات الدنيا ومن بينها البنون غير دائمة فهي تسلك مسلك الانهيار والاضمحلال، فلا يبقى منها شيء سوى ما ذكره الله تعالى بالباقيات الصالحات، ونوح

657 - هود 43.

658 - البقرة 117.

659 - الكهف 46.

عليه الصلّاة والسّلام يتمثل فيه الأمر هنا فقد أحد أولاده، لكن هذا
 الفقدان لم يؤثر شيئاً عليه بل يقدمه درجات أعلى عند ربه جلّ
 جلاله، ولهذا، كان جوابه عليه الصلّاة والسّلام جواب المؤمن المنقاد
 إلى أمر ربه تبارك وتعالى، إذ يقول تعالى: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ
 أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ
 أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي
 بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 660.

ويطرح في هذا المقام تساؤل: أليست أبواب التوبة تغلق بعد نزول
 العذاب؟ إذ يقول تعالى: {وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ
 زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ
 أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} 661
 أي، ليروا أو إلى أن يروا (العذاب الأليم) أي يعاينوه ويوقنوا به بحيث
 لا ينفعهم ذلك أو ذاك وكان كذلك فإنهم لم يؤمنوا إلى الغرق وكان
 ذلك إيمان يأس فلم يقبل" 662 وقوله تعالى: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ
 الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ
 الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} 663 فهؤلاء المجرمين
 لا يؤمنون بالحق، ولا يتأثرون بالأمر الداعية إلى الإيمان، وسيظلون
 مقيمين على كفرهم وعنادهم، حتى يروا العذاب الأليم الذي وعدوا
 به، وحينئذ يؤمنون ولكن إيمانهم في ذلك الحين لا ينفعهم شيئاً 664.

660 - هود 46 - 47.

661 - يونس 88.

662 - روح البيان لإسماعيل حقي، ج 5، ص 330.

663 - الشعراء 198-201.

664 - أيسر التفاسير لأسعد حومد، ج 1، ص 3015.

إنَّ شروع الطوفان وما جرى في بداية الأمر، لم يكن علامة واضحة للعذاب، بل كان يُتصور أنه مطر شديد لا مثيل له.. وعلى هذا فإنَّ ابن نوح حين قال لأبيه (سأوي إلى جبل يعصمني من الماء) ظنًا منه أنَّ فيضان الماء والمطر النازل من السماء كانا طبيعيين. ففي هذه الحالة لا يبعد أن تكون أبواب التوبة ما تزال مفتوحة.

وفي هذا المقام يمكن أن يرد سؤال في شأن ابن نوح، وهو أنه لم نأدى نوح ابنه دون سائر النَّاس في هذه اللحظة الحرجة؟

والجواب قد يكون أنَّ نوحا عليه الصَّلَاة والسَّلَام أَدَّى وظيفته في الدعوة العامَّة للآخرين وبضمنها دعوته لابنه، إلاَّ أنه كان يتحمل وظيفةً أصعب بالنسبة لابنه، وهي وظيفة الأبوة إلى جانب وظيفة النبوة، فلهذا السبب كان يؤكِّد على أداء وظيفته بالنسبة لابنه إلى آخر لحظة، فضلا عن ذلك أن هذا الحوار أرادته الله تعالى كي يبين للناس فيه جميعا أن الكفر والإيمان لا يمكن لهما أن يجتمعا في صعيد واحد، مهما كانت درجة القرْبى بينهما، فالنسب لا يغني شيء من عذاب الله تعالى، والصورة هنا كانت في اقرب العلاقات التي أوجدها الله تبارك وتعالى ما بين النَّاس، فلم يغني نوح عليه الصَّلَاة والسَّلَام عن ابنه شيئا، فكان من بين المغرِّقين.

المجرى:

تحركت السفينة صوب الوجهة التي حددها الله تبارك وتعالى لها، وبدأت بالجريان، إذ يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ 665 بدأت حركة السفينة باسم الله ليكون الأمر إيذانا ببدء:

- . حركة جديدة.
- . تاريخ جديد.
- . حياة جديدة.
- . بداية جديدة.
- . عبادة واحدة.
- . معتقد واحد.
- . أمة جديدة.

هذه البداية تعانق معها الموج. "والموج: ما يرتفع من الماء على سطحه عند اضطرابه، وتشبيهه بالجبال في ضخامته. وذلك إما لكثرة الرياح التي تعلو الماء وإما لدفع دفعات الماء الواردة من السيول والتقاء الأودية الماء السابق لها، فإن حادث الطوفان ما كان إلا عن مثل زلازل تفجرت بها مياه الأرض وأمطار جمّة تلتقي سيولها مع مياه العيون فتختلط وتجتمع وتصب في الماء الذي كان قبلها حتى عم الماء جميع الأرض التي أراد الله إغراق أهلها"⁶⁶⁶. هكذا كان الطوفان في كل صوره حالة استثنائية لكل وصف لأيّ طوفان حصل ويحصل وهذا يفتح باب التساؤلات:

- . لم هذا الطوفان؟
- . لم كان الطوفان بهذا الشكل؟
- . هل هناك تقابل بين دعوة نوح عليه الصّلاة والسّلام والطوفان؟
- . ما دلالة الماء في هذا العذاب؟
- . أليس في الماء الحياة؟

هذه التساؤلات تقودنا إلى تساؤلات أخرى تتعلق بمجرى السفينة، فالسفينة تجري بين هذه الأمواج العظيمة في حركة مهيبه

⁶⁶⁶ - التحرير والتنوير، ج 7، ص 142.

تخشع لها القلوب حين تتخيلها، فالأمر ليس لحركة السفينة ولكن أيضا للراكين في السفينة وهم ينظرون إلى هذه الأهوال التي يتردد من خلالها تساؤلات عدة منها:

. إلى أين تجري هذه السفينة؟

. إلى أين زمن تبقى تجري؟

. إلى أي نهاية تقف عندها؟

. ما شكل النهاية التي ستكون عليها؟

. أين اليابسة؟

. أين اختفت اليابسة؟

. كيف ستكون الحياة بعد انتهاء الطوفان؟

إن مجرى السفينة حمل معه دعوة نوح عليه الصلّاة والسّلام ضمن بداية جديدة ليس فيها شوائب الماضي أو استنفهاماته التي لم تكن لها أيّ دور في تعديل الفكر الراض لدعوة نوح عليه الصلّاة والسّلام، ذلك أن كل الزمن الذي مضى في دعوته عليه الصلّاة والسّلام لم يكن فيه ثغرات متعددة فتحها قومه من اجل الدخول في دينه، بل بدا الأمر لديهم سوى عناد وتكذيب وصد، اذ يقول تعالى: { قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْ اَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا لِقَوْمِ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَبُمُدِّدِكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ يَدَيْكُمْ جَنَّاتٍ

وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا مِمَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا {667}.

هذا السياق القرآني يطرح علينا الشكل الحاصل بين نوح عليه الصلوة والسلام وقومه فهو شكل ليس فيه أي:

. تجاذب.

. اقتراب.

. تقبل.

. استفسار.

. استفهام.

لكن فيه:

. الصد.

. المهجران.

. الرفض.

. الترك.

. الابتعاد.

. السخرية.

. التكذيب.

إنّ مجرى السفينة يمكن أن نطلق عليه أنه بالنسبة للراكبين فيها، أنّه كان لهم رحلة انتقال من عالم إلى عالم آخر، ضمن أمر تغييري أريد منه:

. بيان رحمة الله تعالى.

. بيان عذاب الله تعالى.

فالراكبون في السفينة الجارية بهم حملوا معهم دعوة نوح عليه الصلوة والسلام، التي فيها ثنائية الثواب والعقاب، هذه الثنائية

⁶⁶⁷ - نوح 2 - 14.

انبلجت للراكبين ضمن مجرى السفينة، فمغادرة اليابسة بدأت فيه تباشير الرحمة لهم، ذلك أن حركة الطوفان وصوره لم يتضح فيها أي شكل للرحمة رغم أن الماء تكمن فيه الحياة، فضلا عن ذلك أنهم تركوا قومهم الكافرين تحتهم في حالة يبحثون لهم عن مكان يقيهم الموت، هذه الصورة المرعبة ينبثق من خلالها عقاب الله تعالى لمن كفر وصد عن ذكره ولم يتبع رسله، وفي الوقت نفسه يتحقق من خلالها ثواب الله تعالى لكل من آمن به واتبع رسله. هاتان الصورتان يتكرران في كل وقت وزمان ولكن بصور مختلفة تتغير بحسب إرادة الله تعالى ومشيئته. إن صورة الموت تحتهم، فالماء بالانتظار ينتظر أمر الله تعالى ليحيل قومهم الكافرين إلى جنامين:

. متناثرة.

. مفتتة.

. متعفنة.

إنّ الغرق كما نعتقد فيه دلالات عديدة ومن أهمها:

. محو أهل الكفر.

بناء قاعدة جديدة للإيمان وأهله، قاعدة يتمثل فيها صفوة الناس الذين اختاروا قبول دعوة الله تعالى.

إن السفينة التي بناها نوح عليه الصلّاة والسّلام وان كان فيها نجاة لنوح عليه الصلّاة والسّلام ومن معه إلا أنها مثلت المحور المهم في دعوته، إذ تشكل من خلالها انعطاف كبير في تاريخ الأرض بكل أجياله وإرهاصاته وتبعاته المختلفة، فبدأت حياة جديدة فيها سبل الخير والمعرفة التي تؤرخ لحياة جديدة.

إنّ السفينة لا بدّ لها من ربان يقودها، فالمهمة الملقاة على عاتق السفينة تتطلب:

. وقتنا محمداً.

. مكانا محمداً.

وهذا التحديد لا بدّ له من ضوابط يكون من خلالها نجاح المهمة،
فالتحديد كان متحققاً من خلال ربان السفينة رسول الله نوح عليه
الصلاة والسلام، إذ يمكن القول أنّ الله تعالى وكلّ له أمر السفينة
بقوله تعالى: { وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ
رَحِيمٌ } 668.

"وقول الحقّ سبحانه: (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) يُبَيِّنُ لَنَا أَنهَا قَدْ
صُنِعَتْ لِتُنَجِّيَ مِنَ الْغَرَقِ؛ لِذَلِكَ لَا بَدَّ أَنْ تَسِيرَ بِالرَّاكِبِينَ فِيهَا إِلَى
مَكَانٍ لَا يَصِلُهُ الْمَاءُ، وَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَكَانَ عَالِيًا؛ لِتَيْحِ الرُّسُوءَ،
كَمَا أَتَا فِي الْفِيضَانِ عَمَلِيَةَ الْجِرْيَانِ. وَهَكَذَا كَانَ جَرِيَانَهَا بِاسْمِ اللَّهِ،
وَرُسُوءُهَا بِإِذْنِهِ سَبْحَانَهُ.

وقول نوح عليه السلام: (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) يَعْلَمُنَا أَنَّ
جَرِيَانَهَا إِنَّمَا يَتَمُّ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّهُمْ يَرْكَبُونَ فِيهَا، لَا لِمَكَانَتِهِمْ
الشخصية، ولكن لإيمانهم بالله تعالى.

ونوح عليه السلام يقول: (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا).

لأنّ السفينة لله أمر، ولسوله صناعة. ولذلك يقال: كل شيء لا
يبدأ باسم الله فهو أبتر

لأننا حين نقبل على فعل شيء، فالأفعال أو الأحداث تحتاج إلى
طاقات متعددة، فإن كان الفعل عضلياً، فهو يحتاج لقوة، وإن كان
الفعل عقلياً فهو يحتاج لفكر وروية وأناة، وإن كان فعلاً فيه مواجهة
لأهل الجاه فهو يحتاج إلى شجاعة، وإن كان من أجل تصفية نفوس
فهو يحتاج إلى الحلم؟

668 - هود 41.

إذن: فاحتياجات الأحداث كثيرة ومختلفة، ومن أجل أن تحصل على القوّة فقد تقول: (باسم القوي القادر) ولكي تحصل على علم؛ تقول: باسم العليم، وتريد الغني؛ فتقول: باسم الغنيّ، وحين تحتاج إلى الحلم تقول: باسم الحليم، وعندما تحتاج إلى الشجاعة؛ تقول باسم القهار"669.

المرسى:

رست سفينة نوح عليه الصّلاة والسّلام بعد أن أهلك الله تعالى قومه الكافرين، إذ يقول تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظّٰلِمِينَ﴾670. وبدأت السفينة بالتوقف، هذا التوقف قال فيه الله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾671، انتهى الأمر المفرع المضطرب للقلب وبدأت حالة الهدوء والسكينة بعد أن انتهى الطوفان وعادت الأرض كما كانت، فكان التوقف هو إيذاننا للوقوف على ما جرى ومن ثم التبصر بنعمة الله تعالى ووعده الذي أنجزه لعباده الصالحين، فالصور التي ظهرت أمام أنظار الركاب من صنع السفينة فالركوب ومن ثم التوقف شكلت حالة استظهار لدعوة نوح عليه الصّلاة والسّلام، فسخرية الكافرين كانت تطرق مسامعهم مرارا عند بناء السفينة لكنهم سيسخرون منهم لان الغرق قد تحقق وفي الآخرة سيتحقق عليهم الحرق في نار جهنم جزاء كفرهم وسخريتهم بدعوة نوح عليه الصّلاة والسّلام. وهكذا

669 - تفسير الشعراوي، ج 1، ص 4198.

670 - هود 44.

671 - هود 41.

توقفت السفينة) باسم الله) بعد أن أبحرت بين الأمواج العالية في صورة رهيبة تنزل لها القلوب.

إنّ عذاب قوم نوح عليه الصلّاة والسّلام جاء ليفضح العقول التي ترسب فيها كل أشكال:

. الاضمحلال.

. التكبر.

. التعنت.

وليفتح الأفق الرحب أمام النّاس جميعا كي يتعضوا ويتعلموا وليدركوا جميعا أنّ الله تعالى قادر على كل شيء، إذ يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحِمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكْفُرُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} 672.

الاستواء:

عادت الأرض كما كانت عليه قبل الغرق واستقرت سفينة نوح عليه الصلّاة والسّلام على جبل الجودي، إذ يقول تعالى: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَفْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} 673، إن استواء السفينة لم يكن على أرض منبسطة، ولا على أرض متعرجة؛ إنما كان الاستواء على جبل، والتساؤل الذي يطرح هنا:

672 - العنكبوت 19 - 21.

673 - هود 44.

. لماذا كان الاستواء على جبل؟
. هل كان للاستواء علاقة بصنع السفينة؟
. هل كان للاستواء علاقة بشكل السفينة؟
. هل كان الاستواء دليلا على أن سفينة نوح عليه الصّلاة والسّلام
هي كباقي السفن التي نراها اليوم؟

. هل كان للاستواء علاقة بصعود ونزول الراكبين؟
إنّ هذه التساؤلات وغيرها ترسم الشكل الذي كانت عليه سفينة
نوح عليه الصّلاة والسّلام، ذلك أن ارتباط الراكبين بالسفينة ارتباط
واضح يتضح فيه أنّ سماتهم بقيت كما كانت، فالراكبون مع نوح عليه
الصّلاة والسّلام بمختلف أجناسهم لا يمكنهم القفز من هذه السفينة
العملاقة والوصول إلى الأرض هذا من جانب ومن جانب آخر أن
السفينة لا تستقر دون أن تتكئ على أحد جوانبها، ولهذا كان الجبل
هو السند لها كي يتحقق الاستقرار التام ومن ثم يكون النزول سهلا
لكل راكب من ركاب السفينة.

والاستواء كان الحركة الأخيرة للسفينة ضمن سلسلة حركاتها من
مجرها، ونلاحظ في لفظة الاستواء هو النهاية الكلية للسفينة، نهاية:

. مادية.

. معنوية.

فالمادية هو المرحلة الأخيرة التي انتهت فيها كل شيء وأصبح أمر
السفينة خارجا عما هو مراد لها، بمعنى أن مهمتها انتهت.

أما الجانب المعنوي فهو تحقق كثير من الأمور منها:

. القضاء على الكفار والمشركين والمعاندين.

. نجاة المؤمنين من العذاب المتحقق.

. إظهار علامات دعوة نوح عليه الصّلاة والسّلام.

. تحقق سخرية المؤمنين، إذ يقول تعالى: {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ} 674.

أما اختيار جبل الجودي للاستواء فهذا من أمر الله تعالى وحكمته.

الهبوط:

الهبوط كان امراً من الله تعالى لنوح عليه الصلاة والسلام ومن ومعه، إذ يقول تعالى: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} 675. هنا كانت الحلقة الأخيرة من سلسلة حلقات الطوفان، ذلك أن الله تعالى ختم نهاية الطوفان الذي فيه الهبوط إلى الأرض، فالسفينة كانت أعلى من اليابسة، لكن الهبوط هنا نعتقد فيه دلالة أكبر من الدلالة المادية لحقيقة الهبوط، فالأرض أصبحت خالية ليس فيها:

. كافرون.

. متكبرون.

. جاحدون.

. طاغون.

. متجبرون.

674 - هود 38 - 39.

675 - هود 48 - 49.

فالأرض خالية من كل هؤلاء وهي تفتح أذرعها لاستقبال نوح عليه الصلّاة والسّلام ومن معه، فخليفة الله تعالى هبط عليها ليغرس فيها تقوى الله تعالى ومحبته، ولتكون بداية جديدة لدعوة الله تعالى وعبادته، ومن هذا المنطلق فإنّ الأمان المصاحب للهبوط فيه اطمئنان لنوح عليه الصلّاة والسّلام، ذلك أنّ الأرض انتهى فيها كل شيء يخالف أو يعصي الله تعالى، فقد أصبحت أرضا بكرًا لنشر دعوة الله تعالى، فالأسس التي ستبنى عليها الدعوة من جديد هي أسس:

. قوية.

. متينة.

. ثابتة.

ذلك أنّها ستبنى بيد أناس اختارهم الله تعالى، إذ يقول تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} {676}، وقوله تعالى: {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} {677}، هذه المعية يكتنفها اختيار دقيق لقوم تشعبت فيهم دعوة نوح عليه الصلّاة والسّلام فسلكت مسلكًا مغايرًا لما يجب أن تكون عليه، ممّا أفضى بالأمر أخيرًا أن يكون الاختيار حاصلًا لأسس تتطابق مع دعوة الله تعالى لهؤلاء، فالشكل العام للدعوة قابع على جانب الرفض، الذي مثل في دعوته عليه الصلّاة والسّلام الشكل الواضح دون شكل القبول، وهذا الشكل ظهر واضحًا في دعائه عليه الصلّاة والسّلام، إذ يقول تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَبِلاً وَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي

676 - هود 40.

677 - المؤمنون 28.

إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ
وَأَسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ
إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا {678} دعا نوح عليه الصلاة
والسلام قومه إلى العبادة والتقوى والطاعة لأجل أن يغفر لهم، فإن
المقصود الأول هو حصول المغفرة، وأما الطاعة فهي إنما طلبت
ليتوسل بها إلى تحصيل المغفرة، ولذلك لما أمرهم بالعبادة قال: {يَغْفِرُ
لَكُمْ مَن دُئِبِكُمْ} فلما كان المطلوب الأول من الدعوة حصول المغفرة
لا جرم قال: (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ) واعلم أنه عليه السلام لما
دعاهم عاملوه بأشياء:

أولها قوله: (جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ) والمعنى أنهم بلغوا في
التقليد إلى حيث جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسموا الحجّة
والبينة.

وثانيها قوله: {وَأَسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ} أي تغطوا بها، إما لأجل أن لا
يبصروا وجهه كأنهم لم يجوزوا أن يسموا كلامه، ولا أن يروا وجهه.
وإما لأجل المبالغة في أن لا يسموا، فإنهم إذا جعلوا أصابعهم في
آذانهم، ثم استعشوا ثيابهم مع ذلك، صار المانع من السماع أقوى.
وثالثها قوله: (وَأَصْرُوا) والمعنى أنهم أصروا على مذهبهم، أو على
إعراضهم عن سماع دعوة الحق.

ورابعها قوله: (وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا) أي عظيما بلغا إلى النهاية
القصوى 679.

إن قوم نوح عليه الصلاة والسلام فيما نعتقد يصنفون ضمن
الدرك السفلي لكل الأقسام الذين نزلت عليهم دعوة الله تعالى، ذلك

678 - نوح 5 - 9.

679 - تفسير الرازي، ج 16، ص 51.

أن استدراكهم العقلي لم يقودهم إلى التفكير حتى ولو لبرهة من الزمن رغم الزمن الطويل الذي شغلته دعوة نوح عليه الصلّاة والسّلام في التفكير أو الاسترجاع أو حتى التأني البسيط الذي يمكن من خلاله تغيير الرأي، فطول مدة الرسالة لم تكسبهم شيء ؛ إنّما الاكتساب الذي حصل هو رفض الدعوة فلم يقف الأمر إلى رفض الدعوة، بل تبادوا في ذلك إلى السخرية، إذ يقول تعالى: { وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ } 680، وسخرية قوم نوح عليه الصلّاة والسّلام منه حمل فعله على العبث بناء على اعتقادهم أن ما يصنعه لا يأتي بتصديق مدّعاه.

وسخرية نوح عليه السلام والمؤمنين، من الكافرين من سفه عقولهم وجهلهم بالله وصفاته. فالسخريةتان مقترنتان في الزمن. وبذلك يتضح وجه التشبيه في قوله: (كما تسخرون) فهو تشبيه في السبب الباعث على السخرية، وإن كان بين السببين بون. "ويجوز أن تجعل كاف التشبيه مفيدة معنى التعليل كالتي في قوله تعالى: (واذكروه كما هداكم) فيفيد التفاوت بين السخريةتين، لأنّ السخرية المعللة أحق من الأخرى، فالكفار سخروا من نوح عليه السلام لعمل يجهلون غايته، ونوح عليه السلام وأتباعه سخروا من الكفار لعلمهم بأنهم جاهلون في غرور، كما دل عليه قوله: (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) فهو تفرّيع على جملة (فإنّا نسخر منكم) أي سيظهر من هو الأحق بأن يسخر منه" 681.

680 - هود 38 - 39.

681 - التحرير والتنوير، ج 7، ص 138.

إنّ الانتهاء من العذاب بهذا الاستواء يفتح مدارات القول من خلال استظهار الشكل الجديد للأرض وان لم يكن ماديا، إلا أنه كان معنويا، فقد عاد النسق التراتبي للأرض بنزول الراكبين من سفينة نوح، فكان نظرهم إلى الأرض بعد الطوفان يصحبه عدة تساؤلات ومن هذه التساؤلات:

. كيف حصل الذي حصل؟

. كيف التقى ماء السماء مع ماء الأرض؟

. كيف أقلع ماء السماء وغاض ماء الأرض؟

. الم يكن هناك ناجون من الطوفان؟

. الم تكن لصلة القرى شان لبقاء بعض منهم؟

. هل هذه هي بداية حياة جديدة؟

نزل الراكبون تترأ في حركة ملؤها الإيمان والتبصر بما وعد الله تعالى فكل ما تحقق هو يمثل صلب دعوة نوح عليه الصلّاة والسّلام، فالإدراك الواعي لكل ما حصل يبعث في نفوسهم ويدفعهم إلى المضي قدما نحو غرس دعوة نوح عليه الصلّاة والسّلام في ارض لم تطأها أقدام إنسان بعد الطوفان فالبدائية يجب أن تكون:

. شاملة.

. واعية.

. مدركة.

. مترابطة.

. متكاتفه.

. منسجمة.

وهذا يظهر أنّ بداية الهبوط هي بداية استشراف لزمان قادم يظهر فيه ما ظهر في قوم نوح عليه الصلّاة والسّلام، فالدعوة لم تنقطع إلا

أن يأتي خاتم الدعوات نبي الله تعالى ورسوله محمد عليه الصلاة والسلام.

إنّ ممكن الاستواء في سفينة نوح عليه الصلاة والسلام مرتبط بنهاية الرحلة، هذه الرحلة التي ارتقت لأن تكون حديث الناس جميعا إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، فهي صورة من صور النجاة:

. الدينوي.

. الأخروي.

وهذا يجعل التعامل معها تعاملًا واعيًا في استبطان كنهها ومداركها، فالحياة تتشظى فيها الأفكار المختلفة، وتبحث لها عن قرار يلملمها أو حتى يجمعها تحت أيّ مسمى يكون العنوان الموضح لها، فكانت سفينة نوح عليه الصلاة والسلام إحدى هذه الأفكار، ونحن إذ نطرح أفكارها لا نسلب منها قيمتها أو أصولها الدينية بل نحن ندخل من خلالها إلى التعريف بالفكر الدعوي الذي جاء على يد أنبياء الله تعالى، فالذكر المتكرر لسفينة نوح عليه الصلاة والسلام، والجدال حول استوائها في مكان كان الهاجس الذي يداعب أفكار الناس وخيالهم في كيفية التعرف على استواء هذه السفينة العملاقة، هذا التفكير المتكرر يحيل إلى الإيمان الحقيقي بوجود هذه السفينة، وهنا تكون نقطة الارتكاز في الوصول إلى استظهار دعوة الله تعالى، فمادام الإيمان متحققا بوجودها فإن الحديث عن حقيقة وجودها سيأخذ جانبا مهما في التعرف عليها.

نعود إلى الطرح الأول المتمثل بالنجاة الدينوي، فنقول كما ذهبنا سلفا إلى أنّ الحياة قائمة على الشائيات، وهذا من الأمور التي لازمت ولادة الخليقة، إذ يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} 682، فالأرض بكل تكوينها تخضع لهذه الثنائية فأساسها (يابسة - ماء) فإذا انعدما أحدها وتلاشى يحدث الانهيار التام الذي يلغي وجود الحياة على الأرض، فإذا اختفت اليابسة لا تتحقق فيها الحياة، فاليابسة هي من ضرورات الوجود البشري، أما ذهاب الماء أيضا يتمثل فيه انزياح الحياة عن الأرض مصداقا لقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} 683 وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا} 684، هذه الآيات الكريمة تحيل إلى أن الماء هو أساس الحياة، فمنه تكون البداية والنشأة ومن ثم الحياة بشكلها الواسع. لكننا حين نتطلع في القرآن الكريم نجد أن الماء ورد ثلاث مرات في القرآن الكريم في موضع العذاب بشكل يجعل الماء يخرج من دائرة المتوقع وهو (الحياة) ويدخل في دائرة غير المتوقع وهو (الموت):

. نزل على قوم لوط عليه الصلاة والسلام، إذ يقول تعالى: {وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَطَهَّرُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} 685.

682 - الانبياء 30.

683 - الانبياء 30.

684 - الفرقان 54.

685 - الاعراف 80-84.

. كان فيه نهاية فرعون وجنوده، إذ يقول تعالى: { وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ } 686.

. غرق قوم نوح عليه الصلاة والسلام، إذ يقول تعالى: { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَّاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَأُوبِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } 687.

هذه المواضع الثلاثة كان فيها الماء نجاة للمؤمنين، فقد انزاحت من خلاله رؤوس الكفر وأعدائه، والجاحدين لنعمة الله تعالى، والمنحرفين عن طريق الفضيلة التي نهجها الله تعالى للبشرية جمعاء، فكان التخليص من هؤلاء ثمرة من ثمرات دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد ارتبط بدعوتهم جانب الوعيد الذي تحقق بعد أن لم يكثرث به الكفار وغيرهم، وبهذا اثبت الله تعالى به قلوب المؤمنين بدعوته والساعين لنشرها، فكان العذاب بالماء عبرة وعظة، إذ

686 - يونس 90 - 92.

687 - هود 40 - 44.

يقول تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ
الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ
الرَّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ
بِأَسْنَأٍ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا
كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } 688.

أما النجاة الأخروية، فيكمن بها جعل كل الأحداث السابقة
المتحققة في نظر الداعي والمدعو، وذلك ضمن استلهاام الدروس
والعبر، وجعلها اسلم والذي من خلاله يرتقي المؤمن إلى الدرجات
العلی التي أعدها الله تعالى لعباده الصالحين، فالعذاب الدنيوي الذي
وقع على الأقسام الكافرة الفاسدة، يجب أن يكون صورة استدعائية
حاضرة في الأذهان، ينطلق من خلالها الفكر إلى تجنب ما يغضب الله
تعالى ويخرج الإنسان من رحمته، وهذا يجعل الدعوة تقوم على جانبين:

. جانب الترهيب.

. جانب الترغيب.

فالترهيب يتحقق من خلال عرض ما تعرض له الأقسام السابقة،
كي يكون درسا وإدراكا واعيا للمتبصرين الذين يريدون النجاة والفوز
بالجنة ا وألا يكون كالذين يقولون لخازن النار، إذ يقول تعالى:
{ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ لَقَدْ جِئْتُمْكُمْ
بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ أَمْ
يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } 689.

688 - يوسف 109 - 111.

689 - الزخرف 77 - 80.

إنّ سفينة نوح عليه الصّلاة والسّلام بكل مراحلها المختلفة من الصناعة والركوب والحمل والمرسى والاستواء والهبوط شكلت نقطة تحول في الجانب البشري ولا سيما الاتجاه العقدي، فقد نحت به بأن يتبع منهجا واضحا يريدّه الله تعالى ورسله الكرام عليهم الصّلاة والسلام، ومن ذلك:

. يتمثل في سفينة نوح عليه الصّلاة والسّلام فرصة النجاة، هذه الفرصة قد لا تتحقق مرة ثانية فلا بدّ من إتباع صاحب هذه السفينة كي نكون من الفائزين، وبذلك نخرج من دائرة الهلاك المتحققة التي دارت حول قوم نوح عليه الصّلاة والسّلام ولم تغادر منهم لا كبيرا ولا صغيرا حتى أقرب النّاس إليه وهو ابنه، إذ يقول تعالى: {وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ} 690.

. حملت السفينة كل من آمن بنوح عليه الصّلاة والسّلام، وهذا الحمل المجتمع يفرض أمورا كثيرة منها: أن كل من هو موجود على السفينة يتحملون أعباء الدعوة، وهم أمناء عليها بعد انتهاء الطوفان، فالبداية ستكون على أيديهم وهذا الأمر يدفعهم أن يؤسسوا بنينا ثابتا تكون ثماره يانعة، ولا يكونوا غير ذلك فيحق عليهم قول الله تعالى: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} 691.

690 - هود 42 - 43.

691 - التوبة 109.

. لم يتحقق عذاب الله تعالى على قوم نوح عليه الصلّاة والسّلام مباشرة، حتى بعد أن مرت السنوات الطوال، وأخذت الدعوة حيزاً كبيراً من حياتهم، بل كانت رحمته تعالى كبيرة إذ جعل صناعة السفينة أمام أعينهم، وهذا أمر تستشري فيه الفرصة الكبيرة التي تكون هي آخر المطاف قبل الطوفان، هذه الرحمة لم تجد صداها بينهم، بل تحول الصد والكفر إلى استهزاء، إذ يقول تعالى: {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} 692.

. إنّ المسلم لا بدّ عليه أن يحافظ على صحته، فالسنون التي يعيشها وخاصة عند تقدم العمر تفرض عليه أن يكون قويا ومتماسكا، ذلك أنّ الدعوة إلى الله تعالى لا ترتبط بزمن واحد أو بزمن محدد، فالدعوة مفتوحة إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، فهي تتطلب جهداً مضنياً ووعياً حقيقياً بما يدور في أفلاك هذه الدنيا من أفكار تحاول أن تأكل الأخضر واليابس، وتبعثر جمع المسلمين وتجعلهم أشناتاً، يكونوا من بعدها فريسة سهلة لعدوهم الذي يتربص بهم الدوائر، إذ يقول تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا مِنْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا} 693.

692 - هود 38 - 39.

693 - الكهف 28، 29.

فعل العمل الصالح أيا كان، وعدم سماع كلام المستهزئين الذين يتصيدون المسلمين في كل صغيرة وكبيرة، ذلك أن العمل الصالح يدخل في تصحيح مسار النفس الإنسانية في كل الجوانب مما يخلق حالة واعية تفتح آفاق البحث عن مكنونات دعوة الله تعالى، والتي بتحقيقها يحدث التغيير الشامل الذي يأخذ بيد الناس جميعا إلى درب النجاة، إذ يقول تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {694، والاستهزاء تحقق من قبل قوم نوح عليه الصلوة والسلام وهم يبرون على نوح عليه الصلوة والسلام ومن معه فينظرون إليهم وهم يصنعون السفينة، فما كان الجواب، يقول تعالى: {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ} {695.

. بناء الحياة وفق وعي واضح وبين، هذا الوعي يكون من خلاله .
 بناء الحياة من بدايتها على أسس صحيحة، ذلك أن الجهل في الدين وفي التعرف على مضمون داعي الله يسلك مسلك مغايرا لما يريد الله تعالى، فتكون الطاعة طاعة خاطئة، فضلا عن ذلك التصديق بكل ما يقال عن دين الله تعالى، وهذا يفتح نار الفتنة بأن تدب ديب النار في الهشيم، إذ يقول تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } {696.

694 - يوسف 108.

695 - هود 38، 39.

696 - الانفال 24 - 25.

. إنَّ المضي في الاستجابة لأمر الله تعالى يجعل المسلم دائما في يقين أن الله تعالى معه ويخرسه وينصره حتى مهما بلغت الصعوبة، وهكذا كان حال الذين ركبوا مع نوح عليه الصلّاة والسّلام، فلم يرهبهم المنظر الرهيب، فبقاء الماء أمامهم فقط وذهاب اليابسة والأمواج العالية كالجبال لم تخرجهم من دائرة الإيمان بل طبع الله تعالى قلوبهم بالإيمان، إذ يقول تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} 697، فضلا عن ذلك غمرهم السلام والبركة من الله تعالى، يقول تعالى: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُضَاعِلُهُمْ ثُمَّ يَمَاسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} 698.

. تمثل السفينة درساً للمؤمنين جميعاً بان يكون يدا واحدة تجاه عدوهم، فإذا ما تفرقوا كان النيل منهم أسهل، إذ يقول تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} 699.

وعليه:

. أفرز بناء السفينة أمراً مهماً هو أنّ الحياة لا بدّ لها من مستقبل في كل جوانبها، فلا بدّ أن نخطط لها وفق رؤية مستقبلية فاحصة نحاول من خلالها الدخول في دائرتي المتوقع وغير المتوقع، وهذا يمنحنا مستقبلاً

697 - هود 40.

698 - هود 48.

699 - آل عمران 103.

بأهرا نتجاوز فيه كل الصعاب والمعوقات، وذلك بسبب أننا امتلكننا الرؤية الصحيحة للمستقبل.

. البحث عن أرض جديدة تكون منطلقا للدعوة إلى الله تعالى حين تتعذر الدعوة إلى الله تعالى، إذ يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} 700.

. إتباع أوامر الله تعالى بتفكر وروية، فصناعة السفينة كان بوحى من الله، وركوبها كان بأمر من الرسول، والنتيجة كانت النجاة لمن آمن، وهذا أمر مطلق في إتباع أوامر الله تعالى ونواهيه ففيه النجاة والقبول والرضا، يقول تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَوْصِيَاءَهُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} 701.

دعاء نوح:

خصّ الله عددا من أنبيائه بالذكر في سور القرآن لكن نوح كانت له خصوصية، ونعتقد أن الله عزّ وجلّ أراد أن يقدم لنا حقيقة الصورة الكاملة لدعوة نوح عليه الصلّاة والسّلام، ومن ما في هذه السورة

700 - النساء 97 - 100.

701 - نوح 1 - 4.

دعاء نوح على قومه وهي قضية تحتاج إلى بحث لتحليل مضامين الدعوة وأسبابها ونتائجها للوصول إلى فهم حقيقي لها، ولا يتسنى ذلك كما نعتقد إلا من خلال قراءة السورة كاملة وهذا من وجوه إعجاز القرآن، حيث وحدة المضمون تلمي على الباحث الأخذ بكامل النص، يقول الحق جلّ وعلا: { إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُمْ يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُوا لَا تَنْزِرْ آهَتَكُمْ وَلَا تَنْزِرْ وَدًّا وَلَا سِوَاعًا وَلَا يَعْثَوْنَ وَيَعْبِقُونَ وَنَسَرُوا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا مِمَّا خَطَبَيْتَهُمْ أُعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَنْزِرْ عَلَيَّ مِنَ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنِّي تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا

إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا {702

إنّ مضمون الدعاء الذي جاء على لسان نوح عليه الصلّاة
والسّلام يشكل نقطة نهاية وبداية في آن واحد، نهاية من حيث إنّ
نوحا طلب أن ينتهي الكفر وتقلع جذوره في جنس الكافرين عامة
من الذين دعاهم ولم يستجيبوا، وبداية كون هذا الانتهاء التام سيؤدّي
إلى ابتداء جديد لجيل من المؤمنين حقا ممّن أنجاهم الله عزّ وجلّ،
لذلك نعتقد أن من المهم الوقوف عند مضمون الدعاء باحثين عن
أسبابه الموجبة وعن مضامينه الكامنة وراء المقصد ثم الحديث عن أهم
نتائج هذا الداعي على المستويين العام والخاص.

وهذا كله راجع إلى كون الدعاء جاء على لسان نبي داع إلى الله
ومكلف بتبليغ النّاس رسالة رب العالمين والصورة تبدو كأنها ملامح
اليأس من نجاح المهمة مع هؤلاء بينما نجحت مع آخرين (وَأُوحِيَ إِلَيَّ
نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ)، فكان الموقف ممّن أعلنوا مصرين أنّهم لن يؤمنوا أبدا وكان
الظاهر على أفعالهم وأقوالهم إلا أن نوح ظل يأمل في البواطن أمل النبي
الصالح الذي يريد لقومه الهداية والفلاح ولا يطلب منهم أكثر من
ذلك، وعندما أوحى له أن الباطن من هؤلاء كالظاهر منهم (وَأُوحِيَ
إِلَيَّ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) اكتملت صورة
اليأس فكان الدعاء ولا شيء غيره لان نوح غير مكلف بإكراه النّاس
على الاهتداء بالقوّة بل هو مكلف بالتبليغ والأمر من بعد ذلك لله
عزّ وجلّ.

هنا نتساءل:

هل كاد الدعاء يأسا من نوح أم كان يقينا؟

إنّ المهمة التي كلف بها نوح لم تكن مهمة دنيوية بل هي مهمة إلهية كُلف نوح بأدائها على الأرض وفقا لقاعدة إلهية تقول: { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } 703

فمهمة نوح كانت تبليغ الرسالة إلى هؤلاء المستهدفين بأسباب ما ظهر بينهم من كفر (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَئُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)، وإصرار عليه (وَأَصْرُوا) وتبر على ما جاءهم من الهدى (وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا)، لذلك، نعتقد أنّ نوحا ظل يبلغ إلى أن جاءه أمر الله، وهكذا، فإنّ نوح لم تظهر عليه ملامح اليأس في تبليغ الدعوة بل ظل ليلا ونهارا وكلما رآهم بلغهم ثم أسر لهم وأعلن وهذه كلها من صور المواظبة والعزم على التبليغ، ولكن اليقين بالا جدوى تحصل عند نوح عندما أوحى له بأنّ هؤلاء قطعوا أمل نوح في هدايتهم بهذا الإصرار والاستكبار الذي أصروا عليه، فحصل اليقين عنده مخصوصا بمن لم يستجب من قومه لدعوة الحقّ.

أسباب الدعاء:

من قواعد الأنبياء المرسلين الأساسية أن يقيموا الصلة مع الناس ويواصلونهم ويتحملون أذاهم لان الغاية أكبر من أن تكون مسألة شخصية بين الرسول وقومه بل هي لله عزّ وجلّ لإحقاق الحقّ وإزهاق الباطل لذا كان الرّسل على درجة عالية من الصبر في مسألة التبليغ مصداقا لقوله تعالى: { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرِّسْلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ } 704، بل يمكن القول أن الصبر

703 - الإسراء 15.

704 - الأحقاف 35.

كان من أكثر القيم استدعاء في السلوك عند الأنبياء، بل لا تكاد تجد نبيا أو رسولا يذكر إلا والصبر صفتة، وهكذا فإن نوحا لم يلجأ إلى الدعاء إلا بعد أن رأى أنّ إجابته أكثر خيرا للبشرية لذلك اختار الموجب ولم يختار السالب حيث إن بقاء هؤلاء كان سيشكل خطرا على مسيرة الحقّ ونصرا للباطل على الحقّ فاختر نوح الدعاء، وهو هنا دعاء ولم يكن دعوة، دعاء لان مقصده إحقاق حق وغايته حق أما هؤلاء من الذين اغرقوا بالعذاب فكانوا يمثلون الباطل الذي يأتي بالفساد على الأرض المستهدفة بالإصلاح، لذلك كان من الواجب إزالة هذا الخطر.

هنا نتساءل:

ما هي أهم الأسباب التي دعت نوح للدعاء؟

الأسباب موضحة بدقة وتفصيل في سورة باسم نوح، ونعتقد أن ذلك لم يكن أمرا عابرا، فهي إجابة عن كل التساؤلات التي ستطرح حول هذه الأسباب التي دعت نبي للدعاء على قومه بالاجتثاث! وهي تفسير لهذا الموقف (دعاء نوح على قومه) الذي لم يذكر له مثيل في القرآن حتى مع قوم لوط، وهم على الفاحشة المقيتة إلا إنه تمنى النجاة منهم ولم يدعو عليهم مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} 705.

وسنحاول عرض تحليل كل من هذه الأسباب وعلى النحو الآتي:

. قوّة إعراضهم عن السبيل

قام نوح عليه الصلّاة والسّلام بواجب الدعوة الله إلى عزّ وجلّ كما بين الله عزّ وجلّ من خلال الآية الكريمة: (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَبِيًّا وَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا).

- هذه الآية تحمل عددا من المعطيات المهمة منها:
- أ - إن نوحا دعا قومه بنفسه دون وسيط (إني).
- ب - الدعوة كانت تستهدف قوم نوح فقط (قومي).
- ج - زمن الدعوة مستمر متواصل دون يأس (لَيْلًا وَنَهَارًا).
- د - موقف المستهدفين هو الرفض والإعراض التام (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا).

فدعاء نوح لهم بأن يعبدوا الله وبطاعتهم لي لم يزدهم ما دعوتهم إليه إلا بعدا منه، فالفرار مستعار لقوة الإعراض، أي فلم يزدهم دعائي إياهم قريبا مما أدعوهم إليه.

واستثناء الفرار من عموم الزيادات استثناء منقطع. والتقدير: فلم يزدهم دعائي قريبا من الهدى لكن زادهم فرارا، وإسناد زيادة الفرار إلى الدعاء مجاز لأن دعاءه إياهم كان سببا في تزايد إعراضهم وقوة تمسكهم بشركهم.

وهذا من الأسلوب المسمى في علم البديع تأكيد المدح بما يشبه الذم، أو تأكيد الشيء بما يشبه ضده، وهو هنا تأكيد إعراضهم المشبه بالابتعاد بصورة تشبه ضد الإعراض⁷⁰⁶.

والحقّ إنّ هذا الأسلوب القرآني دقيق الدلالة على موقف قوم نوح ممن رفضوا سماعه وفهم حقيقة الدعوة، لأنه أسلوب قائم على الممازجة بين النفي (لم يزدهم) ثم الاستثناء (إلا فرارا)، وفي ذلك تعرية لهذا الموقف الغريب، حيث لم يتخذ هؤلاء أي موقف سوى الإعراض عن دعوة نوح.

1. تنوع الرفض:

⁷⁰⁶ - التحرير والتنوير، ج 15، ص 332.

يقول الحقّ جلّ وعلا: (وَإِنِّي كُنَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ).

هذه الآية والتي بعدها بمثابة تفصيل لنوع الإعراض من قبل قوم نوح ومراحلها، هنا كان هذا الإعراض يمثل المرحلة الأولى من الرفض وهو على أنواع منها:

أ. رفض الإصغاء.

ب. رفض المجادلة بالحقّ.

ج. رفض الآيات.

تبدأ الآية بلفظة عميقة الدلالة عن الاستمرارية هي (كلما) هنا نعيد التذكير بعدم يأس نوح من قومه لان الأنبياء لا ييأسون من رحمة الله عزّ وجلّ، وكلما مركبة من كلمتين كلمة (كل) وهي اسم يدل على استغراق أفراد ما تضاف هي إليه، أي أنهم لم يظهروا أي نوع من الإصغاء إلى دعوته بل اتخذوا موقفا واحدا عن الإعراض والصدود عن دعوته أبدا، فلذلك جاء بكلمة كلما الدالة على شمول كلّ دعوة من دعواته مقترنةً بدلائل الصد عنها، أي إن كلما هنا لا تقتصر في دلالتها على دعوة نوح عليه الصلّاة والسّلام بل تمتد لتتسع دلالتها فتشمل موقف قوم نوح، أي أن كلما تعود على عمل نوح ورفض القوم وذلك راجع إلى دلالة الاستغراق التي تحملها هذه اللفظة.

وقد رفض قوم نوح مجادلة نبيهم بالحقّ ودلت الآية على ذلك دلالة مجازية فيها شيء من الحقيقة لان المجاز مرتبط بالحقيقة (جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ) وجعل الأصابع في الآذان يمنع بلوغ أصوات الكلام إلى المسامع ولكنه بالتأكيد لن يكون على وجه الحقيقة، بل هي سبيل المجاز الموحى بالحقيقة، وقد بني أسلوب الآية على المجاز فإطلاق اسم الأصابع على الأنامل على وجه المجاز المرسل بعلاقة

البعضية فإنّ الذي يُجعل في الأذن الأتملة لا الأصبع كلّه فعُبر عن الأنامل بالأصابع للمبالغة في إرادة سد المسامع بحيث لو أمكن لأدخلوا الأصابع كلها، كما أن ما من إصبع يمنع دخول الصوت بالمطلق إذ لا بدّ أن يكون هناك استماع ولو بسيط لشيء من الصوت، فالمسألة هي رفض الحوار الجدلي القائم على الحقّ وعرض الحجج البينة والقاطعة التي تهدي الإنسان إلى اليقين، فقوم نوح لم يكن لديهم الاستعداد ولا الإرادة على التعاطي مع دعوة نوح لا لعله في هذه الدعوة إلا بعض المسوغات التي تصرف عن الحقّ بدعواهم: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} 707

أمّا استغشاء الثياب فمعناه جعلها غشاء، أي غطاء على أعينهم، تأكيداً لسد آذانهم بالأصابع لئلا يسمعوا كلامه ولا ينظروا أياً من الآيات التي جاء بها.

وهكذا فإن جعل الأصابع في الآذان واستغشاء الثياب قد يكون حقيقة بأن يكون ذلك من عادات قوم نوح إذا أراد أحد أن يظهر رفضاً لكلام من يتكلم معه أن يجعل أصبعيه في أذنيه ويجعل من ثوبه ساتراً لعينه.

ويجوز أن يكون تمثيلاً لحالم في الإعراض عن قبول كلامه ورؤية جملة الآيات بحال من يغلق سمعه بأعلمتيه ويحجب عينيه بطرف ثوبه، كناية عن الإعراض التام 708 لمقالة المقابل.

2. إحكام العزم على الرفض:

707 - هود 27.

708 - التحرير والتنوير، ج 15، ص 333.

يذكر المولى عزّ وجلّ إحكام قوم نوح على رفض دعوته في قوله سبحانه: (وَأَصْرُوا وَاَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا).

والإصرار في اللغة هو تحقيق العزم على فعل شيء، وهو مشتق من الصّر وهو الشد على شيء والعقد عليه هنا يتضح واحدا من أهم الأسباب التي دعت نوح عليه الصلّاة والسّلام للدعاء هو حقيقة عزم القوم، فقد عقد قوم نوح العزم على أن يرفضوا بشكل تام دعوة نوح، ثم زادوا على ذلك بالاستكبار وهو يدل على المبالغة في التكبر، أي جعلوا أنفسهم أكبر من أن يأتمروا لواحد منهم (ما نراك إلاّ بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل).

وتأكيد استكبروا بالمفعول المطلق (استكبارا) للدلالة على نوع هذا الاستكبار وهو استكبار منقطع بمعنى أنه تمكن من نفوسهم حتى أنقطع الأمل في غيره بالنسبة لهؤلاء المستهدفون بدعوة نوح، ويدل على ذلك تنوين استكبارا الذي يعطي دلالة التعظيم، أي استكبارا شديدا لا يمكن لدعوة نوح أن تؤثر فيه فتحوله إلى تواضع المؤمن الباحث عن اليقين.

1 . دعوة السر والعلن

ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا

واعلم أنّ هذه الآيات تدل على أن مراتب دعوته كانت ثلاثة هي:

أ . دعوة في السر

ب . بالمجاهرة

ج . الجمع بين الإعلان والإسرار

وكلمة تُمَّ دالة على تراخي بعض هذه المراتب عن بعض إما
بحسب الزمان، أو بحسب الرتبة، لأن الجهار أغلظ من الإسرار،
والجمع بين الإسرار والجهار أعظم من الجهار وحده.

أنّ نوحا عليه السلام أمر الكفار قبل هذه الآية بالعبادة والتقوى
والطاعة، ثم أمرهم بعد ذلك بالاستغفار، وذلك لأنه لما أمرهم بالعبادة
قالوا له: إن كان الدين القديم الذي كنا عليه حقا فلم تأمرنا بتركه،
وإن كان باطلا فكيف يقبلنا بعد أن عصيناه، فقال نوح عليه السلام:
إنكم وإن كنتم عصيتموه ولكن استغفروه من تلك الذنوب، فإنه
سبحانه كان غفارا 709.

1 . إتباع الباطل وأهله

ذكر المولى عزّ وجلّ حقيقة هي أن هؤلاء الذين رفضوا دعوة نوح
عليه الصلّاة والسّلام اتبعوا عددا من الكبراء الضالين المضلين، وقد
دل عليهم صفة المال والولد في إشارة إلى قوّة الغنى وقوّة الفئمة، يقول
الحقّ: (قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا
خَسَارًا).

2 . مكر الكفر

قال تعالى: {وَمَكْرُوا مَكْرًا كُبْرًا وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ
وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَعْقُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} 710.

والمكر: إخفاء العمل، أو الرأي الذي يراد به ضرر الغير، أي مكروا
بنوح والذين آمنوا معه بإضمار الكيد لهم حتى يقعوا في الضرر. قيل:
كانوا يدبّرون الحيلة على قتل نوح وتحريض الناس على أذاه وأذى
أتباعه.

709 - تفسير الرازي، ج 16، ص 53.

710 - نوح 22، 23.

واستخدام لفظة كُبَّاراً لدلالة على المبالغة في الفعل، فهذا هو هذا
المكر الكباراً؟

لقد أخبر الله عنهم بقوله تعالى: (وقالوا لا تَدْرُنَّ أَهْلَكُمْ ولا تَدْرُنَّ
وُدا ولا سواعا) وهذه أصنام قوم نوح، والآية تقتضي أنّ هذه
الأنصاب عُبدت قبل الطوفان؛ فالطوفان جرفها وخلص البشر من
الإشراك بعده.

فالمكر الكبار كان يتمثل في محاولتهم ترسيخ عقيدة الإشراك في
نفوس الناس من خلال تذكيرهم عاطفياً بهذه الأصنام، ونقول عاطفياً
لأننا نستشعر أنّ لفظة (لا تدرن) فيها دلالة عاطفية، والعقائد إذا
ارتكزت في النفوس عاطفياً كانت أشد بقاء في الذوات من كونها في
العقول، لأنّ العقول نضرة تقبل المحاجة وتغير إذا استولى عليها
المنطق، أما العواطف فتريد عاطفة أقوى لإحداث التغيير، لذلك كان
من مكرهم أن يخاطبوا الناس عاطفياً.

مضامين الدعاء:

1. فناء جنس الكافرين

دعا نوح ربه بعد أن أكمل وبشكل تام مهمة التبليغ على قومه
من صموا آذانهم عن الذكر فقال كما يخبرنا العليم الخبير: (لَا تَدْرُ
عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا)

أيّ كافر مقيم ودل على ذلك بلفظة ديار التي تعني بالعربية المقيم
بالدار، وكذلك تحتمل الدلالة أن يكون المقصود كل المقيمين على
الكفر، لان غير المقيم قد يكون من المستغفرين وغير المصيرين على ما
فعلوا وهؤلاء يجب أن لا يدعو عليهم نوح عليه الصلاة والسلام
لذلك كان المقصود بلفظة الديار قصداً حقيقياً وهو كل مقيم في
الأرض من الكافرين، أي أولئك الذين يصرون على الكفر.

2 . سيادة الحقّ

لقد كان مقصد نوح من الدعاء مقصدا إيجابيا، فلم يكن هدفه من هذا الدعاء المجاب أن يكون رغبة في الفساد بل كان يريد للحق أن يسود بالهادية إلى الصراط المستقيم، فنوح بعث ليصلح وعمل على الإصلاح لكنه وجد أن كثيرا ممّا جاء به يتعرض للمحاربة من قبل عدد الماديين من الكافرين (وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا)، لذلك جاء المضمون الثاني من الدعاء لهدف محدد هو سيادة الحقّ على الباطل الآن وما بعد نوح، لأنّ نوحا لا يفكر في الزمن من حيث كونه موجودا فيه، بل هو ينظر إلى أصل ما ترمي إليه دعوته وهو سيادة الحقّ على الأرض تحقيقا لغاية الاستخلاف التي أوكلت مهمتها بالإنسان لذلك أراد نوح أن يبقى الإنسان المصلح ليكون خليفة، أما المفسد والضال فلا يكمن أن يكون خليفة في يوم من الأيام إلا إذ تاب وآمن وعمل صالحا، يقول الحقّ مخبرا عن ذلك: (إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ).

3 . نقاء الجنس المؤمن

لقد أراد نوح أن يكون النَّاس على الهدى ولم يرد إغراقهم لذلك دعاهم وأكثر من ذلك مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ} 711، وبعد الوصول إلى النهاية مع هؤلاء الضالين المضلين دعا نوح دعوة أراد من خلالها أن يبقى الجنس المؤمن خالصا فسيود التوحيد ويعم الإصلاح وتتحقق الخلافة التي أراد الله عزّ وجلّ للإنسان أن يقوم بها فكانت دعوته لهذه الغاية مصداقا لقوله تعالى: (وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فٰجِرًا كَفّٰرًا)،

711 - هود 32.

هنا يمكن أن نضع عدد من مسوفات هذا المضمون للدعاء على الولد على النحو الآتي:

أ. علم نوح، حيث كان نوح يعلم مما علمه الله أن هؤلاء لن يلدوا إلا فاجرا كفارا لذلك دعا عليهم.

ب. خبرة نوح، عاش نوح بين قومه قرابة الألف سنة مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} {712}، هذه الخبرة علمته أن هؤلاء لم يلدوا إلا نمطا واحدا ولم يتركوا إلا نوعا واحدا من الأبناء هو نوع متصل بالآباء عقيدة وسلوكا، أي لا انفصال بينهما لذلك فهذا الجيل من ذاك وهكذا، هنا يكون المضمون حق يراد به إحقاق الحق.

ج. ما أوحى لنوح مصداقا لقوله تعالى: (وَأَوْحِي إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) هذه الآية تشير إلى أن القوم لم يبق فيهم عقبي مؤمنة لذلك أفصح نوح عن مضمون دعائه هذا على هذا النحو.

. طهارة الرزق:

ثم ختم الدعاء على الكافرين بطلب فناء كل المتعلق بهم من أموال وغرس وغير ذلك، وهذا ليس إفسادا بل هو إصلاح من نوح عليه الصلاة والسلام الذي كان يقصد التطهير التام للأرض وما عليها، واحتياطا منه على من معه من المؤمنين أراد أن يهلك متعلقات الكافرين المادية وفيها كثير من الحرام لئلا يأخذ منها أحد المؤمنين فيمسه الحرام وتثلم بذلك الطاهرة التامة التي أراد نوح أن تبدأ على

712 - العنكبوت 14.

الأرض من جديد بعد أن كثر الباطل والإفساد في الأرض فقال: (وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا).

نتائج الدعاء:

بعد أن أجيب دعاء نوح بالحق من الله القوي العزيز ظهرت عدد من النتائج هي بالتأكيد لا تتعلق بدعاء نوح بقدر تعلقها بالمشيئة الإلهية وذلك لأنها الغالبة على غيرها من الإرادات، ومن أهم هذه النتائج:

. غرق الأرض:

أن الآيات التي اشتملت على وصف الطوفان تشير في أكثر من وجه إلى أن الغرق شمل الأرض كل الأرض، يقول الحق سبحانه: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَؤَلْنَا اٰحْمَلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اٰثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ اِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ اٰمَنَ وَمَا اٰمَنَ مَعَهُ اِلَّا قَلِيْلٌ وَقَالَ اٰرْكَبُوْا فِيْهَا بِسْمِ اللّٰهِ مَجْرَاَهَا وَمُرسَاها اِنَّ رَبِّي لَعَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ وَهِيَ تَجْرِيْ بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوْحٌ اِبْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ اٰرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكٰفِرِيْنَ قَالَ سَاوِيْ اِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمٰءِ قَالَ لَا عٰصِمَ الْيَوْمَ مِنْ اَمْرِ اللّٰهِ اِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَضِيْنَ وَقِيْلَ يَا اَرْضُ اٰبَلْعِيْ مٰءِكَ وَيَا سَمٰءُ اٰقْلِعِيْ وَغِيضَ الْمٰءُ وَقُضِيَ الْاَمْرُ وَاَسْتَوَتْ عَلٰى الْجُوْدِيِّ وَقِيْلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظّٰلِمِيْنَ} 713، ولنتأمل دلائل الشمول في الآية وهي:

1 . (اِحْمَلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اٰثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ)، مِنْ كُلِّ اَرَادَ حَمْلَ

من كل شيء زوجين اثنين الذكر زوج والأنثى زوج...، واختلفوا في أنه هل دخل في قوله: (زَوْجَيْنِ اٰثْنَيْنِ) غير الحيوان أم لا؟ فنقول: أما الحيوان فداخل لأن قوله مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اٰثْنَيْنِ يدخل فيه كل

⁷¹³ هود 40-44.

الحيوانات، وأما النبات فاللفظ لا يدل عليه، إلا أنه بحسب قرينة الحال لا يبعد بسبب أن الناس محتاجون إلى النبات بجميع أقسامه⁷¹⁴، وأكد البعض شمول النبات بالحمل فقال الألوسي: "عن علي كرم الله تعالى وجهه مرفوعاً أنّ نوحاً عليه السلام حمل معه في السفينة من جميع الشجر"⁷¹⁵، من هنا نتساءل إذا كان الإغراق لبعض الأرض فما فائدة حمل الأزواج وهي موجودة على الأرض خارج موقع الطوفان؟ لا بدّ أن يكون الإغراق شاملاً لكل من هم خارج السفينة. عليه فإن للحمل دلالات إعجازية هي:

. الحفاظ على النوع.

. حمل زوجين وليس زوج واحد فيه تلبية لطباع بعض المخلوقات التي تأنف التزاوج مع زوجها من البطن الواحدة.

. الحمل كان جزءاً من مهمة نوح في إعمار الأرض التي استخلف عليها.

2. (لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ) هذه الآية دال على الشمول هو أسلوب نفي الجنس، فلو قال أحد أن العقاب كان لقوم نوح فقط وهم في بقعة جغرافية واحدة لما استقام نفي الجنس في الآية حيث سيكون هناك ناج في مكان ما وهو معصوم من العقاب لكونه ناج من الغرق، كما سيكون هنا عاصم غير الله إذا لم يكن الغرق شاملاً لكل الأرض، فسيكون هناك جبل عاصم في مكان ما وسيكون هناك سفينة عاصمة في مكان ما، وهذا ما لا يرتضيه مؤمن بربه لما فيه من تناقض بين النص القرآني والقول بعدم شمول الغرق كل

⁷¹⁴ تفسير الرازي، ج 8، ص 408.

⁷¹⁵ تفسير الألوسي، ج 8، ص 235.

الأرض. أما الاستثناء فهو مخصوص بمن حقت عليه رحمة الله وهم نوح ومن معه فقط.

ج . يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي، الخطاب هنا جاء باستخدام صيغة التنكير (أرض) وواضح أنها تدل على العموم، ولو كان الخطاب بالتعريف مثل يا أيها الأرض لكان لزاما أن تكون أرض محددة معروفة مقصودة بالخطاب، لكن صيغة التنكير أدت إلى بيان دلالة الشمول، والأمر كذلك مع السماء.

والنتيجة الحاصلة مما سبق هي أن الغرق شمل كل الأرض واستثنى نوحا ومن معه ومن حمل، فالغارقون من الكافرين هم الكافة الفانية، والناجون من المؤمنين هم الكافة الباقية مصداقا لقوله تعالى: {ذُرِّيَّةٌ مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} 716.

2. موعظة الله لنوح

حدث في أثناء طوفان الأرض حدث مهم هو إصرار ابن نوح على مخالفة نبيه عقيدة من جانب، وعقوق أبيه من جانب آخر مصداقا لقوله تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءَ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ

⁷¹⁶ الإسراء 3.

فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ
الْجَاهِلِينَ {717، هنا تصرف نوح من منطلقين هما:

أ . وعد الله له بنجاة أهله مصداقا لقوله تعالى (احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ
زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ)

هذه الآية غاية في إعجازها لان تحمل عددا من الأمور الدالة
المهمة هي:

1 . لم تحدد الأهل

والأهل تأخذ احتمالين:

الأول: الأهل هم ذوو القربى من جانب الأب والأم مما يجعل
الأعمام كالأخوال في علاقة نسب ومصاهرة تقرب العلاقات بين
الأجداد والأحفاد من الجانبين الذين منهما (الأب والأم) ويمتد مفهوم
الأهل ليشمل العشيرة التي منها الأب وكذلك العشيرة التي منها الأم.
الثاني: الأهل اندماج اجتماعي بقرب الدم وبغيرها مما يجعل
للمكان المشترك خصوصية تسمح بالانتساب والانتماء إليه، ولذلك
يقال: أهل القرية وأهل الحي، وأهل المدينة.

2 . لم تحدد من سبق القول عليه، هنا يجب الوقوف على مسألة
هي أنّ من اغرق من أهل نوح وزوجه وابنه، لكن نوح عليه الصلوة
والسلام لم يخاطب إلا في ابنه، فما هو تفسير ذلك؟

يكون التفسير على الاحتمال وعلى النحو الآتي:

. أن يكون نوح علم من هو الذي سبق عليه القول (زوج)

. أن يكون نوح عالم بخيانة زوجته

. أن يكون بدأ بابنه ثم انتهى عندما سمع قول الله (وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي

الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ) فلم تتح له فرصة الحديث عن زوجته.

ب . عاطفة الأبوة

نستشعر من السؤال عاطفة أبوية من قبل نوح عليه الصلّاة والسلام تجاه ابنه سرعان ما تبددت واختفت بعد موعظة الله له من أن يكون من الجاهلين، والحديث عن عاطفة نوح في موضع آخر من هذا الكتاب.

فالموعظة الإلهية هي تذكير نوح بأن علم الله أوسع من علمه بل هو العلم المطلق، لذلك وجب أن يقر في يقين المؤمن أن ما عمل أراداه الله إلا وكان حقا، فلا يجب مع ذلك سن ووعظه بأن يكون من الجاهلين المقصود هذه المسألة (علم الله المطلق) ومن غابت عنه لم ينفعه علمه مهما ارتقى لأنه سيكون جاهلا بالحقيقة المطلقة وهي أن الله هو العليم الخبير العليم اسم من أسماء الله متضمن للعلم الكامل الذي لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان، العلم الواسع المحيط بكل شيء جملة وتفصيلا سواء ما يتعلق بأفعاله أو أقواله⁷¹⁸، قال تعالى: {علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى}⁷¹⁹، فعلم العليم محيط بكل شيء لأنه خالق كل شيء فهو أعلم به، ولأنه حي قيوم انتفت عنه صفات النقص من سهو ونسيان وغير ذلك، ومن انتفت عنه هذه الصفات امتلك العلم التام المطلق، والعليم الواسع العلم المحيط قدر المقادير بعلمه الواسع فكانت بأمره كاملة تامة في فعلها وأثرها على الناس. هنا كان الوعظ آية ذكر لنوح فقال مستجيبا موقنا كما يخبر عنه المولى عز وجل: (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

3 . السلام والبركة والعذاب

⁷¹⁸ - المج لي شرح القواعد المثلي، من شرح القواعد المثلي في الأسماء والصفات الحسني،

لابن عثيمين، ج 4، ص 2.

⁷¹⁹ - طه 52.

يقول الحقّ جلّ وعلا: (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّةٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ).
 هذه الآية دقيقة معجزة لأنها تضمنت الثواب والعقاب دون الشعور بتناقض من أي جانب من جوانبها، ذلك أن السلام والبركة سيكونان لنوح ومن معه من الأمم، هنا ليس المقصود أمة واحدة ولا زمن واحد بل كل أمة على هدى نوح وفي أي زمن كان سينال السلام والبركة، أما من كان غير ذلك وتمتع في دنياه ونسي آخرته فأولئك سينا لهم العذاب بما كسبوا والله على كل شيء قدير.

الطوفان:

الطوفان من كلّ شيء ما كان كثيرا مُحيطا مُطيفا بالجماعة كلها كالغرق الذي يشتمل على المدن الكثيرة والقتل الذريع والموت الجارف يقال له طوفان 720.

ومن حيث المفهوم فلا يقتصر الطوفان على معنى الإحاطة بالجماعة، فهو ما يحيط بالشيء فيحمله عن غير إرادة وعن غير التحكم، بمعنى أنه عندما يقوم تغرق الأشياء.

أما المصطلح فقد أخذ مفهوما مخصوصا يتمثل في كون الطوفان نصر الله لنوح ومن معه من المؤمنين مصداقا لقوله تعالى:

{ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ففَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَا عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسِّرْ بَحْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ { 721.

720 - لسان العرب، ج 9، ص 225.

721 - القمر 9-15.

وهو من جانب آخر من جنود الله الذين هزموا الكافرين فأغرقوهم جميعاً: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرَفُونَ} 722.

فلا ينبغي النظر إلى الطوفان على أنه عقوبة الكافرين من قوم نوح، بل إن العقوبة كانت جزءاً منه إذ أن الطوفان كله إيجابيات ولا سلبيات فيه كما سنعرض في متربات الطوفان لأنه فعل المنتقم سبحانه وسبق أن ناقشنا في موسوعتنا في الأسماء الحسنى أن فعل المنتقم سبحانه وتعالى كله خير موجب فالمُنتَقِم هو العادل في العقوبة لمن يستحق 723.

ومن غايات الانتقام الانتصار للمظلوم الذي أعيته الحيلة للانتصار لنفسه، فالانتقام من الظالم الانتصاف، وانتصر منه انتقم: قال الله تعالى مُحْجِرًا عَنْ نُوحٍ عَلَى نَبِينَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَدَعَائِهِ إِيَّاهُ بَأَن يَنْصُرَهُ عَلَى قَوْمِهِ: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ فَوَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُوسِرٍ} 724.

وهكذا فإن الانتقام حق، له شروطه ليكون حق، وله صورته ولكل مستحق انتقامه الذي يليق بفعله، والانتقام في أساسه فعل لإحقاق الحق.

722 - هود 37.

723 - النهاية في غريب الأثر، ج 5، ص 231. ولسان العرب، ج 12، ص 590.

724 - القمر 9-13.

حدوث الطوفان:

أطاعت الأرض والسماء أمر الله عز وجل طوعا فحدث الطوفان،
وتعكس الآيات صورة الطوفان وهي تتشكل من حركتين متعاكستين
للماء هما:

من الأعلى إلى الأسفل وتتمثل في الماء المنهمر.

من الأسفل إلى أعلى وتتمثل في تفجر العيون.

يقول الحق جل وعلا: { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا
وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ فَوَتَحْنَا أَبْوَابَ
السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أُمَّرٍ قَدْ
قُدِرَ } 725.

عليه فالطوفان حدث من عمليتين هما:

نزول الماء المنهمر أثر فتح أبواب السماء.

صعود الماء المتفجر من العيون.

وحدث الطوفان بعد أن التقى الماء اثر تلك الحركتين المتعاكستين
ولم يكن بعد ذلك طوفانا لأنه لم يكن الماء قد أحاط بعد بالكافرين
ولكن بعد فوران التنور حدثت الإحاطة فكان الطوفان.

وهنا نتساءل:

هل المراد من الفتح والأبواب والسماء الحقيقية أم المجاز؟

عن ماذا تفجرت الأرض؟

بالنسبة إلى فتح أبواب السماء ففيه احتمالان:

الأول: حقيقة أي أن تكون للسماء أبواب تفتح وتغلق.

الثاني: على المجاز بأن جعل الماء المنهمر من السماء في غاية
الشدّة في الهطول فكأنه باب انفتح وهذا يبين أن هطول الماء من

السماء لم يكن على شكل القطرات وإنما على شكل انسكاب وهو انهمار ماء كثيف غير متقطع، فالانهمار في اللغة يعني الانسكاب والانصباب صبا شديدا726.

من هذين التساولين يتبين أنّ السماء لم تمطر وإنما كانت تنهمر المياه كثيفة متواصلة غير منقطعة.

أما الأرض فقد تفجرت عيونها: (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا)، إشارة إلى أنّ الأرض أخرجت كل ما فيها أو معظم ما فيها من خلال فتحات يسميها الناس عيون الأرض ليس على الحقيقة وإنما على المجاز، فالمشهور أنّ لفظ العين مشترك، والظاهر أنّها حقيقة في العين التي هي للأبصار ومجاز في غيرها، كما في عيون الماء فلأنها تشبه العين الباصرة727.

عليه فالجواز في الآية قدم لنا صورة تفجر الماء من الأرض كما قدم طريقة نزول الماء من السماء.

التقاء الماء:

يقول تعالى: (فَالْتَقَى الْمَاءُ) أي: النوعان، منه ماء السماء وماء الأرض، وله معنى لطيف، وذلك أنه تعالى لما قال فَفَتَّحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ذكر الماء وذكر الانهمار وهو النزول بقوة، فلما قال: وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا كان من البديع أن يقول: ما يفيد أن الماء نبع منها بقوة، فقال فَالْتَقَى الْمَاءُ أي من العيون فار الماء بقوة حتى ارتفع والتقى بماء السماء، ولو جرى جريا ضعيفا لما كان هو يلتقي مع ماء السماء بل كان ماء السماء يرد عليه ويتصل به.

وقوله تعالى: (عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) فيه وجوه:

726 - المعجم الوسيط، ج 2، ص 910.

727 - تفسير الرازي، ج 14، ص 485.

الأول: على حال قد قدرها الله تعالى كما شاء

الثاني: على حال قدر أحد الماءين بقدر الآخر.

الثالث: على سائر المقادير.

وفي الآية إشارة إلى عظمة أمر الطوفان، فإن تنكير الأمر يفيد ذلك.

وفيه احتمال آخر، وهو أن يقال: التقى الماء، أي: اجتمع على

أمر هلاكهم⁷²⁸.

ونحن نقول إن الأمر الذي قُدر يحتمل أمور أخرى منها:

1. أمر الطوفان

2. بينا أنّ الأمر يسير على الله عزّ وجلّ وهو مستحيل على

غيره، وبناء الفعل قُدر للمجهول في الصيغة وللمعلوم في الدلالة يدلل

على أنّ هذا الأمر هو من الله وأنه قادر عليه وحده.

3. أمر المشيئة: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ}⁷²⁹.

حركة الطوفان:

حدثت الحركة في الطوفان في كل من:

السفينة

الماء

الإنسان

فقد تحركت السفينة بأمر من الله عزّ وجلّ مصداقا لقوله تعالى:

{وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَّاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}⁷³⁰.

⁷²⁸ - تفسير الرازي، ج 14، ص 486.

⁷²⁹ - يس 82.

⁷³⁰ - هود 41.

وكان لحركة السفينة وصف دقيق يجانس الأمر الذي أوكلت به، فقد كان الأمر (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا) يوجب أن تجري السفينة، ولفظة تجري توحى بالحركة السريعة ولا شك وهي حركة مجانسة لحركة الطوفان الذي يعني حركة سريعة.

فالسفينة تحركت بأمر الله عزّ وجلّ ودون الأمر الإلهي لكانت السفينة قد غرقت لأنه لا يمكن لسفينة أن تواجه الطوفان الذي كان معجزا في كلّ شيء.

أمّا حركة الماء فكانت حركة عنيفة وقوية وذلك مرتبط بطبيعة الطوفان الذي كان لإغراق الكافرين لذلك فإنّ الله عزّ وجلّ وصف أمواج الطوفان بالجبال (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ).

والموج: ما يرتفع من الماء على سطحه عند اضطرابه، وتشبيهه بالجبال في ضخامته. وذلك إما لكثرة الرياح التي تعلو الماء وإما لدفع دفعات الماء الواردة من السيول والتقاء الأودية الماء السابق لها، فإنّ حادث الطوفان ما كان إلاّ عن مثل زلازل تفجرت بها مياه الأرض وأمطار جمّة تلتقي سيولها مع مياه العيون فتختلط وتجمع وتصب في الماء الذي كان قبلها حتى عم الماء جميع الأرض التي أراد الله إغراق أهلها731.

أما حركة الإنسان فتمثلت في حركة ابن نوح، لان غيره استقر أما غريقا أو ناجيا على ظهر السفينة وبقي ابن نوح يتحرك باحثا عن عاصم من الغرق متوهما وجوده.

فماذا كان هذا العاصم الوهم؟

731 - تفسير ابن عاشور، ج 7، ص 142.

العاصم الوهم:

سبق القول أنّ الطوفان لم يكن دفعة واحدة، بل كان عقابا متشكلا باستغراق الزمن، وفي لحظة قبل الاكتمال التام للطوفان، أراد الله سبحانه أن يبين للعالمين آية من آياته إذ بقي باق لم ينله الطوفان هو ابن نوح، هذا الابن الذي لم يغنه نسبه شيئا، فقد دعاه نوح للنجاة وكاد يوشك على الغرق إلا أنّ الله لم يتملكه إيمان صادق ينقله من الهلاك إلى النجاة فرفض دعوة أبيه واختار لنفسه خيارا آخر هو أن يبحث عن معزل له ينجيه من الغرق.

والأمر يثير التساؤل:

ما المعزل؟

ولماذا معزل؟

وأين يقع؟

المعزل مشتق من عزل عزلت الشيء نحيته، ورأيت في معزل، أي: في ناحية عن القوم معتزلا، وأنا بمعزل منه، أي: قد اعتزلته. والعزلة: الاعتزال نفسه⁷³².

وتَعَاَزَلَ الْقَوْمُ أَنْعَزَلَ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَالْعَزْلَةُ الْإِنْعِزَالُ نَفْسُهُ، وَكُنْتُ بِمَعَزِلٍ عَنْ كَذَا وَكَذَا أَيْ كُنْتُ بِمَوْضِعٍ عَزْلَةٍ مِنْهُ وَاعْتَزَلْتُ الْقَوْمَ أَيْ فَارَقْتُهُمْ وَتَنَحَّيْتُ عَنْهُمْ⁷³³.

من هذا يكون في معنى المعزل:

المجانبة.

الانفراد.

⁷³² - معجم العين، ج 1، ص 82.

⁷³³ - لسان العرب، ج 11، ص 440

المفارقة.

هذه المعاني الثلاثة تدل على طبيعة شخصية ابن نوح، فيبدو أنه أقرب ما يكون إلى الشخصية الانعزالية أو الانسحابية، إذ توحى لفظة معزل أنه كان منعزل عن الجماعة وظل يجانب السفينة وهي تجري منسحبا رغبة منه في مفارقة ما يجري باحثا له عن عاصم من الغرق.

هنا يأتي التساؤل الثاني:

لماذا المعزل؟

من المهم التذكير بأن ابن نوح لم يظهر عليه كفر وإلا لما كان نوح دعاه لركوب السفينة وهي محرمة على الكافرين، ومن المرجح أن يكون ابن نوح مائل أصلا إلى الانعزال فلم يظهر منه موقف كفر، وظهر منه موقف اعتاده حيث كان في معزل (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ). فابن نوح لم يتصرف من منطلق انتمائي وإلا لاستجاب لأبيه وهو يري نجاة الجماعة معه ولكنه تصرف من منطلق كونه انسحابي، دون أن يؤثر فيه شيء مما جاء به أبوه رسول الله نوح، فشخصيته ذاتية تميل إلى الأنانية وتسمى (الانسحابية) واليك بعض خصائص هذه الشخصية:

بما أنّ الإنسان اجتماعي بطبعه كما يقولون، إذن لابد أن يكون ذاتيا بالضرورة، وهذا لا يعني أن يأتي يوما لا تحيد فيه الشخصية عن ذاتها، وحيادها هذا عن ذاتها لا يلغي أنها اجتماعية الطبع والتطبع، وفي الوقت ذاته قد يصفها بالمنطقية عندما تتطّلع إلى ما يجب، وقد يصفها بالانسحابية نتيجة لسلوكها السالب تجاه القضايا والمواقف والمواضيع التي ينبغي أن يكون لها دورا متفاعلا تجاهها.

فالذات باعتبارها مكوّنا قيميا ومركزا لاندماج المشاعر والعواطف على المستوى الاجتماعي، تشكل رقيبا على الأنا وأطماعها الشخصية، وتكوّن قاعدة عريضة لأفرادها وجماعاتها المتطلعين لما هو أفضل. ولهذا توقعات الذات من أفرادها وجماعاتها هي دائما أن يكونوا مثلا اجتماعيا يصبو لما هو أفضل، ولكن هذا التوقع أو هذا الافتراض لن يتحقق دائما، بل في بعض الأحيان والظروف يتحقق ما هو أدنى أو أقل من المتوقع. وعندما يسلك الفرد سلوكا أدنى أو أقل ممّا ينبغي، أو أن يتخلى عن أداء المهام والمواقف أو ينسحب من ميادين أداءها، في هذه الحالة يوصف بالانسحابي، حيث أصبح سلوكه وأفعاله في حالة توصف بأنها (ذاتية تميل إلى الأنانية).

والميل: قوّة داخلية تحرك الكائن الحي نحو أهداف معينة. إنه تعريف عام يحتوي على ميل الكائن العاقل وميل الكائن غير العاقل، وذلك بشموليته لكل كائن حي، وهذا لا يعنينا في شيء إذا لم يكن المقصود به الكائن البشري، الذي لا يمكن أن يميل إلى أيّ جهة أو موقف إلا بعد اختيار وتبين لما هو أحسن أو أجود أو أفضل، فالميل فيه مغالبة طرف على آخر، أو مغالبة موضع على موضوع، وتتخذ قراراته بإرادة، وتنفذ عن قصد، ولهذا ميل الكائن العاقل يختلف عن ميل الكائن غير العاقل الذي لا يتمكن من اتخاذ القرار عن وعي ويسعى إلى تنفيذه بإرادة.

يتوقع المجتمع من أفراده الالتزام بأوامره ونواهيه، ويتوقع أيضا أن تكون شخصيات أفرادهم وجماعاتهم تطلّعية، وفي الوقت ذاته يودّ أن يكونوا حريصين على التمسك بذات المجتمع التي تميزهم عن غيرهم، وتحافظ على هويتهم، ولكن لا يودّ لهم التقدم الذي ينهي خصوصياتهم العقائدية والثقافية والقيميّة، ولا الانسحاب من ميادين

إثبات الهوية، إنه لا يقبل التخلي عن الذات ولا يسح لأحد من أفرادها بالتفريط فيها، ومن يسلك أو يفعل ذلك توصف شخصيته بأنها شخصية ذاتية تميل إلى الأنانية.

إن ميل تفكير الشخصية عن التمرکز على الذات إلى الاستحسان فيما توّد أنّ تقدّم عليه الأنا، أو ترغب في فعله والقيام به، يجعلها في حالة مراجعة لما كانت تؤمن أو فيما كانت تعتقد، وعندما تصحو من غفلتها، تتطلع، وعندما تتعمّق في غفلتها تنطوي وتراجع إلى ما هو أدنى بالمنظور الذاتي، ولكنه قد لا يكون أدنى بالمنظور الشخصي Personalist، فالشخصانية يتمركز تفكيرها على ما يُفيد أنا، ولا يهم الآخر، المهم أنا. والأنا هي التي تمتد برؤية الفرد، ورغبات الفرد وأطماعه، ولذا فهي المتجردة من عاطفة الانتماء الاجتماعي الذي يُبرز أهمية الذات على أهمية الأنا. أما عندما تصبح الشخصية في حالة ميل من الذاتية إلى الأنانية، فإن ذلك يعني أن الشخصية لم تتخلى عن كافة مكونات ذاتها بل أنها متخلية عن شيء منها، وبما يجعلها في حالة مغالبة تفضيلات الأنا على تفضيلات الذات، وهذا يؤدّي بالضرورة إلى مغالبة معايير الأنا ورؤاها على معايير الذات ورؤاها.

للتمييز بين الشخصية الانسحابية والشخصية المتطلعة، هو أن الانسحابية تميل إلى الاتجاهات ذات المردود السالب، والمتطلعة تميل إلى الاتجاهات ذات المردود الموجب، وهذا لا يعني أن كل انسحاب هو ذا مردود سالب، ولا كل تطلع هو ذا مردود موجب، فعندما تنسحب الشخصية من القيام بالأفعال المؤذية والمؤلمة، فإن ذلك الانسحاب يعد انسحاباً موجباً، وعندما تتطلع إلى ما هو مؤلم وضار فإن تطلعها هذا يعد تطلعاً سالباً، وتوصف هذه الشخصية

بالشخصية السالبة أو الانسحابية حيث انسحابها من ميادين العمل الموجب وميلها إلى ميادين العمل السالب.

تُعد ذاتية تميل إلى الأنانية مكوّن من مكوّنات الشخصية القابلة للانحراف السلوكي، وليس مكوّنًا بنائياً، فالشخصية التي ترتكب أو تسلك الأفعال غير المقبولة أو المفضلة اجتماعياً، ثم تكفّر عن ذاتها، وتعود مرة ثانية وثالثة وقد تندم بين الحين والحين، ثم تعود إلى ما فعلت، وهكذا، تُعد هذه الشخصية بالشخصية المترددة والمتبدلة، وذلك لمغالبتها القيم المتبدلة على القيم المفضّلة. وعندما يصل الحال بالشخصية إلى أن تقطع كل علاقتها مع كل موجب، ومع كل ما بنى على القيم الضميرية، فإنها لن تتوقف عن انسحابها إلى أن تصل إلى حالة الانطباع بالخصائص الأنانية والأفعال الشخصية، وهي مرحلة من مراحل بناء الشخصية السالبة في خماسي تحليل القيم.

القاطع ذاتية تميل إلى الأنانية مكوّن نفسي، قد تصل فيه حالة الشخصية إلى درجة من التوتر الذي يؤدي بها إلى فعل السوء لمن يتعارض مع مصالحها أو يشكل خطراً على ما تعتبره منافع لا ينبغي لغيرها أن يشاركها فيها، مصداقاً لقول الله تعالى: {إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي} 734. النفس الأمارة بالسوء هي النفس المائلة للشهوات، والمبتعدة عن الأفعال العقلية والمنطقية التي تجعل الإنسان في حالة وعي وتمييز بين ما يجب وما لا يجب.

عندما يحدث التحلل من العلائق القيمية الاجتماعية الضابطة للسلوك، سواء كان هذا التحلل على مستوى الأسرة أو الجماعة أو المجتمع بكامله، تحدث الانحرافات والميول التي تُغير سلوكيات وأفعال الأفراد من مكانة اجتماعية إلى مكانة أخرى، ومن موقف إلى موقف،

734 - يوسف 53.

مع اختلاف درجة تأثيرها من شخص إلى شخص آخر. حيث نلاحظ التحلل النسبي في كفة الميل من الذاتية إلى الأنانية، فقد نجد المتردد، والمصمم على الاختراق، والمقدم على المخاطرة، والمتطرف، والمنفعي المحافظ على السلامة الشخصية، والمصلحي الخانع، ومسلوب الإرادة، واللامبالي. كل هذه الصفات تحتويها صفة الشخصية الانسحابية (ذاتية تميل إلى الأنانية)، التي تنمو فيها مغالبة الرغبات الخاصة على الرغبات العامة، ومغالبة ملا يجب على ما يجب، والميل إلى السلوك المتعارض مع القيم والمعارف الضميرية، والإقبال على المطالبة بالحقوق والابتعاد عن أداء الواجبات وتحمل المسؤوليات.

تعتبر مرحلة اليأس مرحلة نفسية، يصل إليها الفرد في مرحلة تقدم العمر، حيث الضعف الذي ينمو في القدرة والاستعداد إلى درجة إضعافها، وإعاقتها عن أداء أدوارها التي كانت تفعلها أو تسلكها، ولذا عندما يسود الوهن العقل والجسم، والقدرة والاستعداد، يحدث الانسحاب، ويسود التردد، والتخلي عن أداء ما ينبغي أن يؤدي. وحالة اليأس هذه لا تقتصر على المرحلة المتقدمة من العمر، بل في كثير من الأحيان تسود الشخصية الانسحابية (ذاتية تميل إلى الأنانية)، التي تصل إلى مرحلة اليأس وهي في ربيع العمر، فتستسلم لأمر الواقع، نتيجة الضعف الذي يلم بها (ضعف النفس)، الذي في كثير من الأحيان تسببه الحاجة، أو الرغبة فيما لا يجب، أو الخوف من المواجهة وعاقبة الأمور. إنها مبررات الميل إلى الأنانية لكل نفس تيئس أو تقنط من رحمة الله، أما النفس التي لا تيئس ولا تقنط من رحمته دائما يراودها الأمل، الذي بالجد والاجتهاد والسعي الحميد ينقلها من حالة اليأس إلى حالة تحقيق الأمل، الذي يجعل منها

شخصية متطلعة وتمتلك الحجّة والمنطق الذي يجعلها في حالة نُقْلة من الذاتية إلى الموضوعية.

إن تغير حالة الفرد من التمرکز على أُلانا إلى حالة التمرکز على الذات أو الموضوع لا يمكن أن يتم نُقْلة واحدة هكذا، بل يحتاج إلى الآتي:

1 . زمن الاستيعاب: الفترة التي تُمكن المنسحب من استيعاب المتغيرات والمبررات الجديدة.

2 . زمن الانفكاك النسبي: الفترة التي تُمكن المنسحب من التخلص من الارتباطات القيميّة السابقة، والعلائق التي انتظمت على مستوى الذات.

3 . زمن الارتباط: الفترة التي يكوّن فيها للمنسحب علائق مع الوسط القيمي الجديد.

4 . زمن الفعل: فترت التبدل التي تُمكن المنسحب من الإقدام على الأفعال التي كانت محرّمة أو محذوفة من قاموسه الاجتماعي.

5 . زمن العادة: فترت التكرار السلوكي مع الديمومة بما يشكل الخصوصية الجديدة والسلوك الجديد.

مما تقدم إذن لا يمكن أن يتم التغير نقلة واحدة من التمرکز على الأنا أو الذات أو الموضوع، بل لابدّ من مسافة تسمح بالامتداد للممتد وتسمح بالانكماش للمنكماش، وكذلك لابدّ من زمن لكل امتداد أو انكماش. ولا يمكن أن تكون الذات مكوّن مستقل عن الأنا أو الموضوع، ولا يمكن أن تتجرد من الميلان إلى الموجب أو السالب، كل حسب الظرف والموضوع والمتغيرات المدخلة أو المخرجة. الانحياز سلوك بشري، لا يتم إلا بمعرفة، ولذا، عندما ينسحب الفرد من موقف لموقف، أو من موضوع لموضوع، بالضرورة أن يتخلى

عن موقف أو موضوع وينحاز لآخر، وهذا لا يعني أن كل انحياز هو ذو عائد سالب، بل بعض من الانحيازات ذات مردود موجب، كالانحياز للحق والعدل، أما الانحياز للعبودية والظلم فهي انحيازات سالبة، وهذا النوع من الانحيازات هو الذي تمتد فيه الشخصية الانسحابية (ذاتية تميل إلى الأنانية)، وذلك لعدم تحمّلها المسؤولية تجاه ما يجب أن تقدّم عليه من أفعال، ولهذا أنّ تحمّل المسؤولية صفة موجبة تمكّن الفرد من أن يكون تطلعي أو منطقي فيما يفعل أو يسلك.

ذاتية تميل إلى الأنانية لم تكن شخصية طبيعية بل شخصية مصطنعة، الشخصية الطبيعية هي التي عليها فطر الإنسان وشبّ، أمّا الشخصية المصطنعة فهي التي أو جدتها الظروف أو صنعتها، حتى بعض من المناضلين والمتطلعين قد تكون آخر أيام نضالهم وتطلعاتهم تؤدّي بهم إلى الانسحاب، ويصبحون في حالة ميل من الذاتية إلى الأنانية، إنّها قد تكون نتيجة ردود أفعال من غير المتوقع، أو نتيجة الهزيمة التي كسرت الهيبة. إذن الشخصية الانسحابية قد تكون بمسببات الهزيمة، وقد تكون بمسببات الاستسلام.

الابتعاد عن المواقف السالبة ليس دائما يؤدّي إلى المواقف الموجبة، فعندما يتعد الإنسان أو يميل عن مواقف سالبة إلى أخرى سالبة، لا تعد أفعاله موجبة، فالذي يحدد المواقف الموجبة من السالبة هو الموضوع المنحرف منه والموضوع المنحرف إليه. وهي ذات أبعاد ثلاثة هي:

1 . مواقف التجنب: قد يؤدّي التجنب إلى الابتعاد عن أفعال الخير، وقد يؤدّي إلى الابتعاد عن أفعال الشر. وفي كلتا الحالتين الشخصية تعرف ما هو خير وما هو شر وتمتنع عن القيام بهما.

والشخصية التي لا تفعل الخير، هي التي توصف بالانسحابية، حيث أنها تنسحب من القيام بالأفعال المفضلة اجتماعيا وإنسانيا، وهكذا الشخصية التي لا تفعل الخير تنسحب من ميادين الفضيلة.

2. مواقف الانسحاب: قد تكون ذات أفعال سالبة وقد تكون ذات أفعال موجبة، فعندما تنسحب الشخصية من مواقف سالبة ليس بالضرورة أن تكون موجبة. وعندما تنسحب من مواقف موجبة ليس بالضرورة أن تكون سالبة.

3. مواقف الإقدام: قد تكون ذات أفعال سالبة، وقد تكون ذات أفعال موجبة وفقا للآتي:

أ. عندما تنسحب الشخصية من مواقف وأفعال سالبة، وتقدم على أفعال أخرى سالبة، فإن إقدامها هذا يعد سالبا. وعندما تنسحب من سالب إلى موجب تصبح أفعالها موجبة.

ب. وهكذا عندما تنسحب من موجب إلى موجب فهي لا زالت ذات المواقف الموجبة، وإذا انسحبت من الموجب إلى السالب فتصبح أفعالها سالبة.

وهناك إشارات عديدة تدلل على طغيان الأنا لدى ابن نوح وذلك من خلال تأمل قوله تعالى: {وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَأُوبِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ} 735.

هنا يلاحظ عدد من مظاهر أنانية الشخصية الانسحابية ومنها:

1. استخدام خطاب الأنا مع الجماعة:

735 - هود 42، 43.

لقد خاطب نوح الأب ابنه بخطاب بلسان الجماعة المؤمنة (نحن) فقال له: (اَزْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ)، هذه في الحقيقة دعوة للانتماء للجماعة لكن خطابه كان أنايا متمثلا في لفظتين:

آ. سأوي

ب. يعصمني

هاتان اللفظتان ترتكزان على فردية مطلقة في اختيار تعبيرات الحوار مع الآخر، وهذا يدل على انسحابية هذه الشخصية. والأولى تدل على الانسحابية، والثانية تدل على الأنانية.

2. مغالبة معايير الأنا:

اختار ابن نوح أن يجعل معايير الأنا هي السائدة على معايير الجماعة، فالجماعة اختارت الركوب في السفينة العاصمة، لكن هذه الشخصية وضعت معيارا منفردا عن الجماعة وأصرت على اختاره، فقد اختار نوح ومن معه الركوب في السفينة بينما اختار ابنه وهما متخيلا فيه عصمة من أمر الله.

وقد بدا ذلك جليا من خلال نمط البحث عن العاصم المتهوم عنده.

فماذا كان هذا العاصم؟

يبين السياق أنّ ابن نوح الذي كان في معزل رأى أنّ الماء يرتفع مستواه شيئا فشيئا فتوهم أن اختيار الجبل عاصما سيؤدّي به إلى النجاة، وذلك يبدو جليا من خلال استخدامه لمسمى العاصم وهو (جبل).

هل كان الجبل حقيقة أم وهما؟

من سياق الآية يتبين أن ابن نوح لم يعرف جبلا محددًا يمكن أن يكون عاصم له وهذا يعني عدة احتمالات:

. إنّه استهان بما يرى فلم يحدد فرأى أن أي جبل يمكن أن يعصمه!

. إنّه يجري على غير هدى باحثا عن جبل مناسب للاعتصام!
هنا نتساءل:

أين كان نوح عليه الصلّاة والسّلام من ابنه؟

ألم يستمع الابن إلى حديث أبيه؟

ألم يعلم حقيقة ما سيجري؟

ألم يصدق كلام أبيه؟

هذه التساؤلات تفضي إلى حقيقة مفادها أنّ الابن استمع ولا شك إلى العقيدة الصحيحة وما دار حولها، وأنّ الابن حبا وتكليفا بلغ الابن بما يجري، حبا لأنّ الابن قرّة عين يطلبها المؤمن يفرح بها في الدنيا من حلال ما يرزق الله عزّ وجلّ مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ {736}.

وتكليفا لأنّ الرّسل مكلفون تبليغ النّاس ولاسيما أولى القرّبي مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ {737}.

فالابن استمع كلام أبيه، ولكنه لم يستطع أن يدرك حقيقة الصدق فيه فلم يبدي ردة فعل على ذلك ولذلك لم يظهر عليه أنه من الكافرين وإلا لما دعاه نوح إلى ركوب السفينة ولو كان ابنه، فقد فعل ذلك مع زوجته التي كان يعلم خيانتها فلم يسألها الركوب، بينما لم يعلم نوح حقيقة ما في نفس ابنه وأراد الله أن بين لنوح ولنا ذلك فأخر غرفه إلى أن دعاه إلى السفينة وهي العاصم الوحيد الذي كان

736 - الفرقان 44.

737 - الشعراء 214.

على الأرض مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ لَا عَصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ} 738.

ولعل هناك أثر من الأم في الابن بشكل من الأشكال سواء على سبيل العقيدة أو السلوك.

كما إنَّ هناك آية تقطع بصحة ما قلنا، فقد أوحى الله عزَّ وجلَّ لنوح عليه الصَّلَاة والسَّلَام أنه لن يؤمن له إلا من قد آمن قبل صناعة السفينة أي إنَّ الإيمان لم يدخل قلب أحد من الكافرين عند بدأ صناعة السفينة ولن يدخل مصداقا لقوله تعالى: (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئَسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ) ونوح مؤمن بالمطلق بما أوحى إليه لأنَّه من الله عزَّ وجلَّ. هنا نتساءل:

إذا كان نوح مؤمنا وابنه كافر كيف دعاه إلى السفينة؟

لا شك أنَّ نوح لم يكن يعلم حقيقة موقف ابنه لأنَّ الابن لم يفصح عنه بسبب العزلة التي اختارها لنفسه وهذا مؤكد بقول نوح لابنه (ولا تكن من الكافرين) أي، أنَّ ابنه لم يكن من قبل من الكافرين حسب علم نوح، لأنَّه لو كان يعلم أنَّه من الكافرين لكان نوح (حاشا لرسول الله) قد خالف الوحي وهذا محال.

انتهاء الطوفان:

انتهى الطوفان عند الأمر الإلهي (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ).

وفي هذا ثلاثة متغيرات هي:

1 - وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ

2. وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي

3. وَغِيضَ الْمَاءِ

هذه متلازمات ومرتبات الواحدة تلو الأخرى، وذلك راجع إلى دلالة كل فعل من هذه الأفعال، فالبلع معناه الشرب، فبَلَعَ الْمَاءَ يَبْلَعُ بَلْعًا، أي شرب739.

الشرب كلا لا مجتزأ كما يقول صاحب اللسان: بَلَعَ الشَّيْءَ بَلْعًا وَابْتَلَعَهُ وَتَبَلَّعَهُ وَسَرَطَهُ سَرْطًا جَرَعَهُ740.

أما الغيظ فيعني القلة فغاضَ الْمَاءُ يَغِيضُ غَيْضًا، أي قَلَّ741، وهو يدلُّ على نُقْصَانٍ فِي شَيْءٍ، وغموضٍ وقلة742.

أما الإقلاعُ عن الأمر الكفُّ عنه يقال أَقْلَعُ فلان عما كان عليه أي كفَّ عنه وفي حديث المزدتَيْنِ لَقَدْ أَقْلَعَتْ عَنْهَا أَي كَفَّتْ وَتَرَكَتْ وَأَقْلَعُ الشَّيْءُ انْجَلَى وَأَقْلَعُ السَّحَابُ كَذَلِكَ وَفِي التَّنْزِيلِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي أَي أَمْسِكِي عَنِ الْمَطْرِ743.

ومن المفهوم اللغوي يتبين أنَّ غيظ الماء مرتبط بالبلع، فلولا الغيظ لما كانت الحياة حيث قلت المياه لتتيح ديمومة الحياة دون أن تنضب نضوبا كاملا لأنَّ ذلك يعني انتهاء الحياة وهو أمر ما أَرَادَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، كذلك الإقلاع الذي كان أمرا مخصوصا بمعجزة الطوفان ولم يكن أمرا دائما.

هنا قد يتساءل متسائل:

إذا بلعت الأرض ماءها فأين ذهب الماء المنهمر من السماء؟

739 - معجم العين، ج 1، ص 166.

740 - لسان العرب، ج 8، ص 20.

741 - الصحاح، ج 2، ص 30.

742 - مقاييس اللغة، ج 4، ص 405.

743 - لسان العرب، ج 8، ص 290.

نقول إن المطر أصله الأرض لأنه ناتج عن تبخر ماء الأرض وكل ما يجري في السماء هو إعادة إنتاج وتوزيع هذا الماء استجابة لأمر الله عزّ وجلّ، فالكاف في ماءك يشمل الماء المنهمر والماء المتفجر معا. هنا أمر لا بدّ من الوقوف عنده حول طبيعة الأمر الإلهي الموجه لمصادر المياه تطرحه التساؤلات الآتية:

لماذا كان على الأرض أن تبلع مائها؟

لماذا لم يكن مثل هذا الأمر موجها للسماء؟

نقول: إنّ ماء عيون الأرض هو من المسخرات لخدمة الإنسان وهذا أصله، ولكنه في الوقت ذاته كان يقوم بمهمة طارئة هي إغراق الكافرين، وعند انتهاء المهمة لا بدّ أن يعود إلى طبيعته وإلى مكانه الذي خلق له لأنه لو لم يعد إلى مخازنه الأرضية لحدث إخلال في التوازن بين الحاجات والمحتاجين وهو أمر لم يكن مقصدا للطفوفان، فما كان له أن يتحقق مع غير المستهدفين بالعقاب، لذلك عاد الماء إلى حيث كان.

أمّا السماء فلم يرجع الماء إليها لأن من طبيعتها المطر وهو أصل فيها فلا حاجة لعودة الماء إليها، وهذه من صور الإعجاز القرآني الفريدة إذ أنّ الأمر خص طرف دون آخر مع اشتراك الطرفين بأداء المهمة.

والآية الكريمة (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي) مشتملة على ألفاظ كثيرة كل واحد منها دال على عظمة الله تعالى وعلو كبريائه:

الأول: قوله: (وَقِيلَ) وذلك لأن هذا يدل على أنه سبحانه في الجلال والعلو والعظمة، بحيث أنه متى قيل لم ينصرف العقل إلا إليه ولم يتوجه الفكر إلا إلى أنّ ذلك القائل هو هو وهذا تنبيه من هذا

الوجه، على أنه تقرر في العقول أنه لا حاكم في العالمين ولا متصرف في العالم إلا هو.

الثاني: قوله: (يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي) فإنّ الحس يدل على عظمة هذه الأجسام وشدتها وقوتها فإذا شعر العقل بوجود موجود قاهر لهذه الأجسام مستول عليها متصرف فيها كيف شاء وأراد، صار ذلك سببا لوقوف القوّة العقلية على كمال جلال الله تعالى وعلو قهره، وكمال قدرته ومشيتته.

الثالث: أنّ السماء والأرض من الجمادات فقوله: (يا أرض - ويا سماء) مشعر بحسب الظاهر، على أن أمره وتكليفه نافذ في الجمادات فعند هذا يحكم الوهم بأنه لما كان الأمر كذلك فلاّن يكون أمره نافذا على العقلاء كان أولى وليس مرادي منه أنه تعالى يأمر الجمادات فإنّ ذلك باطل بل المراد أنّ توجيه صيغة الأمر بحسب الظاهر على هذه الجمادات القوية الشديدة يقرر في الوهم نوع عظمتة وجلاله تقريرا كاملا 744.

وينتهي الطوفان بقوله تعالى: (وَقُضِيَ الْأَمْرُ) بمعنى: أنّ الذي قضى به وقدره في الأزل قضاء جزما حتما فقد وقع تنبيها على أنّ كل ما قضى الله تعالى فهو واقع في وقته وأنه لا دافع لقضائه ولا مانع من نفاذ حكمه في أرضه وسمائه.

ويعد الطوفان أوّل عقوبة مباشرة من السماء لأهل الأرض ونستطيع القول أنه فتحت الباب أما عقوبات أخرى ليس إرادة من الله ولكن طغيانا من العباد وكفرا بنعم الله عزّ وجلّ لان الله سبحانه وتعالى أخبرنا عن ثابت من الثوابت هو أنه عزّ وجلّ لا يعذب

⁷⁴⁴ - تفسير الرازي، ج 8، ص 415.

المصلحين مصداقا لقوله تعالى: { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ
وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } 745.

مترتبات الطوفان:

من المهم الإشارة إلى أنّ ما ترتب على الطوفان لم يكن بسببه
ولكنها أمور أراد الله أن تكون بعد الطوفان ومتعلقة به فكانت من
أهمها:

1. لم يبق على ظهر الأرض إلا الذين آمنوا مع نوح

2. عرف نوح أن ابنه ليس من أهله وعلى احتمالات هي:

أ. أنه ليس أهل الإيمان

ب. ليس من أهل السفينة

ج. ليس من أهل النجاة

وهذه كلها احتمالات قد نرجح أحدها قد تكون كلها مجتمعة
صحيحة ولكن لا احتمال يرد في الذهن عن حقيقة أبوة نوح لابنه
فهو من صلبه لأنّ الله عزّ وجلّ معجز في اختيار الألفاظ الدالة على
المعنى فقد قال من أهلك ولو قال من آلك لكان ذلك يدل دلالة
أخرى مختلفة، والحقيقة أنّ من أهلك تدل على قطعية البتة.

3. بقاء السفينة آية

جعل الله السفينة آية للعالمين قال تعالى: (لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) خص

الآيات بالمؤمنين لأنّ السفينة بقيت زمنا حتى مر عليها الناس ورأوها
فحصل العلم بها لكل أحد.

والسفينة صارت آية بأمر الله (الطوفان)، فالله تعالى جعل السفينة

بعد وجودها آية.

وهي من وجه آخر آية للمؤمنين تذكّرتهم بأمور منها:

745 - هود 117.

- 1 . نصر الله للمؤمنين
- 2 . عقاب المصيرين على الكفر
- 2 . وجوب الدعاء
- 3 . إجابة دعاء المظلوم
- 4 . لا نفع للنسب في العقيدة
- 5 . صبر المؤمن على الأذى في سبيل العقيدة
- 6 . الآية درس لكل حي وهي المعجزة المتمثلة بتكريم الذين آمنوا وإنجائهم كي لا يعودوا إلى الكفر.

ما بعد الطوفان (تأسيس حياة الجديدة):

1 . وراثة النبوة

لا نستطيع على وجه التحديد بيان من هم الأنبياء قبل نوح، وقد اختلف العلماء في ذلك ولكن المهم أنّ النبوة لم تكن متسلسلة متصلة بنسب واحد إلا من بعد نوح أي بعد الطوفان، وهذا ليس بعلّة الطوفان مطلقاً بل هو أمر الله عزّ وجلّ أن يجعل النبوة في ذريته وفي ذرية إبراهيم فقد أصبحت موروثه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ 746

وقد جعل الله في ذريتهما النبوة والكتاب فما جاء بعدهما أحد بالنبوة أو الرسالة إلا وكان من ذرية نوح أو إبراهيم. فموسى عليه الصلوة والسلام كان من ذرية نوح مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ 747.

746 - الحديد 26.

747 - الاسراء 2-3.

2. الرسائل تترى

يقال تترى إذا كان بين الأشياء تعاقب مع فترات وتقطع. ومنه التواتر وهو تتابع الأشياء وبينها فجوات. والوتيرة: الفترة عن العمل. وأما التعاقب بدون فترة فهو التدارك. يقال: جاءوا متداركين، أي متتابعين⁷⁴⁸.

يجمع الالوسي في تفسير لفظة تترى عدة أقوال للمفسرين، منها:

1. ولا تكون الموازنة بين الأشياء إلا إذا وقعت بينها فترة وإلا

فهي مداركة.

2. الموازنة أن يتبع الخبر الخبر والكتاب الكتاب فلا يكون بينهما

فصل كثير.

3. التتابع بغير مهلة.

4. هو التتابع مطلقا⁷⁴⁹.

وتكاد تجمع كتب التفسير على كون تترى بمعنى التواتر الفردي، وهذا غير دقيق إذ الثابت والصحيح أن الرّسل يرسلون تترى فرادى ومثنى وثلاث ورباع دون أن يُشترط الأفراد، فالمسألة تتعلق بإرادة الله عزّ وجلّ أولاً وبالمستهدفين بالرسالة ثانياً، فالله عزّ وجلّ يفعل ما يراه خيراً للعباد لأنّه عليم خبير بهم.

والمستهدفون بالرسالة كل له خصوصية، فإذا كانت هذه الخصوصية متباينة إلى حد كبير في الفهم أو السلوك أو اللسان استوجب الأمر أن يكون هناك أكثر من رسول أو أكثر من نبي، وهناك حقائق مهمة في هذا المجال نعتقد بأهمية الإشارة إليها هي:

⁷⁴⁸ - تفسير ابن عاشور، ج 9، ص 366.

⁷⁴⁹ - تفسير الالوسي، ج 13، ص 218.

1. يجوز أن يكون هناك أكثر من نبي في أكثر من موضع واحد في آن واحد، مثل يوسف في مصر ويعقوب في البدو.

2. يجوز أن يكون هناك أكثر من نبي في موضع واحد في آن واحد مثل إسحاق ويعقوب مصداقا لقوله تعالى: { فَلَمَّا اعْتَرَاهُمُ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا } 750.

3 . يجوز أن يكون هناك أكثر من رسول في موضع واحد مثل موسى وهارون مصداقا لقوله تعالى: { فَأَتَيْنَاهُ فُقُولًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسَلْنَا مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا نُعَذِّبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى } 751.

4 . يجوز أن يكون هناك أكثر من رسول في أكثر من موضع مثل إبراهيم وإسماعيل ولوط حيث إن لوط رسول مصداقا لقوله تعالى: { وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ } 752، وكان إبراهيم في مكان ولوط في مكان آخر كما يخبرنا العليم الخبير بقوله جل في علاه: { وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } 753، وإبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: { وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا } 754.

750 - مريم 49.

751 - طه 47.

752 - الصافات 133.

753 - العنكبوت 31، 32.

754 - مريم 54، 55.

5 . يجوز أن يكون هناك نبي ورسول في موضع واحد مثل عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا، وداود وسليمان لقوله تعالى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخُذَمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ} 755.

6 . يجوز أن يكون هناك نبي ورسول في موضعين مختلفين مثل موسى وشعيب.

7 . لا يجوز أن يكون أكثر من رسول للكافة في آن واحد. فالجمع موجود حقيقة إلا في رسل الكافة لم يحدث الجمع لأنه سيكون نوعا من التناقض بين دلالة الكافة التي توجب الأفراد وبين وجود أكثر من نبي أو رسول.

عليه فإن تترى ليس المقصود بها لا الزمن ولا المكان ولا تلك محدداتها الدلالية بل المقصود الفعلي هو نوع الانحراف الحاصل في القرون أو الأمم، لأنه من المنطق واليقين ألا يستهدف قوم على الهدى برسالة إذا كانوا من غير انحراف وإن كانوا يمثلون قرنا بالنسبة لغيرهم، فتترى ليس زمنا بل متابعة لانحرافات الخلق عن المهمة التي أوكلت لهم إلا وهي الاستخلاف على الأرض والإصلاح فيها.

عليه: فإن تترى آية من آيات رعاية الله عز وجل للخلق من أجل هدايتهم إلى طريق الحق والفوز بالدنيا والآخرة رحمة منه بهم، لأنه الرحمن الغني عن عذاب العباد مصداقا لقوله تعالى: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} 756.

3 . إهلاك القرون

755 - الأنبياء 78-79.

756 - النساء 147.

لم تذكر آيات القرآن الكريم أي إشارة إلى عقوبة الإهلاك الجماعي للكافرين قبل نوح، بل ذكرت أن الإهلاك كان بعد نوح مصداقا لقوله تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} 757.

ومن بعد نوح من بعد زمنه عليه السلام كما حدث لقوم عاد وثمود ومن بعدهم ممن قصت أحوالهم في القرآن العظيم ومن لم نقص، وخص نوح عليه السلام بالذكر ولم يقل من بعد آدم لأنه أول رسول آذاه قومه فاستأصلهم العذاب ففيه تهديد وإنذار للمشركين 758. وقد يتساءل البعض:

لماذا الإهلاك بعد نوح وليس قبله؟

هل كان الإهلاك بسبب دعوة نوح العامة (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا)؟

هل كان نوح أول من يدعو على قومه فاستجيب له؟

هل كان بسبب تطاول البشر على خالقهم بكيير الذنوب؟

هذه التساؤلات تدعونا للبحث في فترة ما قبل نوح التي لم يذكر لنا القرآن إلا قليل منها وعلى وجه التحديد حادثة القتل لأحد أبناء آدم من أخيه مصداقا لقوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ

757 - الإسراء 17.

758 - تفسير الالوسي، ج 10، ص 411.

فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَحِي فَاصْبِحْ مِنَ النَّادِمِينَ {759}.

هذه الحادثة هي ذنب أعقبه ندم ولا إصرار في الأمر على الفعلة أو الرغبة في تكرارها أو الدفاع عنها لذلك نعتقد أن هذا لا يمكن أن يكون سببا لوقوع العقوبة الجماعية، فهو خطأ فردي، والفرد جزء من الجماعة لذلك فالجماعة غير مسؤولة عن أخطاء الأفراد إذا كانت على الصلاح، بينما ما حدث مع قوم نوح والأقوام بعدها هو أن الجماعة اختارت وأصرت إصرار منقطعا عن العودة فكان استحقاق الإهلاك جزاء ذلك الإصرار، ولو اختارت الجماعة العودة عن الإصرار على الكفر إلى الإيمان لما أصابها الإهلاك الجماعي كما حدث مع قوم يونس مصداقا لقوله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخُرِّي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ} {760}.

فقوم يونس أنهم بادروا إلى الإيمان بعد أن فارقهم يونس، توقعوا لنزول العذاب، وقبل أن ينزل بهم العذاب، وذلك دليل على أن معاملة الله إياهم ليست مخالفة لما عامل به غيرهم من أهل القرى، وأن ليست لقوم يونس خصوصية، وبذلك ليس في الآية استثناءا منقطعا {761}.

والقاعدة المنصوص عليها بقوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} {762}.

4 . بقاء ذرية نوح

759 - المائة 27-31.

760 - يونس 98.

761 - تفسير ابن عاشور، ج 7، ص 70.

762 - فص لت 46.

يخبرنا الحق عن مترتب حدث بعد الطوفان في قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ} 763.

في هذه الآيات ما يفيد الحصر وذلك يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته هلكوا إلا ذرية نوح.

5- بدء التشريع

بدأت الشرائع برسالة نوح كما يخبرنا العليم الخبير: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ).

فالشرائع بدأت بوصايا الله عز وجل لنوح عليه الصلاة والسلام ثم بفعل تترى الرسالات تطورت الشرائع حتى وصلت إلى ختام الشرائع برسالة النبي الخاتم محمد عليه الصلاة والسلام.

الحاجة إلى الرسالة:

تستهدف الرسالات السماوية الإنسان في عقيدته وسلوكه، حين تتحقق انحرافات واضحة في كليهما أو أحدهما، لكن هذه الرسالات لا تُعنى بانحرافات الفرد من حيث كونه يقوم بما يخالف العقيدة الصحيحة أو السلوك القويم إذا تحققتا في مجتمع هذا الفرد، فالفرد يمكن أن يقومه فرد، بمعنى أنه يمكن للفرد القويم أن يؤثر في الفرد غير القويم فيصلح الخلل السلوكي أو العقدي عنده، وربما يقوم بذلك مجموعة من الأفراد دون حاجة إلى تدخل السماء بشكل مباشر في

ذلك، ولكن عندما تكون المسألة معكوسة أي عندما تنحرف الجماعة انحرافاً يمكن أن يجعل الإفساد سائداً والإصلاح غائباً بما يهدد مهمة الإنسان المستخلف على الأرض مع عجز الفرد أو مجموعة أفراد عن تقويم مثل هذا الانحراف هنا نعتقد أن الرحمة السماوية ستنزل على العباد باختيار مصلح مؤيد من السماء حامل لمقومات الإصلاح يمتلك خطاباً مقنعاً ومدعوماً بالحجج البينة، هذا المصلح هو النبي أو الرسول المصطفى لهذه المهمة، وهذا ما حصل بالفعل مع أول الرسل نوح عليه الصلاة والسلام الذي كان أول الرسل كما تفق على ذلك آراء العلماء، يقول الطبري لم يرسل الله رسولا إلى الناس عامة إلا نوحاً، بدأ به الخلق، فكان رسول أهل الأرض كلهم، ومحمد رسولاً للإنس والجن"764.

هنا يمكن أن نتساءل:

هل على الرسالات والنبوات أن تلاحق الإنسان؟

أم على الإنسان ملاحقة الرسالات؟

لاشك إنّ الإجابة تحتاج إلى وقفة عقلية متأملّة، لأننا لو قلنا أنّ الرسالات تلاحق الإنسان لوجب أن يكون لكل مجموعة بشرية في أي جزء من الأرض نبي أو رسول يبلغهم بفحوى رسالة السماء وتعاليمها.

هذا الاحتمال يفضي إلى مجموعة نتائج منها:

1 . انتفاء دور الإنسان في سيادة القيم الفاضلة حيث سيقصر

ذلك على ما تقره السماء.

⁷⁶⁴ - تفسير الطبري، ج 19، ص 233.

2 . انقطاع الصّلاة الإنسانية والتواصل الفكري والعقدي لتحقيق
استقلالية فكرية وعقدية وسلوكية في كل مجتمع من المجتمعات المبلغة
بالرسالة.

ولو أخذنا بالفرض الثاني وهو أن الإنسان يلاحق الرسائل
وجب هنا أن تكون:

1 . هناك رسالة واحدة بلسان واحد لكل البشر وعليهم هم
البحث والملاحقة والتقصي من اجل الاهتداء.

2 . وجب أن تكون كل وصايا السماء وفروضها ونواهيها مجموعة
في هذه الرسالة الواحدة.

ومن خلال ما سبق عرضه يتبين أن من الصعب تصور أن
الرسالات تلاحق الإنسان أو أن الإنسان يلاحقها في إحدى هاتين
الفرضين.

والصواب أن نأخذ بالافتراضين لصوغ الثالث حيث إن الرسائل
تهدف إلى الإصلاح وسيادة القيم المثلى، فكلما غاب ذلك كانت
الرسالة السماوية إلى الإنسان ليسود التوحيد ويتحقق الإصلاح، فإذا
ساد ذلك على التمام أو على النسبية الواسعة وجب على الإنسان
هنا أن يلاحق الرسالة للبحث في تفاصيلها واستقاء المضامين القيمة
التي تحملها ليعرف ما له وما عليه.

وبناء على ما تقدم يمكن فهم التباين في طبيعة الرسائل والنبوات
ما بين خاصّة وعامة وكافّة.

فأنبياء الخصوص يعالجون قضايا خاصة تكون في مكان ولا
تكون في مكان آخر فيلزم لها نبي لهذا الخصوص، مع إمكانية وجود
نبي أو أنبياء آخرين في أماكن متنوعة لإصلاح ما فسد من أخلاق
ومعاملات.

وأنبياء الخاصة يتفوقون مع أنبياء العامة والكافة من حيث الرسالة
فرسالة الأنبياء جميعا واحدة وهي معرف الله وعبادته وإعمار الأرض
 وإقامة العدل وعدم الفساد،

وينقسم أنبياء الخصوص انقسام تعدد لا اختلاف من حيث
العدد والمكان والزمان والمجتمع لأداء رسالاتهم:

. الخاصة مكانا: في مكان بعينه لا يتخطاه كسيدنا يونس.

. الخاصة زمانا: كهارون إذ خلف موسى في قومه.

. الخاصة أخلاقيا: كسيدنا لوط.

. الخاصة اقتصاديا: كسيدنا شعيب.

. الخاصة تشريعا: كسيدنا عيسى جاء على شريعة موسى.

أما رسل العامة:

فهم يعالجون قضايا عامة في أماكن متسعة لها من التأثير على
غيرها بحيث إذا حدث التغيير المرجو في هذا المكان حدث التغيير
نفسه علي عامة الأماكن وإن لم يذهب إليها رسول العامة، ومثال
لهذا النوع سيدنا إبراهيم فقد أرسل بشكل أساسي إلى عموم مؤثر في
المكان والزمان والمجتمع مع وجود رُسل من رُسل الخاصّة في عصره
يعالجون قضايا محدودة في المكان والزمان كلوط وإسماعيل.

ويبقى رسل الكافة:

وهم يتوجهون إلى كافة الأجناس يستهدفون سائر الأماكن
والأزمان ويعالجون الكليات على مستوى الخلق جميعا كسيدنا آدم
وسيدنا نوح وسيدنا محمد عليهم الصّلاة والسلام.

فسيدنا نوح كلفه الله بالحفاظ على العقيدة الصحيحة (لا إله إلا
الله) فجمع من يعتقد ذلك الاعتقاد حقا مع كل زوجين اثنين من
كافة المخلوقات الحية لتعمر الأرض على معتقد سليم ومنهج قويم،

مصداقا لقوله تعالى: { حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ }⁷⁶⁵، والقليل المؤمن هذا هو الذي كان الكافة بعد الطوفان، وهذا القليل لم يكن اثنين بالطبع مثل المخلوقات التي حملها في السفينة بل كان عددا قليلا بالنسبة إلى العدد الكلي في عصره الذي أرسل إليهم.

مجتمع قوم نوح وكفرهم:

سنحاول سبر أغوار قوم نوح لمعرفة ماهية الأفكار التي دعت الكافر منهم ليصر على كفره، وسبب اهتداء من آمن بالحق الذي جاء به نوح.

كان مجتمع قوم نوح مجتمعا طبقيا يقوم على تفاضل طبقات أفراده تبعا لموجبات التفاضل الطبقي السائد آنذاك على النحو الآتي:

أولا: الكبراء

ذكر الله عزّ وجلّ أنّ نوحا أرسل إلى قومه فأمن معه قليل من عامة الناس، لكن أول من رفض الاستماع إليه هم المملأ من قومه فقال جلّ وعلا: { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }⁷⁶⁶، والمملأ هم: "أشرافُ القوم ووجوههم ورؤسائهم ومقدموهم الذين يُرجع إلى قولهم"⁷⁶⁷.

فهذا المملأ يمثل كبراء قوم نوح وقد امتازوا بعدد من المميزات منها:

⁷⁶⁵ هود 40.

⁷⁶⁶ - الأعراف 60، 59.

⁷⁶⁷ - لسان العرب، ج 1، ص 158.

آ. من أصحاب الفضل على النَّاس: أي من الذين كانوا يتفضلون على النَّاس بشيء من المال أو الطعام أو الملابس أو أي شيء مما يتفضل به الموسع على المقتر، وقد أخبر الله عنهم ذلك فقال جلّ وعلا: {وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ} 768.

هنا قد يأتي تساؤل:

كيف يكونون من أصحاب الفضل ويكفرون؟

نقول:

إنّ الفضل هنا لم يكن فضلا مجردا بل كان مقصدا دنيويا ليُشاع عنهم الكرم والفضل رياءً لا حقيقة، والأمر يذكرنا بما تكرر في رسالة سيدنا ورسولنا الخاتم محمد عليه الصلّاة والسّلام حيث كفر بها من رجالات قريش من كان يتفضل على النَّاس ويكرمهم لكن حقيقة الأمر بدت أن هذا الكرم لم يكن كرما حقيقيا بل كان مصطنعا يقصد به السمعة، فقد أبدى هؤلاء لؤما حقيقيا مع الرّسول عليه الصلّاة والسّلام ومع أصحابه، وهذا الأمر نفسه ينطبق على كبراء قوم نوح، حيث ادعوا الفضل على النَّاس ادعاء وهذا واضح من خلال تجريد الآخرين من الفضل، فلو كانوا من أصحاب الفضل الحقيقي لما نسبوه لأنفسهم وجردوا الآخرين منه.

ثمّ إنّ هناك أمرا يتعلق بعقلية هؤلاء هو أنّهم يرون في تفضلهم على النَّاس مكرمة لهم ولأبنائهم، فالفضل تاريخ يخلد أفعالهم، أما العقيدة فكانوا يرون أنّها تسلبهم بعض ما لديهم لاسيما في مبدأ المساواة بين النَّاس، هنا من المهم التوقف مع هذه المسألة، حيث إنّ رسالة السماء إلى الأرض ومن عليها كانت تقوم على مبادئ من أهمهما المساواة بين النَّاس، هذا المبدأ الذي اقترن بخلق الإنسان وهو

معه في كينونته لذلك ترى في النفس البشرية نفورا واضحا من التمييز حتى مع الذين يميزون أنفسهم على الآخرين، فما أن يمارس التمييز عليهم حتى يشعروا بالضميم، وذلك كله لأنه خلق طارئ على النفس البشرية، وهو في الحقيقة أبلسة أكثر من كونه أنسنة، فأول من مايز نفسه على الآخر كان إبليس كما يخبر عن ذلك العليم الخبير تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} 769.

وهذه أول بادرة تعصب عرقي ظهرت في الخليفة كانت صادرة من إبليس برفضه تنفيذ أمر الخالق بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام، مستندا بذلك إلى مفاضلة عرقية في أصل مادة الخلق، ومن ظاهر النص القرآني أن إبليس مقرّ بالوهية الله تعالى وأنه هو الرب الخالق البارئ المصورّ المعبود، ولكن الذي منعه من السجود لآدم ادعاؤه أنه أفضل منه على أساس العرق ومادة أصل الخلق، حسب المقاييس التي اعتمدها كون النار جوهر نوراني لطيف، والطين جسم كثيف، فعندما وضع الفرضية على هذا الأساس كان البرهان فاسدا لم يخرج بالنتيجة الصحيحة، لأنه اعتبر الفضائل تقوم على العناصر المادية دون القيم الروحية.

هذه الفكرة بالتحديد هي ما كانت على ألسنة ملاء قوم نوح حيث كانوا يرون أنهم أفضل من القليل المؤمن على أساس التمايز الطبقي لا غير.

ب . من أصحاب الرأي والعقد

769 - الأعراف 11، 12.

بينت الآيات الكريمة أن هذا المملأ هو مملأ الرأي والعقد في قوم نوح إجماعاً أنّ في قوم نوح من كانوا على درجة من الحكمة أو أنّهم ادعوا إثمهم كذلك، فقولهم: (بادئ الرأي) يوحي أن هناك صائب الرأي وهو ما يحصل بعد المشاورة والنظر في الأمر نظرة دقيقة مفصلة وهذا دور المملأ من القوم حيث سيصدر الرأي الأخير فيما عرض، وهكذا قالوا لنوح عليه الصلوة والسلام: أنّ اتباعهم لك إنّما هو شيء عنّ لهم بديهية من غير روية ونظر، وإنّما استرذلو المؤمنين لفرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية، لأنّهم كانوا جهالاً ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا"770.

لكن جهلاً عميقاً بحقيقة النبوة ورسالتها الإنسانية والعقدية كان يطبق على هذا المملأ، وذلك من خلال أول أمر طلبه المملأ من نوح ليستمعوا إليه هو طرد من آمن باديئ الرأي مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمٍ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنِ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾771.

ويمكن استشعار الإصرار على الطرد في الآيات الكريمة حيث كان رفض نوح عليه الصلوة والسلام مكرراً وهو يوحي بإصرار المملأ على طردهم لأن هؤلاء في نظر المملأ خرجوا عن قواعد العرف السائد ممّا شكل نوعاً من أنواع التمرد عليهم وخروجاً عن جبروت الحكم الفوقي لهم، وهذا يمثل صورة واضحة عن طبيعة جهل هؤلاء فلم يكونوا لا من أصحاب الرأي السديد ولا العقد الصحيح لأنّهم ما نظروا في الأمر نظرة حكمة وتأمّل في دعوة نوح، ولو أنّهم نظروا وتأمّلوا على نحو الطالب لمعرفة الحقيقة ثم وزنوا الأمر بميزان الحقّ لآمنوا، ولكن

770 - تفسير الزمخشري، ج 3، ص 80.

771 - هود 29، 30.

وقعوا بما اتهموا به من آمن بادئ الرأي، حيث أخذوا على المؤمنين عدم النظر في الأمر، وفي الحقيقة من لم ينظر في الأمر، وهكذا ناقض الملاء نفسه وبدا أنه لم يكن فيهم من الحكماء.

ج . غلبة المادية:

تدل الآيات أنّ هذا الملاء عجب ممّا يقول نوح من النبوة وما فيها من أخبار غيبية جاء بها نوح ممّا علمه الوحي، ولا يمكن تفسير هذا العجب إلا وفق مبدأ القبول والرفض، فهناك من يعجب مُصدّقاً وهذا يدل على الإيمان العميق كما حدث مع زوج إبراهيم عليه الصلوة والسلام كما يخبرنا العليم الخبير: {قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ} 772.

هذا التعجب مصدره التصديق والإيمان بالغيب وهذا من ابرز صفات المؤمنين: (الذين يؤمنون بالغيب).

وهناك من يعجب منكراً كما يخبر الله عن قوم نوح: {أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا} 773، هذا يفسر بما يقابل الإيمان وهو إنكار الغيب والاعتماد على الحقائق المادية، فهؤلاء أنكروا المبدأ (النبوة والرسالة) وهنا الإنكار لم يأت على سبيل تكذيب الفرد فحسب، بل على مستوى الرفض المطلق حيث كانوا يرفضون كل ما يقول نوح مع تعدد أساليب الدعوة ابتداء من التبليغ انتهاء بالجدل مصداقاً لقوله تعالى: {قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ} 774.

772 - هود 72، 73.

773 - الاعراف 63.

774 - هود 32.

ومن أهم مظاهر ماديتهم رسوخ عقيدة الوثنية فيهم، فالوثنية في حقيقتها هي هروب من الغيبية والروحانية إلى المظاهر المادية، حيث يرى من يؤمن بها صعوبة كبير في الإيمان بإله لا يراه، لذلك تراه يلجأ إلى مجسم مادي يدعي له الألوهية، وهذه فكرة الوثنية على اختلاف الأوثان والمعبودات الأخرى، لذلك فإن هذا الملام اختار المادية ودعا الناس إليها مصداقا لقوله تعالى: { وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ أَهْلَكُمُ وَلَا تَدْرُنَّ وِدًّا وَلَا سُوءًا وَلَا يَعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا } 775.

د . متكبرون:

تبين الآيات الكريمة سلوكا واضحا من سلوكيات قوم نوح يمكن أن يكون من أهم أسباب رفضهم الدعوة ويتمثل في الكبر الذي استولى على العقول فصار سلوكا، ويتبن من خلال ما نجد من نزعة التعالي والتميز التي تسيطر على خطابهم الذي يخبرنا به سبحانه وتعالى في قوله: { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْفِرُوا مِنْكَ } 776، لقد اعتقد هؤلاء أن نوحا كان يقصد التفاضل عليهم بما يجعله أعلى منهم درجة من ناحية ما، وهذا مبدأ يحاربه تكبرهم وعنيتهم من جهة، أما من الجهة الأخرى فقد رأوا في هذه الدعوة غاية يرفضون قبولها بالمطلق وهي المساواة بينهم وبين باقي المؤمنين من عامة الناس، هذا التكبر أوصل قوم نوح إلى الظلم والطغيان كما يخبرنا عنهم العليم الخبير: { وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِتَّهَمُوا بِظُلْمٍ وَأَطَعُوا } 777، بهذا يكون الملام

775 - نوح 23.

776 - يونس 71.

777 - النج م 52.

من قوم نوح قد اشتمل على مقومات الظلم من خلال مجموعة السلوكيات التي كان ينتهجها مع عموم الناس.

ثانيا: العامة:

مصطلح يطلق لدلالة على عموم الناس بما يستثنى منهم الخواص، وهؤلاء يتباينون في مستويات التفكير، وطرق الكسب ونمط الحياة، وهذا التباين سيكون نقطة مهمة نطلق منها لمناقشة الفكر الطبقي المسيطر على ملأ قوم نوح.

إنّ العامة في أيّ مجتمع منهم من يسعى لكسب سوي وبمهنة ترضاهها قيم المجتمع، ومنهم من يسعى بغير ذلك، والنبوة والرسالة هي للكافة أي لكل المخصوصين بها، فإذا جاء البلاغ واستقام الناس سويهم ومنحرفهم فقد تحققت الغاية، بل أن يستقم غير السوي غاية أولى بالنسبة للمصلحين عموما والأنبياء الرسل خصوصا، وهذا ما تحقق مع سيدنا نوح عليه الصلّاة والسّلام، فقد تحقق له بعد أن دعا الناس استقامة من كانوا على سلوك مرفوض مهما كان من المجتمع أو لنقل من سادات المجتمع.

إلا أنّ الملا جادلوا نوحا بذلك واتخذوا ذلك ذريعة لرفض الدعوة فقالوا له كما يخبرنا العليم الخبير: {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ} 778.

هذه الآية توحى بالآتي:

. عملهم السابق سالب.

. نوح لم يدافع عن ذلك العمل.

. نوح لم يدافع عنهم آنذاك.

778 - الشعراء 111-113.

. نوح أخلصهم لله في عملهم.

إنّ عرضنا هذا يهدف إلى بيان حقيقة ادعاء الملائ، كذلك هو من باب الوقوف على نهج الادعاء والاحتجاج عند من كفر من قوم نوح، فقد كانت أسباب رفضهم في الأغلب خارجية بمعنى أنهم لم يجادلوا نوح في مضامين عقيدته بل كانوا يبحثون عن مبررات خارجية ومن أولها وأبرزها المستوى الطبقي لمن آمن مع نوح، فقد وصفوهم بالأرذلين (وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ)، والردالة: الحِسَّة والدِّلة، وإتّما استرذلوهم لاتّضاع نسبهم وقلة نصيبهم في الدنيا.

وقيل: كانوا من أهل الصناعات البسيطة.

وهذه الشبهة في غاية الركاكة، لأنّ نوحا - عليه السلام - بعث إلى الخلق كافة، فلا يختلف الحال بسبب الفقر والغنى وشرف المكاسب وبساطتها.

هنا نتوقف مع أمرين في هذا الادعاء لبيان هل كان المقصود العمل أم السلوك هما:

. عمل هؤلاء هو الذي جعلهم أراذل!

. سلوك هؤلاء هو الذي جعلهم أراذل!

نقول إنه من المحتمل أن يكون السلوك الأخلاقي هو الذي جعل الملا يحكم على هؤلاء بالردالة، كما يحتمل أن يكون المقصود طبيعة العمل، فبعض الأعمال التي كان يقوم بها هؤلاء البسطاء من الناس لا تتناسب وفق زعم الملا مع مكانتهم، وأولى - على وفق مقاييسهم - أن يترفع الإنسان عن العمل بها ومنها مثلا مهنة الحياكة التي كان الناس والى حد قريب ينظرون إلى ممتنها نظرة دونية بل أن بعض المجتمعات لا يزوجونه ولا يتزوجون منه، فالمجتمعات الإنسانية كانت

ترى في بعض أنماط العمل امتهاناً لكرامة الإنسان فأطلقوا عليه اسم مهنة التي تشتق من المهانة.

ونريد الإشارة إلى أنّ بعض أصحاب المهن كان يسلك سلوكاً سلبياً في أداء مهنته ممّا جعل الانطباع السلوكي لدى الناس انطباعاً سالباً وذلك لأنّ بعضهم يغش وبعضهم يكذب وبعضهم يخلف، وقد كان عمر بن الخطاب يمازح الصحابي رافع الصائغ فيقول له: "أكذب الناس الصواغ يقول اليوم وغدا" 779.

هنا نتساءل بعد أن نقرأ رد نوح كما أخبر العليم الخبير: { قَالَ وَمَا عَلَّمِي مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَيَّ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ } 780
لماذا لم يدافع نوح عن عمل العامة؟
لماذا لم يدافع نوح عن المؤمنين معه؟

نقول إن نوحاً لم يدافع عن عمل هؤلاء ممن آمن لأنه ليس المقصود من الدعوة مراقبة وتصحيح الأعمال، بل المقصود هو العقيدة بالدرجة الأساس، فإذا كانت العقيدة صحيحة فليس لعمل الإنسان إذا كان لا يخالف مبدأ من مبادئ العقيدة أي أثر في صحتها وهكذا أجابهم نوح بالجواب الحقّ، وهو قوله: (وَمَا عَلَّمِي مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أي: ما أعلم أعمالهم وصنائعهم، وليس عليّ من دناءة مكاسبهم وأحوالهم شيء، إنما كُلفت أن أدعوهم إلى الله ولي منهم ظاهر أمرهم. قال الزجاج: الصناعات لا تضرّ في الدِّيانَاتِ. وقيل: معناه: إني لم أعلم أن الله يهديهم ويضلّكم، ويوفّقهم ويخذلكم 781.

779 - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج واد علي، ج 7، ص 561.

780 - الشعراء 112، 113.

781 - تفسير اللباب، ج 6، ص 121.

ويلاحظ أنّ نوحا عليه الصّلاة والسّلام لم يبدي حماسة في الدفاع عن هؤلاء ممّا وصفوا بالأراذل في هذا الموضوع، بل أحال كل شيء يتعلق بهم إلى الله.

فهل هذا يفسر كنوع من التخلي من قبل نوح عن هؤلاء؟
الأنبياء الرّسل لا يمكن أن يتخلوا عن أتباعهم وكذلك فعل نوح، ولكن الحكمة اقتضت هنا على نوح وهو يجادل من يكفر بدعوته أن يكون اقرب إلى الحياد من الميل لاسيما أن المجادل المقابل أراد أن يقيم الموازنة بين طرفين هما الملاء ومن اتبعهم، ومن اتبع نوح من البسطاء، فكان من نوح أن طلب أن يستبعد هذه الموازنة التي هي في الحقيقة خارجية عن الحوار الحقيقي الذي يجب أن يدور بين نوح من جهة والملاء من جهة أخرى، فالموضوع هو تصحيح عقيدة الشرك إلى التوحيد، ولهذا؛ فإنّ نوح لو مال عليه الصّلاة والسّلام هنا للدفاع عن وصفوا بالأراذل لكان حاشا لله انجرف مع ما يريد الملاء من تحويل المسألة من عقدية إلى مسألة شخصية بحتة تتعلق بالتمايز الطبقي بين البسطاء والكبراء من قوم نوح.

وهكذا فقد كانت العامة من أصحاب الأعمال والحرف بينما كان الملاء يمثل الأغنياء والسادة وهذه هي طبيعة تكوين قوم نوح.

موقف قوم نوح:

بعد أن دعا نوح قومه فترة طويلة جدا ربما يمكن لنا أن نقول: أنّها أطول رسالة سماوية فيما نعرف من موثوق الخبر فقد استمرت قرابة الألف عام مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} {782، وبعد هذه المدة الطويلة انقسم قومه إلى قسمين، وقد كان لقوم نوح

من الملائمة والعامة مواقف من نوح ودعوته تتمثل في اتجاهين أساسيين هما موقف من آمن وموقف من كفر وسنعرض ذلك بعد الحديث عن قوم نوح.

أولاً: قليل مؤمن

آمن لنوح في دعوته قليل من المؤمنين مصداقاً لقوله تعالى: (وَمَا أَمَّنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ).

فمن هؤلاء القلة؟

وما صفاتهم؟

ولماذا وكيف آمنوا؟

إنّ الآيات القرآنية المعجزة قدمت لنا هذا القليل في مشهد الصراع بين نوح وبين الملائمة من قومه، فعرضت لنا هذا القليل كما كان يراه ويحكم عليه الكافرون من جهة، وكما يراه ويحكم عليه الحق من جهة أخرى، فقد وصف الكفار هذا القليل بأنه:

. الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ

. كاذبون .

. متمردون .

ويلاحظ في هذه الصفات تنطق من الفوقية وبها، لأنها تتحدث عن خروج هذه القلة من الأراذل على رأي الملائمة في الإيمان بالعقيدة الجديدة التي يدعو إليها نوح رسول الله، حيث كانت هذه الصفات شخصانية لأنها عمدت إلى تقييم الشخصوس دون النظر إلى المواقف والأفكار التي آمن بها هؤلاء، كما إنّ هذه الصفات لا تنم عن دراية أو رغبة في الدراية بما حدث لهؤلاء الذين آمنوا بدعوة نوح.

أما الصفات الحقيقية لهذا القليل وكما يخبرنا العليم الخبير فتحدد

ب:

. مؤمنون (الَّذِينَ آمَنُوا).

. خلفاء الأرض (وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَةً).

. مباركون (سَلَامٌ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ).

بالنسبة للصفة الأولى فالنص القرآني دلت على صدق إيمان من آمن مع نوح لأنهم بقوا على إيمانهم مع إصرار الكافرين على الكفر، ومع التهديد الذي كانوا يتعرضون إليه حيث هددهم الكفار بالرجم (من المرجومين) الآية هنا تبين أنّ حديث الكفار كان لنوح ومن معه لأنها حولت الخطاب من المفرد (قالوا يا نوح) إلى الجماعة (المرجومين) وهذا يدل على تعرض هؤلاء القلة من المؤمنين إلى التهديد لكنهم مع ذلك بقوا على الإيمان الثابت إلى أوصلهم إلى النجاة ثم بعد ذلك إلى مرحلة الخلائف وكان لهم السلام من الله عزّ وجلّ وعليهم بركات من ربّهم ورحمة.

وبعد نتساءل:

من هؤلاء؟

تبيين الآيات أن من آمن لنوح هم:

بعض أهله

بعض فقراء قومه

لا شك أنّ أيّ رسول يكلف برسالة يبدأ بأهله، وهذا من القواعد التي وضعت لمسيرة الرسالات السماوية، وهي كذلك من عوامل قوّة هذه الدعوة لما يقدمه الأقربون من مساندة لهذا الرسول.

فالبدء بالأقرب يعني ضمانا إلى حد كبير لنجاح الدعوة في بدايتها وبناء لقاعدتها البشرية التي سيقوم عليها بعد ذلك هرم الرسالة السماوية، وهذا متحقق لأنّ العلاقة بين الرسول وأقاربه علاقة شفافة يعرف من خلالها الأقارب صدق من يدعوهم وحقيقة إرادته، ومع

ذلك تبقى المسألة نسبية، فقد يكون بعض الأقارب من هم خارج هذه قاعدة كما حدث مع سيدنا نوح حيث خرج كل من زوجه وابنه عن مسيرة الحق ليلحقوا بمسيرة الكافرين، فقد اخبرنا الله عز وجل عن زوجة نوح بقوله جل وعلا: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ} 783، وعن ابنه {وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَقِينَ} 784.

هذا بالنسبة لأهل نوح، أما الآخرين فكانوا بعض فقراء قومه، ونقول بعض وليس كل لأسباب:

1. إن الله سبحانه وتعالى وصفهم بذلك (وَمَا أَمْنٌ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)
 2. أن نوح شكاه لله إتباع عامة الناس للكبراء (قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا)
- هنا نتساءل:

- . هل كان أصحاب السفينة هم كل المؤمنين؟
- . ألم يؤمن لنوح أحد غير هؤلاء؟
- . هل بدأ نوح بالعامّة؟
- . لماذا أصر الخاطبة (الملا)؟
- . أم أنه بدأ بمن يوقن بإيمانهم؟
- . هل بدأ بالأيسر من الأمر وصولاً إلى الأعرس؟

783 - التحريم 10.

784 - هود 42.

إنّ الفترة الزمنية الطويلة التي استغرقتها رسالة نوح تجعل احتمال ألا يكون هؤلاء هم كل من آمن مع نوح قائما، فقد يكون آمن آخرون ولكنهم قضوا على وفق قاعدة إلهية تقول (إذا جاء أجلهم)، وبهذا يصبح هؤلاء أصحاب السفينة من المؤمنين الباقين ممن آمن مع نوح، وهناك قسم آخر من المؤمنين لم يركبوا السفينة لانتهاؤ الأجل.

أما بداية الدعوة فكانت على نحو مطرد هو:

الخاص.

العام.

خصوص العموم.

الخاص الأول هم الأقربون، ثم العام من الناس، فإذا حصل إيماننا بالدعوة يكون عندها قد تشكلت قاعدة قوية تساعد الرسول على مواجهة الخاص الآخر الذي يتوجس منهم الكفر دون يأس من دعوتهم لأنه رسول للناس جميعا، فتأخير الخاص (الملا) مبني على حكمة وعلم من علم النبوة، ولا تتعلق المسألة بالسهولة أو الصعوبة وإتّما هي مبينة على معرفة معمقة وحساب دقيق لأنّ دعوات عقيدة التوحيد بالله الواحد الأحد مؤيدة منه عزّ وجلّ فلا بدّ أن تكون على نحو من الانتظام الدقيق في مسيرتها.

هنا نتساءل:

كيف آمن من آمن؟

آمن المؤمنون بالحقّ الذي يُستدل إليه ببصيرة نافذة وصدر منشرح دون أن يتطلب ذلك عند من يمتلك هذه المواصفات معجزات وخوارق.

لقد رأى المؤمنون في نوح حقائق كانت حججا عليهم، ومن هذه الحقائق:

. عقيدته: ساد الشرك في عقيدة قوم نوح زمننا، حيث كان الناس آنذاك يشركون بالله عزّ وجلّ فيعبدون عددا من الآلهة أخبرنا عنها المولى الحقّ عزّ وجلّ: { وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ أَهْلَتَكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وِدًّا وَلَا سُوعًا وَلَا يَعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا } 785.

هنا نعتقد أنّه من المهم التوقف مع حقيقة هي أنّ رسالة نوح أول رسالة توحيد وقوم نوح أول من أشرك بالله، وهذا تؤكد حقيقته الرسالة الأولى، فقد يكون هناك قبل نوح أنبياء أو مصلحون فهم يصححون أخطاء محددة ويواصلون توحيد الله عزّ وجلّ، ولكن الانحراف إلى الشرك أمر يتطلب رسالة سماوية يبلغها رسول، وهكذا كان الأمر في قوم نوح فقد بعث الله إليهم رسولا منهم يدعوهم إلى التوحيد مصداقا لقوله تعالى: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ } 786.

وعندما جاء نوح استعمل الملا مكرهم لثني الناس عن الإيمان بعقيدة التوحيد فقالوا قالوا لأتباعهم: (لَا تَدْرُنَّ وِدًّا) فمنعوا القوم عن التوحيد، وأمروهم بالشرك، ولما كان التوحيد أعظم المراتب كان المنع منه أعظم الكبائر؛ فلهذا وصفه الله تعالى بأنّه كبارا 787. وسماه الله مكرًا لوجهين:

الأول: لما في إضافة الإلهية إليهم من الحيلة الموجبة لاستمرارهم على عبادتها، كأنهم قالوا: هذه الأصنام آلهة لكم، وكانت آلهة لأبائكم، فلو قبلتم قول نوح لاعتزتم على أنفسكم بأنكم كنتم جاهلين ضالين كافرين، وعلى آبائكم بأنهم كانوا كذلك، ولما كان اعتراف الإنسان على نفسه، وعلى جميع أسلافه بالقصور والنقص

785 - نوح 23.

786 - هود 25.

787 - تفسير الرازي، ج 16، ص 61.

والجهل شاقا شديدا، صارت الإشارة إلى هذه المعاني بلفظ آهتكم صارفا لهم عن الدين، فلأجل اشتغال هذا الكلام على هذه الحيلة الخفية سمى الله كلامهم مكرًا.

الثاني: أنه تعالى ذكر عن أولئك المتبوعين أنهم كان لهم مال وولد، فلعلهم قالوا لأتباعهم: إن آهتكم خير من إله نوح، لأن آهتكم يعطونكم المال والولد، وإله نوح لا يعطيه شيئا لأنه فقير، فبهذا المكر صرفوهم عن طاعة نوح 788.

والحق أن مكر هؤلاء أثر في كثير من النفوس بحيث لم يؤمن مع نوح إلا قليل وهذا لا يعود إلى وهن عزم نوح في الدعوة لأنه كان من أولي العزم من الرسل كما كان دائم الدعوة إلى الله عز وجل، فقد دعاهم ليلا ونهارا سرا وإعلانا ومع ذلك بقي هؤلاء على غيرهم وكفرهم وشركهم بالله عز وجل، وهكذا فإن نوح لم يترك سبيلا إلا واستخدمه في الدعوة، ولكن علة إصرار هؤلاء هي طبيعتهم القائمة على عدم النظر في الأمر مجردا بل كانوا كثيري التأثير بالمظاهر الخارجية وذلك أوصلهم إلى أن تصدر أحكامهم عن الهوى مع ادعائهم أنهم أصحاب رأي ونظر وذلك عندما لاموا من آمن مع نوح على أنهم آمنوا لأنهم لم ينظروا في الأمر.

والذي ينبغي قوله إن عقيدة نوح الصادقة والواضحة والمجردة من كل أثر دنيوي كانت من الحجج القوية له في الدعوة والتي كانت مرتكزا أساسيا لمن آمن مع نوح، فنوح لم يدعو لنفسه بل كان يدعو إلى الله عز وجل، ولم ينتظر من ذلك أجرا، ولم يكن على المؤمنين إلا عبادة الله الخالصة ودون أن تشترط هذه العبادة أي مقابل على عكس ما كان يحدث في معابد آلهة الشرك.

788 - تفسير الرازي، ج 16، ص 61.

وقبل ذلك فإنّ التوحيد سبيله العقل، فإذا كان الإنسان ذو عقل نافذ تحققت لديه البصيرة التي تجعله يختار الله عزّ وجلّ على من سواه في آية مقارنة ومن أيّ نوع.

واعتقد أنّ من آمن مع نوح انعم الله عليه بصفاء النية ورجاحة العقل الأمر الذي أفضى إلى نتيجة موجبة هي الإيمان ثم النجاة في الدنيا والآخرة، وعليه: فالمؤمنون بدعوة نوح ليسوا كما وصفهم هؤلاء بالأراذل أو قليلي الفضل أو أنهم كانوا بلا رأي، فالواقع يقول أن من آمن مع نوح هو صاحب الرأي لأنه اختار بملء إرادته ولم يخضع لرأي السابقين من الموتى أو الأحياء من الكبراء.

وعقيدة نوح هي عقيدة التوحيد الخالص (لا إله إلا الله)؛ أي: لا إله من دونه (لا معبود من دونه) فلا وجود لمن يستحق العبادة غيره، فالذي سُمي بالإله يقول الله: ليس هو أنا، ولهذا، قال تعالى: (لا إله إلا الله) أي لا إله غيري، وبالتالي من تعتقدون بأنّه أنا فهو ليس كذلك (لا إله إلا الله) ولهذا نهى الله العباد عن اختيار آلهة من دونه، حيث لا وجود لمن تعتقدون بأنّه إله غيري، فأنا الله، أما أولئك الذين اتخذتموهم من دوبي فهم ليسوا إلا إدعاء من صنعكم، وهذه تحمل في مضمونها حكما وجوبيا لتركهم، ومن لم يترك هذا الأمر ويتخلى عنه سيكون مشركا، لذلك كانت دعوة نوح خالصة لتوحيد العبادة لله عزّ وجلّ: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} 789.

- صدقه: نريد هنا ألا نسهب في أمر مفروغ منه وهو صدق وإخلاص النبيين فهو أمر قُطع فيه القول بما ثبت منهم من أفعال

وأقوال، ولكن نريد الحديث هنا على مسألة صدق نوح مع قومه، فقد كان صادق القول والفعل من حيث:

أولاً: القول

استعمل نوح أسلوب الحوار الجدلي مع قومه مستخدماً الحجج والبراهين التي تضفي على أقواله سمة الإقناع بما كانت تحمل من حقائق الدعوة ومبادئها.

وكانت مقولات نوح باتجاهات محددة هي:

1. القول العقلي يكون القول عقلياً إذا انطلق من العلم فيكون

من التعقل وهو المعنى المقابل للجهل 790.

يلاحظ في حوار نوح العقلي ارتكازه على الوحي العلم والمنطق وعلى نفي الادعاء، فقد كان نوح يبعد عن أقواله كل ما يمكن أن يجعلها مصدر شك أو ريبة، ويخبرنا الحق عن نص ما قال نوح لقومه: {وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} 791.

لقد كان نوح يعلم أنه يحاور من بيني منطقه على الجهل إذ يقول لهم (ولكني أراكم قوماً تجهلون).

فبين أنهم يبنون أمرهم على الجهل بالعواقب والاعتزاز بالظواهر فقال ثم قال بعده {وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} 792، والمعنى: أن العقل والشرع تطابقا على أنه لا بد من تعظيم المؤمن البر التقي ومن إهانة الفاجر الكافر، فلو قلبت القصة وعكست القضية وقربت الكافر الفاجر على سبيل التعظيم، وطرقت

790 - الفروق اللغوية، ج 1، ص 522.

791 - هود 31.

792 هود 30.

المؤمن التقي على سبيل الإهانة كنت على ضد أمر الله تعالى، وعلى عكس حكمه وكنت في هذا الحكم على ضد ما أمر الله تعالى من إيصال الثواب إلى المحقين.

ثم قال: (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ) أي، كما لا أسألكم فكذلك لا أدعي أنني أملك مالا ولا لي غرض في المال لا أخذا ولا دفعا، ولا أعلم الغيب حتى أصل به إلى ما أريد لنفسي ولا أتباعي ولا أقول إني ملك حتى أتعظم بذلك عليكم، بل طريقي الخضوع والتواضع 793.

هذه المقولة ارتكزت على العقل من خلال بيان الحقائق والابتعاد عن خيالات الادعاء فكان أن قدم نوح الحقائق مجردة رغبة منه في مخاطبة عقولهم.

2- القول العاطفي

إنّ إنسانية الرّسل تشع بالعاطفة الحقيقة والخالصة اتجاه الناس من المستهدفين بالإبلاغ كما تدفعهم للبحث عن طرق لخلاص الناس من العذاب بكل وسيلة، وقد كان لنوح خطاب عاطفي واضح مع قومه فقد بين لهم خوفه عليهم فقال كما يخبرنا العليم الخبير: {أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} 794.

هنا بُني نظم الكلام على خوف المتكلم عليهم، دلالة على إحاضه النصح لهم وحرصه على سلامتهم، حتى جعل ما يُضر بهم كأنه يُضّرّ به، فهو يخافه كما يخافون على أنفسهم، وذلك لأنّ قوله هذا كان في مبدأ خطابهم بما أرسل به.

793 - تفسير الرازي، ج 4، ص 299.

794 - الأعراف 59.

وفعل الخوف يتعدى بنفسه إلى الشيء المخوف منه، ويتعدى إلى مفعول ثانٍ بحرف (على) إذا كان الخوف من ضرر يلحق غير الخائف، والعذاب المخوف ويومه يحتمل أهما في الآخرة أو في الدنيا⁷⁹⁵.
ومن عاطفته الصادقة كانت النصيحة وسيلته في التبليغ، والنصيحة هي الدعوة إلى ما فيه الصلاح والنهي عما فيه الفساد⁷⁹⁶، مصداقا لقوله تعالى: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ⁷⁹⁷.

والنصح والنصيحة كلمة جامعة، يعبر بها عن حسن النية وإرادة الخير من قول أو عمل، ويكثر إطلاق النصح على القول الذي فيه تنبيه للمخاطب إلى ما ينفعه ويدفع عنه الضرر.

ويلاحظ أنّ السياق المعنوي (النصيحة) ركز الدلالة من خلال الزيادة في لكم بلام زائدة دالة على معنى الاختصاص للدلالة على أنّ الناصح أراد من نصحه ذات المنصوح، لا جلب خير لنفس الناصح، ففي ذلك مبالغة ودلالة على إحاض النصيحة، وأنها وقعت خالصة للمنصوح، مقصودا بها جانبه لا غير، فرب نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعا، وربما يقع تفاوت بين النفعين فيكون ترجيح نفع الناصح تقصيرا أو إجحافا بنفع المنصوح.

وفي الإتيان بالمضارع دلالة على تحديد النصح لهم، وإنه غير تاركه من أجل كراهيتهم أو بذائهم.

وعقب ذلك بقوله: {وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ⁷⁹⁸ جمعا لمعان كثيرة مما تتضمنه الرسالة وتأييدا لثباته على دوام التبليغ والنصح

795 - التحرير والتنوير، ج 5، ص 339.

796 - التعريفات، ج 1، ص 309.

797 - الأعراف 62.

798 الأعراف 62.

لهم، والاستخفاف بكراهيتهم وأذاهم، لأنه يعلم ما لا يعلمونه ممّا يحمله على الاسترسال في عمله ذلك، فجاء بهذا الكلام الجامع، ويتضمّن هذا الإجمال البديع تهديدا لهم بحلول عذاب بهم في العاجل والآجل، وتنبيها للتأمل فيما أتاهم به، وفتحاً لبصائرهم أن تتطلب العلم بما لم يكونوا يعلمونه، وكل ذلك شأنه أن يبعثهم على تصديقه وقبول ما جاءهم به.

وقد تقرب نوح من قومه عاطفياً حبا في هدايتهم حتى وصل في مسعاه إلى مرحلة التأخي حيث كان يعامل القوم معاملة أخوية حتى وصفه الله بذلك فقال: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ} 799 القول العقدي:

تحدث نوح حديثاً مفصلاً بما يتصل بأمور العقيدة الصحيحة، هنا من المهم التوقف مع عدد من الثوابت من أهمها:

. نوح لم يأت بعقيدة جديدة

. قومه يعرفون الله ولكن أشركوا به

. التوحيد حقيقة عند قوم نوح

. الانحراف بالعقيدة حادث

لذلك؛ فالقول الدقيق هو أنّ رسالة نوح جاءت لتصحيح الانحراف العقدي الذي حصل مع هؤلاء وذلك من خلال إعادة إحياء لمبادئ العقيدة الصحيحة التي كانت تملأ الأرض ومن أهم هذه المبادئ:

. (أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا).

. (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا).

. (يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى).

- . (إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ).
- . (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا).
- . (قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ).
- . (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا).
- . (وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا).
- . (وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ أَطْوَارًا).
- . (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا).

أما الفعل الصادق فتمثل في نوع السلوك الذي اختاره نوح في مسيرة الدعوة، فقد صدق نوح قومه من خلال دعوته المتواصلة من حيث:

1 . تواصل الدعوة دون انقطاع في الزمان أو المكان مصداقا لقوله تعالى: { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا } 800

وجعل دعوته مقرونة في زمني الليل والنهار للدلالة على عدم الهوادة في حرصه على إرشادهم، وأنه يترصد الوقت الذي يتوسم أنهم فيه أقرب إلى فهم دعوته منهم في غيره من أوقات النشاط وهي أوقات النهار، ومن أوقات الهدوء وراحة البال وهي أوقات الليل وكل ذلك كان بأمل أن يهتدوا إلى طريق الحق⁸⁰¹.

2 . عدم النظر إلى الاختلاف الطبقي للناس فقد دعا العامة والخاصة.

3 . الصبر على الأذى وعلى التنكر للدعوة وما فيها من خير: { وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا

800 - نوح 5-6.

801 - التحرير والتنوير، ج 15، ص 332.

ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا {802}. ومع هذا الصبر لم يظهروا مخيلةً من الإصغاء إلى نوح ولم يتخلفوا عن الإعراض والصدود عن دعوته طرفة عَيْنٍ، فلذلك جاء بكلمة كلما الدالة على شمول كل دعوة من دعواته مقترنةً بدلائل الصد عنها.

4. تنوع طرق التبليغ، {ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا} {803}.

هذه الآيات تدل على أن مراتب دعوته كانت ثلاثة، فبدأ بالمناصحة في السر، فعاملوه بالأمر الأربعة، ثم ثنى بالمجاهرة، فلما لم يؤثر جمع بين الإعلان والإسرار، وكلمة ثُمَّ دالة على تراخي بعض هذه المراتب عن بعض إما بحسب الزمان، أو بحسب الرتبة، لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الإسرار والجهار أغلظ من الجهار وحده {804}.

ثانيا: كثير كافر:

لقد كان للكافرين من قوم نوح عدة مواقف تكشف عن أمور احتمالية تتمثل في أن هذه المواقف المتباينة هي مواقف تمثل جماعات الناس، أي أن جماعة كان لها هذا الموقف، وأخرى له هذا وأخرى لها آخر وهكذا وهذا محتمل.

والاحتمال الأقوى الذي يستند إلى فترة الدعوة الطويلة (ألف سنة) هو أن تكون هذه المواقف هي مواقف الأجيال المتعاقبة والتي كان نوح عليه الصلاة والسلام يتابع تبليغها ولعل آية يمكن أن تدل على هذا الاحتمال، فقد كان نوح لا يرى في تعاقب الأجيال أي أمل لان الإصرار على الكفر كان منهجا ممنهجاً في قومه بمعنى أن

802 - نوح 7.

803 - نوح 8، 9.

804 - تفسير البحر المحيط، ج 10، ص 346.

الأب يوصي ابنه والابن لابنه وهكذا الأمر الذي أيقن به نوح عليه الصلّاة والسّلام فكان أن عبّر عن هذا الانقطاع في الأمل من هدايتهم بدعائه الذي قال فيه: (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا).

وبناء عليه: فمن المرجح أن تكون مجموعة المواقف عبارة عن مواقف متعاقبة للأجيال تجاه نوح ودعوته، ويمكن أن نرتبها من حيث:

آ. موقف التعجب، يعد التعجب من مقالة نوح من أولى المواقف التي اتخذها قومه، والحق إن مصطلح التعجب يرد الآن على أسماعنا وقد اعتدناه ولكن لمعرفة سبب تعجب قوم نوح علينا أن نعرف معنى التعجب أولاً لنفهم مبرر وسبب التعجب، التعجب في اللغة مشتق من العجب، والعجب إنكار ما يردُّ عليك لقلّة اعتياده، أما في الاصطلاح فالتعجب هو انفعال النفس عما خفي سببه⁸⁰⁵.

ولو بدأنا باللغة فإنّ التعجب مصدره عدم اعتياد الأمر لافتقاده نمطية التكرار فيه، فهو جديد على الناس، هنا نسأل:

. هل كان قوم نوح بلا عقيدة قبله؟

. هل خلا ذهنهم من المعرفة بالله مطلقاً؟

. هل كان نوح أول الرّسل؟

الحقيقة التي ينبغي تأكيدها هي أن الأرض استعمرت من قبل المؤمنين بالله عزّ وجلّ أولاً (آدم وأولاده) لذلك فإن أول ما كان على الأرض من عقائد هي لا إله إلا الله، وهذه العقيدة هي أصل كل عقيدة، والانحراف عند بعض الناس حصل بعدما أسأوا فهم حقيقة

⁸⁰⁵ - التعريفات، ج 1، ص 19.

العقيدة الصحيحة فأشركوا بالله عزّ وجلّ دون أن تندثر عقيدة التوحيد لأنها الحقيقة المطلقة فهي ترتبط بالله عزّ وجلّ لذلك لا يمكن أن تخلو الأرض من هذه العقيدة في زمن من الأزمان وإن ظهر الكفر والإشراك فإننا نرى في الوقت ذاته من يبقى على عقيدته لصحيفة يدافع عنها ويدعو الناس إليها.

من هذا نعتقد أنّ قوم نوح كان لديهم معرفة بعقيدة التوحيد وبأمر السماء، ويؤكد ذلك ما أخبرنا به المولى عزّ وجلّ ممّا ورد على لسانهم مصداقا لقوله تعالى: {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ} 806

وصف الملائكة بما ذكر مع اشتراك الكلّ فيه للإيدان بكمال عراقتهم في الكفرِ وشدّة شكيمتهم فيه أي قالوا لعوامهم (ما هذا إلا بشرٌ مثلكم) أي: في الجنس والوصف من غير فرق بينكم وبينه، وصفوه عليه السّلام بذلك مبالغة في وضع رتبته العالية وحطّها عن منصب النبوة {يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ} أي: يريد أن يطلب الفضل عليكم ويتقدّمكم بادّعاء الرّسالة مع كونه مثلكم، وصفوه بذلك إغضابا للمخاطبين عليه، عليه السّلام وإغراء لهم على معاداته عليه السّلام وقوله تعالى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً) بيان لعدم رسالة البشر على الإطلاق على زعمهم الفاسد بعد تحقيق بشرّيته عليه السّلام أي لو شاء الله تعالى إرسال الرّسول لأرسل رُسُلا من الملائكة وإمّا قيل لأنزل لأنّ إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال، فمفعول المشيئة مطلق الإرسال المفهوم من الجواب لا نفس مضمونه كما في قوله تعالى: (وَلَوْ شَاءَ هَذَا كُمْ) ونظائره. (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا) أي: يمثل هذا

الكلام الذي هو الأمر بعبادة الله خاصة وترك عبادة ما سواه. وقيل
بمثل نوح عليه السلام في دعوى النبوة (في آباءنا الأولين) أي الماضين
قبل بعثته عليه السلام قالوه إمّا لكونهم وآبائهم في فترة متطاولة وإما
لفرط غلوهم في التكذيب والعناد وانهماكهم في الغي والفساد، وأياً ما
كان فقوهم هذا ينبغي أن يكون هو الصادق عنهم في مبادي دعوته
عليه السلام كما تنبئ عنه الفاء في قوله تعالى: (فَقَالَ الْمَلَأُ) الخ وقيل
معناه ما سمعنا به عليه السلام أنه نبي. فالمراد بآبائهم الأولين الذين
مضوا قبلهم في زمن نوح عليه السلام 807.

وهذه الآية تبين:

. أقرؤا بالوهية الله عزّ وجلّ ومشيتته (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ)

. أنهم يعرفون الملائكة

. أن هناك أخباراً موروثة في العقيدة

عليه: فإن قوم نوح كان لديهم معرفة بالله عزّ وجلّ وورثوا عقيدة
من السابقين، لكن أمراً آخر نعتقد أنه غاب عنهم هو الاصطفاء،
أي غاب عنهم أن الله سبحانه يصطفي من عباده من يقوم بمهمة
الرسالة لإبلاغ الناس بالحقّ ويصحح عقيدتهم من الشرك إلى التوحيد،
وقد تكون هذه الغفلة بسبب التباعد الزمني لهؤلاء عن النبي الذي
سبق نوح عليه الصلاة والسلام.

ومما يؤكد هذا أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أن إرسال الرسل
تتري كان بعد الطوفان، أي: بعد الرسالة الأولى وهي رسالة نوح
مصدقا لقوله تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رُسُولُهَا

807 - تفسير أبو السعود، ج 4، ص 496.

كَذَّبُوهُ فَأَتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ {808}.

فلماذا تعجبون! إذن كان لديهم خبر سابق؟

ومما تعجبون؟

لقد فسر نوح بيان التعجب فقال لهم كما يخبرنا العليم الخبير:
{أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
وَلِتُنذِرُوا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا} 809

عليه يمكن أن يكون تعجبهم مصدره:

. بشرية الرسول أو رسول بشر.

. أن يكون تعجبهم لانتفاء الرسالات قبل نوح

. تباعدهم عن زمن النبوة السابقة

لقد كان نوح أول الرسل، فعن أنس أن النبي عليه الصلاة
والسلام قال: "أول نبي أرسل نوح" 810

وهذا يدل مرة أخرى على أنه لا رسالة سبقت نوح، بل هي نبوة
أو دعوة إصلاح ربما كانت بعيدة عن ذاكرتهم وموروثهم وكيف لا وقد
مكث نوح في قومه قرابة الألف سنة.

والتعجب هو موقف يترتب عليه موقف آخر يجعله على الممايزة
على النحو الآتي:

. تعجب يفضي إلى الحق وقوة في العقيدة.

. وإما تعجب يفضي إلى الباطل ووهن في العقيدة.

وقد حصل بالفعل أن اختار قلة من قومه الحق، بينما كان للكثرة
منهم مواقف مترتبة ومتعاقبة أخرى كلها في الباطل ونحوه.

808 - المؤمنون 44.

809 - الأعراف 63.

810 - جامع الأحاديث، ج 10، ص 314.

ب . موقف التكذيب يحصل التكذيب بالشيء الموجود ولا يحصل
للاشيء، بمعنى أن المكذب يكذب بما يرى ويسمع ويعقل ولا يكذب
بالأشياء.

- فما هو الشيء الذي كذبت به قوم نوح؟

أجابت الآيات عن ذلك بقوله عز وجل: (فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ
وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
عَمِينَ).

فلقد كذب القوم بآيات الله.

فما هي هذه الآيات؟

للعلماء عدة أقوال:

1. يقول ابن عباس كتاب نوح

2. الطبري أغرق الله الذين كذبوا بحجج نوح

3 . يقول السعدي وأراهم الله - على يد نوح - من الآيات

البيئات، ما بهم يؤمن أولوا الألباب.

4 . النيسابوري كذبوا بآياتنا. والتحقيق أن المراد كذبوا رسلنا برد

آياتنا: (إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي
بِمَا كَذَّبُونِ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِر).

هذا التباين في آراء العلماء يدل على الاحتمالات الجائزة والموافقة

لما يجب أن تكون على الآيات، فتفسير الآيات على أنها كتاب الله

المنزل على نوح احتمال جائز وقوي لان المعروف أن لابد لكل رسالة

من كتاب أو صحف أو ألواح، لذلك فمن المحتمل أن يكون لأول

رسول كتاب أو صحف ونقول على الاحتمال لأنه لم يرد في الموثوق

مما نعتقد أن نوحا كان له كتاب أو ألواح أو صحف.

أما القول بأن تكون الآيات هي الحجج فذلك يستند إلى قاعدة معروفة في العقيدة تقول أن لكل رسول معجزات يجريها الله على يديه وهي آيات الله عزّ وجلّ للمستهدفين بالرسالة.

هنا نتساءل:

ماذا يمكن أن تكون معجزات نوح؟

لاشكّ أنّ القطع بماهية معجزات نوح ليس أمرا يسيرا بغياب النصوص الداعمة لذلك، ولكن المؤكد أنّ لنوح معجزات استخدمها في دعوته التي استمرت ألف سنة إلا خمسين وهو يواجه التكذيب لذلك فمن المعتقد أن تحتاج دعوته إلى ما يقويها من معجزات، ولا شك أنّ من آمن مع نوح بادئ الرأي احتاج إلى مؤكدات القول الظني (حسب اعتقاد الآخر) لان القول عند نوح مؤكد بالإيمان المطلق بالله عزّ وجلّ، ولكن الآخر يظل ينظر إلى القول على أنّه ظني إلى أن يتلمس مؤكداته، وهذه بالتحديد هي معجزات نوح.

هنا وجب التساؤل:

ما هي مؤكدات القول؟

يؤكد القول بما يقطع الظن في صحته، وذلك يحدث أما بالبصر أو البصيرة، بالبصر كما حدث مع سحرة فرعون وهم يشاهدون آيات الله عزّ وجلّ في مواجهة موسى مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا تُصَلِّبُنَا فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلِتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا

فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِمَّا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا {811، وبالْبَصِيرَةِ
 كَمَا حَدَثَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ السَّابِقِينَ بِالْإِسْلَامِ، {الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا
 رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا
 رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ
 وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
 الْمُفْلِحُونَ {812.

ونوح وهو أول رسول يمكن أن يكون خاطب بصيرة الناس ولم
 يخاطب بصرهم وبدل على ذلك ما أخبرنا به العليم الخبير سبحانه
 وتعالى بقوله: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ
 يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ
 وَأَطِيعُوا يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ
 إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا
 وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا
 أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ثُمَّ إِنِّي
 دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا
 رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَبُذِّعَتْكُمْ أَمْوَالٌ وَبَيِّنٌ
 وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا {813.

هذه الآية تبين وسيلة الدعوة عند نوح وطبيعة حججه التي كانت
 تستند إلى البصيرة. ويمكن أن تتحقق المعجزات البصرية أيضا فمن
 الممكن ومن المنطق أن يكون آمن لنوح سابقون بالإيمان أمدهم الله
 بالأموال والبنين على نحو مميز ومعجز عندها تكون المعجزة المادية
 تحققت، وبذلك يكون نوح له من المعجزات المادية والمعنوية.

811 - طه 69 - 72.

812 - البقرة 1-5.

813 - نوح 1-12.

ج . الكفر بالدعوة: يأتي بعد التكذيب الكفر موقف آخر من نوح ودعوته، وقد اختار الملا من قوم نوح أن يكفروا وان يقدموا مبررات واهية لهذا الكفر، مجموعة من المبررات التي لا تتعلق بالعقيدة بل تتعلق بما يمكن أن نسميه مبررات نفعية أو طبقية، يقول الحق جلّ وعلا: { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا بِرَأْيِهِمْ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْهَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } 814.

فمبررات الكفر هي:

. بشرية نوح.

. المستوى الطبقي للمؤمنين.

. انعدام فضل الأراذل.

. ظن الكذب.

كل هذه المسائل لا تمسّ العقيدة التي جاء بها نوح (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَوْلِيَاءَهُ).
لقد أراد نوح إصلاح معتقد قومه لأنها كانت تعاني من انحرافات واضحة تتمثل في:

1 . الإشراك بالله (وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ أَهْلَكُمُومَ وَلَا تَدْرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَٰعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)
2 . معصيته عزّ وجلّ (وَأَتَقُوهُ)
3 . عصيان الرسول (وَأَطِيعُوا أَوْلِيَاءَهُ)

وما بين مبررات الكفر ومبادئ عقيدة هؤلاء يتبين أنهم لم يكن لهم أي أثر جدلي في قضية البحث عن حقيقة صدق نوح، فقد أصدروا رأيهم وأصروا عليه لاسيما أهل الملا الذي وصف بأنهم الذين

كفروا للإيماء إلى أنّ كفرهم هو الذي أنطقهم بهذا الرد على نوح، وهو تعريض بأن مثل ذلك الرد لا تُهوض له ولكنهم رَوَّجُوا به كفرهم خشية على زوال سيادتهم.

د . السخرية؟

كانت السخرية من أبرز ما ظهر من مواقف بعض قوم نوح على الدعوة وما فيها من وعد ووعيد وقد ظهرت سخريتهم بعد أن بدأ نوح بالعمل بالسفينة، وهو عمل مرتبط بالإنذار الذي أخبر به نوح عليه الصلّاة والسّلام من أنّ طوفانا عظيما سيحصل في أرضهم وسينال كل من يكفر بالله عزّ وجلّ، {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ} 815.

فالسخرية موقف تلا عدد من المواقف كما سبق القول، والسخرية: الاستهزاء، وهو تعجب باحتقار وحق.

وسخريتهم منه كان لحمل فعل صناعة السفينة على العبث بناء على اعتقادهم أن ما يصنعه لا يأتي بتصديق أدعاء نوح.

وموقف السخرية يملي تساؤلات مفضية للبحث في ماهية هذه السخرية ومقصدها، فهل كانت سخرية:

. من الصانع؟

. من الصنعة؟

. من المصنوع؟

. من الإنذار (الغرق)؟

. أم هذه وأخرى؟

لقد عرف القوم نوحا وقد عاش فيهم زمنا طويلا وعرفوا كل شيء
عنه بما في ذلك عمله الذي يرتزق منه، هذه الحقيقة تفضي بعد ربطها
بالسخرية إلى اشتراطات مفسرة مفادها:

. إذا كان نوح نجارا أو صانع سفن ما كان لسخرتهم رابط دلالي
بالموقف.

. إذا كان نوح يعمل بعمل آخر ثم إذا به يصنع سفينة كانت
السخرية متسقة دلاليا بالسياق.

هنا يكون الأخذ بنتيجة أي من الشرطين السابقين يفضي إلى
حقيقة هي:

أن الأول يلغي الثاني.

بمعنى لو أخذنا بالقول بأن نوحا كان نجارا فإن السخرية ما كانت
على الصانع ولا على المصنوع ولا على الصنعة، وإنما على الوعيد
(الغرق)، ولو كان نوح ليس بنجار ولا صانع سفن كانت السخرية
من الصانع والمصنوع والصنعة لأنهم يرونه يتعاطى بعمل ليس له فيه
وفي ظنهم لا يمكن أن ينجح فيه.

ثم إنَّ هذا يؤدي إلى عدد من الاحتمالات التي تبين سبب
سخرتهم منها:

أولاً: أنهم كانوا يقولون: يا نوح كنت تدعي رسالة الله تعالى
فصرت بعد ذلك نجارا.

ثانياً: أنهم كانوا يقولون له: لو كنت صادقا في دعواك لكان إلهك
يغنيك عن هذا العمل الشاق.

ثالثاً: أنهم ما رأوا السفينة قبل ذلك وما عرفوا كيفية الانتفاع بها
وكانوا يتعجبون منه ويسخرون.

رابعاً: أنّ تلك السفينة كانت كبيرة وهو كان يصنعها في موضع بعيد عن الماء جدا وكانوا يقولون: ليس ههنا ماء ولا يمكنك نقلها إلى الأنهار العظيمة وإلى البحار، فكانوا يعدون ذلك من باب السفه والجنون.

خامساً: أنه لما طالّت مدته مع القوم وكان يندرهم بالغرق وما شاهدوا من ذلك المعنى خبراً ولا أثراً غلب على ظنّهم ما ضنوا في ذلك المقال فلما اشتغل بعمل السفينة لا جرم سخروا منه وكل هذه الوجوه محتملة 816.

ومن المهم القول أنّ السفينة التي صنعها نوح عليه الصلّاة والسّلام كانت على أرقى ما يمكن تصوره من التصميم وأدق ما يمكن حسابه من القياسات لأنّها بنيت لتكون منجية للمخلوقات بكل أنواعها بعد أن تغرق الأرض وما عليها، حيث سيتم تأسيس حياة جديدة تحتاج إلى الأنقى والأقوى والأحسن لتستمر فلا تنقطع، لذلك كان صنع السفينة على علم الله عزّ وجلّ ورعايته مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ﴾ 817.

فالصنع كان يتم برعاية الله عزّ وجلّ وحفظه، ولأهمية السفينة ومن كان عليها استمر الحفظ إلى ما بعد الصنع، فقد كان جريانها بحفظ الله عزّ وجلّ: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَلْوَاحِ وَدُسِّرَ بُحْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا﴾ 818.

هذه الآيات تبين أنّ نوح كان منفذاً لإرادة الله عزّ وجلّ، بمعنى أنّ السفينة لم تكن خياراً اختاره نوح لمواجهة ما يأتي، بل كان أمراً من الله عزّ وجلّ، وهذا الأمر لا راد له.

816 - تفسير الرازي، ج 8، ص 405.

817 - هود 37.

818 - القمر 13-14.

وبعد نتساءل:

لماذا سخر نوح من الساحرين؟

كيف يمكن أن يسخر نوح؟

هل كان بنفس مما كانوا يسخرون؟

سخرية نوح عليه السلام والمؤمنين من الكافرين من سفه عقولهم وجهلهم بالله وصفاته.

وبذلك يتضح وجه التشبيه بين سخريته وسخريتهم في قوله تعالى: {كَمَا تَسْخَرُونَ} 819؛ فهو تشبيه في السبب الباعث على السخرية، وإن كان بين السببين فرق، وتجعل كاف التشبيه معنى التعليل، فيفيد التفاوت بين السخريتين، لأنّ السخرية المعللة أحق من الأخرى، فالكفار سخروا من نوح عليه السلام لعمل يجهلون غايته، ونوح عليه السلام وأتباعه سخروا من الكفار لعلمهم بأنهم جاهلون في غرور، كما دل عليه قوله: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ} 820؛ فهو تفرّيع على جملة {فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ} 821 أي: سيظهر من هو الأحق بأن يسخر منه.

وهذا يفيد أدبا شريفا بأن الواثق بأنه على الحق لا يززع ثقته بمقابلة السفهاء أعماله النافعة بالسخرية، وأن عليه وعلى أتباعه أن يسخروا من الساحرين 822.

ثم إنّه تعالى حكى عنه أنّه كان يقول: (إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) وفيه وجوه:

819 هود 38.

820 هود 39.

821 هود 38.

822 - تفسير ابن عاشور، ج 7، ص 138.

الأول: التقدير إن تسخروا منا في هذه الساعة فإننا نسخر منكم
سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والخزي في
الآخرة.

الثاني: إن حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع فإننا نحكم عليكم
بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله تعالى وعذابه
فأنتم أولى بالسخرية منا.

الثالث: أن تستجهلونا؛ فإننا نستجهلكم، واستجهالكم أقبح
وأشد، لأنكم لا تستجهلون إلا لأجل الجهل بحقيقة الأمر والاعتزاز
بظاهر الحال كما هو عادة الأطفال والجهال⁸²³.

هـ. رفض الحوار:

اجتهد نوح في وسائل تبليغ دعوته، فاختر تنوعاً زمنياً ومكانياً
وموضوعياً، فكان يبلغ في الليل والنهار، في السر والعلن، في الملاء وفي
السوق، ولكنه لم يلق آذانا واعية إلا في قليل ممن آمن معه، أما كثير
الآخرين فقد كذبوا وكفروا، وهؤلاء أكثر نوح من دعوتهم إلى الحق
وبرهن لهم بالحجج وهذا ما تبين من لسانهم كما أخبرنا العليم الخبير:
(قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا) حيث وصل نوح إلى مرحلة
الجدل وأجاب نوح عليه الصلوة والسلام عنها بالجوابات الموافقة
الصحيحة أورد الكفار على نوح كلامين:

الأول: أنهم وصفوه بكثرة المجادلة فقالوا: يا نوح قد جادلنا
فأكثرت جدالنا، وهذا يدل على أنه عليه السلام كان قد أكثر في
الجدال معهم، وذلك الجدال ما كان إلا في إثبات التوحيد والنبوة

⁸²³ - البحر المحيط، ج 6، ص 400.

والمعاد، وهذا يدل على أن الجدال في تقرير الدلائل وفي إزالة الشبهات حرفة الأنبياء⁸²⁴.

والمجادلة المخاصمة بالقول وإيراد الحجّة عليه، وتكون في الخير كقوله تعالى: {يجادلنا في قوم لوطٍ} 825، وتكون في الشر كقوله: {وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ} 826.

وإنّما أرادوا أنّه جادلهم فيما هو شر فعبر عن مرادهم بلفظ الجدال الموجّه،

وهذا قول وقع عقب مجادلته المحكية في الآية قبل هذه، فتعين أنّ تلك المجادلة كانت آخر مجادلة جادلها قومه، وأن ضجرهم وسآمتهم من تكرار مجادلته حصل حينئذ فقالوا قولهم هذا، فكانت كلها مجادلات مضت. وكانت المجادلة الأخيرة هي التي استفزت امتعاضهم من قوارع جدله حتى سئموا من تزييف معارضتهم وآرائهم شأن المبطل إذا دمغته الحجّة، ولذلك أرادوا طي بساط الجدال، وأرادوا إفحامه بأن طلبوا تعجيل ما توعدهم من عذاب ينزل بهم، وقولهم: {فأكثر جدالنا} خبرٌ مستعمل في التذمر والتضجير والتأيس من الاقتناع، أجاهم بالمبادرة لبيان العذاب لأنّ ذلك أدخل في الموعظة فبادر به ثم عاد إلى بيان مجادلته⁸²⁷.

هذا يعني: أنّ القوم وصلوا إلى مرحلة الرفض، وهي مرحلة تجرد كل المحاولات مهما اختلف طرق أدائها من القيمة، بمعنى أنهم رفضوا بالمطلق دعوة نوح وإنّ كل ما جاء به من حجج وبراهين هي في اعتبارهم هباء منثورا، وبعد أن حسم القوم أمرهم لم يتوقف نوح عن

824 - تفسير الرازي، ج 8، ص 399.

825 - هود 74.

826 - البقرة 197.

827 - تفسير ابن عاشور، ج 7، ص 132.

دعوتهم إلا بعد أن أمره الله عز وجل فقال له: (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) هنا توقف نوح، بعد أن كان الرفض والقطع به من القوم توقف نوح عن الدعوة بأمر الله عز وجل.

و . التهديد:

قام الكافرون من قوم نوح بتهديده ومن معه، (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) والتهديد هنا كان بنوع من العقاب يستخدم لمن يخرج عن العرف عندهم، وقد كانوا ينظرون لنوح ومن معه على أنهم مجموعة من الخارجين على (الملا)، وإثم اختاروا رأياً يخالف رأي الملا لذلك حق عليهم العقاب، ولعلمهم بأن نوح لم يكن ممن يستحق العقاب، فلم ينفذوا بل اختاروا التهديد لرغبتهم في أن ينال هذا التهديد من نوح ومن معه ليعودوا سيرتهم الأولى هذا من جانب.

أما الجانب الآخر الذي دعاهم لعدم تنفيذ تهديدهم فيعود لطبيعة وعيد نوح، حيث كانوا يرون فيه أمر مستبعد من جهة، وليس لنوح أثر فيه من جهة أخرى حيث إن الإعصار والغرق ليس بيد نوح كما كانوا يرون، بل لم يكن بقادر على فعل ذلك أحد حسب اعتقادهم هذا القناعة أفضت إلى اتخاذهم الموقف الأخير.

ز . التحدي:

(قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

هنا يظهر التحدي في منطلق هؤلاء، وهو تحدي يكشف عن عدم فهم طبيعة دعوة نوح بل يكشف أكثر عن عدم دخول الإيمان بالمطلق في قلوب هؤلاء لأنهم تصوروا منكرين أن نوحا هو الذي يمكن

أن يأتي بالغرق، فأجابهم عليه الصلّاة والسّلام بجواب صحيح فقال كما يخبر المولى عزّ وجلّ: {إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} والمعنى أن إنزال العذاب ليس إلي وإنما هو خلق الله تعالى فيفعله إن شاء كما شاء، وإذا أراد إنزال العذاب فإن أحدا لا يعجزه، أي لا يمنعه منه، والمعجز هو الذي يفعل ما عنده لتعذر مراد الغير فيوصف بأنه أعجزه، فقوله: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} أي لا سبيل لكم إلى فعل ما عنده، فلا يمتنع على الله تعالى ما يشاء من العذاب إن أراد إنزاله بكم 828.

هنا نتساءل عن هؤلاء الكفار:

هل بقي منهم باقٍ؟

تدل الآيات على أنّ الطوفان لم يبق إلا من كان على السفينة، يقول الماوردي في أعلام النبوة عن الطوفان: "ثم كثر الناس فافترقوا بعد إدريس وزادوا إلى زمن نوح، وهو آخر نبي بعث قبل الطوفان فلم يبق في الأرض ذو روح إلا من ركبها وغاض الطوفان بعد مائة وخمسين يوما فاستوت على الجودي وهو جبل بأرض الجزيرة شهرا وسمي الماء طوفانا لأنه طفا فوق كل شيء" 829.

والحق أن الآيات التي اشتملت على وصف الطوفان تشير في أكثر من وجه إلى أن الغرق شمل الأرض كل الأرض، يقول الحق سبحانه: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ

828 - تفسير الرازي، ج 8، ص 399.

829 - أعلام النبوة، ج 1، ص 54.

ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {830، ولنتأمل دلائل الشمول في الآية وهي:

(احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ)، مِنْ كُلِّ أَرَادَ حَمْلَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَىٰ زَوْجًا، وَاسْتَوَتْ فِي أَنَّهُ هَلْ دَخَلَ فِي قَوْلِهِ: (زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) غَيْرَ الْحَيَوَانَ أَمْ لَا؟ فَنَقُولُ: أَمَّا الْحَيَوَانَ فِدَاخِلٌ لِأَنَّ قَوْلَهُ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ الْحَيَوَانَاتِ، وَأَمَّا النَّبَاتُ فَاللَّفْظُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنَّهُ بِحَسَبِ قَرِينَةِ الْحَالِ لَا يَبْعُدُ بِسَبَبِ أَنَّ النَّاسَ مُحْتَاجُونَ إِلَى النَّبَاتِ بِجَمِيعِ أَقْسَامِهِ 831، وَأَكَّدَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ شُمُولَ النَّبَاتِ بِالْحَمْلِ فَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: "عَنْ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَىٰ وَجْهَهُ مَرْفُوعًا أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ حَمَلَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ مِنْ جَمِيعِ الشَّجَرِ" 832، مِنْ هُنَا نَسْأَلُ: إِذَا كَانَ الْإِغْرَاقُ لِبَعْضِ الْأَرْضِ فَمَا فَائِدَةُ حَمْلِ الْأَزْوَاجِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ عَلَى الْأَرْضِ خَارِجَ مَوْقِعِ الطُّوفَانِ؟ لِأَنَّ الْإِغْرَاقَ شَامِلًا لِكُلِّ مَنْ هُمْ خَارِجَ السَّفِينَةِ. عَلَيْهِ فَإِنَّ لِلْحَمْلِ دَلَالَاتٍ إِعْجَازِيَّةً هِيَ:

الحفاظ على النوع.

ب . حمل زوجين وليس زوج واحد فيه تلبية لطباع بعض المخلوقات التي تأنف التزاوج مع زوجها من البطن الواحدة.
ج . الحمل كان جزءا من مهمة نوح في إعمار الأرض التي استُخلف عليها.

830 - هود 40-44.

831 - تفسير الرازي، ج 8، ص 408.

832 - تفسير الالوسي، ج 8، ص 235.

(لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ) في هذه الآية دال على الشمول هو أسلوب نفي الجنس، فلو قال أحد أن العقاب كان لقوم نوح فقط وهم في بقعة جغرافية واحدة لما استقام نفي الجنس في الآية حيث سيكون هناك ناج في مكان ما وهو معصوم من العقاب لكونه ناج، كما سيكون هنا عاصم غير الله إذا لم يكن الغرق شاملا لكل الأرض، فسيكون هناك جبل عاصم في مكان ما وسيكون هناك سفينة عاصمة في مكان ما، وهذا ما لا يرتضيه مؤمن بربه لما فيه من تناقض بين النص القرآني والقول بعدم شمول الغرق كل الأرض. أما الاستثناء فهو مخصوص بمن حقت عليه رحمة الله وهم نوح ومن معه فقط.

يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي، الخطاب هنا جاء باستخدام صيغة التنكير (أرض) وواضح أنها تدل على العموم، ولو كان الخطاب بالتعريف مثل يا أيها الأرض لكان لزاما أن تكون أرض محددة معروفة مقصودة بالخطاب، لكن صيغة التنكير أدت إلى بيان دلالة الشمول، والأمر كذلك مع السماء.

والنتيجة الحاصلة مما سبق هي: أنّ الغرق شمل كل الأرض واستثنى نوحا ومن معه ومن حمل؛ فالغارقون من الكافرين هم الكافة الفانية، والناجون من المؤمنين هم الكافة الباقية مصداقا لقوله تعالى: {دُرِّيَّةٌ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} 833.

النبي

نوح من السنة

نوح عليه الصلاة والسلام هو ذلك النبي المبدع الذي هندس وصمّم وبناء سفينة النجاة بيديه، وهو الذي خرق بها الأمواج الجبلية التي أغرقت من كان كافراً، وكان الغرق بسبب دعاء نوح على الكافرين الذين أفسدوا في الأرض المراد إصلاحها.

ويقال سمي نوحاً: لطول ما ناح على نفسه، عَنْ يَزِيدَ الرَّقَاشِيِّ، قَالَ: «إِنَّمَا سُمِّيَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ نُوحًا لِطَوْلِ مَا نَاحَ عَلَيَّ نَفْسِهِ»⁸³⁴.

ويعدّ نوح عليه الصلاة والسلام أوّل نبي بُعث لجنسه؛ أمّا آدم من قبله بُعث للملائكة والجن والإنس، فعن أنس - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "أَوَّلُ نَبِيِّ أُرْسِلَ: نُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ"⁸³⁵. أي أرسل للبشر مخصوصاً.

نوح مثال للاقتداء:

لا شك أنّ جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم القدوة الحسنة، وخير مثال لذلك ما قلّه رسول الله في أولئك الأسارى يوم بدر؛ فعن أبي عبيدة، عن عبد الله، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارِيِّ؟" فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَوْمُكَ، وَأَهْلُكَ، فَاسْتَبَقَهُمْ وَاسْتَبَقَهُمْ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَذَّبُوكَ،

⁸³⁴ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 3، 51.

⁸³⁵ الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، 14، 108.

وَأَخْرَجُوكَ، قَدِمْتَهُمْ نَضْرِبُ أَعْنَاقَهُمْ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ رَحِمَكَ. قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا ثُمَّ قَامَ فَدَخَلَ؛ فَقَالَ نَاسٌ: يَا أُخْدُ بِقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ، وَقَالَ نَاسٌ: يَا أُخْدُ بِقَوْلِ عُمَرَ، وَقَالَ نَاسٌ: يَا أُخْدُ بِقَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ. ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ لَيُلِينُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ أَلْيَنُ مِنَ اللَّبَنِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيَشْدُدُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: {فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 836. وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: {إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 837. وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا عُمَرُ كَمَثَلِ مُوسَى قَالَ: {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} 838. وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا عُمَرُ كَمَثَلِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: {رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} 839. أَي: لَا تَتْرِكْ أَحَدًا مِنَ الْكَافِرِينَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ، ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ فِي زَمَنِ نُوحٍ بِالرَّغْمِ مِمَّا بَدَلَهُ مَعَهُمْ مِنْ جِهْدٍ فِي سَبِيلِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى؛ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا، بَلْ سَخَرُوا مِنْهُ كَثِيرًا، وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرْبَابًا، قَالَ تَعَالَى: {قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا حَسَارًا وَمَكْرُوهًا مَكْرًا كِبَارًا وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} 840.

836 إبراهيم 36.

837 المائة 118.

838 يونس 88.

839 نوح 26.

840 نوح 21. 23.

ففي هذا الأمر، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: (لا تَدْرُزَنَّ
 آلِهَتَكُمْ وَلَا تَدْرُزَنَّ وِدًّا وَلَا سُوعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) قال: كان
 وِدًّا لهذا الحيِّ من كَلْبٍ بدومة الجندل، وكانت سُوعٌ لهذيل برياط،
 وكان يَغُوثُ لبني عَطِيفٍ من مُراد بالجزء من سبأ، وكان يعوق
 لهمدان ببلخع، وكان نسر لذي كلاع من حمير؛ قال: وكانت هذه
 الآلهة يعبدها قوم نوح، ثم اتخذها العرب بعد ذلك. والله ما عدا
 خشبة أو طينة أو حجرًا⁸⁴¹. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: "دَعَا نُوحٌ عَلَى
 الْكَافِرِينَ أَجْمَعِينَ"⁸⁴².

ومع أنَّ نوح عليه الصَّلَاة والسلام جاء بالحقِّ لقومه ولكنَّ قومه
 بالرَّغم من مكوته فيهم أف سنة إلا خمسين عاما ظل معظمهم على
 الكفر، عَن مُجَاهِدٍ، قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: "يَا أَبَا
 الْعَازِي، كَمْ لَيْتَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْمِهِ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا
 خَمْسِينَ عَامًا، قَالَ: "فَإِنَّ النَّاسَ لَمْ يَزِدَادُوا فِي أَعْمَارِهِمْ وَأَجْسَامِهِمْ
 وَأَحْلَامِهِمْ إِلَّا نَفْصًا"⁸⁴³، ومع أننا ننظر لطول عمر نوح عليه
 الصَّلَاة والسلام، أنه على الطول الذي هو أكبر مما نتوقع، ولكن
 نوحا لم يراه كذلك؛ عَن وَهَيْبٍ، قَالَ: "بَنَى نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْتًا مِنْ
 قَصَبٍ، فَقِيلَ لَهُ: لَوْ بَنَيْتُ غَيْرَ هَذَا، فَقَالَ: هَذَا لِمَنْ يَمُوتُ
 كَثِيرًا"⁸⁴⁴.

⁸⁴¹ تفسير الطبري، جامع البيان ت شاكر، 23 / 639.

⁸⁴² تفسير القرطبي، 18 / 312.

⁸⁴³ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 1، 311.

⁸⁴⁴ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 8، 145.

شهادة محمد في نوح:

الأنبياء كلّ الأنبياء مصطفون ومجولون ومبشرون ومنذرون بالحقّ،
فكما هي الأحوال مع نوح كانت أحوال الناس مع جميع الأنبياء
أغلبهم لا يؤمنون ولا يفقهون ومجرمون، ولأنّ جميع الأنبياء الرّسل
عليهم الصّلاة والسّلام جاءوا بالحقّ مرسلون؛ فنحن لا نفرّق بينهم،
{ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ } 845.

ولذا فطاعتهم من طاعة الله، وهم بعضهم من بعض { قُلْ أَطِيعُوا
اللّهَ وَالرّسولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ
وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ
وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } 846، ومن هنا؛ فلا نفرّق بين أحد من رسله،
{ آمَنَ الرّسولَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ
رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } 847؛ فعن أبي سعيد الخدريّ، قال: قال رسول
الله عليه الصّلاة والسّلام: "يُدعى نُوحٌ عليه السّلام يوم القيامة،
فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَغْتَ، فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُدعى قَوْمُهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ
بَلَّغْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ - أَوْ مَا، أَتَانَا مِنْ أَحَدٍ - قَالَ:
فَيُقَالُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ:
{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } 848، قَالَ: الْوَسَطُ الْعَدْلُ، قَالَ:
فَيُدْعَوْنَ فَيَشْهَدُونَ لَهُ بِالْبَلَاغِ، قَالَ: ثُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ" 849.

845 البقرة 285.

846 آل عمران 32 . 34.

847 البقرة 285.

848 البقرة 143.

849 مسند أحمد ط الرسالة 17، 383.

وصية نوح:

لقد أوصى نوح عليه الصلاة والسلام ابنه بأربعة وصايا، منها اثنتين للأخذ بهما، واثنتين للابتعاد والانتهاز عنها. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: "كَانَ فِي وَصِيَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنِّي مُوصِيكَ وَمُقَصِّرٌ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ كَيْ لَا تَنْسَى، أُوصِيكَ بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ، فَأَمَّا اللَّتَيْنِ أُوصِيكَ بِهِمَا فَإِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَصَالِحَ خَلْقِهِ يَسْتَبْشِرُونَ بِهِمَا وَرَأَيْتُهُمَا يُكْتَرَانِ الْوُلُوحَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ بِيَدِهِ الْحَيُّزُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَإِنَّهُ لَوْ عَدَلَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ فِي كِفَّةٍ لَوَزَنَتْهُنَّ، وَلَوْ كُنَّ فِي حَلْقَةٍ لَفَصَمَتْهَا حَتَّى يَلْجَأَنَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُوصِيكَ بِقَوْلٍ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فَإِنَّهَا صَلَاةُ الْخَلْقِ وَبِهَا يُرْزَقُونَ، إِنْ اسْتَطَعْتَ يَا بُنَيَّ أَنْ لَا يَزَالَ لِسَانُكَ رَطْبًا بِهِمَا فَافْعَلْ، فَأَمَّا اللَّتَيْنِ أَنْهَاكَ عَنْهُمَا فَأَنْهَاكَ عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ" 850

أولاً: الاثنتين الموصي نوح الأخذ بهما، هما:

1. أن يقول دائماً: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ بِيَدِهِ الْحَيُّزُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فَإِنَّهُ لَوْ عَدَلَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ فِي كِفَّةٍ لَوَزَنَتْهُنَّ، وَلَوْ كُنَّ فِي حَلْقَةٍ لَفَصَمَتْهَا حَتَّى يَلْجَأَنَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ.
2. أن يقول: (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ) فَإِنَّهَا صَلَاةُ الْخَلْقِ وَبِهَا يُرْزَقُونَ.

أما الاثنتين المنهي عنهما فهما:

1. الشِّرك.

⁸⁵⁰ الدعاء للطبراني، ص، 488.

2. الكِبْرِ.

إبداع السفينة:

هي السفينة المعجزة، التي لم يخلق مثيلاً لها، وهي لم تعد للمقارنة، من حيث الحجم أو السرعة، بل من حيث تحدي الصعاب التي لا تطيقها الجبال الراسيات، وهي التي أصبحت مضرب مثلاً للصمود والمكانة الرفيعة؛ فعن حنّش الكِنَابِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ يَقُولُ: "أَنَا أَبُو ذَرٍّ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ: «أَلَا إِنَّ مَثَلَ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ، مَنْ رَكِبَهَا نَجَّى، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ» 851.

ويقال أنّ سفينة نوح عليه الصلّاة والسّلام قد طافت بالكعبة أسبوعاً، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "كَانَ بَيْنَ دَعْوَةِ نُوحٍ وَبَيْنَ هَلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ ثَلَاثُ مِائَةِ سَنَةٍ، وَكَانَ فَارَ التَّنُورِ بِالْهِنْدِ، وَطَافَتْ سَفِينَةُ نُوحٍ بِالْبَيْتِ أُسْبُوعًا" 852.

ويقال أنّ سفينة نوح قد استوت على الجودي يوم عاشوراء، عَنِ الزَّرَّارِيِّ، قَالَ: "تَابَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي عَشْرِ مِنْ الْمُحَرَّمِ، وَهُوَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ، وَفِيهِ اسْتَوَتْ سَفِينَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْجُودِيِّ، وَفِيهِ عَبَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْبَحْرَ، وَفِيهِ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى، وَفِيهِ تَابَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى قَوْمِ يُوسُفَ، وَفِيهِ أَخْرَجَ اللَّهُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ، وَفِيهِ أَخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى يُوسُفَ مِنَ الْجُبِّ، فَمَنْ صَامَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، كَانَ كَمَنْ صَامَ سِتِّينَ سَنَةً" 853. وقال

851 فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل، 2، 785.

852 المستدرک علی الصحیحین للحاکم، 2، 514.

853 ترتيب الأمالي الحميسية للشجري، 2، 120.

854 المختصر النصح في تهذيب الكتاب الجامع الصحيح، 4، 330.

قَالَ قَتَادَةُ: "أَبَقَى اللَّهُ سَفِينَةَ نُوحٍ حَتَّى أَدْرَكَهَا أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ" 855.
 أَمَّا مَعْمَرٌ فَقَالَ: "وَبَلَّغَنِي أَنَّ سَفِينَةَ نُوحٍ طَافَتْ بِالْبَيْتِ سَبْعًا حَتَّى إِذْ
 أَغْرَقَ اللَّهُ قَوْمَ نُوحٍ رَفَعَهُ، وَبَقِيَ أَسَاسُهُ، فَبَوَّأَهُ لِإِبْرَاهِيمَ فَبَنَاهُ بَعْدَ
 ذَلِكَ 856، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ} 857.

حملت السفينة المعجزة على ظهرها من كل زوجين اثنين، {حَتَّى
 إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
 إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} وَقَالَ ارْكَبُوا
 فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي
 مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا
 تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ} 858.

ويقال أنها حملت على ظهرها ثمانون رجلا وأهلهم، وقد أقاموا
 على ظهر السفينة مائة وخمسون يوما، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "كَانَ مَعَ
 نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ ثَمَانُونَ رَجُلًا مَعَهُمْ أَهْلُوهُمْ، وَأَتَمُّهُمْ كَانُوا أَقَامُوا فِي
 السَّفِينَةِ مِائَةً وَخَمْسِينَ يَوْمًا، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَجَّهَ السَّفِينَةَ إِلَى مَكَّةَ،
 فَدَارَتْ بِالْبَيْتِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ وَجَّهَهَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْجُودِيِّ" قَالَ:
 فَاسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ فَبَعَثَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْعُرَابَ، لِيَأْتِيَهُ بِخَبَرِ الْأَرْضِ،
 فَذَهَبَ فَوَقَعَ عَلَى الْجَيْفِ، وَأَبْطَأَ عَنْهُ، فَبَعَثَ الْحُمَامَةَ فَأَتَتْهُ بِوَرَقِ
 الزَيْتُونِ، وَأَلْطَحَتْ رِجْلَيْهَا بِالطِّينِ، فَعَرَفَ نُوحٌ أَنَّ الْمَاءَ قَدْ نَضَبَ،
 فَهَبَطَ إِلَى أَسْفَلِ الْجُودِيِّ، فَأَبْتَنَى قَرْيَةً، وَسَمَّاهَا ثَمَانِينَ، فَأَصْبَحُوا ذَاتَ
 يَوْمٍ، وَقَدْ تَبَلَّبَلَتْ أَلْسِنَتُهُمْ عَلَى ثَمَانِينَ لُغَةً، إِحْدَاهَا الْعَرَبِيَّةُ، قَالَ:

855 المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة، 8، 464.

856 مصنف عبد الرزاق الصنعاني، 5، 94.

857 الحج 26.

858 هود 40 . 42.

فَكَانَ لَا يَفْقَهُ بَعْضُهُمْ عَنِ بَعْضٍ، وَكَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعَبِّرُ عَنْهُمْ "859.

نعم أن نوح مبدع سفينة النجاة، ولهذا فالإبداع صفة من صفاته، ذلك لأنه استمد صفة الإبداع من المبدع المطلق جلّ جلاله، الذي أبدع كلّ شيء وهو يبدع كونه الخلاق، أنه المبدع بالأمر لا بالعمل؛ فالعمل يتم على أيدي المخلوقين، أمّا الخالق إذا أراد شيء يقول له كن فيكون، {بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 860.

ولأنّ الله البديع، فالإبداع صفته، ولأنّ نوح نبي مرسل من عند الله ليكون خليفة ويخترض على الاستخلاف في الأرض؛ فكان خير خليفة يعمل ويبدع بيديه حتى أبدع تلك السفينة الآية (سفينة النجاة) ولهذا فهو مبدع كونه استمدّ هذه الصفة من خالقه المبدع المطلق جلّ جلاله.

ولهذا ليس بغريب على المؤمنين به وموحيديه أن تكون عقيدتهم إن الله جلت قدرته بديع لعيسى عليه الصلّاة والسلام من غير أب، وليس بغريب على من يريد تحقيق الخلافة في ملك الله ويبدع فيها لمصلحة خلق الله، ويكون خلاقا في الأرض ليستخرج خيرها ولا يفسد فيها بدعة سوء سواء أكانت بدعة قولية أم فعلية، والخليفة المتخلق بالاسم البديع يصلح الأرض بإبداع الجديد المفيد وهذا تخلقا بصفة البديع المطلق فيصبح بديعا بالإضافة.

والبديع المطلق هو الذي لا مثيل له، وهو المنشئ المبدئ لكل شيء على غير مثال، وهو الواحد الأحد المستحق للعبادة، وهو

⁸⁵⁹ أخبار مكة للأزرقي، 1، 52.

⁸⁶⁰ البقرة 117.

الواحد الذي يستحيل في حقه الوجود لأن ذلك تبعيض وتجزئ، وهذه ليست من صفات الله تعالى.

والبديع بالإضافة هو الذي يقبل أن يكون له مثل إذا سار على المنهج الصحيح وهو المنشئ للجديد بالاستفادة من خلق الله وإبداعه في الأرض، وهو الواحد القابل للكثرة لأنه بإبداع المجموعة تتحقق الخلافة الجماعية فتكون الخلافة خلافة أمة لا خلافة فرد مع جواز أن يكون الفرد محفز للجماعة بريادته وقيادته لها، وهو الموحد لله الذي لا يرى أن الله قد اتخذ صاحبة ولا ولدا لأن هذا ينتفي في حقه تعالى.

وعشاق الفساد ومخربو العمار الروحي ومفسدو الإصلاح الجمعي وحملة راية الظلام (جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ) وهو سبحانه وتعالى: (بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

يخبر الله تعالى أنه مع إحسانه لعباده وتودده إليهم، بآياته البينة، وحججه الواضحة فإن المشركين به بدءا من مشركي قريش وغيرهم، جعلوا له شركاء من الجن والملائكة يدعونهم ويعبدونهم، والجن والملائكة خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، فجعلوهم شركاء، لله الخالق الأمر الناهي، وهو المنعم المتفضل بجميع أنواع النعم، الدافع لجميع النقم، وكذلك خرق المشركون فكذبوا وافتروا على الله، بأن له بنين وبنات بغير علم منهم، ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافترى عليه النقص، والله منزه عن قولهم. ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال: (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ) فإنه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، فهو (بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) خالقهما، ومتقن صنعتهما،

على غير مثال سبق، بأحسن خلق، ونظام وبهاء، لا تقترح عقول أولي الألباب مثله، وليس له في خلقهما مشارك. (أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَمَمَّ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً): كيف يكون لله الولد، وهو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا صاحبة ولا زوجة له، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلهم في حاجة إليه في جميع أحوالهم، والولد لا بد أن يكون من جنس والده؛ والله خالق كل شيء وليس شيء من المخلوقات مشابهاً لله بوجه من الوجوه.

والبديع عند العلماء مُوجد العين لا على مثل، وعند أهل الإشارة الذي ليس له شيء مثله. فهذا الاسم يشير إلى نفي المثل عن ذاته، ونفي المثل عن أفعاله، فهو الأحد الذي لا عدد يجمعه، إنه الله الدائم جلّ جلاله، وهو العدل الذي جعل الصراط المستقيم معياراً للتقويم، والحقّ الذي لا يزول، والباقي الذي لا يتغير، حكمه نافذ ولا مرد له سبحانه جلّ جلاله.

و(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي مبدعهما، والابداع اختراع الشيء لا عن مادة ولا في زمان، ويستعمل ذلك في إيجادته تعالى للمبادئ، وهو غير الصنع إذ هو تركيب الصورة بالعنصر؛ ويستعمل في إيجاد الأجسام، وغير التكوين فإنه ما يكون بتغير وفي زمان غالباً، وإذا أريد من السماوات والأرض جميع ما سواه تعالى من المبدعات والمصنوعات والمكونات لاحتوائها على عالم الملك والملكوت فبعد اعتبار التغليب يصح إطلاق كل من الثلاثة إلا أن لفظ الابداع أنسب لأنه يدل على كمال قدرته تعالى، والقول بتعين حمل الابداع على التكوين من مادة أو أجزاء لأن إيجاد السماوات من شيء كما يشير إليه قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} 861

ناشئ والآية حجة أنه تعالى مبدع لكل ما سواه فاعل على الإطلاق، ولا شيء من الوالد كذلك ضرورة انفعاله بانفصال مادة الولد عنه فالله تعالى ليس بوالد⁸⁶².

قال الشاطبي: أصل مادة (بدع) الاختراع على غير مثال سابق ومنه قول الله تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} 863، أي أنه بديع الشيء وخالق الأشياء منه.

ونحن نقول: الابداع شيء والاختراع شيء آخر ولنوضح ذلك: الابداع إيجاد دون سابق، دون محاولة للخطأ والصواب، إنه الخلق السليم بالكامل.

والاختراع، لا يحدث إلا بتصور مسبق، مع احتمال الوقوع في الخطأ، وهذه لا تكون من صفة المبدع المطلق جلّ جلاله.

وعليه فالمبدع بالمطلق هو الله، وهذه الصفة لا مشاركة فيها، إما الاختراع (صفة) قد تسري على ما يجده المخلوق من مصنوع على مثال، ولهذا الابداع يوجد من غير مثال، والمخترع لا يكون إلا على مثال.

والخليفة هو الذي يبدع في استيعاب ما أبدعه الله يقينا لا شك فيه، مع إدراكه مسلمات وحجة مطلقة بأنه الحق. والمبدع بالإضافة هو الذي يعلم أنّ ما يجده من جديد هو إضافة من مبدع بالمطلق. ولهذا فالمبدع بالإضافة هو من يدرك ما أبدعه الله ويقف دونه، تأملا واستقراء واستنباطا حتى يدرك اليقين من ورائه من خلال إدراكه للكيفية التي عليها خلق وبهذا يتمكن عقله من الإدراك الذي يمدد بروح الابداع في تقوى الله فيتمكن من أدراك المجرد الذي يكمن ورأي

⁸⁶² تفسير الألوسي، ج 1، ص 482

⁸⁶³ البقرة، 117

كل علة أو سبب حتى يضيف الجديد المفيد والنافع الذي يسهم في إصلاح الأرض وإعمارها.

إذا نقول: الابداع إيجاد عن غير مثال سابق، والبدع هو مبدع الموجودات بلا مادة فهو واجدها ومخرجها بالهيئة التي تكون عليها هي كما هي.

وخليفة البدع المطلق هو الذي يبدع الحلول لمصلحة الجماعة الإنسانية لتوفير سبل الراحة لتعمير الأرض لا لإفسادها، وهنا من حق المتشدد أن يقول لنا إنّ البدعة من الابداع والابداع ضلالة والضلالة في النار، وقبل أن نرد عليه نطلب منه قليل من الصبر حتى تتضح لنا ما معالم البدعة الضالة المضلة؟ التي تهوي بصاحبها إلى النار، ولنرى الابداع المفيد النافع الذي يرقى بصاحبه وبجماعته إلى أعلى رتب السعادة في الدنيا وأعلى الجنان في الآخرة فينال خير كل الخير.

البدعة:

البدعة مأخوذة من بدع الشيء يبدعه بدعا وابتدعه أنشأه وبداه، وهي عمل ما ليس بمألوف، وقد تكون خروج عن مألوف أو متعارف عليه، وهذه البدعة قد تواجهها المعارضة وقد يواجهها التأييد كل حسب استدلالاته عليها.

"فَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ الْقَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي رَمَضَانَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلَاتِهِ الرَّهْطُ فَقَالَ عُمَرُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَانِي لَوْ جَمَعْتُ هَؤُلَاءِ عَلَى قَارِيٍّ وَاحِدٍ لَكَانَ أَمْتَلُ فَجَمَعَهُمْ عَلَى أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلَاةِ قَارِيئِهِمْ فَقَالَ عُمَرُ نِعِمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ

وَالَّتِي تَنَامُونَ عَنْهَا أَفْضَلُ مِنْ الَّتِي تَقُومُونَ يَعْنِي آخِرَ اللَّيْلِ وَكَانَ النَّاسُ يُقُومُونَ أَوَّلَهُ"864.

والبدعة بِدْعَتَانِ: (بدعة هُدَى) وكذلك (وبدعة ضلال):
فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله عليه الصلاة والسلام فهو في حَيْزِ الذم والإنكار، وما كان واقعا تحت عُموم ما ندب الله إليه وحضَّ عليه الله أو رسوله فهو في حيز المدح وما لم يكن له مثال موجود كنوع من الجُود والسخاء وفعل المعروف فهو من الأفعال المحمودة ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما وَرَدَ الشرع به لأن النبي عليه الصلاة والسلام قد جعل له في ذلك ثوابا فقال: "(من سنَّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها) وقال في ضده: (ومن سنَّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها)، والحديث كما ورد في الصحيح: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَيْرَ فَاتَّبَعَ عَلَيْهَا فَلَهُ أَجْرُهُ وَمِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً شَرًّا فَاتَّبَعَ عَلَيْهَا كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهُ وَمِثْلُ أُوزَارِ مَنْ اتَّبَعَهُ غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْ أُوزَارِهِمْ شَيْئًا".865 وذلك إذا كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله عليه الصلاة والسلام، ومن هذا النوع قولُ عمر رضي الله عنه: نِعَمَتِ البدعة هذه. لما كانت من أفعال الخير وداخلة في حيز المدح سماها بدعة ومدحها لأن النبي عليه الصلاة والسلام لم يسنَّها لهم وإنما صلاحها ليالي ثم تركها ولم يحافظ عليها ولا جمع الناس لها ولا كانت في زمن أبي بكر وإنما عمر رضي الله عنه جمع الناس عليها وندبهم إليها فبهذا سماها بدعة وهي على الحقيقة سنة لقوله عليه الصلاة والسلام: عَنِ الْعُرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ: "وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ

864 موطأ مالك، ج 1، ص 340

865 سنن الترمذي، ج 9، ص 285

عليه الصلاة والسلام يوماً بعد صلاة العداة موعظةً بليغةً ذرّفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجلٌ إنَّ هذه موعظةٌ مؤدِّعٌ فماذا تعهدُ إلينا يا رسولَ الله قال أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإنَّ عبدٌ حبشيٌّ فإنَّه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالةٌ فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضواً عليها بالنواجذ" 866.

وعلى هذا فيحمل الحديث (كلُّ مُحدثة بدعة) إنما يريد ما خالف أصول الشريعة، وأكثر ما يُستعمل المبتدع عرفاً في الذمِّ والبدعة الحدّث وما ابتدع من الدين بعد الإكمال. فالمبتدع الذي يأتي أمراً على شبه لم يكن ابتدأه سابقه، وبدع في هذا الأمر كان الأول فيه ولم يسبقه فيه أحد.

وعليه فالخليفة هو مبدع أعمال الخير وأفعاله، وهو المجتهد في غير معصية، وهو المضيف لما يحقق موجبات ويترتب عليه حسنات، ويلاقي قبولاً من الآخرين، وبه يتم العمار والإصلاح في الأرض. وعليه فالبدع هو ما أحدث واخترع، وإن كان نافعا ومفيدا فهو ممدوح وإن كان غير ذلك فهو مذموم.

قال تعالى: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرِّسْلِ} 867 أي ما كنت أول من جاء بالرسالة من الله إلى العباد بل تقدمني كثير من الرسل، ويقال: ابتدع فلان بدعة يعني ابتدأ طريقة لم يسبقه إليها سابق، وهذا الأمر بدع، يقال في الشيء المستحسن الذي لا مثال له في الحسن، فكأنه لم يتقدمه ما هو مثله ولا ما يشبهه.

ومن البدع، البدعة في القول:

866 سنن الترمذي، ج 9، ص 287

867 الأحقاف، 9

هذا هو النوع من البدعة من بدع اليهود والنصارى والمشركون هؤلاء أثبتوا الولد لله تعالى، لأن اليهود قالوا: عزيز ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، ومشركو العرب قالوا: الملائكة بنات الله فقال الله: سبحانه فهي كلمة ينزه بها نفسه عما قالوه، فهو المنزه عن ذلك لأنه البديع، سبحانه أن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، والدليل على فساد بدعتهم القولية: إن كل ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته محدث، وكل محدث فهو مخلوق لواجب الوجود، وبيان أن ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته، فلائته لو وجد موجودان واجبان لذاتهما لا شتركا في وجوب الوجود، ولا ممتاز كل واحد منهما عن الآخر، ويلزم تركب كل واحد منهما، وعليه فكل مركب ناقص محتاج إلى كل جزء من أجزائه، وكل جزء من أجزائه من غيره، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره، وكل مفتقر إلى غيره فهو ليس إلهًا.

وعليه، فالمبدع المطلق هو واحد أحد، أي لا يتجزأ أي لا يتركب، صفاته تتعدد وهو واحد أحد لا يتعدد، واحد في مطلقيته، وواحد في قدسيته وعظمته وهيمنته وكبره ورحمته وإلى كل صفة له واحد أحد لم يكن له كفوا أحد ولم تكن له صاحبة ولا الولد. قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} 868. إنه المبدع الحقّ جلّ جلاله، وفي مقابل ذلك يكون المبدع بالإضافة بين متبع حق وبين متبع باطل، فالمتبع للحق هو الصادق به، والمتبع للباطل هو المفترى به. ولهذا كان الافتراء من الذين قالوا عزيز ابن الله، والذين قالوا المسيح ابن الله، والذين سمو الملائكة بنات الله؛ وصدق الذي جاء بالحقّ مبشرا ونذيرا وهاديا للخير وسراجا منيرا.

⁸⁶⁸ الإخلاص 1 . 4 .

إن كان كل واحد مركب يتجزأ إلا الواحد الأحد مطلق لا يتجزأ، ولهذا كل كثرة فلا بدّ فيها من الواحد، فتلك الآحاد إن كانت واجبة لذواتها كانت مركبة كما أثبتنا، وإن كانت ممكنة كان المركب المفتقر إليها أولى بالإمكان، فثبت بهذا البرهان أن كل ما عدا الموجود الواجب ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته فهو محتاج إلى المؤثر، وتأثير ذلك المؤثر فيه إما أن يكون حال عدمه أو حال وجوده، فإن كان الأول فذلك الممكن محدث، وإن كان الثاني فاحتياج ذلك الموجود إلى المؤثر، إما أن يكون حال بقاءه أو حال حدوثه، والأول محال لأنّه يقتضي إيجاد الوجود فتعين الثاني وذلك يقتضي كون ذلك الممكن محدثاً فثبت أن كل ما سوى الله محدث مسبوق بالعدم، وأن وجوده إنما حصل بخلق الله تعالى وإيجاده وإبداعه، فثبت أن كل ما سواه فهو عبده وملكه فيستحيل أن يكون شيء ممّا سواه ولدا له، والأصح أن نقول: (بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) فله كل ما سواه على سبيل الملك والخلق والإيجاد والابداع. فهو (بديع السماوات والأرض) خالقها ومبدعها ومنشئها على غير مثال سبق وعن غير مثال. وهو البديع الذي يبدع الأشياء ويحدثها ممّا لم يكن موجوداً، لأنه (إذا قضى أمراً) قدره في علمه وأراد خلقه (فإنّما يقول له كن فيكون) فإنّما يقول له: (كن) فيكون ذلك الأمر على ما أراد البديع جلت قدرته والله تعالى عالم بكل ما هو كائن وما سيكون قبل تكوينه، وعليه فالأشياء التي لم تكن في الوجود فهي يقينا كانت كائنة ولعلمه يقول لها: كوني ويأمرها بالخروج من غير حال أو عن غير حال، إلى حال الوجود والظهور سواء كانت قابلة للمشاهدة أو قابله للملاحظة فقط أو قابلة للآتين معا.

وبهذا تنقض البدعة الكبرى _ أعني بدعة الكلمة - بالافتراء على الله الكذب، ولسنا الذين وصفنا هذه البدعة بالكبرى، بل الله الذي قال ذلك: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَبَدًا وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِإِبَائِهِمْ كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا } 869.

والمقصود من العالم وإيجاده أن يوجد الإنسان لخلافة الله تعالى في أرضه فيتوصل بالخلافة الحقيقية إلى النعيم الابدي في الآخرة بعد أن يؤدّي رسالته في الأولى كما قال الله تعالى: (إني جاعل في الأرض خليفة). والإنسان الخليفة المخصوص بالكرامة كما قال تعالى: { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } 870. وجعل ما سواه وسيلة له ليصلح الأرض ويبد فيها كما قال تعالى: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا). فليس فضل الإنسان بقوة الجسم، فالفيل والبعير أقوى جسما منه، ولا بطول العمر فالنسر والحية والسلحفاة أطول عمرا منه، ولا بشدة البطش فالأسد والنمر أشد بطشا منه، ولا بالقوة فالبعير والخيول أقوى منه، ولا بكثرة الذهب والفضة والمعادن فالجبال أكثر منه ذهباً وفضةً. ولكن قيمته في عقله وقيمة عقله في حسن استخدامه، وما أحسن قول الشاعر:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم... أدنى إلى شرف من الإنسان

869 الكهف 1، 5

870 الإسراء 70.

وليست القيمة بالعنصر المخلوق منه كما زعم إبليس حيث قال:
(خلقتني من نار وخلقته من طين). بل ذلك بما خصه الله تعالى به،
وهو المعنى الذي ضمنه فيه، والأمر الذي خلقه له (الخلافة..
الخلافة.. الخلافة) فقال الله تعالى: (فإذا سويته ونفخت فيه من
روحي فقعدوا له ساجدين) والملائكة لما نبههم الله تعالى لفضل آدم
تنبهوا فأذعنوا وسجدوا له كما أمروا. وإبليس لما نظر إلى ظاهر آدم
وعنصره تعامى عن أمر الله تعالى، ولم يتأمل المعنى الذي ضمنه الله
تعالى آدم، والعاقبة التي جعلها له (أبى واستكبر) وكانت بدعته في
القول: (أنا خير منه). وقد اقتدى به الكفار في ردّ الأنبياء حيث
قالوا: (ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يريد أن يتفضل عليكم). وقالوا: (ما
لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق)، فالتمييز ليس بظاهر
المباني بل بباطن المعاني، ولهذا ليس المهم أن ننظر في المباني لكن
الأهم أن نبصر المعاني ونستشعر إبداع البديع وندحض بدع
المبتدعين، ولا نكون ممن قيل فيهم: (وتراهم ينظرون إليك وهم لا
يبيصرون)، وهذه مهمة الخليفة المبدع أن يحول الناس من (ينظرون) إلى
(يبيصرون) فتقع أعينهم على دورهم الذي خلقوا من أجله، الإبداع في
إصلاح الأرض، والرد على بدع المبتدعين بالقول والفعل بتوضيح
وبيان الهدف الذي لأجله وجد الإنسان وهو أن يعبد الله ويخلفه
وينصره ويعمر أرضه كما نبّه الله تعالى بآيات في مواضع مختلفة قال
تعالى: (وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون).

وقوله: (إني جاعل في الأرض خليفة).

وقوله: (ليستخلفنهم في الأرض).

وقوله: (ليعلم الله من ينصره ورسله بالغييب).

وقوله: (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله).

وقوله: (استعمركم فيها). وهذا لعلم الله بقيمة الإنسان الذي سيخلفه فقال تعالى: (إني أعلم ما لا تعلمون) وهذا مطلق الابداع الإلهي في علمه بدور الإنسان الخليفة.

ومن البدعة الفعلية: بدعة العبادة التي لم ينزل الله بها من سلطان ومن أمثلة ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما جاء في قوله تعالى: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَقَدْ عَلِمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنَّ اللَّهَ يُقَدِّرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} 871.

فالرهبنة من البدع العملية (ورهبانية ابتدعوها) فهم جاؤوا بها بدعة من عند أنفسهم بخلوتهم في الجبال والكهوف والمغارات والأديرة هربا من الفتنة وكلفوا أنفسهم فوق طاقتهم في العبادة بالزيادة فيها، وترك النكاح وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها لتعمير الأرض واستعمال الخشن في المطعم والمشرب والملبس، وهذا لم يكتبه الله عليهم بل ابتدعوه من عند أنفسهم فيقول الله تعالى: (ما كتبناها عليهم) ما فرضها الله عليهم (إلا ابتغاء رضوان الله) هم ظنوا أنها ترضي الله فابتدعوها ابتغاء رضوان الله (فما رعوها حق رعايتها) فأهملوا ما أحل الله وابتدعوا الرهبانية وبلغ بهم الابتداع بأنهم ضيعوها وزادوا في بدعتهم بالقول بالتثليث والاتحاد وكفروا بدين عيسى عليه الصلاة والسلام ودخلوا في دين ملوكهم، ولما بعث الله النبي محمد عليه الصلاة والسلام فأمن به بعضهم فاتاه الله الأجر الحسن وذلك قوله تعالى: (فاتينا

الذين آمنوا منهم أجرهم) وهم الذين ثبتوا على الدين الصحيح (وكثير منهم فاسقون) وهم الذين ابتدعوا الرهبانية وكفروا بدين عيسى عليه الصلاة والسلام.

وخليفة الاسم البديع هو الذي يعرف أن العبادة التي فيها مشقة وهلاك للنفس لا ترضي الله سبحانه وتعالى فقد قال الله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} 872، وقوله تعالى: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) مع إنَّ الأمانة التي حملها الإنسان كان ظلوما جهولا بعبئها إلا أن الله تعالى كان رءوفا رحيفا بعباده الذين استجابوا لحمل الأمانة ولهذا قال: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) فهذا إخبار من الله تعالى إلى خير الخلق من أصحاب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهم طلبوا من الله ألا يكلفهم مالا يستطيعون من أعمال في العبادة ولأنه رحيم بر فهو لا يكلف نفسا إلا وسعها حتى لا تضيق الأنفس بمشقة العبادة، ولذلك قالوا: (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) فكيف لا نسمع ولا نطيع نحن أمة المصطفى والله تعالى لا يكلفنا إلا ما في وسعنا وطاقتنا، وهذا بحكم الرحمة الألوهية فهو لا يطالبنا إلا بالشيء السهل الهين، فكذلك نحن بحكم العبودية وجب أن نكون سامعين مطيعين فقال من اتبع المنهج السهل الرحيم (عُقْرَانِكَ رَبَّنَا) طلبا للمغفرة فيما يصدر عنهم من وجوه التقصير منهم على سبيل العمد لذلك خفف الله تعالى عنهم ذلك وقال: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) ذلك لو وقع نوع في التقصير على سبيل السهو والغفلة فلا

872 البقرة 285، 286

تكونوا خائفين منه فإن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها، وهذه استجابة لدعائهم في قولهم (عُمْرَانِكَ رَبَّنَا).

ومن سنة النبي صلى الله على وسلم التي ترفض الابتداع وتحث على الابتداع الآتي:

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: "جَاءَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَلَمَّا أُحْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُوهَا فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَا أَنَا فَإِنِّي أَصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا.

وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ.

وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَرِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا.

فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَيْهِمْ فَقَالَ أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَحْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ لِكَيْ أَصُومَ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّيَ وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجَ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي" 873

فهؤلاء مبتدعون وليسوا مبدعين لأن الابتداع في الباطل والابتداع في الحق، والخليفة على هذا مبدع لأنه يريد أن يحق الحق ويطل الباطل باتباع المنهج الذي يحفظ النفس والنسل والزرع.

أما القيام الدائم ليلا بالعبادة لا شك سيكون على حساب نواح أخرى في الحياة ستتعتل بلا ريب من ذلك رعاية الأبناء والقيام بحقوق الزوجة وهلاك للبدن والنفس بتحمل المشاق وهذا لا يرضي الرب دون أدنى شك.

873 صحيح البخاري، ج 15، ص 493

فالصيام الدائم هلاك للجسم وللقوة وعليه توقف لحركة التعمير في الأرض، وهذا يخالف الهدف الذي خلق له الإنسان عبادة وإصلاح، واعتزال النساء توقف لاستمرار النوع البشري وتعطيل فطرة من الفطر التي فطر الله البشر عليه وفي تعطيلها مخالفة لله ووسيلة غير مباشرة لنشر الرذيلة في المجتمع بين النساء، وهذا يخالف المنهج الإصلاحية في خلافة الإنسان لله في الأرض.

وهنا نتذكر شكوى أم الدرداء لسلمان الفارسي من أبي الدرداء لأنه أهمل بسبب المغالاة في العبادة شأن الأسرة التي هي عماد المجتمع.

فقد "آخى النبي عليه الصلاة والسلام بين سلمان وأبي الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبدلة فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال: كل، قال: فإني صائم، قال: ما أنا بأكلي حتى تأكل، قال: فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم فنام ثم ذهب يقوم، فقال: نم فلما كان من آخر الليل، قال: سلمان قم الآن فصلي، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذي حق حقه فَأَتَى النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ صَدَقَ سَلْمَانُ"874.

ومن البدع ترك ما أحل الله ابتداعاً من عند أنفسهم وهذا يظهر في الذين يحرمون اللحم دون إرشاد من طيب، بحجة أنه يقوي الشهوة فيصرف الإنسان عن العبادة إلى النساء ويهمل في العبادة فعن ثابت عن أنس: "أن نفراً من أصحاب النبي عليه الصلاة

874 صحيح البخاري، ج 7، ص 76

والسّلام سألوا أزواج النبي عليه الصّلاة والسّلام عن عمله في السر فقال بعضهم لا أتزوج النساء وقال بعضهم لا آكل اللحم وقال بعضهم لا أنام على فراش، فحمد الله وأثنى عليه فقال ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني"875.

ومن البدع السيئة التي تفسد في الأرض وتؤدّي إلى انهيار الذمم الغش في التجارة وهي بدعة ضالة مضلة لأنها تعتمد على الخداع البصري والكذب في الوقت نفسه لذا فقد نهى النبي عليه الصّلاة والسّلام من الغش لأنه بدعة سوء، فعن أبي هريرة أن رسول الله عليه الصّلاة والسّلام "مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال ما هذا يا صاحب الطعام قال أصابته السماء يا رسول الله قال أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه النّاس من غش فليس مني"876.

ومن البدعة السيئة ترك النكاح وهو سنة الأنبياء فعن السيدة عائشة أم المؤمنين قالت: قال رسول الله عليه الصّلاة والسّلام: "النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني، وتزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم، ومن كان ذا طول فليتكح ومن لم يجد فعليه بالصيام فإن الصوم له وجاء"877.

ولا حجّة أقوى وأظهر في البيان من حجّة القرآن فيقول الله تعالى: { يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ

⁸⁷⁵ صحيح مسلم، ج 7، ص 175

⁸⁷⁶ صحيح مسلم، ج 1، ص 267

⁸⁷⁷ سنن ابن ماجه، ج 5، ص 439

وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ
الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ
مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ
يُنزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ {878} ففي الآية
الأصول والبدع الخارجة عليها.

. فالغش بدعة لأن الأصل الأمانة.

. الكذب بدعة لأن الأصل الصدق.

. التبتل بدعة لأن الأصل الزواج.

. السهر المفرط بدعة لأن الأصل الراحة بعد التعب.

. الصوم المتصل بدعة لأن الأصل شهر رمضان وأيام معدودات.

. إهمال الأسرة بدعة لأن الأصل الرعاية والعناية، فعن ابنِ عُمَرَ

قال: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ

مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ

وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ

رَعِيَّتِهَا وَالْحَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ

قَدْ قَالَ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ

وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" 879

. إهمال الرعية بدعة والأصل القيام على شعوبهم.

. إهمال الرجل لأسرته وأولاده بدعة والأصل الكد والاجتهاد

لسعادتهم.

878 الأعراف 31. 33.

879 صحيح البخاري، ج 3، ص 414

. إهمال المرأة لأسرتها بالإهمال في نفسها وعدم الظهور بالمظهر اللائق أمام زوجها بدعة والأصل الاهتمام بنفسها ومراعاة مشاعر زوجها واحترام مشاعر الآخرين وتقديرها.

. إهمال المرأة في رعاية أبنائها بدعة والأصل السهر على راحتهم وتوفير الطمأنينة لهم بكل مشاعر الأمومة. وهذا يذكرنا بوصية المرأة العربية لابنتها عند زواجها، فقد خطب عمرو بن حجر إلى عوف بن محم الشيباني ابنته أم إياس، فقال: نعم، أزوجه على أن اسمي بنيتها وأزوج بناتها. فقال عمرو بن حجر: أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا، وأما بناتنا فينكحن أكفأهن من الملوك، ولكني أصدقها عقارا في كندة وأمنحها حاجات قومها، لا ترد لأحد منهم حاجة. فقبل ذلك منه أبوها، وأنكحه إياها. فلما كان بناؤه بها خلت بها أمها فقالت: أي بنية، إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت، وعشك الذي فيه درجت، إلى رجل لم تعرفه، وقرين لم تألفه، فكوني له أمة يكن لك عبدا، واحفظي له خصالا عشرا يكن لك ذخرا.

. أما الأولى والثانية: فالخشوع له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة.

. وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لموضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا الطيب ريح.

. وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت منامه وطعامه، فإن تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

- وأما السابعة والثامنة: فالاحتراس بماله، وملاك الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير.

- وأما التاسعة والعاشر: فلا تعصين له أمرا ولا تفشين له سرا، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمني صدره. ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتما، والكآبة بين يديه إذا كان فرحا. فولدت له الحارث بن عمرو، جد امرئ ألقيس الشاعر "880، وهذه النصائح لفطرية أصل ومخالفتها بدعة.

- وإهمال العامل في عمله بدعة والأصل إتقان العمل، والذي يتقن العمل يحبه الله - فإن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "إن الله تبارك وتعالى يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه" 881.

وكل ما يحبه الله فهو إبداع وخلافه بدعة فالله يحب المقسطين لأن العدل هو الأصل والظلم هو البدعة، قال الله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} 882

- الأصل هو الوحدة والتراص صفا واحدا في الحرب والسلام وخلاف ذلك بدعة

فقال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ} 883.

- والإنفاق في سبيل الأصل والإمساك بدعة والإحسان للفقير أصل والإساءة له بدعة. فقال الله تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} 884.

880 العقد الفريد، ج 2، ص 420

881 شعب الإيمان للبيهقي، ج 11، ص 296

882 المتحنة، 8

883 الصف، 4

884 البقرة، 195

- والسمح في البيع والشراء والقضاء أصل والجفاف والغلظة

بدعة

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ

يُحِبُّ سَمْحَ الْبَيْعِ سَمْحَ الشِّرَاءِ سَمْحَ الْقَضَاءِ" (885).

- وتجديد التوبة والطهارة أصل والقنوط من رحمة الله بدعة فقال

الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} (886).

وعلى ما تقدم فإن كل عمل يحبه الله فيه إبداع وإتقان فهو أصل

وكل عمل يغاير ذلك فهو بدعة من المبتدعين حفظنا الله من البدع

وأهلها وشرها واجعلنا يا الله يا مبدع من المبدعين للخير وما يؤدّي إلى

إحسان واجعلنا لذلك أهل وناصرين وللحق محقين وللباطل زاهقين

إنك ربي بك آمنت وعليك توكلت وأوليت أمري وأسرتي وما املك

إليك فحفظك ورحمتك وغناك من الفاقة والحاجة وعفوك من كل

عاهة ومرض وحاجة.

ومن مظاهر الإبداع الإلهي في الكون ما جاء في قوله تعالى: {يَا

أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِمَّنْ

نُطِفَةٍ ثُمَّ مِمَّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِمَّنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي

الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ

وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ

عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ

وَأَنْبَتَتْ مِمَّنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} (887) فهنا يتجلى إبداع الله سبحانه

وتعالى في هذا الجانب من الخلق حيث يخاطب الناس ويدعوهم

⁸⁸⁵ سنن الترمذي، ج 5، ص 148

⁸⁸⁶ البقرة، 222

⁸⁸⁷ الحج، 5

للتفكر في آياته ويضرب لهم المثل في أدق الحقائق التي يلمسونها من أنفسهم والتي لا تدعو عاقل إلى نكران حقيقة ما يقف عليه من إبداع الله الذي فطر كل شيء فأحسن خلقه وهذا مما لا يدع مجالاً للشك من بعث الله للخلائق بعد الموت، فإن كان أحد منكم في ريب من بعثكم ففي خلقكم الدليل على قدرتنا على البعث، فقد خلقنا أصلكم من تراب، ثم جعلنا منه نطفة حولناها بعد مدة إلى قطعة دم متماسكة، ثم جعلناها قطعة من اللحم مصورة فيها معالم الإنسان، أو غير مصورة لنبين لكم قدرتنا على الإبداع والتدرج في التكوين، والتغيير من حال إلى حال، ونسقط من الأرحام ما نشاء، ونقر فيها ما نشاء من ذكر أو أنثى، حتى تكمل مدة الحمل، ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً، ثم نرعاكم لتبلغوا تمام العقل والقوة، ومنكم بعد ذلك من يتوفاه الله، ومنكم من يمد له عمره حتى يصير إلى الهرم والكبر فيتوقف علمه وإدراكه للأشياء، ومن بدأ خلقكم بهذه الصورة لا تعجزه إعادتكم. وأمر آخر يدلنا على قدرة الله على الإبداع وهو أنك ترى الأرض قاحلة يابسة، فإذا أنزلنا عليها الماء دبت فيها الحياة من كل لون وصنف وتحركت وزادت وارتفع سطحها بما تخلله من الماء والهواء، وأظهرت من أصناف النباتات ما يروق منظره، ويبهج حسنه، ويبتهج لمراه، فالمتأمل لهذه الحركة العجيبة من بدايتها التي تنطلق من قطرة الماء التي يسكبها المبدع ويسكنها حبات الرمال فإذا هي بعد ذلك تجعل الأرض تعج بالحياة وتصطبغ بالحركة في عملية إخراج النبات فيكون أشجاراً وأزهاراً ذا ألوان تخلق الأبواب يأتي أعظم الفنانين في الرسم ليحاكي الصور التي أبدعها المبدع العظيم، فإذا أردنا أن نقف على عظمة البديع في هذا الجانب فلننظر إلى الصحراء بعد أن يصيبها المطر ما الذي يحدث فيها وكيف يتلاشى السراب وتتبدل

صورتها وتدب فيها الحياة من مختلف الأنواع عندما تنتشر الغدران ويتماس النبات فيكون ذلك مسرحاً لإبداعات الله الأخرى من الحيوانات والطيور والزواحف والفراشات، لذلك ضرب الله مثل إبداعه هذا بالأعمال الصالحة التي يسر مرآها عيون الناظرين حيث قال الله تعالى: { وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بَرِيَّةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْ أُكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } 888 فشبه الأعمال الصالحة والإنفاق في سبيل الله بأرض خصبة مرتفعة يفيدته كثير الماء وقليله، فإن أصابه مطر غزير أثمر مثلين، وإن لم يصبه المطر الكثير بل القليل فإنه يكفي لإثماره لجودة الأرض وطبيعتها، فهو مثمر في الحالتين، وما هذا إلا لما في الحقائق والبساتين من عجائب الإبداع والدلالة على هذه القدرة وهي قدرة الخالق عز وجل الذي يتجلى إبداعه فيها، فصفة المبدع لا تقتصر على جانب دون غيره، وعلى الرغم من ورود لفظة المبدع في القرآن الكريم مرتين فقط، إلا أننا نقف على هذه الصفة الجليلة من أسماء الله الحسنى في أنفسنا وفي كل ما حولنا، فلا تكاد تلتفت إلى شيء أو تقع عينك على شيء إلا وتتجلى لك هذه الصفة فيما تفكر أو فيما ترى مما أودع المبدع صدور صنوف سائر المخلوقات من الحيوان، من أنواع المعارف، وفطرها عليه من غريب الطباع والسجايا، وسخر لحنجرها من ضروب النغم الموزونة، والأصوات الملحنة، والمخارج الشجية، والأغاني المطربة، فقد يقال إن جميع أصواتها معدلة، وموزونة موقعة، ثم الذي سهل لها من الرفق العجيب في إبداع الصنعة، مما ذلل الله تعالى لمناقيرها وأكفها، وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هيا لها من الصوت واللسان

الصغير والحنجرة التي ترى بالكاد، وكيف أعطى كثيرا منها من الحس اللطيف، والصنعة البديعة، من غير تعليم وتدريب، ومن غير تقويم وتلقين، فبلغت بعفويتها وبمقدار قوة فطرتها، من البديهة والارتجال، ومن الابتداء والاقتضاب، ما لا يقدر عليه حذاق رجال الرأي، وفلاسفة علماء البشر، لا بيد ولا آلة، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملهم خصالا وأتمهم خلالا، لا من جهة القصد ولا من جهة المصادفة، ولا من جهة التقدم فيه، والتأني به، والتأني له، والترتيب لمقدماته، وتمكين الأسباب المعينة عليه، فصار جهد الإنسان الثاقب الحس، الجامع القوى، المتصرف في الوجوه، المقدم في الأمور، يعجز عن عفو كثير منها، وهو ينظر إلى ضروب ما يجيء منها، كما أعطيت العنكبوت قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ 889 فبيت العنكبوت أوهن وأضعف بناء بناء مخلوق، ومع هذا فقد كان أعظم حاجز ومانع، أمام كفار قريش حتى لا يصلوا إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فأبي إبداع هذا الذي أودعه الله تعالى في مخلوقاته.

ومن عجائب إبداعه جل شأنه هذه الحشرة الصغيرة في الحجم التي تحمل قدرا من السم تدافع به عن نفسها وعن مسكنها، والعظيمة في الفائدة ألا وهي حشرة النحل التي ذكرها الله تعالى في محكم التنزيل بقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَأَيَّةٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} 890 فقد ألهم الله النحل أسباب حياتها، ووسائل معيشتها، بأن تتخذ من الجبال بيوتا في كهوفها، ومن فجوات الشجر، ومن عرائش المنازل والكروم بيوتا، كذلك ألهمها وألقى في روعها وعلمها بوجه لا يعلمه إلا اللطيف الخبير البديع ما يجب عليها أن تفعله، فأوحى إليها بتسخيرها لما أريد منها، وكيف أن الملكة من النحل هي الوحيدة التي تضع البيض، وسائر النحل قائم على خدمتها، وكيف ألهمت أن تبني البيوت على شكل سداسي من أضلاع متساوية مستقيمة، والبشر لا يمكنهم ذلك إلا بآلات مثل المسطرة والفرجار، ولماذا تختار هذا الشكل على غيره من البيوت المشكلة بأشكال أخرى كالمثلثات والمربعات والمخمسات وغيرها، وفي ذلك سر من عجائب الابداع حيث ثبت في علم الهندسة أنها لو كانت مشكلة بأشكال أخرى يبقى فيما بينها بالضرورة فراغات خالية ضائعة، ولها من الأحوال والعجائب أشياء كثيرة، فسبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ومن بديع المعرفة ومن غريب الصنعة، في غير النحل من أصناف الخلق الشيء الكثير، فنحن نعلم أن النملة تدخر للشتاء في فصل الصيف ما يمكنها من العيش، ولا تضيع أوقات إمكان الحزم، ثم يبلغ من تفقدها وحسن خبرها والنظر في عواقب أمرها، أنها تخاف على الحبوب التي ادخرتها للشتاء في الصيف، أن يصيبها العفن أو السوس، فتخرجها من بطن الأرض إلى ظهرها، لتيسرها وتعيد إليها جفافها، وليضربها النسيم، وينفى عنها الفساد، ثم إذا كان مكانها نديا وخافت أن تنبت نقرت موضع النواة من وسط الحبة، وتعلم أنها من ذلك الموضع تبتدئ وتنبت وتنقل، فهي تفلق الحب كله أنصافا، فأما إذا كان الحب من حب الكزبرة،

⁸⁹⁰ النحل 68، 69

فلقته أرباعا، لأن أنصاف حب الكزبرة ينبت من بين جميع الحبوب، فهي على هذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوان، والمخلوق الوحيد الذي يحمل قدر وزنه خمسين ضعفا، فأية قدرة هذه التي أبدعت هذا الخلق وأوحت إليه أن يفعل هذا الأمر ولا يفعل ذلك الأمر، إنه المبدع الخلاق العظيم.

فياله من إبداع لا يقدر عليه إلا البديع فصدق الله العلي العظيم إذ قال: { تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ } 891.

فالله أمر بتكرار البصر في خلقه البديع على سبيل التصفح والتتبع، فهل يجد المتأمل لأبداع البديع في إبداعه لخلقه عيبا وخللا، وإذا كرر النظر ملايين المرات لم يرجع البصر بملاحظة أدنى خلل أو عيب، بل يرجع النظر إلى الذي يبحث عن خلل في إبداع البديع خاسئا مبعدا حاقنا مغیظا ضعيفا لأنه أتعب نفسه دون فائدة.

الحمد لله أولا وآخرا وأزكى صلاة وتسليما على النبي الخاتم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والحمد لله إننا عباد المبدع الذي يمدنا بالخيرات كيفما نتوقع وكيفما لا نتوقع، إنه المبدع المطلق الذي لا يتعب ولا يكل ولا يمل ولا يضعف، ولا يعجز ولا تأخذه سنة ولا نوم إنّه ربّي المهيمن البديع جلّ جلاله.

صفات نوح:

من صفاته الخاصّة أنّه كان معمرًا، وفوق هذه صفات كثيرة كما

سبق وأن بيّنا ذلك، فهو:

- 1 . موحى إليه.
- 2 . مستخلف في الأرض.
- 3 . مبتلي.
- 4 . مُحْطَبٌ.
- 5 . ساخر من السّاحرين.
- 6 . منذر.
- 7 . عطوف.
- 8 . مستغفر وأمر بالاستغفار.
- 9 . متحدّي الصّعاب.
- 10 . منقذ.
- 11 . صاحب السّلام والبركات.
- 12 . صبور.
- 13 . أمين.
- 14 . داعٍ.
- 15 . مبین.
- 16 . مؤمن.
- 17 . نبي ميثاق.
- 18 . صادق.
- 19 . مجاب السّؤال.
- 20 . ناجي من الكرب.
- 21 . منتصر.
- 22 . صالح ومصلح.

23 . 30 . بديع الفلك.

24 . مجادل، وَقَالَ قَوْم نوح: { قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ
شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ
إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ
قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ } 892

25 . شكور، عَنْ سَعْدِ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ، قَالَ: "كَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ
السَّلَامُ إِذَا لَبَسَ ثَوْبًا أَوْ أَكَلَ طَعَامًا حَمَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَسُمِّيَ عَبْدًا
شَكُورًا" 893. وعن هِشَامِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ
الْقُرْظِيَّ، قَالَ: كَانَ " نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِذَا أَكَلَ، قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ،
وَإِذَا شَرِبَ، قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَإِذَا لَبَسَ، قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَإِذَا رَكِبَ
قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَسَمَّاهُ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا" 894.

26 . منعم عليه، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: " مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ السَّمَاءِ كَفًّا مِنْ
مَاءٍ إِلَّا بِمَكِّيَالٍ، وَلَا سَفَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَفًّا مِنْ رِيحٍ إِلَّا بِوَزْنٍ وَمَكِّيَالٍ،
إِلَّا يَوْمَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ طَعَى الْمَاءَ عَلَى الْخُزَّانِ 895، قَالَ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ: { إِنَّا لَمَّا طَعَى الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } 896، وَيَوْمَ عَادٍ
فَإِنَّهُ عَنَّتِ الرِّيحُ عَلَى الْخُزَّانِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { بِرِيحٍ صَرْصَرٍ
عَاتِيَةٍ } 897.

892 هود 32 . 35.

893 الدعاء للطبراني، ص، 143.

894 شعب الإيمان، 6، 270.

895 العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني، 4، 1253.

896 الحاقّة 11.

897 الحاقّة 6.

27 . سائل المغفرة متصدق: عَنْ جَعْفَرِ بْنِ بُرْقَانَ، قَالَ: أَنَا
 كِتَابُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: قَالَ: "تَصَدَّقُوا قَبْلَ الصَّلَاةِ {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ
 تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} 898، وَقُولُوا كَمَا قَالَ أَبُوكُمْ آدَمُ: {رَبَّنَا
 ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا} 899، وَقُولُوا كَمَا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: {وَالَا تَغْفِرْ
 لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 900. وَقُولُوا كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ: {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} 901، وَقُولُوا
 كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي
 فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ} 902، وَقُولُوا كَمَا قَالَ ذُو النُّونِ: {لَا
 إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} 903، وَأَرَاهُ كَتَبَ مَنْ
 لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَلْيَصُمْ 904.

28 . صائم الدهر، عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ
 اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يَقُولُ: «صَامَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ الدَّهْرَ، إِلَّا
 يَوْمَ الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى. وَصَامَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نِصْفَ الدَّهْرِ. وَصَامَ
 إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، صَامَ الدَّهْرَ، وَأَفْطَرَ
 الدَّهْرَ» 905.

29 . متبين، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: " مَرَّ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْأَسَدِ
 فَضْرَبَهُ بِرِجْلِهِ فَحَمَشَهُ الْأَسَدُ، فَبَاتَ سَاهِرًا، فَشَكَا نُوحٌ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ

898 الأعلى 15.

899 الأعراف 23.

900 هود 47.

901 الشعراء 82.

902 القصص 16.

903 الأنبياء 87.

904 فضائل الأوقات للبيهقي، ص، 307.

905 المعجم الكبير للطبراني، 13، 54.

عَزَّ وَجَلَّ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنِّي لَا أُحِبُّ الظُّلْمَ"906. وَعَنْ وَهْبٍ، قَالَ: "لَمَّا أَمَرَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَحْمِلَ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ قَالَ: رَبِّ، كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْأَسَدِ وَالْبَقْرَةِ، وَكَيْفَ أَصْنَعُ بِالْعَنَاقِ وَالذِّئْبِ، وَكَيْفَ أَصْنَعُ بِالْحَمَامِ وَالْهَرِّ؟ قَالَ: مَنْ أَلْقَى بَيْنَهُمَا الْعَدَاوَةَ؟ قَالَ: أَنْتَ. قَالَ: فَإِنِّي أُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ حَتَّى لَا يَتَضَرَّرُونَ"907.

30. أَجْمَلُ أَهْلِ زَمَانِهِ، عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، قَالَ: "كَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَجْمَلِ أَهْلِ زَمَانِهِ، قَالَ: وَكَانَ يَلْبَسُ الْبُرُوعَ، قَالَ: فَأَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ فِي السَّفِينَةِ، فَكَانَ نُوحٌ إِذَا تَجَلَّى لَهُمْ بِوَجْهِهِ شَبِعُوا"908. والحمد لله رب العالمين.

⁹⁰⁶ شعب الإيمان، 9، 545.

⁹⁰⁷ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 4، 43.

⁹⁰⁸ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 4، 67.